كتاب

احذر من الكفر الخفي

بحث منهجي في إطار القرآن والسنة

د. حسني البشبيشي

حقوق الطبع والنشر غير محفوظة

****

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ، أما بعد :

ـ قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ((فَمِنْ شَرْطِ الْإِيمَانِ وُجُودُ الْعِلْمِ التَّامِّ))[1] والعلم التام هو العلم الذي يؤدي إلى (عمل القلب) و(الهدف)[2] وكلاهما أيضا شرطين في الإيمان .

(1) مجموع الفتاوى (7/ 538)
(2) والأدلة على ذلك بالفصلين 16 ، 10

ـ فقد يحسب الإنسان أنه يعرف الله ويحبه ويعيش له ، وفي الحقيقة هو لا يعرف الله ولا يحب إلا الدنيا ولا يعيش إلا للدنيا ، فهذه ثلاثة أنواع من الكفر الخفي هي كفر الإعراض عن المعرفة التامة وعبادة الدنيا وشرك الإرادة .

ـ وهذه الأنواع الثلاثة هي كفر يتعلق بالمعرفة التامة والمشاعر والهدف ، وبالتالي فهي كفر يحدث في القلب وليس في الظاهر ، وبالتالي لو وقع الإنسان في جميع هذه الأنواع من الكفر فهو عند الناس مسلم لا يؤثر ذلك في الحكم بإسلامه ولا يشك أحد في إسلامه لأنه لا يعلم ذلك إلا الله والإنسان في نفسه رغم أنه يكون مخلدا في النار في الآخرة ، وبالتالي فهذا الكتاب ليس له أي علاقة لا من قريب ولا من بعيد في الحكم على أحد من الناس ، فكل من يقول لا إله إلا الله فاشهد له بالإسلام .

ـ وهذه الأمور الثلاثة تتعلق ببعضها البعض وتحدث معا ، فالإنسان لو عرف الله لأحبه وعاش له ، ولو أعرض عن معرفة الله لأحب الدنيا وعاش لها لأنه عندئذ ليس أمامه غير الدنيا .

ـ البعض يتعامل مع الدين على أنه عبارة عن يقين وأعمال جوارح فقط ، ولا يعلم هؤلاء أن هناك ثلاثة أشياء قلبية يجب تحقيقها وبدونها لا يدخل الإنسان الجنة وهي المعرفة التامة وعمل القلب (تعلق المشاعر بالله والآخرة) والهدف (أن يعيش من أجل رضا الله والجنة) .

ـ الغرض من الكتاب هو بيان أن هناك أمور تتعلق بمعرفة الله والصلة الروحية بالله قد يحسبها البعض مجرد رقائق ومواعظ رغم أن غيابها يؤدي إلى الخلود في النار ، وأيضا بيان أن الإنسان قد يكون مسلما في الدنيا لا يشك أحد في إسلامه عند جميع الناس لكنه يكون في الآخرة من أهل النار لوقوعه في أحد هذه الأمور الثلاثة ، وقد راعينا في هذه المسائل الدقة في الالتزام بمنهج أهل السنة والجماعة والأدلة القاطعة من القرآن والسنة الصحيحة وأقوال العلماء والسلف الصالح .

ـ أخطر قضية في الدين هي أن يعيش الإنسان في غيبوبة ثم يفيق بعد أن يموت ويكتشف أنه كان غافلا ، فالغفلة هي سبب وقوع الإنسان في هذه الأنواع الثلاثة من الكفر الخفي ، ففي هذا الكتاب نبين حقيقة الغفلة التي يعيشها أهل الدنيا ونبين خطرها وكيفية النجاة منها .

ـ والمادة العلمية في هذا الكتاب مستقاة من نصوص القرآن والسنة الصحيحة المحققة ومن خلال كتب التفسير وأقوال العلماء خاصة شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم والسلف الصالح وأمهات كتب التراث ، وجميع ذلك محققا وفي شكل منهجي ذو عناصر محددة واضحة وفي إطار منهج أهل السنة والجماعة ، وأكثر النصوص مستقاة من موقع المكتبة الشاملة على الإنترنت ، جزي الله خيرا القائمين عليها خير الجزاء .

والله المستعان وعليه التكلان

****

الفصل الأول

الأنواع الثلاثة من الكفر الخفي

ـ فكرة الكتاب نشأت من قول شيخ الإسلام ابن تيمية في (مجموع الفتاوى) : ((فَمِنْ شَرْطِ الْإِيمَانِ وُجُودُ الْعِلْمِ التَّامِّ))[3] .

ـ فالعلم التام هو علم يجب أن نتعلمه ونعلمه للناس ، ويجب أن نتعلم الوسيلة التي تؤدي إليه وهي طريقة معينة من التذكير بالله والآخرة بغرض إيجاد الوعي الذي يتحقق به العلم التام[4] والذي يؤدي إلى تعلق المشاعر والهدف بالله والآخرة ، وهذا هو موضوع الكتاب .

ـ والعلم التام هو العلم الذي يؤدي إلى عمل القلب (كالحب والذل والخوف والرجاء) وهو الذي يجعل هدف الإنسان الآخرة ، وعمل القلب والهدف كلاهما أيضا شرطين في الإيمان ، فهذه ثلاثة شروط للإيمان نذكرها في هذا الكتاب ، والمشكلة أن هذه الأمور الثلاثة قد تكون غائبة والإنسان لا يدري ويحسب أنه من المهتدين ، لذلك اخترنا اسم هذا الكتاب (احذر من الكفر الخفي) .

ـ وعبارة (العلم التام) جعلت العلم نوعين هما علم تام (حقيقي) وعلم نظري ، وكذلك المعرفة واليقين أصبحت نوعين تام (حقيقي) ونظري ، واليقين النظري هو يقين يصح به الاعتقاد لكن لابد من وجود اليقين الحقيقي الذي ينشأ عنه عمل القلب وهو الذي يجعل هدف الإنسان الآخرة .

ـ هناك ثلاثة وظائف أساسية في الإنسان وهي المعرفة والمشاعر والهدف ، فالإنسان يعرف الأمر أولا وبناءا عليه تتأثر مشاعره ، وينشأ من المشاعر أن يحدد هدفه .

ـ فالإنسان يعرف الله والآخرة ويؤدي ذلك إلى حب الله والذل له وخوفه ورجاءه ، فيؤدي ذلك أن يجعل هدفه أن يعيش لله حبا وذلا وخوفا ورجاءا .

ـ فهناك كفر يتعلق بالمعرفة وكفر يتعلق بالمشاعر وكفر يتعلق بالهدف .

(3) مجموع الفتاوى (7/ 538)
(4) أنظر الفصل السابع عشر

ـ الكفر المتعلق بالمعرفة هو كفر إعراض عن المعرفة ، والكفر المتعلق بمشاعر الإنسان هو عبادة الدنيا (عدم تأثر مشاعر الإنسان بالله والآخرة وتعلقها بالدنيا) ، والكفر المتعلق بالهدف هو شرك الإرادة .

ـ هذه الأمور تحدث معا ، ولكن الترتيب على صورتين :

1ـ إما أن يعرف الإنسان الله والآخرة أولا فيؤدي ذلك إلى أن يحدد هدفه وتتأثر مشاعره ، وهذا هو الترتيب الصحيح عند الإنسان العاقل .

2ـ أو يحدد هدفه أولا فيجعله للدنيا وبناءا عليه يقوم بإلغاء معرفته بالله والآخرة وبالتالي لا تتعلق مشاعره إلا بالدنيا (فيقع في الأنواع الثلاثة من الكفر الخفي) .

ـ فأصل القضية التي يحتاجها الإنسان في حياته هي معرفة الله تعالى ، لأنه لو عرف الله فإنه تلقائيا سوف يجعل هدفه الآخرة كما أن مشاعره سوف تتأثر تلقائيا بالله والآخرة .

ـ وسبب غياب المعرفة هو الغفلة ، ومعنى الغفلة عدم الانتباه واليقظة وفقدان الوعي .

ـ ولكي يخرج الإنسان من الغفلة يحتاج إلى تكرار التذكير بالله والآخرة حتى يتذكر .

ـ ارتباط المعرفة التامة والمشاعر والهدف ببعضهم البعض :

ـ المعرفة التامة هي المعرفة التي تؤدي إلى المشاعر والهدف ، وغياب المشاعر أو الهدف معناه غياب المعرفة التامة .

ـ غياب المعرفة التامة معناه عبادة الدنيا وشرك الإرادة وغياب عمل القلب[5] ، وكل ذلك شرك قلبي يخلد في النار .

ـ فغياب المعرفة التامة بالله والآخرة يؤدي إلى معرفة كاذبة بعظمة الدنيا لأنه لا يرى غيرها فيؤدي ذلك إلى تعلق المشاعر والهدف بالدنيا ، وهذا هو عبادة الدنيا .

ـ شرح معنى الأنواع الثلاثة من الكفر الخفي والأدلة عليهم :

ـ أولا : كفر الإعراض عن المعرفة التامة :

1 ـ مفهوم المعرفة التامة (الفصل الثاني) .

2 ـ مفهوم كفر الإعراض عن المعرفة التامة (الفصل الخامس) .

3 ـ الأدلة على كفر الإعراض عن المعرفة التامة (الفصل السادس) .

4 ـ أمثلة تبين مفهوم المعرفة التامة : الفصول من 21 إلى 30 هي بيان لذلك .

ـ ثانيا : عبادة الدنيا :

(5) عمل القلب هو تأثر المشاعر بالله حبا وذلا وخوفا ورجاءا .

1 ـ مفهوم عبادة الدنيا والأدلة عليه (الفصل الثامن) .

2 ـ ويدخل في الأدلة على عبادة الدنيا الأدلة على شرك الإرادة (الفصل العاشر) والأدلة على أن عمل القلب شرط في الإيمان (الفصل السادس عشر) .

ـ ثالثا : شرك الإرادة :

ـ مفهوم شرك الإرادة والأدلة عليه (الفصل العاشر) ومفهوم الهدف الكاذب والهدف الحقيقي (الفصل الحادي عشر والثاني عشر) .

ـ كيف يكتشف الإنسان وجود الأنواع الثلاثة من الكفر الخفي في نفسه ؟ :

ـ كل إنسان يظن في نفسه أنه يعرف الله والآخرة وأنه يحب الله ويخافه ويرجوه وأنه يعيش للآخرة ، ويمكن اكتشاف الحقيقة كالتالي :

1 ـ ادعاء وجود المشاعر المتعلقة بالله والآخرة :

ـ حتى يكتشف الإنسان حقيقة مشاعره أوضحنا شرح معاني المشاعر وأوضحنا الحالة النفسية المميزة لكل شعور من المشاعر كما قارنا بين المشاعر المتعلقة بالله والمشاعر المتعلقة بالدنيا ليتبين أيهما شعور حقيقي ، مثل المقارنة بين حب الله وحب المال والخوف من آلام الدنيا والخوف من الله تعالى وهكذا ، وذلك بالفصول الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر .

2 ـ ادعاء وجود الهدف :

ـ حتى يكتشف الإنسان حقيقة هدفه أوضحنا مفهوم الهدف الكاذب والهدف الحقيقي بالفصلين الحادي عشر والثاني عشر .

3 ـ ادعاء وجود المعرفة التامة : يدل عليه غياب الهدف وغياب المشاعر المتعلقة بالله والآخرة ويدل عليه أيضا غياب خوف المهابة (عنصر الوعي) .

ـ الوسيلة التي تؤدي إلى إيجاد أو غياب المعرفة التامة :

ـ وهي أدوات المعرفة والتذكير ، وأوضحنا وظيفتها ومعنى إغلاقها (الفصل السابع عشر والثامن عشر) .

ـ أساس ابتعاد الناس عن دعوة الرسل هو تجاهل دعوتهم من خلال إغلاق أدوات المعرفة والتذكير لأنهم لو عرفوا الله والآخرة معرفة حقيقية لآمنوا واهتدوا ، لذلك أوضحنا الأدلة على تعامل الناس مع الرسل بطريقة إغلاق أدوات المعرفة والتذكير وذلك بالفصل التاسع عشر والعشرون .

ـ العنصر المفقود في المعرفة التامة :

ـ وهو الغفلة (غياب الوعي) وشرحنا ذلك بالتفصيل بالفصل الرابع .

فهذا بيان لما في الكتاب والله المستعان وعليه التكلان

****

الفصل الثاني

الجهل نوعين

ـ هناك قاعدة فطرية هي أن الإنسان إذا عرف أمرا ما مؤثرا فإنه يتأثر به ، فإذا عرف أمرا مخيفا فإنه يخافه ، وإذا عرف أمرا ممتعا فإنه يشتاق إليه وهكذا .

ـ فإذا عرف الإنسان أمرا ما مؤثرا ولم يتأثر به دل ذلك على وجود خلل في المعرفة ، ولا تزال معرفته لم تتم حتى يتحقق تأثره بالأمر ، فإذا تأثر بالأمر فإن معرفته بالأمر قد تمت ، فالمعرفة عندئذ تسمى معرفة تامة أي تمت وتحققت فهي معرفة حقيقية .

ـ والخلل الذي جعل المعرفة لم تؤدي أثرها هو غياب عنصر الوعي ، أي هو لا يعي خطورة ما يعرفه .

ـ الجهل له حالتين هما :

1ـ إذا لم يسمع عن الأمر أو لم يفهمه فهو جاهل به .

2ـ إذا سمع عن الأمر وفهمه ولكن لم يعيه أو لم يتأثر به (إذا كان أمرا مؤثرا) ، فهو قد حقق جزء من المعرفة يسمى بالمعرفة النظرية لكن لا تزال معرفته لم تتم ولا يزال جاهلا بالأمر ، وهذا ما سوف نوضحه من خلال هذا الكتاب .

ـ مفهوم المعرفة الحقيقية (المعرفة التامة) :

ـ قد يقول الإنسان أنه يعرف الله ويعرف الآخرة وفي الحقيقة هو غير واع لما يقول ، لأنه لو عرف من هو الله وما هي الآخرة لتغيرت كل مشاعره وهمومه وأعماله بزاوية مائة وثمانين درجة ، إذن نحن نحتاج أن نعرف ما هو مفهوم المعرفة الحقيقية .

ـ يمكن أن نحدد معنى المعرفة الحقيقية بطريقتين ، الطريقة الأولى بمعرفة عناصرها ، والطريقة الثانية بمعرفة أثرها ، كالتالي :

1ـ مفهوم المعرفة الحقيقية من خلال عناصرها :

ـ إذا لم يسمع الإنسان ما تقوله له فهو لا يعرف ، وإذا سمع ولم يفهم ما تقوله له فهو لا يعرف ، وإذا سمع وفهم ولكن لم ينتبه ويعي خطورة ما تقوله له (الغفلة) فهو لا يزال لا يعرف .

ـ فالمعرفة لها ثلاثة شروط هي : السماع ـ والفهم ـ والوعي .

ـ إذا لم تصل دعوة الرسل إلى الناس من خلال هذه الشروط الثلاثة فهو غير مكلف لأنه لا يعرف ما دعت إليه الرسل .

ـ لكن إذا تعمد الإنسان ألا يسمع أو ألا يفهم أو ألا ينتبه ويعي خطورة ما دعت إليه الرسل فهو مكلف غير معذور بجهله ، وهذا يسمى كفر إعراض لأنه أعرض عن معرفة الأمر متعمدا .

ـ غياب عنصر الوعي (الغفلة) يجعل المعرفة نظرية فقط ويجعل اليقين نظري فقط

المعرفة النظرية + الوعي = المعرفة الحقيقية (المعرفة التامة) .

اليقين النظري + الوعي = اليقين الحقيقي (اليقين التام) .

ـ اليقين النظري هو يقين يصح به الاعتقاد لكنه بدون الوعي هو يقين لا معنى له ، فالله يريد منا اليقين التام .

ـ فالمعرفة بأي شيء لكي تكون معرفة تامة لابد لها من ثلاثة شروط وهي سماع المعلومة وفهمها والوعي بها ، فإذا سمعها وفهمها ولم يعيها لم تتم المعرفة بها فكأنه لم يعرفها .

ـ ومعنى عدم الوعي بها أي الغفلة عنها وعدم الانتباه لها وفقدان الوعي بها .

ـ الأدلة على غياب المعرفة التامة بسبب الغفلة :

1ـ عبارة (المعرفة التامة) معناها المعرفة الواعية فيقول تعالى : ((وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ))[6] ومعنى الآية أنه ينبغي على الإنسان أن يعي ما يسمعه ويعلمه وأن مجرد السماع والعلم النظري لا يكفي ، وفي تفسير الزمخشري : (({ إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ } لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أي قلب واع ، لأنّ من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له ، وإلقاء السمع : الإصغاء ، وَهُوَ شَهِيدٌ أي حاضر بفطنته ، لأنّ من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب))[7] .

(6) الحاقة : 12
(7) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (4/ 391)

2ـ ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ((وَالْغَفْلَةُ هِيَ ضِدُّ الْعِلْمِ التَّامِّ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ ضِدًّا لِأَصْلِ الْعِلْمِ))[8] .

3ـ دليل من الفطرة فالذي لا يعي ما يعرفه هو في حقيقة الأمر لا يعرف ذلك الأمر .

2ـ مفهوم المعرفة الحقيقية من خلال أثرها :

ـ المعرفة بأي أمر خطير يؤدي بالضرورة إلى ثلاثة أمور هي مشاعر وهدف وعمل ، غياب المشاعر أو الهدف معناه غياب المعرفة الحقيقية ، وغياب العمل معناه غياب أو ضعف المعرفة الحقيقية ، ونوضح ذلك كالتالي :

ـ المعرفة بأي أمر خطير يؤدي بالضرورة إلى تأثر المشاعر ، وهذا أمر فطري ، فالذي يرى الأسد ويوقن تماما بأنه أسد فإنه يخاف منه ، والذي يرى شيئا جميلا فإنه يحبه ، والذي يقف عند ملك من ملوك الدنيا فإنه يخاف من مهابته ، ومن عرف الكريم أحبه ورجا عطاءه وهكذا .

ـ الطبيعي والفطري في الإنسان السليم هو أنه إذا عرف الله تأثرت مشاعره به حبا وذلا وخوفا ورجاءا وتحركت جوارحه طلبا لرضاه ، واذا عرف بوجود الآخرة تأثرت مشاعره بها تهيبا وخوفا ورجاءا وتحركت جوارحه طلبا للنجاة .

ـ ولكن إذا لم يحدث هذا التأثر فالمعرفة الحقيقية غير موجودة .

ـ غياب المعرفة بالله والآخرة يؤدي إلى عدم تأثر مشاعر الإنسان بالله والآخرة ، وتأثر مشاعر الإنسان بالله والآخرة يسمى عمل القلب وهو الحب والخوف والرجاء والخشوع والذل والتوكل ، لذلك فطالما أن عمل القلب لم يتحقق فهذا معناه أن الإنسان لا يزال معرضا عن معرفة الله والآخرة ، لذلك يمكن تعريف غياب المعرفة بغياب أثرها وهو عمل القلب ، فمن عرف الله أحبه وخافه ، ومن لم يحبه ويخافه لم يعرفه .

ـ الآخرة معناها أنها مستقبل الإنسان وحياته ، فإذا كان هدف الإنسان المال والدنيا فهو لا يزال لم يعرف الآخرة معرفة حقيقية .

ـ إذا كان الإنسان يسير في اتجاه المعاصي والشهوات فهو إما أنه لا يزال لم يعرف الآخرة معرفة حقيقية أو أن معرفته ضعيفة .

ـ العبادة هي أثر المعرفة على القلب والجوارح ، فالله يريد منا أثر المعرفة (العبادة) وليس مجرد المعرفة ذاتها ، فإذا لم تتحقق العبادة فذلك يرجع إلى غياب المعرفة .

ـ الفائدة من معرفة أي شيء هو ما ينشأ عنها من تأثير على القلب والجوارح ، لذلك فالله لا يريد منا المعرفة التي تؤدي أثرها .

(8) مجموع الفتاوى (3/ 329)

ـ عدم تأثر المشاعر بأمر خطير دليل على عدم المعرفة به :

ـ أي أمر هام وخطير ومؤثر لابد وبالضرورة أن تتأثر به المشاعر ، فإذا لم تتأثر المشاعر فهذا يدل على عدم المعرفة بالأمر أو أن هذه المعرفة بها خلل فهي معرفة فاسدة كاذبة وهي معرفة نظرية فقط ليس لها معنى .

ـ فالشيء الذي لا تخافه ولا ترجوه ولا تحبه ولا تكرهه ولا تشعر تجاهه بأي شيء هو إما شيء لا قيمة له أو أنك لا تعرفه أو معرفتك به فاسدة ، فكذلك عدم الشعور بأي شيء تجاه الغيبيات معناه غياب المعرفة الحقيقية بالغيبيات .

ـ فالإنسان الذي لا يشعر إطلاقا بألم الخوف من مهابة النار أو بلذة الشوق إلى الجنة هو في حقيقة أمره لا يعرف شيء اسمه النار ولا شيء اسمه الجنة ، فهي في مشاعره أمور مثل الأمور التي لا تنفع ولا تضر فيقتنع بها فقط نظريا وليس يشعر بها ، فهو بذلك قد سلب خاصية الألم من النار وخاصية اللذة من الجنة فأصبحت أمور نظرية لا قيمة لها ، وكذلك إذا لم يشعر إطلاقا بشيء من ألم الخوف من مهابة الله أو شيء من لذة الحب لله فهو لا يعرف ماذا تعني كلمة (الخالق) ، وإن كانت كلمات (الخالق) و(النار) و(الجنة) موجودة في الاقتناع واليقين لكنه يقين نظري ، وهي غير موجودة في شعور الإنسان ولا تتأثر بها مشاعره وهمومه وأهدافه وأمانيه وعمله .

ـ المعرفة النظرية واليقين النظري لا ينشأ عنه أي أثر :

ـ الذي يعرف الله نظريا فقط هو تماما مثل الذي لم يسمع عن الله مطلقا ، والذي يوقن بالله نظريا فقط هو أيضا مثل الذي لم يسمع عن الله مطلقا ، فلا تتأثر مشاعره ولا عمله بالأمر .

ـ فالعلاقة بين الآخرة والذي يوقن بها نظريا فقط مثل العلاقة بين الآخرة والذي لم يسمع عن شيء اسمه الآخرة .

ـ فالمشاعر كالحب والخوف والرجاء تنشأ من المعرفة التامة واليقين التام .

ـ والطاعات تنشأ من المعرفة التامة واليقين التام .

ـ والمعاصي تنشأ من ضعف أو غياب المعرفة التامة واليقين التام .

ـ أما المعرفة النظرية واليقين النظري فقط هو كالعدم ووجوده مثل عدم وجوده رغم أنه يصح به الاعتقاد ، ولا ينشأ عنه أي أثر أو تأثير على الإنسان .

ـ فالأمر الذي لا تشعر تجاهه بأي شيء ولا تتأثر به هو إما أنه شيء تافه لا قيمة له أو أنك لا تعرفه أو أنه غير موجود .

ـ مفهوم معرفة الله :

ـ هي المعرفة التي تؤدي إلى عمل القلب ، فالمعرفة التي لا تؤدي إلى عمل القلب هي معرفة نظرية وهي معرفة بها خلل وهي معرفة لم تتم ، أي لم تتحقق فاذا حدثت اليقظة (الوعي) تمت المعرفة أي أصبحت تامة .

ـ نسيان الله والآخرة :

ـ معناه أنه يجعل معرفته بالله والآخرة غير مؤثرة أي معرفة ميتة (لغياب عنصر الوعي) فتصبح المعرفة ويصبح اليقين عبارة عن كلام في الهواء .

ـ العلاقة بين العلم والمشاعر (عمل القلب) :

ـ لا يجتمع العلم مع غياب المشاعر أبدا ، فمن عرف الله والآخرة فإنه حتما وتلقائيا سوف يجد نفسه يحب الله ويحب الجنة ويخاف من النار ، فكلاهما متلازمان لا يمكن أن يجتمع احدهما بدون الآخر ، وبتعبير آخر إذا وجد العلم ولم تتحقق المشاعر فهذا العلم كاذبا ، وكذلك إذا وجد اليقين ولم تتحقق المشاعر فهذا اليقين كاذبا (رغم أنه يقين يصح به الاعتقاد) .

ـ مثال :

ـ الإنسان يعرف أن القنبلة شيء خطير جدا ويعرف أن الكرة شيء تافه رغم أن كلاهما متشابه في الشكل ، لكن إذا تعامل مع القنبلة مثلما يتعامل مع الكرة دل ذلك على أنه لا يزال لا يعرف ولا يفهم معنى كلمة (قنبلة) ، فمعرفته وفهمه لكلمة (قنبلة) لا تكون معرفة حقيقية وفهم حقيقي حتى يشعر بالخوف منها ويحتاط عند التعامل معها فعندئذ فقط يكون قد فهم وعلم معنى كلمة (قنبلة) .

ـ فإذا كنت أحدثك عن قنبلة موجودة الآن أمامك وأنت تشرب كأسا من الخمر ، فأنت عندئذ قد علمت أن الشيء الذي أمامك هو قنبلة لكن لم تنتبه لخطورة الأمر فلم تخف ولم تجري هربا وذلك لأنك سكرانا ، فالمعرفة موجودة لكنها معرفة ميتة بدون وعي ، وحقيقة الأمر أنك لا تعرف ماذا تعني كلمة قنبلة .

ـ نفس الشيء فالآخرة عبارة عن قنبلة أمامك لأنها أمر خطير جدا فهي مستقبلك وحياتك وتوشك أن تبلغ وفيها الأهوال ، فعندما أخبرك بالآخرة فلا تنتبه لخطورتها وتتعامل مع الآخرة كأنها كلمة عادية ولا تهابها ولا تستعد لها وتترقب مجيئها فهذا معناه أنك في غيبوبة تامة كالسكران الذي لا يدري بشيء ، فعندئذ أنت لا تعرف ماذا تعني كلمة (الآخرة) .

ـ ونفس الشيء فمعنى وجود الخالق أي وجود من له القدرة الهائلة المسيطرة القاهرة على كل شيء وانت لا تنتبه لخطورة ذلك ولا تتأثر مشاعرك بذلك فانت في غيبوبة لا تدرى ماذا

يعني أن لك خالقا ، رغم أنك تعرف في اللغة والشرع ماذا يعني الخالق وما هي صفاته لكن غير منتبه لذلك فأنت لا تعرف الخالق ، فالمقصود بمعرفة الله هي المعرفة الحقيقية .

ـ مفهوم معرفة الله ومفهوم الجهل بالله :

ـ هي المعرفة التي تؤدي إلى عمل القلب والجوارح ، وهذه المعرفة يكون فيها عنصر الوعي لأهمية وخطورة وجود قوة الخالق المهيمنة على الإنسان ، فقوة الإنسان ليست بشيء أمام قدرة الخالق وبالتالي عليه أن يستسلم بما معه من قوة ضئيلة .

ـ معرفة بالله يقصد بها الوعي بمدى قدرة الله ومدى علمه ومدى عظمة صفاته ، فالإنسان يعلم أن لله قدرة هائلة لكن ليس لديه انفعال لمدى هول هذه القدرة فهو لا يعي ما يقول وما يعلم .

ـ والجهل بالله هو جهل متعمد بسبب عدم الوعي بخطورة صفاته (الكمال في القدرة والعلم والملك وكل الصفات المحمودة) .

ـ العلم الكاذب والعلم التام :

ـ إذا كان الإنسان يعلم أن هناك آخرة وجنة ونار ولكن لم تتأثر مشاعره بالآخرة فلا يخافها ولا يترقبها ولا يحب الجنة ويتمناها ولا يرهب النار وكذلك لم يعمل للآخرة والنجاة من النار فعلم هذا الإنسان بالآخرة هو علم كاذب لأنه لم يؤدي إلى تأثر المشاعر بالآخرة والعمل للآخرة .

ـ وكذلك إذا كان الإنسان يعلم بمدى قدرة الله على إيجاد كل هذا الكون ومدى علمه في تدبير كل شيء في الكون والمخلوقات ولم يؤدي ذلك إلى التهيب من مدى قدرته وعلمه وحب الاعجاب بمدى هذا القدرة والخوف من غضبه ورجاء نعماءه والعمل من أجل رضاه فعلمه بربوبية الله كاذب لأنه لم يؤدي إلى حبه والخوف من مهابته والعمل له .

ـ الغالبية العظمى من الناس سواء كانوا مسلمين أو أهل كتاب أو كفار لديهم يقين نظري بالله والآخرة لكن هذا اليقين لا يؤدي بهم إلى عمل القلب فهو يقين نظري فقط أي هو يقين كاذب .

ـ أهل الكتاب والكفار لو كان لديهم يقين حقيقي بصدق دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لاعتنقوا الإسلام ولتحقق لديهم عمل القلب لكنه يقين نظري فقط .

ـ فرعون كان يعرف أن الله هو الخالق لكنها معرفة نظرية وليست معرفة تامة ، وكذلك اليهود وابليس يعرفون الحق لكنها معرفة نظرية وليست معرفة تامة ، فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ((الْيَهُودَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَلَيْسُوا مُؤْمِنِينَ وَكَذَلِكَ إبْلِيسُ وَفِرْعَوْنُ

وَغَيْرُهُمَا. لَكِنْ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ ؛ لَمْ يَكُنْ حَصَلَ لَهُ الْعِلْمُ التَّامُّ وَالْمَعْرِفَةُ التَّامَّةُ فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ الْعَمَلَ بِمُوجِبِهِ لَا مَحَالَةَ ؛ وَلِهَذَا صَارَ يُقَالُ لِمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ : إنَّهُ جَاهِلٌ كَمَا تَقَدَّمَ))[9] .

ـ معرفة الله والآخرة هي أصل الدين :

ـ طالما أن الإنسان لا تزال لم تتأثر مشاعره بالله والآخرة فلم يتحقق عمل القلب فهذا معناه أنه لا يزال لا يعرف ولا يفهم معنى كلمة (رب) ولا معنى كلمة (آخرة) ولا يزال لا يوقن بالله والآخرة يقينا حقيقيا وما عنده من معرفة ويقين بالله والآخرة هي معرفة نظرية ويقين نظري فقط .

ـ وطالما أن الإنسان لا يزال يقع في المعاصي والشهوات فهذا معناه أن معرفته بالله والآخرة ضعيفة أو غير موجودة .

****

الفصل الثالث

اليقين الحقيقي واليقين النظري والشك الخفي

ـ مفهوم اليقين الحقيقي (اليقين التام) :

ـ اليقين ينبني على المعرفة ، فإذا كانت المعرفة نظرية كان اليقين نظريا ، وإذا كانت المعرفة حقيقية كان اليقين حقيقيا .

ـ غياب عنصر الوعي أو غياب المشاعر أو غياب الهدف يدل على أن المعرفة نظرية وأن اليقين نظري .

ـ مفهوم اليقين الكاذب :

ـ معناه وجود اليقين النظري مع غياب الوعي ، أي أن الإنسان يتعامل مع المعلومة مثل جهاز الكمبيوتر تعطي له معلومات ومعطيات فيعطي لك نتيجة سواء كانت النتيجة مكسب أو خسارة فهو لا يشعر بخطورة النتيجة فليس لديه شعور بالقيمة وليس عنده فرق بين أن يكون حجم النتيجة كبير جدا أو صغير ، وليس لديه فرق بين رقم مليون ورقم واحد فكلاهما بالنسبة له مجرد أرقام ، فليس لديه مشاعر ليفرح بالمكسب أو يحزن بالخسارة ، فلا يوجد

(9) مجموع الفتاوى (7/ 24)

أي تفاعل سواء سلبا أو إيجابا ، فالكمبيوتر يعطي نتيجة بأن هناك آخرة وغيبيات وأن ذلك حق فقط .

ـ فهو يتعامل مع المعلومة عن طريق الحسابات والنتائج فقط بغض النظر عن طبيعة المعطيات وطبيعة النتائج ، فالأمر لا يهمه ولا يعنيه في شيء ، ولا يتأثر بأهمية أو خطورة هذه المعطيات أو النتائج ، فالمسألة لا تزيد عن كونها حسابات ونتائج لا أكثر بغض النظر عن ما هي هذِه الحسابات وما هي هذِه النتائج ، فمثلا هو يصدق على أنه لو وضع عود كبريت مشتعل على البنزين فإنه يحدث حريق ، لكن لا يهمه الأمر مطلقا ولا يتصور مدى خطورته .

ـ اليقين النظري يصح به الاعتقاد لكن لا يكفي :

ـ اليقين النظري يصح به الاعتقاد وهو شرط لدخول الجنة ، ولكن هناك شروط أخرى لدخول الجنة منها وجود اليقين الحقيقي .

ـ بعض الناس يحسب أن اليقين المطلوب منه هو مجرد اليقين النظري الذي يصح به الاعتقاد ، لذلك فهو مطمئن تماما إلى أنه قد حقق اليقين المطلوب ، فيجب أن ينتبه إلى أن هذا اليقين لا يكفي .

ـ اليقين الذي يطالبنا به القرآن هو اليقين الحقيقي :

ـ إن الله لا يطالبنا باليقين النظري فقط الذي يصح به الاعتقاد ولكن يطالبنا باليقين الحقيقي الذي يؤدي إلى عمل القلب والإخلاص (الهدف) وعمل الجوارح .

ـ ففي تفسير السعدي : (({ وَهُمْ بِالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ } أي : قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين وهو العلم التام الواصل إلى القلب الداعي إلى العمل ، ويقينهم بالآخرة يقتضي كمال سعيهم لها وحذرهم من أسباب العذاب وموجبات العقاب وهذا أصل كل خير))[10] .

ـ والله لا يريد منا مجرد العلم النظري بالغيبيات فقط لكن يريد منا العلم التام بالغيبيات ، فلابد أن يكون اليقين حقيقة واقعة في ذهن المؤمن ولا يتحول إلى مجرد اقتناع مفرغ من المعنى ، فالآخرة واقعة وخطر هائل ونوشك أن نلحق بها لا يكفي مجرد الاقتناع بها فلابد أن تكون مؤثرة في هم الإنسان ومشاعره فلا تكاد صورة الآخرة تفارق ذهنه ، وكذلك قدرة الله بلا حدود هي من أعجب وأخطر وأشد ما يمكن فلابد أن تكون مؤثرة في هم الإنسان ومشاعره فلا تكاد صورة قدرة الله تعالى تفارق ذهنه .

(10) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص : 601)

ـ فاليقين بشيء بغير وعي هو يقين هزلي غير حقيقي وجاد وفعلي يصدر من إنسان يلعب ويلهو كالأطفال ولذلك يقول تعالى : ((إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ))[11] ، ((مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ، لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ))[12] .

ـ احذر من الشك الخفي !! :

ـ الشك الخفي يبدو كأنه يقين نظري جازم لكنه في الحقيقة شك .

ـ السبب الذي قد يجعل هذا الشك خفيا يخفى على صاحبه هو وجود الغفلة أو وجود كفر الإعراض عن المعرفة التامة (والفصل الرابع هو بيان لمعنى العفلة ، والخامس هو بيان لمعنى كفر الإعراض عن المعرفة التامة) .

ـ فقد يجتمع الشك مع التعامل مع وجود الله والآخرة بغير شعور بخطورة الأمر كأن الأمر لعب ولهو .

ـ والمشكلة أن الإنسان قد يحسب أنه على يقين نظري جازم بالله والآخرة ، وفي الحقيقة يقينه هزلي غير جازم وغير جاد يصدر من إنسان يلعب ويلهو كالأطفال ولذلك يقول تعالى : ((إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ))[13] ، وقد يظهر شكه أو عدم يقينه من فلتات لسانه من حيث لا يدري لكنه دائما يتكلم بأنه موقنا .

ـ الأدلة على الشك الخفي !! :

ـ الأدلة على أن الإنسان قد يحسب أنه على يقين جازم وفي الحقيقة هو يقين غير جازم وهو يلعب ويلهو التالي :

ـ ففي تفسير القرطبي : (({ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ } أي ليسوا على يقين فيما يظهرونه من الإيمان والإقرار في قولهم أن الله خالقهم ؛ وإنما يقولونه لتقليد آبائهم من غير علم ، فهم في شك ، وإن توهموا أنهم مؤمنون فهم يلعبون في دينهم بما يعن لهم من غير حجة))[14] ، وفي تفسير البحر المديد : (({ ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين } أي : هو رب الجميع ، ثم ردّ أن يكونوا موقنين بقوله : { بل هم في شك يلعبون } وإقرارهم غير صادر عن علم وإيقان ، بل قول مخلوط بهزؤ ولعب))[15] ، وفي تفسير التحرير والتنوير : (({ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ } { بل } للإضراب الإبطالي رد به أن يكونوا موقنين ومقرين بأنه رب السماوات والأرض وما بينهما فإن إقرارهم غير صادر عن علم ويقين ثابت بل هو كالعدم لأنهم خلطوه بالشك واللعب فارتفعت عنه خاصية اليقين والإقرار التي هي الجري على موجب العلم ، فإن العلم إذا لم يجر صاحبه على العمل به وتجديد ملاحظته تطرق إليه الذهول ثم النسيان فضعف

(11) الطارق : 13 ، 14
(12) الأنبياء : من الآية 2،3
(13) الطارق : 13 ، 14
(14) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة (16 / 129)
(15) البحر المديد ـ الناشر : الدكتور حسن عباس زكي ـ القاهرة (5 / 279)

حتى صار شكا لانحجاب الأدلة التي يرسخ بها في النفس، أي هم شاكون في وحدانية الله تعالى))[16] ، وفي التفسير الوسيط للقرآن الكريم : ((و"بَلْ" في قوله تعالى : { بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ } للإضراب الإبطالى ، لأن المقصود من الآية الكريمة ، نفى إيقانهم بأن خالق السموات والأرض هو الله ، لعدم جريهم على ما يقتضيه هذا الإيقان ، لأنهم لو كانوا موقنين حقا بذلك ، لأخلصوا لله - تعالى - العبادة والطاعة ، فيكون المعنى : إن هؤلاء الكفار لم يكونوا موقنين بأن رب السموات والأرض وما بينهما هو الله ، بل قالوا ما قالوا في ذلك على سبيل الشك واللعب ، قال الآلوسى : « قوله : بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ ... إضراب إبطالى ، أبطل به إيقانهم لعدم جريهم على موجبه ، وتنوين شَكٍّ للتعظيم ، أي : في شك عظيم ، يَلْعَبُونَ أي : لا يقولون ما يقولون عن جد وإذعان ، بل يقولونه مخلوطا بهزء ولعب »[17]))[18] ، وفي أيسر التفاسير : (({ بل هم في شك يلعبون } : أي فليسوا بموقنين بل هم في شك من ربوبية الله تعالى لخلقه وإلا لعبدوه وأطاعوه (بل هم في شك يلعبون) بالأقوال والأفعال واليقين لهم في ربوبية الله تعالى ، وإنما هم مقلدون لآبائهم في ذلك))[19] ، وفي تفسير البحر المحيط : ((وقوله : (إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ) تحريك لهم بأنكم تقرون بأنه تعالى خالق العالم ، وأنه أنزل الكتب ، وأرسل الرسل رحمة منه ، وأن ذلك منكم من غير علم وإيقان ، ولذلك جاء : بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ، أي في شك لا يزالون فيه يلعبون ، فإقرارهم ليس عن جد ولا تيقن))[20] ، وفي التفسير المنير : (({ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ } أي بل هؤلاء المشركون في شكّ من أمر البعث والتّوحيد والإقرار الذي صدر منهم بأن اللَّه هو خالقهم ، وهم في الواقع عابثون لاهون لاعبون ، لا جدّية عندهم في الاعتقاد الصحيح والسّلوك المطابق له))[21] ، وفي صفوة التفاسير : (({ بل هم في شك يلعبون } أي ليسوا موقنين فيما يظهرونه من الإيمان ، في قولهم : الله خالقنا))[22] ، وفي تفسير القاسمي : (({ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ } أي : بل ليسوا بموقنين في إقرارهم بربوبيته ؛ لأن الإيقان يستتبع قبول البرهان ، وإنما هو قول ممزوج بلعب ، لغشيان أدخنة أهوية نفوسهم بصائر قلوبهم وأرواحهم))[23] .

- وفي تفسير الشيخ المراغي : (({ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ } أي بل هم في شك من التوحيد والبعث والإقرار بأن الله خالقهم ، وإن قالوا ذلك فإنما يقولونه تقليدا لآبائهم من غير علم ، إذ هم قابلوه بالهزء والسخرية فعل اللاعب العابث الذي يأخذ الجدّ وما لا مرية فيه أخذ الهزل الذي لا فائدة فيه))[24] ، وفي تفسير السمعاني : (({ بل هم في شك يلعبون } أي : يسمعون سماع لاعب ، ويقولون قول لاعب ، ويقبلون قبول لاعب))[25] ، وفي تفسير البحر المحيط

---

(16) التحرير والتنوير - الدار التونسية للنشر - تونس (25 / 285)
(17) تفسير الآلوسى [روح المعاني] - دار الكتب العلمية - بيروت (ج 13 ص 115)
(18) التفسير الوسيط للقرآن الكريم - دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة (13 / 118)
(19) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (5 / 6)
(20) البحر المحيط - دار الفكر - بيروت (9 / 399)
(21) التفسير المنير للزحيلي - دار الفكر المعاصر - دمشق (25 / 208)
(22) صفوة التفاسير - دار الصابوني - القاهرة (3 / 198)
(23) تفسير القاسمي [محاسن التأويل] - دار الكتب العلميه - بيروت (8/ 408)
(24) تفسير الشيخ المراغي - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر (25 / 121)
(25) تفسير السمعاني دار الوطن، الرياض (5 / 122)

: (({ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ } أي في شك لا يزالون فيه يلعبون ، فإقرارهم ليس عن جد ولا تيقن))[26] ، وفي تفسير السمعاني : (({ بل هم فِي شكّ يَلْعَبُونَ } أَي : يسمعُونَ سَماع لاعب، وَيَقُولُونَ قَول لاعب ، ويقبلون قبُول لاعب ، { وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ } [الجاثية : 32]))[27] .

ـ وفي تفسير ابن كثير : ((قالت الرسل : { أَفِي اللَّهِ شَكٌّ } وهذا يحتمل شيئين ، أحدهما : أفي وجوده شك ، فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به ، فإن الاعتراف به ضروري في الفطَر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب ، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده ؛ ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه { فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } الذي خلقها وابتدعها على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليها، فلا بد لها من صانع ، وهو الله لا إله إلا هو ، خالق كل شيء وإلهه ومليكه))[28] ، وفي تفسير البحر المديد : ((فأجابتهم الرسل عن دعواهم الشك في الربوبية ، { قالت رُسُلُهم أفي الله شكٌّ } : أفي وجوده شك ، أو في ألوهيته ، أو في وحدانيته شك ؟))[29] ، وفي تفسير الوسيط لسيد طنطاوي : ((والاستفهام في قوله { أَفِي الله شَكٌّ } للتوبيخ والإنكار ، ومحل الإنكار هو وقوع الشك في وجود الله ـ تعالى ـ وفى وحدانيته))[30] .

ـ في تفسير محاسن التأويل : (({ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ } أي : معشر قريش والمكذبين بالبعث ، فأوجدناكم بشراً ، ولم تكونوا شيئا { فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ } أي : بالخلق ، وهم وإن كانوا مقرين به لقوله : { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } [لقمان : 25] إلا أنه نزل منزلة العدم والإنكار ؛ لأنه إذا لم يقترن بالطاعة والأعمال الصالحة لا يعد تصديقاً))[31] ، وفي تفسير الكشاف : (({ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ } تحضيض على التصديق : إما بالخلق لأنهم وإن كانوا مصدّقين به إلا أنهم لما كان مذهبهم خلاف ما يقتضيه التصديق ، فكأنهم مكذبون به ، وإما بالبعث ؛ لأنّ من خلق أولاً لم يمتنع عليه أن يخلق ثانياً))[32] ، وفي تفسير أبي السعود : ((وقوله تعالى نحن خلقناكم فلولا تصدقون .. أي فهلا تصدقون بالخلق فإن مالا يحققه العلم ولا يساعده بل ينبئ عن خلافه ليس من التصديق في شيء ، وقيل بالبعث استدلالا عليه بالإنشاء فإن من قدر عليه قدر على الإعادة حتما والأول هو الوجه كما ستحيط به خبرا))[33] .

(26) تفسير البحر المحيط ـ دار الفكر ـ بيروت (8 / 25)
(27) تفسير السمعاني (5/ 122)
(28) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 4 ، ص : 482)
(29) تفسير البحر المديد ـ الناشر : الدكتور حسن عباس زكي ـ القاهرة (ج : 3 ، ص : 47)
(30) تفسير الوسيط لسيد طنطاوي ـ دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، الفجالة ـ القاهرة (ج : 7 ، ص : 528)
(31) تفسير القاسمي [محاسن التأويل] ـ دار الكتب العلميه ـ بيروت (9/ 125)
(32) تفسير الكشاف ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت (ج : 4 ، ص : 465)
(33) تفسير أبي السعود دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (ج : 8 ، ص : 196)

ـ وفي تفسير أبي السعود : (({ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ } أي إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والأرض قالوا الله وهم غير موقنين بما قالوا وإلا لما أعرضوا عن عبادته))[34] ، وفي تفسير البحر المحيط : (({ بَل لا يُوقِنُونَ } : أي إذا سئلوا : من خلقكم وخلق السموات والأرض ؟ قالوا : الله ، وهم شاكون فيما يقولون لا يوقنون))[35] وفي تفسير البيضاوى : (({ بل لا يوقنون } إذا سئلوا من خلقكم ومن خلق السموات والأرض قالوا الله إذ لو أيقنوا ذلك لما أعرضوا عن عبادته))[36] ، وفي تفسير روح المعاني : ((أي إذا سئلوا من خلقكم وخلق السماوات والأرض قالوا : الله وهم غير موقنين بما قالوا إذ لو كانوا موقنين لما أعرضوا عن عبادته تعالى فإن من عرف خالقه وأيقن به امتثل أمره وانقاد له))[37] ، وفي تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان : (({ بل لا يوقنون } وذلك أنه حكي عنهم { ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله } [لقمان : 25] فتبين أنهم في هذا الاعتراف شاكون إذ لو عرفوه حق معرفته لم يثبتوا له نداً ولم يحسدوا من اختاره للرسالة))[38] .

ـ وفي تفسير السمعاني : (({ فويل يومئذ للمكذبين الذين هم في خوض يلعبون } أي : في باطل لاهون ، ويقال : يخوضون في أمر النبي بالتكذيب ، ويلعبون بما هو [الجد] ، وعن بعضهم : أنه رؤي في المنام ، فقيل له : كيف الأمر ؟ فقال : الأمر جد فإياك أن تخلطه بالهزل))[39] .

****

الفصل الرابع

مفهوم الغفلة (فقدان الوعي ـ الغيبوبة ـ السكر)

ـ إذا كان أحد الناس يركب سيارة وفي أثناء الطريق وجد يافطة مكتوب عليها : (احذر أمامك مطب) ، هو قرأها ويعرف أن أمامه خطر يجب أن يحذر منه ، ولكنه لم يبالي بالأمر ولم يهدئ من سرعته فانقلبت به السيارة ، إن هذا الرجل كأنه سكرانا أو فاقد الوعي لأنه لم يشعر بخطورة الأمر ، فما فائدة المعرفة بأن أمامه خطر ؟ ، فهو تغافل عن الأمر وتجاهله ولم يعبأ به .

(34) تفسير أبي السعود دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (8 / 151)
(35) تفسير البحر المحيط ـ دار الفكر ـ بيروت (8 / 115)
(36) تفسير البيضاوى [أنوار التنزيل وأسرار التأويل] ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (5 / 155)
(37) روح المعاني ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت (27 / 38)
(38) تفسير النيسابوري [غرائب القرآن ورغائب الفرقان] ـ دار الكتب العلميه ـ بيروت (6 / 195)
(39) تفسير السمعاني دار الوطن، الرياض (5 / 269)

ـ الاعتقاد عند الغافل والمجنون :

ـ كلاهما فاقد الوعي لما لديه من اعتقاد ، لكن فقدان الوعي عند الغافل متعمد بدليل أنه يعي كل شيء ما عدا ما عنده من اعتقاد ، فهو يعي أمور حياته الدنيوية وقد يكون عبقريا من علماء الذرة ، أما المجنون ففقدان الوعي عنده غير متعمد وهو عام سواء عما لديه من اعتقاد أو أمور حياته الدنيوية .

ـ ولاحظ أن الأصل في المجنون هو عدم الوعي وليس عدم الفهم ، فقد يعرف أن النار محرقة ولكن يذهب إليها ، أما الغافل فهو دائما يفهم لكن يغيب عنه الوعي ، فهو يعلم أن نار الآخرة محرقة ورغم ذلك يذهب إليها .

ـ اليقين عند الغافل هو يقين صحيح من الناحية الشرعية وهو حجة عليه وليست له ، لكنه ليس له معنى لأنه فاقد الوعي لما يوقن به ، وهو يقين نظري فقط يصح به الاعتقاد لكنه ليس يقينا حقيقيا .

ـ مفهوم الغفلة :

ـ هي فقدان الوعي المتعمد للغيبيات .

ـ وفقدان الوعي معناه عدم الانتباه وعدم التيقظ لخطورة الأمر وغياب الشعور بقيمة الشيء ، وهي تعني أن الإنسان في غيبوبة أو سكران تجاه أمر ما لا يدرى به ولا يعيه .

ـ والغفلة يقصد بها الغفلة عن ما حوله من آيات الكون وما ينتظره في الآخرة وما يحيطه ويهيمن عليه من قدرة الله تعالى .

ـ وعكس الغفلة الوعي واليقظة والإفاقة والانتباه .

ـ فالغفلة تعني فقدان الوعي بالأمور الخطيرة (الغيبيات) مع بقاء الوعي بالأمور التافهة (أمور الدنيا بالمقارنة بالآخرة) : ((يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ))[40] ، وبتعبير آخر فالغفلة هي فقدان الوعي المتعمد عن حقيقة الموت والآخرة ولقاء الله وحقيقة الخالق والحياة .

ـ فالإنسان أمامه أمور خطيرة جدا (الغيبيات) عليه أن ينتبه لها ويستعد لها ورغم ذلك فهو يتعامل معها كالسكران الذي لا يدرى ما بها : ((لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ))[41] .

ـ فقد يعرف الإنسان الغيبيات وكل ما فيها ويوقن بها تماما لكنه غائب عن الوعي بخطورتها وبالتالي لا يبالي بها كأنها لعب ولهو وكأنه لم يسمع عنها ، ولا يتعامل مع الغيبيات على

(40) الروم : 7
(41) النمل : 80

أنها حقيقة واقعة يحس بها ويعيها ، فرغم انه يوقن بالله والآخرة ويقول ذلك بلسانه لكنه لا يدري ما يقوله لأنه سكران لا يبالي ولا يدري ما الله وما الآخرة .

ـ فالغفلة عن الله والآخرة معناها عدم الوعي لخطورة معنى أن للكون خالق وخطورة معنى أنه قادر على كل شيء وأن علمه وسمعه وبصره يصل إلى كل شيء وخطورة وصول كلامه للبشر وخطورة الوقوف أمامه يوم الدين وخطورة انتقالنا إلى الحياة الآخرة التي هي المستقبل والمصير ، فأصبح علمه بوجود الله والآخرة فاسدا لا معنى له ، فيعيش كأنه لا رب ولا آخرة وكأنه لم يسمع عن وجود الله والآخرة .

ـ الغيبوبة (الغفلة) موجودة فعلا عند الكثير من أهل الدنيا على سبيل الحقيقة وليس على سبيل المجاز ، ورغم أن الإنسان قد يبدو في كامل وعيه وتركيزه لكن في الحقيقة هو فاقد الوعي تماما وما يفعله من حركة ورؤية وكلام هو ما يفعله السكران ، وذلك لأن الأمور معكوسة عندنا فالدنيا في الحقيقة هي حياة كاذبة وهي مجرد لعب ولهو مثل لعب ولهو الأطفال والآخرة هي حياتنا التي نعيش فيها بعد عدة سنوات من الآن أو أكثر أو أقل ، فنحن نقيس وعي الإنسان على أمور الدنيا وليس على وعيه بالآخرة ولقاء الله ، فمن الغباء أن يكون الإنسان غافلا عن الأمور التي فيها نفعه وضرره ويوجه همه ووعيه في أمور الدنيا التي هي لعب ولهو : ((يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ))[42] ، ((لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ))[43] .

ـ قد يقول البعض : (نحن نعيش في غفلة) وهذا تعبير غير صائب لأن الغفلة مسألة قلبية وهي غياب الانتباه ، وإنما يقصد بهذه العبارة أثر الغفلة الظاهر لنا وهو يدل على احتمال وجود الغفلة في القلب ، فموضع الغفلة هو القلب : ((وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا))[44] ، ((بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا))[45] ، ((لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ))[46] .

ـ العلاقة بين الغافل والآخرة مثل العلاقة بين النائم والآخرة ، مع العلم أن الإنسان قد يمشي وهو نائم وقد يتكلم وهو نائم ، وفي الحديث : ((ما رأيت مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها))[47] ، بل إن القرآن يصفهم بأنهم أموات خارج القبور : ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ **وَالْمَوْتَى** يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إليه يُرْجَعُونَ))[48] ، ((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ **الْمَوْتَى** وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ))[49] ، ((لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ **حَيًّا** وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ))[50] .

(42) الروم : 7
(43) الحجر : 72
(44) الكهف : 28
(45) المؤمنون : 63
(46) الأنبياء : 3
(47) حديث حسن (صحيح الترغيب والترهيب برقم 3662)
(48) الأنعام : 36
(49) النمل : 80
(50) يس : 70

ـ مفهوم الوعي (عكس الغفلة) :

ـ الوعي هو الانتباه واليقظة والافاقة لخطورة الأمر أي الشعور بقيمة الأمر وخطورته .

ـ وهو الشعور الذي يحدث للإنسان عندما يرى مفاجئة مذهلة لم يكن يتوقعها ، وهو اللحظة التي تحدث للإنسان عندما يفيق من نومه .

ـ الوظيفة الطبيعية للإنسان أنه يعي ما حوله من الأمور والأشياء ، ويكون وعيه بالأمور الهامة الخطيرة أكبر من وعيه بالأمور التافهة التي لا قيمة لها أو قليلة الأهمية .

ـ ولكن قد يحدث خلل وانحراف في هذه الوظيفة فيفقد الإنسان الوعي بالأمور الخطيرة (الغيبيات) مع بقاء وعيه بالأمور التافهة (أمور الدنيا) : ((يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ))[51] .

ـ فوظيفة الوعي عنده مقلوبة : ((أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ))[52] .

ـ الوعي هو شعور الإنسان بقيمة الشيء من حيث مدى خطورته وأهميته ، والوعي هو وظيفة فطرية تلقائية عند الإنسان السوي .

ـ عندما يفيق الإنسان من نومه فهو بذلك كان غافلا وأصبح واعيا لما حوله ، ففي معجم اللغة العربية المعاصرة : ((وعِي فلانٌ : انتبه من نوْمه أو غفْلتِه "وعِي من إهماله/ سُكْره"))[53] .

ـ فالوعي هو الانتباه واليقظة إلى أهمية وخطورة ما يسمعه ، ودليله من القرآن قوله تعالى : (وتعيها أذن واعية) ، فمجرد السماع لا يكفي فلابد من الوعي لما يسمعه ، فمن سمع ولم يعي ما سمعه فكأنه لم يسمع .

ـ وفي تفسير الزمخشري : (({ إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ } لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أي قلب واع ، لأنّ من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له ، وإلقاء السمع : الإصغاء ، وَهُوَ شَهِيدٌ أي حاضر بفطنته ، لأنّ من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب))[54] .

ـ وفي تفسير الدرر في تناسب الآيات والسور : (({ وفي آذانهم وقراً } أي ثقلاً يمنع من سمعه حق السمع، لأنه يمنع من وعيه الذي هو غاية السماع))[55] .

ـ الإحساس بقيمة الشيء (الوعي به) هو جزء من المعرفة بالشيء ، وهو أهم عنصر من عناصر المعرفة الثلاثة ، وغياب هذا العنصر معناه الغفلة ومعناه أن المعرفة لم تتحقق .

---

(51) الروم : 7
(52) الملك : 22
(53) معجم اللغة العربية المعاصرة (3/ 2469)
(54) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (4/ 391)
(55) تفسير الدرر في تناسب الآيات والسور (7/ 84)

ـ خطورة الغفلة :

ـ الناس طائفتين غافلون وأهل اليقظة ، الغافلون هم أهل النار وأهل اليقظة هم أهل الجنة : ((أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (108) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخرة هُمُ الْخَاسِرُونَ))[56] .

ـ ((وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ))[57] ، ((وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ))[58] .

ـ الوعي بالغيبيات هو العنصر المطلوب لكي تتحقق به معرفة الله والآخرة ، فالالتزام بالدين يبدأ من تحقيق هذا العنصر .

ـ فأخطر قضية في الدين هي أن يعيش الإنسان في غيبوبة ثم يفيق بعد أن يموت ويكتشف أنه كان غافلا ، وينظر إلى أهل الدنيا فيكتشف حقيقة الغفلة التي يعيشونها : ((لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ))[59] .

ـ مفهوم الغفلة عن الله والآخرة :

ـ العجيب أن يكون الإنسان غافلا عن حقيقة ما يعلمه ويوقن به وحقيقة ما يراه بعينه حوله من آيات الكون وحقيقة الموت وما ينتظره بعد الموت وعدم قدرته على الهروب من علم الله به ومن قدرة الله عليه .

ـ فالغفلة عن الآخرة ليس معناها عدم معرفة الآخرة ولا عدم فهم معناها ولا عدم اليقين بها ولكن معناها عدم الوعي والدراية والانتباه لخطورة ما فيها ، وكذلك الغفلة عن الله ليس معناها عدم معرفة وجود الخالق ولا عدم معرفة صفاته ولا عدم فهم معنى (الخالق) ولا عدم فهم معاني صفاته ولا عدم اليقين بوجوده ولا عدم اليقين بصفاته ولكن معناها عدم الوعي والدراية والانتباه لخطورة وجوده وقدرته وعلمه وصفاته .

ـ ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ((وَالْغَفْلَةُ هِيَ ضِدُّ الْعِلْمِ التَّامِّ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ ضِدًّا لِأَصْلِ الْعِلْمِ))[60] .

ـ الهدف من الغفلة :

(56) النحل : 108، 109
(57) الأعراف : 179
(58) الأنبياء : 97
(59) الحجر : 72
(60) مجموع الفتاوى (3/ 329)

ـ الغفلة هي أمر يتعمده الإنسان ليكون غافلا ، والغفلة ليست مقصودة في حد ذاتها ولكنها عبارة عن وسيلة يستخدمها الإنسان ليميت معرفته بالله والآخرة ليعيش للدنيا ، لأن المعرفة تجعله يعيش ذليلا لله وهو لا يريد أن يعيش ذليلا لأحد .

ـ معاني الغفلة في القرآن والسنة :

1 ـ الغفلة عن الآخرة :

ـ ((يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ))[61] ، ((وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأمر وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ))[62] ، ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ))[63] ، ((وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ))[64] ، ((لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ))[65] .

2 ـ الغفلة عن ذكر الله :

ـ ذكر الله هو كلامه للبشر ، ومعنى الغفلة عن ذكر الله أي الغفلة عن وجود كلام من الله للبشر وعن ما تضمنه هذا الكلام من وجود الخالق والآخرة وأمر الله بعبادته وأوامره ونواهيه : ((وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا))[66] ، ((وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ))[67] .

3 ـ الغفلة عن آيات الله :

ـ آيات الله هي كلامه للبشر وهي أيضا آياته الكونية :

ـ ففي أيسر التفاسير : (({ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ } وَقَدْ فَعَلَ اللهُ بِهِمْ ذَلِكَ لأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ ، وَتَغَافَلُوا عَنْهَا))[68] ، ((وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ))[69] ، ((فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ))[70] .

4 ـ وصف أهل النار بأنهم الغافلون :

ـ ((وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ))[71] ، ((أُولَئِكَ

(61) الروم : 7
(62) مريم : 39
(63) الأنبياء : 1
(64) الأنبياء : 97
(65) ق : 22
(66) الكهف : 28
(67) الفرقان : 18
(68) أيسر التفاسير لأسعد حومد (1 / 1091)
(69) يونس : 7
(70) يونس : 92
(71) الأعراف : 179

الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ))[72] ، ((وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ))[73] ، ((وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ))[74] .

5 ـ السكر (الغيبوبة ـ فقدان الوعي) :

ـ قد يكون الإنسان عبقريا يخترع الذرة ومع ذلك يوصف بانه سكران ؟ نعم هو سكران لأنه غافل عن ما هو أعظم من اختراعه الذرة فهو غافل عن الآخرة ومستقبله فيها وغافل غن ضآلة الدنيا وفناء ما فيها ومن ضمن ما يفنى فيها اختراعه لعلم الذرة مثلا .

ـ ((لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ))[75] .

ـ ففي تفسير أضواء البيان : ((وقوله : { لَفِي سَكْرَتِهِمْ } أي : عماهم وجهلهم وضلالهم ، والعمه : عمى القلب ، فمعنى { يَعْمَهُونَ } يترددون متحيرين لا يعرفون حقاً من باطل ، ولا نافعاً من ضار ، ولا حسناً من قبيح))[76] .

ـ ((مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ))[77] ، فالحمار لا يوجد لديه انتباه ووعي لخطورة ما يحمله .

6ـ النوم :

ـ يوصف الغافل بأنه نائم فإذا أفاق من نومه فقد أفاق من غفلته ، فالعلاقة بين الآخرة والغافل مثل العلاقة بين الآخرة والنائم ! .

ـ وفي الحديث : ((ما رأيت مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها))[78] .

7 ـ اللعب واللهو :

ـ يوصف الكفار في القرآن بانهم يلعبون ويلهون ، واللعب يكون من طفل غافل غير واع أو مدرك للأمور : ((الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ))[79] ، ((بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ))[80] .

8 ـ الغمرة :

(72) النحل : 108
(73) الأنبياء : 97
(74) مريم : 39
(75) الحجر : 72
(76) أضواء البيان ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ـ لبنان (2 / 189)
(77) الجمعة : 5
(78) حديث حسن (صحيح الترغيب والترهيب برقم 3662)
(79) الطور : 12
(80) الدخان : 9

ـ الغمرة هي الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطيها ، كما يغمر الماء الغريق فيحيط به من كل جوانبه ، ففي تفسير فتح البيان : (({ الذين هم في غمرة } أي في غفلة وعمى وجهالة عن أمور الآخرة وأصل الغمرة ما ستر الشيء وغطاه ومنها غمرات الموت))[81] .

ـ ((بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا))[82] أي من القرآن ، ((فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ))[83] .

9ـ السهو :

ـ ففي تفسير اللباب في علوم الكتاب : (({ الذين هم في غَمْرَة } أي غَفْلة وعَمًى وجَهَالَةً ، { سَاهُونَ } غافلون عن أمر الآخرة ، والسهو الغفلة عن الشيء وهو ذَهَابُ القلب عنه))[84] ، وفي تفسير القاسمي : (({ ساهُونَ } أي غافلون عما أتاهم ، وعما نزل إليهم ، بالانهماك في اللذات البدنية ، واستئثار الحظوظ العاجلة))[85] .

ـ والسهو أيضا بأوامر الله كالصلاة بعدم المبالاة بها ، ففي تفسير البيضاوي : (({ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ } أي غافلون غير مبالين بها))[86] .

ـ استمرارية الوعي بالأمر الخطير :

ـ أي دائما ينظر إلى الشيء نظرة انبهار ودهشة وتعجب فلا تكاد صورة الآخرة تفارق ذهنه ، وكذلك قدرة الله بلا حدود هي من أعجب وأخطر وأشد ما يمكن فلا تكاد صورة قدرة الله تعالى تفارق ذهنه .

ـ والذي ينتظر الحكم عليه في قضية أمام قاضي لا تكاد صورة هذا الخطر تفارق ذهنه ، كذلك الذي يعيش للآخرة ويوقن بأنه مسافر إليها لا تكاد صورة الآخرة تفارق ذهنه .

ـ عدم استمرارية الوعي بالأمر معناه أن الإنسان عاد إلى الغفلة عن هذا الأمر ، فمثلا إذا كان الإنسان يتأثر بالقرآن ويبكي عند قراءته ثم أصبح لا يتأثر ولا يبكي فذلك يرجع إلى الغفلة أو ضعف الوعي .

ـ أثر الغفلة على المعرفة واليقين :

ـ الغفلة تجعل الإنسان مثل الذي لم يسمع عن الأمر أصلا ولم يعرفه ولا علاقة له به لا من قريب ولا من بعيد ، فالغفلة تؤدي إلى غياب المعرفة وغياب اليقين مع بقاء المعرفة النظرية واليقين النظري الذي يصح به الاعتقاد .

(81) فتح البيان في مقاصد القرآن (13/ 193)
(82) المؤمنون : 63
(83) المؤمنون: 54
(84) اللباب في علوم الكتاب (18/ 64)
(85) تفسير القاسمي = محاسن التأويل (9/ 36)
(86) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (5/ 341)

ـ فإذا لم ينتبه الإنسان ويعي حقيقة ما يسمعه وما يعرفه وما يراه وما يوقن به وما يتكلم به فهو في الحقيقة كأنه لم يسمع ولم يعرف ولم يرى ولم يوقن ولا يتكلم لأنه أصبح لا معنى لهذه الوظائف ((صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ))[87] .

ـ ما الفائدة من أن يعرف الإنسان شيئا ما وهو لا ينتبه ولا يعي أهميته وخطورته ، فمعرفته وعدم معرفته سواء ، إلا أن معرفته به أصبحت حجة عليه ، فهذه المعرفة كاذبة لأنها لا تفيد شيئا .

****

الفصل الخامس

مفهوم كفر الإعراض عن المعرفة التامة

ـ مفهوم الإعراض عن معرفة الله (المعرفة التامة) :

ـ هناك صنفين من الناس :

1ـ الصنف الأول : لم يسمع عن وجود الله والآخرة ووجود أوامر ونواهي من الخالق أو لا يعرف ما هو الإسلام ؟ ، وبالتالي لا يصدق ولا يكذب فهو يعيش الدنيا للدنيا .

2ـ الصنف الثاني : سمع وعرف وجود الخالق والآخرة ووجود أوامر الخالق لكنه افسد هذه المعرفة فأصبح كأنه لم يسمع عن وجود الخالق والآخرة ولم يسمع عن أوامر ونواهي ، فحاله مثل حال الصنف الأول تماما .

ـ ومعنى افساد المعرفة أي منع المعرفة من أن تؤدي أثرها على القلب والجوارح فأصبحت كالعدم وكأنه لم يعرفها ، فالمعرفة موجودة واليقين موجود لكن كالعدم لا يؤثر في شيء .

ـ هذا الصنف الثاني قد يكون لديه تصديق بالقلب وباللسان وقد يقوم ببعض الأعمال الإسلامية إرضاءا للناس وهو يتعامل مع أعمال الدين وأوامره كأنها لعب ولهو وكأنها ليس لها معنى .

ـ وإفساد المعرفة هو كفر إعراض عن المعرفة التامة .

(87) البقرة : من الآية 171

ـ مفهوم كفر الإعراض عن المعرفة التامة :

ـ معناه أنه يميت معرفته بالله والآخرة عن طريق تغييب الوعي فلا يعي ما يعرفه وما يوقن به ، فأصبح كأنه لم يسمع عن الله والآخرة ، وهو يفعل ذلك ليعيش للدنيا لأن المعرفة تجعل مشاعره وعمله ومعيشته للآخرة .

ـ فالوسيلة التي يستخدمها الإنسان لكي يعرض عن المعرفة التامة هي الإعراض عن التذكير (أنظر الفصل الثامن عشر) .

ـ أنواع كفر الإعراض عن المعرفة :

ـ كفر الإعراض نوعين هما كفر الإعراض عن المعرفة وكفر الإعراض عن العمل .

ـ كفر الإعراض عن المعرفة معناه غياب أي عنصر من عناصر المعرفة الثلاثة عمدا (السماع والفهم والوعي) ، وهو نوعين كالتالي :

1ـ كفر إعراض عن المعرفة النظرية : وهو لغياب عنصر السماع أو الفهم النظري عمدا .

2ـ كفر إعراض عن المعرفة التامة : وهو لغياب عنصر الوعي عمدا ، ويتم من خلال تغييب الوعي (إغلاق العقل) .

ـ مفهوم كفر الإعراض عن المعرفة :

ـ ومعناه أنه لا يعرف ما هو الإسلام ؟ وإلى ماذا يدعو ؟ وما هي الأصول التي ينبني عليها ؟ ، ويشترط أن يكون ذلك عمدا مع القدرة على المعرفة .

ـ المعرفة تتكون من ثلاثة عناصر هي السماع والفهم والوعي ، إذا غاب أي عنصر من هذه العناصر متعمدا فهذا هو كفر إعراض .

ـ فلابد للإنسان أن يسمع دعوة الرسل ويفهمها ويعيها ، فإذا لم يسمعها متعمدا مع القدرة على سماعها فهذا كفر إعراض عن معرفة الدين ، وإذا سمعها وفهمها ولكن لم يعيها متعمدا فأصبح كأنه لم يسمعها فهذا أيضا كفر إعراض ، ومعنى أنه لم يعيها متعمدا أي سمعها سماع لاعب وساه وغافل ولم ينتبه ويلتفت الى خطورتها ، وبتعبير آخر امتنع عن المعرفة التامة التي تؤدي إلى عمل القلب والهدف فلم يتأثر بهذه المعرفة فكأنه لم يسمع ولم يعرف .

ـ فالدين ينبني على أساس ثلاثة أمور هي وجود الله والآخرة والذكر (وهو كلام الله وكلام رسله للناس) ، فهو يتجاهل هذه الأمور الثلاثة كأنه لم يسمع عنها .

ـ ((نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ))[88] ، ((فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا))[89] ، ((وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ))[90] ، ((وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ))[91] .

ـ مثال يوضح كفر الإعراض عن المعرفة التامة :

ـ إذا قال لك أحد الناس : (سلفني مائة جنيه) وأنت لا يعجبك هذا الأمر فتتصنع كأنك لم تسمعه وبالتعبير الدارج (ودن من طين وودن من عجين) ، كذلك إذا عرف الإنسان بوجود الآخرة فهذا معناه أن يعيش للآخرة ، ولكنه يريد أن يعيش للدنيا ، فيتعامل مع لقاء الله والآخرة بهذا الأسلوب فيتناسى الأمر ولا تتأثر به مشاعره فهذا هو كفر إعراض عن الله والآخرة .

ـ الفرق بين غياب المعرفة الحقيقية والوسيلة المؤدية إلى غياب المعرفة الحقيقية :

ـ غياب المعرفة النظرية المتعمد هو كفر إعراض ، أما غياب الوسيلة التي تؤدي إلى غياب المعرفة الحقيقية (الإعراض عن التذكير) فليست كفرا ولكنها معصية تؤدي مع الاستمرار فيها إلى غياب المعرفة الحقيقية .

ـ عبارة (الإعراض) قد يقصد بها غياب الوسيلة وتعني اللا مبالاة وقد يقصد بها غياب المعرفة النظرية المتعمد .

ـ من العبارات التي تدل على غياب الوسيلة (وليس غياب المعرفة) اللا مبالاة وعدم الاهتمام وعدم الاعتناء والتعامل مع الأمر كأنه لعب ولهو واساطير وهزل ومزاح وليس جدا ، أي كأنه شيئا تافها لا قيمة له وغير مهم ، أي التعامل مع الأمر بمبدأ (إنسى الأمر أو كبر دماغك وعيش حياتك) ، أي الهروب والتولي والابتعاد والإعراض عن الأمر .

ـ والفصل التاسع عشر والعشرون هو بيان لتعبيرات القرآن عن الجهل المتعمد والتجاهل (إغلاق أدوات المعرفة والتذكير) .

ـ الفرق بين التكذيب بالآخرة والإعراض عن الآخرة :

ـ الأول يكذب بالآخرة والثاني لا يعرف شيء اسمه (الآخرة) متعمدا ، وكلاهما يعيش كأنه لا آخرة .

ـ الجمع بين كفر الإعراض والتصديق :

(88) التوبة : 67
(89) السجدة : 14
(90) الفرقان : 18
(91) لقمان : 7

ـ في حالة كفر الإعراض عن المعرفة النظرية (غياب أصل المعرفة) فهو لا يصدق ولا يكذب لأنه لا يعرف الأمر أصلا .

ـ أما في حالة كفر الإعراض عن المعرفة التامة فجميع الاحتمالات قائمة ، فقد يصدق بقلبه ولسانه ، وقد لا يصدق بقلبه ولا بلسانه ، وقد يصدق بقلبه ويكذب بلسانه ، وقد لا يصدق ولا يكذب بلسانه وقلبه أو بلسانه فقط مع التصديق بقلبه ، وقد يشك بقلبه وبلسانه أو بقلبه فقط ، وقد يستهزئ بالدين ، وقد يَظهَر موقفه من التصديق من فلتات لسانه وهو لا يدري إذا كان يخفي موقفه .

ـ مع ملاحظة أن التصديق في حالة كفر الإعراض عن المعرفة التامة هو تصديق نظري فقط يصح به الاعتقاد لكن لم يحقق التصديق التام الذي هو شرط في الإيمان .

****

الفصل السادس

الأدلة على كفر الإعراض عن المعرفة التامة

ـ هناك شرطين من شروط الإيمان هما (عمل القلب) و(الهدف)[92] ، وسبب غيابهما هو وجود خلل في معرفة الإنسان بالله والآخرة ، وطالما أن هذين الشرطين لم يتحققا فلا يزال الإنسان لا يعرف الله ولا الآخرة معرفة حقيقية مهما كان علمه بهما ، وبالتالي أصبحت هذه المعرفة هي أيضا شرط في الإيمان لأنه لا يمكن أن يتحقق (عمل القلب) و(الهدف) إلا من خلال هذه المعرفة ، ولذلك جعلها شيخ الإسلام ابن تيمية شرط في الإيمان فقال : ((فَمِنْ شَرْطِ الْإِيمَانِ وُجُودُ الْعِلْمِ التَّامِّ))[93] ، فغياب هذه المعرفة هو كفر إعراض عن المعرفة التامة .

ـ الفرق بين غياب المعرفة النظرية وغياب اليقين النظري :

ـ عدم المعرفة بالآخرة معناه أنه لا يعرف شيء اسمه (الآخرة) لأنه لم يسمع عنها أو لا يعي ماذا تعني ، أما غياب اليقين بالآخرة معناه أنه لا يوقن بوجود الآخرة .

ـ عدم المعرفة متعمدا هو كفر إعراض ، وغياب اليقين هو كفر تكذيب .

ـ العلاقة بين المعرفة والعبادة :

(92) مجموع الفتاوى (7/ 538)
(93) والأدلة على ذلك بالفصلين 16 ، 10

ـ العبادة هي أثر المعرفة التامة على القلب والجوارح ، فالله يريد منا أثر المعرفة (العبادة) وليس مجرد المعرفة ذاتها ، فإذا لم تتحقق العبادة فذلك يرجع إلى غياب المعرفة .

ـ عناصر المعرفة واليقين :

ـ المعرفة النظرية تتكون من عنصرين هما السماع أو الرؤية والفهم ، واليقين يتطلب وجود المعرفة ، أي أن اليقين يتطلب وجود السماع أو الرؤية والفهم .

ـ المعرفة التامة والسماع التام والرؤية التامة والفهم التام واليقين التام كلها تعنى ما يؤدي إلى عمل القلب ، وغياب عمل القلب معناه أن الإنسان لا يعرف ولا يسمع ولا يرى ولا يفهم ولا يوقن .

ـ يعبر القرآن عن غياب المعرفة التامة بعدم السماع وعدم الفهم وعدم العلم ، فالكفار لديهم آذان سمعوا بها كلام الرسل وفهموا معاني ما يقولون لهم وعرفوا ما يقولون ، فغياب السمع والفهم والمعرفة يقصد به غياب المعرفة التامة .

ـ والأدلة على أن المعرفة التامة واليقين التام شرط في الإيمان كالتالي :

ـ الدليل الأول :

ـ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ((فَمِنْ شَرْطِ الْإِيمَانِ وُجُودُ الْعِلْمِ التَّامِّ))[94] .

ـ وغياب المعرفة هو السبب الذي أدى إلى دخول النار فيقول تعالى : ((وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ))[95] .

ـ الدليل الثاني :

ـ المعرفة التامة هي المعرفة التي تؤدي إلى عمل القلب والهدف وكلاهما شرط في الإيمان ، إذن المعرفة التامة هي شرط في الإيمان ، ونوضح ذلك كالتالي :

ـ عمل القلب هو حب الله والذل له والخوف منه ورجاءه ، والفصل السادس عشر هو بيان للأدلة على أنه شرط في الإيمان ، والهدف هو شرط في الإيمان وغيابه هو شرك الإرادة ، والفصل العاشر هو بيان للأدلة على ذلك .

ـ ولا يمكن أن يتحقق عمل القلب أو الهدف إلا بتحقيق المعرفة التامة .

ـ والآيات تبين أن غياب عمل القلب والهدف والعبادة والاستجابة والتقوى سببه غياب المعرفة التامة : ((إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ))[96] ، والإنذار هو

(94) مجموع الفتاوى (7/ 538)
(95) الملك :10
(96) يس :11

إخبار بوجود خطر ، ((سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى))[97] ، ((وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ))[98] ، ((إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ))[99] ، ((فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ))[100] ، ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ))[101] ، ((فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ))[102] .

ـ ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ((فَكَمَا أَنَّ الْخَوْفَ مِنْ اللَّهِ يَسْتَلْزِمُ الْعِلْمَ بِهِ ؛ فَالْعِلْمُ بِهِ يَسْتَلْزِمُ خَشْيَتَهُ وَخَشْيَتُهُ تَسْتَلْزِمُ طَاعَتَهُ ، فَالْخَائِفُ مِنْ اللَّهِ مُمْتَثِلٌ لِأَوَامِرِهِ مُجْتَنِبٌ لِنَوَاهِيهِ وَهَذَا هُوَ الَّذِي قَصَدْنَا بَيَانَهُ أَوَّلًا ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا قَوْله تَعَالَى {فَذَكِّرْ إنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى} {سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى} {وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى} {الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى} . فَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ يَخْشَاهُ يَتَذَكَّرُ، وَالتَّذَكُّرُ هُنَا مُسْتَلْزِمٌ لِعِبَادَتِهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ} . وَقَالَ: {تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} ... التَّذَكُّرَ التَّامَّ يَسْتَلْزِمُ التَّأَثُّرَ بِمَا تَذَكَّرَهُ؛ فَإِنْ تَذَكَّرَ مَحْبُوبًا طَلَبَهُ وَإِنْ تَذَكَّرَ مَرْهُوبًا هَرَبَ مِنْهُ))[103] .

ـ الدليل الثالث :

ـ النسيان معناه غياب المعرفة ، ونسيان الله يقصد به غياب المعرفة التامة لأنه لا يوجد أحد لا يعرف أن الله هو الخالق ، وكذلك نسيان الآخرة ، والآيات تبين مصير الذين نسوا الله : ((فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا))[104] ، ((إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ))[105] ، ((وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا))[106] ، ((فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا))[107] ، ((نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ))[108] ، ((قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى))[109] ، ((وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ))[110] .

ـ الدليل الرابع :

ـ الغفلة تؤدي لغياب المعرفة التامة واليقين التام (انظر الفصل الثاني والخامس) .

ـ والله سبحانه يبين أن أهل النار هم الغافلون : ((وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ

(97) الأعلى :10
(98) غافر : 13
(99) فاطر: 28
(100) ق : 45
(101) الأنعام : 36
(102) فصلت : 4
(103) مجموع الفتاوى (7/ 24 ، 25)
(104) السجدة : 14
(105) ص : 26
(106) الجاثية : 34
(107) الأعراف : 51
(108) التوبة : 67
(109) طه : 126
(110) الحشر : 19

بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ))[111] ، ((أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ))[112] ، ((وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا))[113] .

ـ الدليل الخامس :

ـ غياب المعرفة التامة معناه السماع بدون وعي لما يسمعه والفهم بدون وعي لما يفهمه فكأنه لم يسمع أو لم بفهم ، لذلك يصف الله الكفار بأنهم يسمعون بدون وعي لما يسمعونه أو يفهمونه فكأنهم لا يفهمون ما يسمعونه :

1ـ التشبيه بالحمار في عدم الفهم :

ـ في تفسير عبد الرزاق : (({ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا } [الجمعة: 5] قَالَ: « مَثَلُ الْحِمَارِ يَحْمِلُ كُتُبًا لَا يَدْرِي مَا عَلَى ظَهْرِهِ »))[114] ، وفي تفسير مجاهد : ((كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ كُتُبًا لَا يَدْرِي مَا فِيهَا، وَلَا يَعْقِلُهَا))[115] .

2ـ التشبيه بالبهائم في عدم الفهم :

ـ ((أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إلا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا))[116] ، ((أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ))[117] ، وفي تفسير زاد المسير : (({ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ } أي أن الأنعام تأكُل وتشرب ، ولا تَدري ما في غدٍ ، فكذلك الكفار لا يلتفتون إلى الآخرة))[118] .

3ـ التشبيه بالخشب في عدم الفهم :

ـ ففي تفسير ابن جزي : (({ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ } شبههم بالخشب في قلة أفهامهم ، فكان لهم منظر بلا مخبر))[119] ، وفي تفسير اللباب : ((شبههم بخشب مسندة إلى الحائطِ لا يسمعون ولا يعقلون أشباحٌ بلا أرواحٍ ، وأجسامٌ بلا أحلامٍ))[120] ، وفي التفسير الحديث : ((كأنهم خشب مسندة : تعبير تنديدي يراد به وصفهم بفقد العقل والروح رغم ما هم عليه من الجسامة والوسامة اللتين تعجب الناظر فكأنهم أخشاب مسندة بالدعائم))[121] .

4 ـ قد يحفظ الإنسان القرآن ويفهمه لدرجة أن يكون عالمًا بتفسيره وإعرابه وأسباب نزوله ومع ذلك هو لا يزال لم يفهم الفهم التام لمعنى الخالق والآخرة ومعنى نزول كلام الله ومعنى كلام الله ، فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ((وفي الصحيحين ... { ... ومثل المنافق الذي

(111) الأعراف : 179
(112) النحل : 108
(113) الكهف : 28
(114) تفسير عبد الرزاق (3/ 309)
(115) تفسير مجاهد (ص: 659)
(116) الفرقان : 44
(117) الأعراف : 179
(118) زاد المسير في علم التفسير (4/ 117)
(119) تفسير التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى ـ شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم ـ بيروت (ج : 2 ، ص : 377)
(120) اللباب في علوم الكتاب ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت (ج : 19 ، ص 107)
(121) التفسير الحديث ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة (8 / 458)

يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مرٌّ ... }[122] . فهذا قارئ القرآن يسمعه الناس وينتفعون به وهو منافق ، وقد يكون مع ذلك عالمًا بتفسيره وإعرابه وأسباب نزوله ، إذ لا فرق بين حفظه لحروفه وحفظه لمعانيه ... ولكن قد يكون في القلب موانع من اتباع الأهواء والحسد والحرص والاستكبار، التي تَصُدُّ القلب عن اتباع الحق، قال تعالى: { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (22) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ }[123]))[124] ، وقال الكفار لشعيب : ((مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ))[125] مع أن شعيبًا خطيب الأنبياء .

5 ـ وفي التفسير المنير : (({ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } ... أولئك الموصوفون بما ذكر من تعطيل عقولهم وحواسهم هم كالأنعام (البقر والإبل والغنم) لا همّ لهم إلا الأكل والشرب والتمتع بلذات الحياة والدنيا ، ... أولئك هم كاملوا الغفلة عن آيات الله وعن استعمال مشاعرهم وعقولهم فيما خلقت من أجله ، وهو الاستفادة من المسموعات ، والانتفاع من المبصرات، وهم الأغبياء الجاهلون الذين لا ينظرون إلى المستقبل ، وإنما انصرفوا إلى الحياة الدنيا ، وتركوا الاشتغال بما يؤهلهم للخلود في نعيم الحياة الآخرة ، وعلى هذا تكون غفلتهم بمعنى ترك التدبر ، والإعراض عن الجنة والنار))[126] .

ـ الدليل السادس :

ـ الإجابة على أسئلة القبر بحسب اليقين التام :

ـ الإنسان يجيب على أسئلة القبر بحسب يقينه الحقيقي وليس بحسب يقينه النظري ، فالكفار والمنافقون لديهم يقين نظري بأن الله ربهم ورغم ذلك فعند سؤالهم في القبر يقولون : (هاه هاه لا أدري !) ، ففي الحديث : ((... وإن الكافر ـ فذكر موته ـ قال : وتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ، فيقول : هاه هاه لا أدري ، فيقولان له : ما دينك فيقول هاه هاه لا أدري ، فيقولان : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ، فيقول : هاه هاه لا أدري ، فينادي مناد من السماء أن كذب فافرشوه من النار وألبسوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار))[127] ، وعبارة (هاه هاه لا أدري !) تعني عدم المعرفة أي الإعراض عن المعرفة التامة .

****

(122) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5840 في صحيح الجامع)
(123) الأنفال : 22، 23
(124) جامع المسائل لابن تيمية ـ دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع (1 / 130 ، 131)
(125) هود : 91
(126) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر ـ دمشق (9 / 168)
(127) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن أبي داوود ، ج : 4 ، ص : 239 ، برقم : 4753)

الفصل السابع

الوعي الحقيقي والوعي الكاذب

ـ هل الدنيا عظيمة أم حقيرة ؟ :

ـ قيمة الشيء تعرف من خلال مقارنته بشيء آخر ، فوجود الآخرة جعل الدنيا حقيرة ، وإذا لم تكن هناك آخرة فالدنيا عظيمة .

ـ وكذلك الوعي بشيء ما يتحدد من خلال مقارنته بالوعي بشيء آخر ، فوجود الوعي بالآخرة جعل الوعي بالدنيا هو وعي بحقارتها ، وإذا لم يكن هناك وعي بالآخرة فذلك يجعل الوعي بالدنيا هو وعي بعظمتها .

ـ وبتعبير آخر فالغافل عن الآخرة يرى الدنيا عظيمة ، والذي يعي الآخرة يرى الدنيا حقيرة .

ـ فالوعي بالأمر التافه مع وجود الوعي بالأمر الخطير يختلف عن الوعي بالأمر التافه مع فقدان الوعي بالأمر الخطير لأنه عندئذ لن يراه تافها وانما يراه خطيرا ، ونوضح الأمر كالتالي :

ـ أنواع الوعي :

1ـ غياب الوعي العام (الجنون) :

ـ هو لا يعي لا أمور الدنيا ولا أمور الآخرة ولا يعي أي شيء ، وهذا هو الجنون .

2ـ الوعي الحقيقي :

ـ وهو الوعي بحقيقة الدنيا مع وجود الوعي بالآخرة ؛ فهو يقارن بين الدنيا والآخرة فيرى الدنيا على حقيقتها ويرى الآخرة على حقيقتها ، فيشعر بالمهابة من الآخرة ويشعر بضآلة الدنيا فيراها كومة من الطين .

3ـ الوعي الكاذب :

ـ وهو الوعي بحقيقة الدنيا مع غياب الوعي بالآخرة :

ـ يتكون عند الإنسان وعي كاذب بعظمة الدنيا لأنه ليس أمامه غيرها ولا يقارنها بغيرها فيشعر بخوف المهابة من عظمة قيمة المال ! ، فيؤدي ذلك إلى أن تتعلق مشاعره وهدفه وعمله بأمور الدنيا التافهة ، فيحب شيئا تافها غير محبوب ويكون هدفه أمرا تافها وربما فيه ضرر له وهكذا ، فالوعي الكاذب بعظمة الدنيا يؤدي إلى عبادة الدنيا .

ـ الوعي هو القائد وليس اليقين النظري :

ـ الإنسان يعيش ويتأثر ويعمل تبعا لما عنده من وعي بالأمر وليس تبعا لما عنده من يقين نظري ، فقد يكون لديه يقين نظري تام بضآلة الدنيا لكن لديه وعي كاذب بعظمة الدنيا ، فهو يسير تبعا لما عنده من وعي .

ـ الوعي بخطورة الغيبيات :

ـ الوعي والانتباه إلى الأمر الخطير هو شعور بالمهابة ، وهو شعور بالخطر وشعور بغرابة الأمر وشعور بالتهيب والتحير والدهشة والتعجب والاستغراب والذهول من هذا الأمر الخطير ، وهو مثل شعور الطالب من مهابة الامتحان ومثل الشعور بالمهابة من الله أو من الآخرة ، فأي أمر مهيب وخطير لابد أن يؤدي إلى الشعور بالمهابة .

ـ الإنسان الذي يعيش وسط مخاطر تحيط به وتنتظره لا يمكن أن يعيش هادئ البال ، لابد أن يشعر بالقلق والرهبة والتحير من هول ما حوله وما ينتظره ، فالإنسان يعيش وقدرة الله تحيط به .

ـ خوف المهابة هو شعور بالانبهار والتعجب والدهشة والاستغراب والذهول والتهيب والتحير من مدى غرابة الأمر وخطورته ومن روعة ما يرى ، وهي أقرب إلى مفهوم (اليقظة) التي عرفها ابن القيم بأنها انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين[128] .

ـ فيكتشف أمور مذهلة ويكتشف أنه كان أعمى لا يرى شيئا وكان بلا عقل لما يرى من الحقائق المذهلة ، ويكتشف أنه كان مغفلا مخدوعا في منتهى الغفلة ، فقد كان نائما والجيش مقبل عليه ليقتله ثم أفاق والجيش يدهمه ، ففي الحديث : ((مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبته طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق))[129] .

ـ الوعي الكاذب بخطورة الدنيا ! :

ـ هو غافل عن الآخرة فليس أمامه غير الدنيا فيراها عظيمة ، فلديه خوف من مهابة قيمة المال ومدى نفعه وأهمية الشهوات وغير ذلك ، فيؤدي ذلك إلى أن تتعلق مشاعره وهدفه وعمله بأمور الدنيا التافهة ، فيحب شيئا تافها غير محبوب ويكون هدفه أمرا تافها وربما فيه ضرر له وهكذا ((وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ))[130] ، فالوعي الكاذب بعظمة الدنيا يؤدي إلى عبادة الدنيا (والفصل ال هو بيان لذلك) .

---

(128) مدارج السالكين ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت (1 / 142)
(129) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5860 في صحيح الجامع)
(130) البقرة : 93

ـ الوعي بضآلة الدنيا :

ـ معناه أن نظرة الإنسان إلى الدنيا على أنها حقيرة ، ولابد هنا أن نوضح التالي :

ـ الفرق بين الوعي بضآلة الدنيا والعمل بأمور الدنيا :

ـ هناك أعمال لها ثواب كبير مثل رفع الظلم وعمارة الأرض واسعاد الناس والعمل للكسب وتعلم أمور الدنيا وهي أعمال مهمة ومطلوبة وضرورية لتعين الإنسان في سفره إلى الآخرة لكنها في النهاية هي لتحقيق دنيا والدنيا ضئيلة والى زوال .

ـ الوعي بضآلة السعادة الدنيوية معناه أنه يرى السعادة في الدنيا لا تزيد عن كونها كومة من الطين ، فالتنافس على الدنيا هو تنافس على كومة من الطين ، فالظالم أخذ من المظلوم طينا أكثر من حقه ، والمظلوم نقص من عنده قدرا من الطين ، والسعي لإيجاد السعادة لجميع الناس هو سعي لإيجاد قدر من الطين لكل واحد ، والعمل للكسب هو لإيجاد قدر من الطين ، والغني عنده قدر من الطين أكثر من الفقير وهكذا .

ـ وهذا لا يمنع أبدا من القيام بأعمال الدنيا واتقانها لكن يظل وعيه بضآلتها ولا تتعلق بها مشاعره ولا هدفه .

ـ ونظرة الإسلام إلى الدنيا على أنها طين لا قيمة لها :

ـ ((وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ))[131] ، وفي الحديث : ((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء))[132] ، وفي حديث آخر : ((يا ضحاك ما طعامك ؟ : قال يا رسول الله اللحم واللبن ، قال ثم يصير إلى ماذا ؟ ، قال إلى ما قد علمت ، قال فإن الله تعالى ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلا للدنيا))[133] ، والنصوص الشرعية في ذلك لا حصر لها ولا عد .

****

الفصل الثامن

عبادة الدنيا

ـ يحسب البعض أن عبارة (عبادة الهوى) او (عبادة المال) او (عبادة الشهوات) تقال على سبيل المجاز للتخويف منها ولكنها شرك قلبي يخلد صاحبه في النار .

(131) الأنعام: 32
(132) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5292 في صحيح الجامع)
(133) التخريج : صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ج : 3 ، ص : 143 ، برقم : 3242)

ـ الدنيا صنم كبير يعبده الكثير من الناس اليوم ، وينقسم هذا الصنم إلى أصنام كثيرة أهمها صنم المال وصنم الشهوات وصنم المظاهر وغير ذلك من أمور الدنيا أو مما يخترعه الإنسان ويجعله هدفا له ويعيش له .

ـ فالدنيا مثل لعبة الكراسي الموسيقية ، في المنتصف يوضع الشهوات والمناصب والأموال ، والناس يدورون حولها كأنهم يطوفون حولها ، كل واحد يريد أن يأخذ من هذه الكومة الموضوعة في المنتصف ، ولكن البصير ينظر إلى هذه الكومة فيراها كومة من الطين فلا يدور معهم .

ـ لماذا يرى الإنسان الدنيا عظيمة القيمة ؟ :

ـ هي فعلا عظيمة إذا لم يكن هناك شيء أعظم منها ، فقيمة الشيء تعرف بالمقارنة بغيره ، فإذا لم يكن هناك رب ولا آخرة فالدنيا عظيمة لأنه لا يوجد غيرها ، وإذا كان الإنسان غافلا عن الله والآخرة فليس أمامه غير الدنيا فيراها عظيمة ، فهو أغمض عينه عن الآخرة فلم يرى غير الدنيا فيراها عظيمة ، أي يتكون لديه وعي خاطئ بمدى عظمة الدنيا والمال والشهوات ، فلا تكاد صورة المال تفارق ذهنه أو صورة الشهوات أو غير ذلك ((وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخرة أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا))[134] .

ـ فسبب تعلق الإنسان بالدنيا وعبادة الدنيا هو أنه يراها عظيمة القيمة ، وسبب ذلك هو الغفلة والاعراض عن معرفة الله والآخرة .

ـ المفهوم العام لعبادة الدنيا :

ـ تخيل أنه لا توجد آخرة ماذا سوف يكون حال الناس عندئذ ؟ ، حال الناس عندئذ هو ما يسمى بعبادة الدنيا .

ـ وحال الناس عندئذ هو أن مشاعرهم وأهدافهم وهمهم وعملهم للدنيا ، فالإنسان يعيش عندئذ من أجل سعادة نفسه ولو على حساب الآخرين أو يكون هدفه أن يعيش الناس جميعا في سعادة ويكون هدفه أن يرفع الظلم وألا يؤذي أحد أحدا .

ـ نفس الشيء يحدث إذا كان اليقين بالآخرة عند بعض الناس يقينا نظريا فقط ، فهم يتجاهلون الآخرة ويعيشون للدنيا ، وهذا هو عبادة الدنيا .

ـ بعض الناس يجعلون من الدنيا والمال والشهوات والمظاهر أصنام يعبدونها من دون الله ويأتون يوم القيامة وهم مشركين يعبدون الأصنام .

ـ فهناك مفهوم مغلوط عن الأصنام ، فالأصنام ليست فقط تلك المصنوعة من الحجارة فقط ، فالدنيا صنم كبير يعبده الكثير من الناس ! .

(134) الإسراء : 72

ـ وعبادة الأصنام عبارة عن منهج مخترع اخترعه المشركون وعاشوا له وأعجبوا به وقدسوه وشغلوا حياتهم به ووجهوا تفكيرهم إليه ، وأصبح ذلك عادات وتقاليد مقدسة حصروا عقولهم فيها ، وكذلك كل من يخترع أمرا أو يختار أمرا غير الله والآخرة والدين فيشغل حياته وهمه وتفكيره به ، سواء كان ذلك خيرا آم شرا حلالا أم حراما لكن توجه إليه التفكير منصرفا عن الله والآخرة وتعلقت به المشاعر مبتعدة عن التعلق بالله والآخرة ، فعبادة الأصنام هي صورة من عبادة الهوى .

ـ يقول ابن القيم : ((القلب الميت الذي لا حياة به فهو لا يعرف ربه ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه ، بل هو واقف مع شهواته ولذاته ولو كان فيها سخط ربه وغضبه ، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه رضى ربه أم سخط ، فهو متعبد لغير الله حبا وخوفا ورجاء ورضا وسخطا وتعظيما وذلا ، إن أحب أحب لهواه ، وإن أبغض أبغض لهواه ، وإن أعطى أعطى لهواه ، وإن منع منع لهواه ، فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه ، فالهوى إمامه والشهوة قائده والجهل سائقه والغفلة مركبه ، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور ، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور))[135] .

ـ الاصطلاح الشرعي لمعنى عبادة الدنيا :

ـ التعلق بأي شيء غير الله سبحانه ، سواء كان ماديا أو معنويا سواء كان حلالا أم حراما كالتعلق بالدنيا وشهواتها ، أو الأعمال الدنيوية أو الناس أو شيء أو منهج يخترعه الإنسان بحيث تتعلق به كل مشاعرك ويكون ذلك الشيء هدفك وغايتك ، أو يكون أكبر مشاعرك ، أي تتعلق به مشاعرك أكبر من تعلقها بالله ، فأنت تعبد ذلك الشيء وذلك عبادة للهوى وذلك الشيء هو صنم يُعبد من دون الله تعالى رغم يقينك النظري التام بأنك لا تعبد إلا الله وحده .

ـ وباختصار أي شيء يكون فيه شرك محبة أو شرك إرادة (والفصل السادس عشر والعاشر هو بيان لهما) فهو شرك قلبي يخلد في النار ، سواء كان ذلك المال أو الأولاد أو الزوجة أو الشهوات أو إسعاد الناس أو سيارة ولو حتى قلم رصاص طالما أن ذلك الشيء هو أكبر مشاعرك أو هو الهدف الذي تعيش له .

ـ مع ملاحظة أن الإنسان قد يدعي محبة الله وأنه يعيش له وهو على ثقة تامة بذلك والحقيقة أنه لا توجد ذرة من ذلك في قلبه (والفصول من 11 إلى 15 هي بيان لذلك) .

ـ لماذا يعبد الإنسان الدنيا ؟ :

ـ الطبيعي أن الإنسان يعيش لنفسه ولا يعيش من أجل أحد آخر غير نفسه إلا إذا كان الإنسان مملوكا لغيره فهو يعيش لمالكه ، كل ما في الإنسان من عين وأنف وقلب وغير ذلك هو ملك لله تعالى ، فالإنسان عليه أن يعيش ذليلا لله تعالى .

(135) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ـ مكتبة المعارف، الرياض (ج :1 ، ص : 9)

ـ معنى كلمة (يعيش لله) أي يوجه همه ومشاعره وعمله لله وهذا معنى عبادة الله ، ومعنى كلمة (يعيش لنفسه) أي يوجه همه ومشاعره وعمله للدنيا وهذا معنى عبادة الدنيا .

ـ فالإنسان إما أن يعيش للدنيا ويتمتع بها ويعيش حرا (وهذا هو مفهوم عبادة الدنيا) أو يعيش ذليلا لله (وهذا هو مفهوم عبادة الله) ، أي إما أن يعبد الدنيا ويرفض عبادة الله أو يعبد الله ويرفض عبادة الدنيا .

ـ فإذا اختار أن يعيش للدنيا (وهذا هو شرك الإرادة) فعليه أن يقوم بإلغاء معرفته بالله والآخرة (وهذا هو الإعراض عن معرفة الله والآخرة) لأن معرفة الله والآخرة (المعرفة التامة) تؤدي تلقائيا إلى أن يختار الإنسان أن يعيش ذليلا لله تعالى من أجل إرضاءه ومن أجل الآخرة ، أما إذا كان الإنسان لا يعرف الله ولا يعرف الآخرة (المعرفة التامة) فليس أمامه غير الدنيا فلن يفكر إلا فيها ولن يعيش إلا لها ، وهذا هو مفهوم عبادة الدنيا ، وقد يكون معه معرفة نظرية ويقين نظري بالله والآخرة يصح به الاعتقاد .

ـ وقد يجتمع في قلبه عبادة لله وعبادة للدنيا فيحب الله ويحب الدنيا ، فإذا غلبت محبته للدنيا محبته لله فقد أشرك بعبادته للدنيا فيكون مخلدا في النار .

ـ عبادة الدنيا عبارة عن أمرين هما :

1ـ تعلق المشاعر بالدنيا وهدفه الدنيا : وهي شرك أكبر وهي أصل معنى عبادة الدنيا :

ـ إذا لم ينتبه الإنسان إلى مدى قدرة الله وخطورة الآخرة فلن تتأثر مشاعره بالله والآخرة ، أي لا يتهيب قدرة الله الهائلة وخطورة الآخرة ولا يحب الله ولا يحب الجنة ويشتاق اليها ولا يخاف من عقاب الله ولا يشتاق الى لقاءه ، بل على العكس من ذلك فكل حبه للمال والشهوات وكل خوفه من ضياع المال والشهوات ، وسيكون هدفه الدنيا .

2ـ تعلق الهموم والعمل والكلام والسلوك والانفعالات بالدنيا :

ـ وذلك ليس شركا ولكنه يدل على ارتباط مشاعره وهدفه بالدنيا ، فلا يفكر إلا في الدنيا ولا ينشغل همه إلا بالمال والشهوات فالدنيا أمله وهدفه ومراده ، فهو حصر عقله وتفكيره في أمور الدنيا فقط ومنع تفكيره عن الخروج عن إطار الدنيا ، فلا هم له إلا المال ولا حديث له إلا عن المال وهو لا يعمل إلا لدنيا ولا يتكلم إلا عنها وقد يتخذ الإسلام شكلا .

ـ كيف يجعل الإنسان الدنيا إلاها ؟ :

ـ ليس معنى عبادة المال أن الإنسان يجعل المال ربه ولكنه يجعل الله ربه ويجعل المال إلاها آخر مع الله ، فهناك فرق بين الرب والإله (أنظر الفصل الثامن) .
ـ قد يتخذ الإنسان الله ربا والمال إلاها ، فبعلمه يتخذ الله ربا وبعمله يتخذ المال إلاها .

ـ فهناك فرق بين الرب والإله ، فالرب هو الذي توقن بأنه الخالق الرازق المحي المميت النافع الضار .. الخ ، والإله هو الذي تعيش له ، أي الذي تتعلق به مشاعرك وهمومك وأهدافك وعملك .

ـ فلو افترضنا جدلا أن الإنسان يوقن بأن الله هو رب الكون والناس ويعيش من أجل الدنيا ، فهو يتخذ الله ربا ويتخذ الدنيا الاها .

ـ فإذا كنت تحب المال لدرجة أنك متيم بحبه فأنت تعظمه وتجعل مع الله شريكا آخر في العظمة وفي الحب .

ـ قد يكون الإنسان فقيرا لا يملك مليما ولكن يعبد المال حيث يتوجه بقلبه وجوارحه للمال وتمنيه والسعي للحصول عليه ، وكذلك قد لا يقع الإنسان في الشهوات لكن يعيش متمنيا لها متحسرا على حاله يتعلق بها قلبه .

ـ والأدلة على أن الإنسان قد يتخذ الله ربا ولكن يتخذ غيره إلاها في تفسير الطبري : ((عن مجاهد : { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } [يوسف: 106] ، إيمانُهم قولهم : الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا ، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيرَه))[136] .

ـ كيف يعبد الإنسان الدنيا ؟ :

ـ إذا علمت أن إنسانا ما هو أقوى منك ، فهذا معناه أن تشعر بضعف نفسك والذل له ومعناه أن تخضع لأمره إذا أمرك وإلا عاقبك ، وأنت مستكبر لا تريد أن تشعر بالضعف ولا تريد أن تخضع لأمر احد فماذا تصنع ؟ .

ـ تقوم بإلغاء معرفتك بأن هناك من هو أقوى منك فتنسى ذلك الأمر (وهذه وسيلة الحمقى) ، فتكون النتيجة أن تعيش معيشة الحر الغير خاضع لأحد .

ـ هذا ما يحدث مع معرفة الإنسان بالله والآخرة ، فعبادة الدنيا (تعلق المشاعر والهدف والهم والعمل بالدنيا والسعار عليها) أثر لغياب المعرفة التامة والتصديق التام بالله والآخرة .

ـ لأن الإنسان إذا لم يعرف الآخرة فانه سوف يرى المال عظيما والشهوات عظيمة وسوف يخترع لنفسه أهداف دنيوية .

ـ عبادة الدنيا جهد ضائع وعمر ضائع :

ـ حال الذي يجتهد في أمور الدنيا ويتناسى أمور الدين مثل حال الطالب الذي يذاكر مادة الكيمياء مثلا رغم أن الامتحان الذي سوف يمتحنه في مادة التاريخ (مثلا) فهل ينفعه ما اجتهد ؟! .

(136) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (16/ 287)

ـ ومن الناس من يجتهد بإخلاص وتفاني واتقان في أمر ما من أمور الدنيا النافعة التي تنفع الناس في دنياهم أو تسعدهم وتسري عنهم أو تنفعه هو وتفيده فيفني عمره في هذا الأمر ويعيش له ، فهو عاش حياته يذاكر في مادة من مواد الدنيا ثم يجد الامتحان في القبر في مادة غير مواد الدنيا وهي مادة الدين وهي هل ذاكر في مادة معرفة الله والآخرة وعمل بأوامر الله أم لا ؟ ، فيندم على الجهد الهائل الذي بذله في حياته ثم ضاع .

ـ وفي الحديث : ((كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا))[137] .

ـ العلاقة بين عبادة الدنيا وغياب عمل القلب وغياب الهدف :

ـ ابتعاد المشاعر والهدف عن الله والآخرة كلاهما شرك قلبي ، وانتقالهما إلى الدنيا هو أيضا شرك قلبي (عبادة الدنيا) .

ـ الأدلة على عبادة الدنيا (عبادة الهوى) :

1ـ عبادة الدنيا نعني أمران هما انتقال عمل القلب من التعلق بالله إلى التعلق بالدنيا ، وعمل القلب شرط في الإيمان (انظر الفصل السادس عشر) ، والأمر الثاني هو اتخاذ الدنيا هدفا يعيش له وذلك شرك إرادة (انظر الفصل العاشر) .

2ـ يقول تعالى : ((أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً))[138] ، ((أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ))[139] ، ((فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ))[140] ، ((فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى))[141] ، ((وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ))[142] .

ـ جاء في تفسير القرطبي : ((الهوى إله يعبد من دون الله))[143] ، وفي تفسير الطبري : ((أرأيت يا محمد مَنْ اتخذ إلهه شهوته التي يهواها))[144] ، وفي تفسير ابن كثير : (({ أرأيت مَنْ اتخذ إلهه هواه } أي بما استحسن من شيء ورآه حسنا في هوى نفسه كان دينه ومذهبه))[145] ، وفي تفسير النسفي : ((أي مَنْ أطاع هواه فيما يأتي ويذر فهو عابد هواه وجاعله إلهه))[146] ، وفي تفسير الطبري : ((أفرأيت يا محمد مَنْ اتخذ معبوده هواه فيعبد ما هوي من شيء دون إله الحق الذي له الألوهية من كل شيء))[147] .

(137) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 925 في صحيح الجامع)
(138) الفرقان : 43
(139) الجاثية : من الآية 23
(140) القصص :50
(141) طـه : 16
(142) الكهف : من الآية 28
(143) تفسير القرطبي [الجامع لأحكام القرآن] ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة (ج : 13 ، ص : 35)
(144) تفسير الطبري [جامع البيان في تأويل القرآن] ـ مؤسسة الرسالة (ج : 19 ، ص : 274)
(145) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 6 ، ص : 113)
(146) تفسير النسفي ـ دار الكلم الطيب، بيروت (ج : 2 ، ص : 539)
(147) تفسير الطبري [الطبري جامع البيان في تأويل القرآن] ـ مؤسسة الرسالة (ج : 22 ، ص : 76)

3ـ قال تعالى : ((وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ))[148] ، ((إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ))[149] ، ((ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ))[150] ، ((الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخرة))[151] ، ((كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ))[152] ، ((إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً))[153] ، ((ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخرة))[154] ، ((وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (2) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخرة))[155] ، ((فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى))[156] ، ((بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا))[157] ، أي إذا كان حب الدنيا أكبر من حب الله فهذا عبادة للهوى .

ـ يقول ابن القيم : ((قال الله تعالى : { ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله } فأخبر أن من أحب من دون الله شيئا كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أندادا فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية فإن أحدا من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية بخلاف ند المحبة فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادا في الحب والتعظيم))[158] .

ـ ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ((فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعوه فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله))[159] .

4ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط))[160] ، وفي حديث آخر : ((الدنيا حلوة خضرة فمن أخذها بحقها بارك الله له فيها ورب متخوض فيما اشتهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار))[161] .

ـ أنواع عبادة الدنيا :

(148) البقرة : من الآية 165
(149) الشعراء : 98
(150) الأنعام : 1
(151) إبراهيم : من الآية 3
(152) القيامة : 20
(153) الإنسان : 27
(154) النحل : 107
(155) ابراهيم : 2 ، 3
(156) النازعات : 37 - 41
(157) الأعلى : 16
(158) مدارج السالكين ـ دار الكتاب العربي - بيروت (3 / 21)
(159) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ـ دار العاصمة ـ الرياض (ج : 6 ، ص : 31 - 32)
(160) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 2962 في صحيح الجامع)
(161) التخريج : صحيح (صحيح الترغيب والترغيب ج : 3 ، برقم : 3219)

ـ عبادة الدنيا معناها العيش من أجل إيجاد السعادة الدنيوية لنفسه أو لنفسه وللجميع ، ولكن يختلف مفهوم السعادة من شخص لآخر ، فمنهم من يرى السعادة في المال ومنهم من يراها في الشهوات وغير ذلك .

ـ أي شيء من أمور الدنيا أو حتى قضية يخترعها الإنسان لنفسه ويعيش لها فهي صنم يعبده ، لكن أشهر الأصنام التي يعبدها الناس اليوم هي على الترتيب المال والشهوات والمظاهر والعلم المادي .

ـ من صور عبادة الدنيا :

ـ أي شيء تتعلق به مشاعر الإنسان بدلا من أن تتعلق بالله فهو إله يعبده ، وكذلك أي شيء يجعله الإنسان هدفا يعيش من أجله ويبني حياته على أساسه هو إله يعبده من دون الله ، ومن أمثلة ذلك التالي :

1ـ المال :

ـ أكبر وأخطر الأصنام التي يعبدها الناس هي عبادة المال والتي تعني تعلق المشاعر بالمال أكبر من تعلقها بالله والآخرة ، وقد تكون المشاعر المتعلقة بالله غير موجودة أصلا وكل المشاعر متعلقة بالمال ، فيكون كل حبه وخوفه ورجاءه وهدفه وهمه في المال وكيفية الحصول عليه ، وفي الحديث : ((إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً وَفِتْنَةُ أمتي الْمَالُ))[162] .

ـ فمن الناس مَنْ يعيش حياته من أجل جلب الرزق كأن ذلك عبادته التي خلق لها : ((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالآنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ ، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ))[163] ، ((وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ))[164] ، ولاحظ أن الرزق مفهومه واسع فإن تحصيل الرزق يعني تحصيل أي أمر فيه راحة أو نفع للإنسان ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : { من كان يريد حرث الآخرة } الآية قال : ((يقول الله : ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك))[165] ، وفي حديث آخر : ((يقول ربكم : يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنى وأملأ يدك رزقا ، يا ابن آدم لا تباعد مني أملأ قلبك فقرا وأملأ يدك شغلا))[166] ، وفي حديث آخر : ((لا تستبطئوا الرزق فإنه لم يكن عبد ليموت حتى يبلغه آخر رزق هو له فاتقوا الله وأجملوا في الطلب أخذ الحلال وترك الحرام))[167] ، وفي حديث آخر : ((إن الرزق

(162) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 2148 في صحيح الجامع)
(163) الذريات : 56 ، 57
(164) سبأ : 37
(165) التخريج : صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ج : 3 ، برقم : 3166)
(166) التخريج : صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ج : 3 ، برقم 3165)
(167) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 7323 في صحيح الجامع)

ليطلب العبد أكثر مما يطلبه أجله))[168] وفي حديث آخر : ((لو أن ابن آدم هرب من رزقه كما يهرب من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت))[169] ، وفي حديث آخر : ((إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته))[170] .

2ـ شهوات النساء :

ـ قد يكون كل هم الإنسان ومشاعره تتعلق بشهوات النساء كشهوة الجماع وشهوة النظر إلى العورات وشهوات الشذوذ الجنسي ، فهو يعيش أسيرا لشهواته هي التي تحركه ، فهذا عبادة للهوى .

3ـ المنصب والجاه :

ـ من الناس من يكون أكبر ما تتعلق به مشاعره وهمومه وأهدافه هو الترقي في المكانة الاجتماعية والحصول على الشهادات العلمية سواء لنفسه أو لأبنائه سواء كان ذلك للحصول على مال أكثر أو التمتع بالمظاهر والرياء فإذا كانت مشاعره مرتبطة بذلك أكبر من ارتباطها بالله والآخرة فذلك عبادة للمظاهر .

4ـ العلم المادي والتطور المادي والعقل :

ـ ففي تفسير مفاتيح الغيب : (({ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ } ... يجوز أن يكون المراد علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كما قال تعالى : يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غافِلُونَ [الروم : 7] ، ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ [النجم : 30] فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات وهي معرفة الله تعالى ومعرفة المعاد وتطهير النفس عن الرذائل لم يلتفتوا إليها واستهزؤا بها ، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به))[171] .

ـ قوم عاد كان عندهم من صور القوة والمدنية الكثير : ((فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ))[172] ، ((أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ))[173] ، فكان مصيرهم : ((وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كأنهم أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ))[174] ، وهذا هو

(168) تحقيق الألباني : حسن (انظر حديث رقم : 1630 في صحيح الجامع)
(169) تحقيق الألباني : حسن (صحيح الجامع برقم 5240)
(170) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 2085 في صحيح الجامع)
(171) مفاتيح الغيب ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (ج : 27 ، ص : 535)
(172) فصلت : 15
(173) الشعراء : 128 ، 129
(174) الحاقة : 7

مصير الذين يغترون بأنفسهم ويدعون القوة بما عندهم من النعم : ((أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ))[175] ، ((أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ))[176] ، ((وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً))[177] ، ((وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ))[178] ، ((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ، وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ، وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ))[179] .

ـ وفي تفسير النسفي : (({ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم } كانوا أكثر منهم عددا وأشد قوة بدنا وآثارا في الأرض قصورا ومصانع ، { فما أغنى عنهم } ما نافية ، { فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ } يريد علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كما قال { يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون }))[180] .

ـ ((وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ))[181] .

ـ فمن الناس مَنْ يبني حياته علي أساس ما يراه عقله ومزاجه ، فيجعل الرأي هو المحور والأساس والمقياس والمرجعية الوحيدة التي يعيش بها حياته ، فيعيش وفق ما يميل إليه رأيه ومزاجه وهواه وما يشتهي ويريد ، وربما يصنع لنفسه قضية ويعيش لها ، فهذا يعبد هواه .

ـ ومن الناس من لا يعترفون بعجز العقل البشري أمام علم الله ويحسبون أن البشر هم الأسياد والملوك على هذه الأرض لما لديهم من قدرات العقل الهائلة ، فتتعلق كل مشاعرهم بالمخترعات الحديثة والتكنولوجيا والعلم الحديث وتنقطع عن الله والآخرة فلا وجود لله والآخرة في مشاعرهم وهمومهم وأهدافهم .

(175) الروم : 9
(176) الأنعام : 6
(177) مريم : 74
(178) الأحقاف : 26
(179) الفجر : 6 - 13
(180) تفسير النسفي ـ دار الكلم الطيب، بيروت (ج : 4 ، ص : 82)
(181) الحجر : 82، 83

ـ وفي تفسير السمعاني : (({ أم هم المسيطرون } أَي : الأرباب المسلطون))[182] ، وفي أيسر التفاسير للجزائري : (({ أم هم المسيطرون } أي المتسلطون الغالبون فيتصرفون كيف شاءوا))[183] .

5ـ الزوجة والأولاد :

ـ الناس والأهل والزوجة والأولاد لا ينفعوك ولا يضروك ولا يرزقونك وجميعهم مثلك مخلوقين ضعفاء لا حول لهم ولا قوة : ((لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ))[184] .

ـ فالإنسان يؤدي ما عليه من حقوق لهم لكن لا يعيش حياته من أجل زوجته وأولاده فيكون ذلك كل همه ومشاعره على حساب انصراف همه ومشاعره عن الله والآخرة : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ))[185] .

ـ فمن الناس من يعيش حياته من أجل أن يمد زوجته وأولاده بكل ما يحتاجونه فيكون مورد مالي فقط فيكون ذلك أكبر مشاعره وأهدافه ويكون ذلك أكبر سعادة له ثم يكتشف في النهاية أنه كان يحصد الهواء ويموت ويترك أولاده يتنعمون بما ترك لهم وهم لا يقيمون له وزنا في أنفسهم سواء في حياته أو بعد موته .

ـ المؤمن لا يعيش من أجل نفسه ولا يعيش من أجل زوجته وأولاده ولا يعيش من أجل أحد من الناس ولا عمل من الأعمال ، وإنما هو يعيش لله فقط ، والمؤمن يرى نفسه عابر سبيل مسافر ويرى الناس كذلك ، لذلك فهو ينظر إلى ما يحصله من الدنيا لنفسه ولغيره نظرة المسافر الذي يدبر ما يعينه على سفره هو وغيره ممن هو مسئول عنهم ، كما أنه يعلم أنه لن ينفعه أحد من الناس فلا ينشغل إلا بتحقيق إيمانه وطاعة الله تعالى .

6ـ العادات والتقاليد :

ـ من الناس من يظن أن ما يقوله الناس بعقولهم وآراءهم هو الصواب ، فهو يعظم قوانين العادات والتقاليد والعرف والمصالح والقوانين التي يصنعها الناس لأنفسهم ويتعلق مشاعره بها أكبر من تعلقها بالقيم الإسلامية وقوانين الحلال والحرام وأكبر من تعلقها بالله والآخرة فذلك من عبادة الهوى والمزاج والرأي .

ـ فمن الناس من يكون عندهم كل ما ينبني عليه عتاب من الآخرين أو خسارة اجتماعية أو عقاب من القانون فهو محل اعتبار واهتمام بدرجة أن أكبر مشاعرهم مرتبطة بذلك ، وكل التصرفات والحسابات مبنية على ذلك .

---

(182) تفسير السمعاني دار الوطن، الرياض (5 / 279)
(183) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة (5 / 182)
(184) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 6010 في صحيح الجامع)
(185) المنافقون : 9

ـ ومن الناس مَنْ أعماله مبنية علي أساس اعتبارات الناس ، فبدلا من أن يعيش أسيرا منقادا لله ، فهو اختار أن يعيش أسيرا منقادا لحسابات واعتبارات العادات والتقاليد وكلام الناس والوطن والجنسية والتعصب للعائلة أو الجنس أو الوضع الاجتماعي المعين أو المستوي المعيشي أو البيئة المحيطة أو التعود والألفة علي ما كان عليه الآباء والأصحاب : ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شيئا وَلا يَهْتَدُونَ))[186] ، وفي الحديث : ((من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس))[187] .

ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه : ((قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة فقال لولا أن تعيرني قريش أن ما يحمله عليه الجزع لأقررت بها عينك فأنزل الله عز وجل { إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء }))[188] .

7ـ الأماني :

ـ ((يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ))[189] .

ـ قد لا يقع الإنسان في الشهوات ، لكنه يعيش حياته متمنيا لها قريبا منها يدور حولها وإن لم يقع فيها ، فهو ينشغل باله بالشهوات ويسمع عنها ويتكلم بها ، ويجد سعادته في الإغراء بها وتمنيها ، فإذا كان تعظيمه لهذه الأماني أكبر من تعظيمه لله ، وإذا كانت مشاعره متعلقة بهذه الأماني أكبر من تعلقها بالله فهو يعبد الأماني .

ـ إذا كان أكبر ما يتمناه الإنسان وأكبر ما يحلم به وأكبر ما يرجوه وأكبر ما يطمح إليه سواء على سبيل التمني في خيال الإنسان كأن يتمنى الإنسان أن يعثر على كنز مثلا ، أو على سبيل الأمل في الوصول لشيء من الممكن تحقيقه ، فإذا كان أكبر ما يتمناه ويطمح إليه ويرجوه ويحلم به ويفكر فيه هو المال وأن يكون غنيا أو المظاهر أو الشهوات أو أي شيء من أمور الدنيا وشهواتها فهو يعيش من أجل الدنيا وإن كان يكذب على نفسه ويظن أنه يعيش لله ، أما المؤمن فإن أكبر ما يتمناه ويطمح إليه ويرجوه ويحلم به ويفكر فيه هو الوصول إلى الجنة ، ولا يتحقق الإيمان حتى يزول تعظيم قيمة الدنيا من القلب وبالتالي حتى يكون أكبر ما يحلم به الإنسان ويتمناه هو الجنة ورضا الله وليس العثور على كنز أو الوصول إلى ألوان الثراء الدنيوي والمناصب العليا وكامل التمتع بشهوات الدنيا .

(186) البقرة : 170
(187) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 6010 في صحيح الجامع)
(188) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 5 ، ص : 341)
(189) الحديد: 13، 14

ـ وقد تتعلق مشاعر الإنسان ببعض الشهوات كشهوة المظاهر أو بالمال أو شهوة النساء ...الخ ولكنها لا تصل إلى درجة أن تكون عبادة للمظاهر أو المال أو شهوة النساء .. الخ ، أي لا تكون أكبر مشاعره متعلقة بالمظاهر أو المال أو شهوة النساء .. الخ ، وذلك لأي واحدة على حدة ، ولكن قد تتعلق مشاعر الإنسان بمجموعة من الشهوات أو الأشياء فيكون مجموع تعلق مشاعر الإنسان بمجموع هذه الشهوات أكبر من تعلق مشاعر الإنسان بالله والآخرة ، وهذا هو الخطر .

ـ فمن الناس من تتوزع أهدافه على أمور كثيرة من أمور الدنيا حتى تمتلئ أهدافه فلا يوجد حيز لهدف آخر ، فهو يريد أن يكون كذا وكذا ، ويريد أن يحقق كذا وكذا من أهداف الدنيا ، فهو لا يعيش من أجل قضية معينة واحدة وإنما لعدة قضايا فلا يشعر أن مجموع هذه القضايا يمثل قضيته في الحياة ، فمجموع هذه الأهداف هو في حقيقته هدف واحد هو الدنيا ، وكذلك في حبه ومشاعره ، فإن مجموع المحاب أكبر من حب الله ، ومجموع المخاوف أكبر من الخوف من الله ، ومجموع الهموم أكبر من انشغاله بلقاء الله والآخرة ، فمثل هذا الرجل هو يعيش من أجل الدنيا وغايته الدنيا رغم أنه قد يكون مقتنعا تماما بأنه يعيش لله وغايته الله .

8 ـ التغلب على أعباء الحياة ومشاغلها :

ـ قد يعيش الإنسان كل حياته من أجل التغلب على أعباء الحياة ومشاكلها اليومية والتغلب على ما عنده من مشاكل وصراعات دنيوية والخروج من الفقر أو نقص المال وغير ذلك ، فيكون ذلك كل هدفه وكل مشاعره وكل همه ، فهو بذلك يعبد الدنيا رغم أنه لا يملكها ! .

ـ إن كل إنسان يريد أن يحل مشاكله ليصل إلى السعادة ، ولكن الفرق أن هناك من يرى مشاكله في الدنيا من الطعام والشراب والزواج والمسكن والحرية ...الخ ، ويرى أن سعادته هي في الدنيا بحل مشكلاته وتوفير الراحة ، ويستند إلى الحل باستخدام العقل والرأي السديد ، وعلى العكس فهناك من يرى أن مشاكله في الآخرة من البعث والوقوف بين يدي الله والحساب ومصيره إلى الجنة أو النار...الخ ، ويرى أن سعادته هي في الآخرة بحل مشكلاته والوصول إلى الراحة في الجنة ، ويستند إلى الحل باستخدام الشرع من الكتاب والسنة ، فالأول تدور مشاعره حول محور الدنيا فهو يعبد الدنيا ، والثاني تدور مشاعره حول محور الآخرة فهو يعبد الله ، فإذا لم يكن أكبر المشاعر متجهة لمشاكل الآخرة فذلك عبادة للهوى .

ـ إذا كان ارتباط مشاعر الإنسان بقضايا الدنيا أكبر من ارتباط مشاعره بقضايا الآخرة يدل ذلك على أن تعظيم الدنيا عنده أكبر من تعظيم الآخرة ، وهذا يعني إيثار الدنيا على الآخرة ، وهذا فضلا عن أن تكون مشاعره مرتبطة بقضايا الدنيا فقط من قضايا الزواج والأموال والتجارة والطعام والشراب والتعليم وغير ذلك من أمور الدنيا ولا وجود للآخرة في مشاعره .

9ـ الأسباب :

ـ قد يكون الإنسان على اقتناع تام بأن الله هو النافع الضار الشافي الرازق الوكيل الكفيل وأن كل شيء بيد الله وأنه متوكل على الله تماما ، لكن حقيقة مشاعره تقول أن كل شيء بالأسباب ، وأن كل شيء يمكن صناعته بالعمل ، وكل شيء يمكن شراءه بالمال ، وأنه يحصل على المال من كده وتعبه ، وأن الأسباب هي التي تفعل كل شيء ، فشعوره بالخضوع يكون للأسباب وشعوره بالخوف متعلق بالأسباب وشعوره بالحب للأسباب ، لذلك فهو يعيش في عالم الأسباب كل شيء عنده بالحساب وبالتخطيط وبالاستقراء وبالمعادلات الرياضية ، بل إنه يرى أن المشاعر نفسها يمكن صناعتها بالأسباب ! .

ـ فمشاعره تقول عندئذ : الأسباب هي التي تنفع وتضر ، والأسباب هي التي ترزق ، فبغير الأسباب ينقطع الرزق ، وما مع الإنسان من مال هو من كد يده فحصل عليه من سعيه ، والعقل والتخطيط هو الذي يقي الإنسان من المشاكل ، وفلان هو الواسطة الذي جلب لي الوظيفة المعينة ، والأسباب هي التي تصنع كل شيء ، فمثل هذا يعبد الأسباب ، وإن كان على اقتناع تام بأنه متوكل على الله تعالى !! ، فهو اقتناع كاذب .

ـ فرجاؤه في الأسباب أكبر من رجاؤه في الله ، وخوفه من الأسباب أكبر من خوفه من الله ، وخضوعه لقانون الأسباب أكبر من خضوعه لله ، فلا يشعر أن الأسباب مخلوقة ولا تملك نفعا ولا ضرا ، وكل حزنه وفرحه وهمه وأمله في الأسباب ، وتأثر مشاعره يعتمد ويتوقف على الأسباب لا على الله .

ـ والذي يعبد الأسباب يفسر كل شيء بالأسباب ، فما حدث كان لأسباب وما سيحدث فهو بأسباب ، فهو يقوم بإيقاف تفكيره خارج حدود الأسباب ، وهو يقوم بالعمل على أساس المكسب والخسارة الدنيوية ، فالفوز عنده هو الفوز في الدنيا والخسارة هي الخسارة في الدنيا ، وليس للآخرة وجود في مشاعره وهمومه وتفكيره وأمانيه وحساباته ، فهو علماني في مشاعره وهمومه وتفكيره وأمانيه ، وفي قصة قارون خير دليل على ما نقول حيث قال : ((قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي))[190] .

10 ـ الزمان :

ـ من العجيب أن البعض قد يرضى عن الدنيا والزمان على أنه هو الذي يصيب الإنسان بالبلاء وهو الذي قدر المرض والشيخوخة والموت على الإنسان ، ولأن الزمان هو شيء معنوي فهو يقصد بالزمان أنه لا شيء خلقه وإنما وجد هكذا من غير شيء ـ وذلك في مشاعره وليس في يقينه النظري ـ : ((أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ))[191] ، وربما تسمع في الأغاني ما يفيد أن الزمان هو الذي يفعل بنا الأفاعيل .

11ـ صور أخرى من عبادة الهوى :

(190) القصص : من الآية 78
(191) الطور : 35

ـ من دروس الشيخ عائض القرني : ((فإنك ترى من الناس من هو عبد للسيارة، وعبد للوظيفة، وللمنصب، وللأغنية، وللكرة، وللمجلة، وللفيديو، وللمسلسل، وللهواية: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً} [الجاثية:23] ويقول عليه الصلاة والسلام في الصحيح : {تعس عبد الدينار -بعض الناس يعبد المال، وهو أحب إليه من الله- تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش} وبعضهم يعبد العمارة والتخطيط والصبة والخلطة والحديد ولبن البناء. وبعضهم يعبد السيارة، فتجد اعتناءه بشخصيته وسيارته أكثر من اعتنائه بصلاته))[192] .

ـ في شرح فتح المجيد للغنيمان : ((ومعروف أن العبادة يجب أن تكون لله ولا يجوز أن تكون لأحد غير الله جل وعلا، والعبادة قد يقصد بها شيء محسوس مشاهد كما هو معروف عند الكفار والمشركين: منهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الشجر والحجر، ومنهم من يعبد القبور كما هو معلوم، وقد تكون العبادة متجهة لشيء معنوي من رئاسة ومنصب ووظيفة أو مال، وكثير من الخلق اليوم يعبدون بطونهم وفروجهم نسأل الله العافية؛ لأنهم يعملون على تحصيل شهواتهم فقط، فهذه أهم ما لديهم، وكذلك كثير من الناس يعبد حبه وإراداته وشهواته كما قال الله جل وعلا: { أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ } [الجاثية:23]، يقول العلماء: { من اتخذ إلهه هواه } معناه : الذي إذا اشتهى شيئاً فعله بدون مراقبة لله جل وعلا أو خوف منه، أو يرجو ثوابه، بل يقدم هوى نفسه))[193] .

ـ ومن دروس للشيخ سلمان العودة : ((وإنما يصرف عن الدين {الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ} [الذاريات:11] مشغولون بتفاصيل حياتهم اليومية، من وظيفة، وطعام، وشراب، وبرنامج يومي، ومشاريع بعد مشاريع، دراسة، ثم وظيفة، ثم زواج، ثم سفر، ثم مشاريع اقتصادية، ثم مشاريع علمية، ثم دنيوية، ثم، ثم حتى تنتهي حياة الواحد منهم وهو لم يجد وقتاً للتفكير، فهو في غمرة، أي في لهو، وغفلة، ولذلك هناك كفر اسمه كفر الإعراض، قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ} [الأحقاف:3] لأنهم ما فكَّروا أصلاً، فهذا إذا جاءه الموت صحا قال تعالى: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق:22]))[194].

****

الفصل التاسع

(192) من دروس الشيخ عائض القرني (224/ 12، بترقيم الشاملة آليا)
(193) شرح فتح المجيد للغنيمان (97/ 15، بترقيم الشاملة آليا)
(194) من دروس للشيخ سلمان العودة (14/ 6، بترقيم الشاملة آليا)

المفهوم الخاطئ لمعنى لا اله إلا الله

ـ الذي يقول : (أنا معي مائة جنيه) وليس معه مائة جنيه فهو إما كذاب أو لا يفهم ما يقول ، فكذلك قول : (لا إله إلا الله) يقولها البعض ولا يفهم ما يقول .

ـ هناك ثلاثة عناصر هي المعرفة والمشاعر والهدف ، فالذي نعرفه يسمى رب ، والذي يتعلق به المشاعر والهدف يسمى إله ، والمعرفة بالله إذا لم تؤدي إلى المشاعر والهدف فهي معرفة كاذبة والإنسان لا يزال لا يعرف من هو ربه معرفة حقيقية ، ونوضح ذلك كالتالي :

ـ التوحيد نوعين :

1ـ توحيد يتعلق بالعلم :

ـ فهو توحيد علمي خبري اعتقادي معرفي ، وهذا القسم يشمل توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات ، فهو علم واعتقاد بأن الله تعالى متصف بالصفات الكمالية التامة ومنزه عن العيوب والنقائص .

2ـ توحيد يتعلق بتوجه العمل :

ـ ويسمى العبادة أو توحيد الألوهية وهو معنى لا إله إلا الله .

ـ كل إنسان لابد له أن يعمل بقلبه وجوارحه ، فإذا كان يتجه بقلبه وجوارحه لله فهو يعبد الله ، وإذا يتجه بقلبه وجوارحه للدنيا فهو يعبد الدنيا .

ـ وتوحيد الألوهية يشمل :

أـ الهدف ويسمى الإخلاص : ومعناه أنه لا يعيش لنفسه وللدنيا وإنما يعيش ذليلا لله من أجل رضاه ومن أجل الآخرة .

ب ـ مشاعر وتسمى عمل القلب : وهو أن يكون حبه لله وليس للدنيا والمال والشهوات وأن يكون خوفه ورجاءه من عقاب الله وثوابه وليس من فوات الدنيا او الحصول عليها وأن يشعر بالذل والخشوع والاخبات لله تعالى وحده .

ج ـ أعمال جوارح : وهي ألا يوالي إلا له ، ولا يعادي إلا فيه ، ولا يسأل إلا الله ولا ينذر إلا له ، ولا يسجد إلا لله تعالى وأن يخضع لأوامر الله تعالى .

ـ توحيد الألوهية عبارة عن هدف ومشاعر وأعمال جوارح ، فهدف الإنسان ومشاعره وعمله هو الذي يحدد من هو الإله الذي يعبده الإنسان وليس قوله بلسانه وليس اقتناعه ويقينه ، فالذي يتجه إليه هدف الإنسان ومشاعره وجوارحه يكون هو الإله الذي يعبده الإنسان .

ـ فمثلا إذا قال الإنسان بلسانه أنه يعبد الله وحده ، واقتنع بيقين جازم أنه لا يعبد إلا الله ، وكانت مشاعره وهدفه وعمله لا تتعلق إلا بالدنيا فهو يعبد الدنيا وليس الله ، وقوله كاذب ويقينه كاذب .

ـ أما كلمة (رب) فهي على العكس مما سبق ، فهي مسألة معرفية وليست عملا بالجوارح ولا مشاعر ولا هدف ، فتتم من خلال اليقين والاقتناع فحسب .

ـ فالرب هو الخالق الرازق المحي المميت النافع الضار الذي له كل صفات الكمال .
ـ والاله أي المعبود أي الذي يُعبَد ، أي الذي أتجه اليه بقلبي وجوارحي .

ـ المشكلة أن الكثير من الناس تتعامل مع لا اله إلا الله على أنها لا رب إلا الله فتحسبها مسألة معرفية وأنها مسألة يقين في القلب .

ـ الأمر الثاني هو أن الإنسان اذا كان يوقن بأن الله هو رب الكون وفي نفس الوقت لا يعبد الله ويعبد الدنيا ، أي تتعلق مشاعره وهدفه وعمله بالدنيا ولا تتعلق بالله فيقينه بأن الله هو رب الكون هو يقين نظري فقط ، لأنه اذا كان يقينا حقيقيا لنشأ عنه مشاعر متعلقة بالله تعالى (عمل القلب) ولجعل هدفه الله ولعمل لله تعالى بجوارحه ، فتوحيد الربوبية إذا كان صادقا فلابد أن يؤدي تلقائيا إلى توحيد الألوهية .

ـ لذلك قد يؤمن الإنسان بربوبية الله أما في الألوهية فيتخذ إلاها غير الله تعالى ، ففي تفسير الطبري : ((عن مجاهد : { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } [يوسف : 106] ، إيمانُهم قولهم : الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا ، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيرَه))[195] ، لذلك جاءت الرسل أساسا من أجل توحيد الألوهية .

ـ لذلك قد يتخذ الإنسان الله ربا ويتخذ المال إلاها .

ـ لا إله إلا الله معناها لا أعبد إلا الله ، والعبادة هي توجه عمل القلب والهدف والجوارح ، فاذا اتجه للمال فهو يعبد المال رغم أنه يقول لا أعبد إلا الله ومقتنع بذلك فهو لا يفهم ما يقول ، فهو لا يعبد إلا المال ويقول لا أعبد إلا الله .

ـ توحيد الربوبية التام يؤدي تلقائيا إلى توحيد الألوهية ، أما توحيد الربوبية النظري فقط فلا يؤدي إلى توحيد الألوهية ولا معنى له ووجوده مثل عدم وجوده لأنه أصبح كأنه كلام في الهواء رغم أنه يتحقق به الاعتقاد الصحيح بربوبية الله .

ـ المفهوم الخاطئ لعبارة (لا إله إلا الله) :

(195) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (16/ 287)

ـ البعض يتعامل مع هذه العبارة على أنها لا رب إلا الله ، ومعنى لا إله إلا الله الصحيح أي لا أعيش إلا لله ، والشرك معناه أعيش لغير الله سواء لشيء حسي كالصنم أو شيء معنوي كالجاه والمال وغير ذلك .

ـ العبادة ليست مسألة اقتناع فقد يكون الإنسان على اقتناع تام بأنه يعبد الله في حين أنه يعيش للدنيا وليس الآخرة ولا تتعلق مشاعره إلا بالدنيا ولا يعمل إلا لها ثم هو يحسب أنه يعبد الله تعالى .

ـ فمن الناس من يتجه بعمله (عمل القلب والهدف والجوارح) إلى الله وحده فذلك توحيد الألوهية (معنى لا إله إلا الله) ، ومنهم من يتجه بعمله (عمل القلب والهدف والجوارح) إلى الدنيا أو الأصنام أو غير ذلك فذلك الشرك .

ـ توحيد الألوهية عبارة عن عمل (بالقلب والجوارح) وليس مسألة اقتناع :

ـ ففي شرح كشف الشبهات للحازمي : ((توحيد المعرفة والإثبات ، أو التوحيد الخبري ، ... يقابل من جهة المخاطَب والمُخْبَر أما بتصديق وإما بتكذيب، ولذلك سماه ابن القيم التوحيد الخبري، وأشار إلى سبب هذه التسمية ابن تيمية رحمه الله تعالى في ((التدمرية)) : توحيد المعرفة والإثبات ويسمى التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي لأن مبناه على الاعتقاد والمعرفة ..... النوع الثاني من نوعي التوحيد: هو توحيد الطلب والقصد، ويسمى التوحيد العملي، إذًا توحيد علمي، وتوحيدٌ عملي، هكذا قال ابن تيمية، توحيدٌ علمي قولي، وتوحيدٌ عملي. إذًا الثاني فيه عَمَل فيه قَصْد فيه طَلَب إرادي، فيه إرادة، وهذا المراد به توحيد الإلهية، ... وهو توحيد الله بأفعال العباد))[196] .

ـ ولاحظ أن العمل يشمل الأعمال القلبية كالحب والخوف والرجاء والهدف (الإخلاص) وأعمال الجوارح .

ـ المفهوم الخاطئ لمعنى الشرك :

ـ يفهم البعض أن كلمة الشرك تعني فقط شرك الربوبية ، لذلك فهو مطمئن تماما إلى عدم وقوعه في الشرك ، فهناك نوعين من الشرك هما :

1ـ الشرك في الربوبية :

ـ ومعناه الاقتناع النظري بأن غير الله يستطيع أن يرزق أو ينفع أو يضر أو يعلم الغيب أو غير ذلك من الصفات التي لا تكون إلا لله تعالى ، مثل الاعتقاد في الأولياء بأنهم ينفعون أو يضرون ، والاعتقاد بأن المخلوق يمكنه أن يرزق المخلوق أو يمنع عنه الرزق أو يمكنه أن يضر أو ينفع من دون الله تعالى ، والاعتقاد بأن الشفاء من الطبيب أو الدواء ، واعتقاد

(196) شرح كشف الشبهات للحازمي (2/ 5، بترقيم الشاملة آليا)

التوفيق في حياة العبد من ذكائه أو جهده واجتهاده ، والاعتقاد بأن للمخلوق حقًّا في سن القوانين وتشريعها ، وهي تلك النظم التي تحكم في أموال الناس وأعراضهم ... الخ .

2- الشرك في الألوهية :

- ومعناه هدف الإنسان ومشاعره (كالحب والخوف) وعمله إلى أي شيء يتجه ، فإن كان يتجه لله والآخرة فهو يتخذ الله إلاها ، وإن كان يتجه للدنيا أو المال أو الشهوات أو غير ذلك فهو يتخذ الدنيا إلاها أو المال إلاها أو الشهوات إلاها من دون الله ولكن لا يتخذ ربا آخر غير الله ، ومن أنواع الشرك في الألوهية عبادة الدنيا وشرك الإرادة .

****

الفصل العاشر

شرك الإرادة

- ما هي القضية التي يجب أن تجعلها هدفك ؟ :

- لا يمكن لإنسان أن يعيش بغير قضية أساسية تكون هي هدفه يحيا بها ويعيش لها ويتجه إليها بمشاعره وهمومه ، فكل إنسان له قضية هي أهم شيء في حياته ، وهذه القضية تكون هي محور حياته ومستقبله ومصيره .

- الإنسان أمامه قضايا كثيرة منها مثلا مشاكل في عمله الذي يتكسب منه ، أو تطلع للترقي في عمله ، ومشاكل في بيته أو واجبات والتزامات يومية يجب القيام بها نحو أسرته ، وتوفير كل ما يحتاجه أولاده وأسرته ، وأمور للتسلية أو الترفيه تعَوَّد عليها ، أو التطلع لشراء مسكن أو سيارة ، أو القيام بعمل تجاري ، أو التوسع في مشاريع لزيادة الدخل ، وتوفير الطعام والشراب أو التوسع فيه ، والاهتمام بمظهر الإنسان أمام الناس ، والتطلع إلى شهوات النساء أو الطعام والشراب أو زيادة المال أو الحصول على شهادات أو مناصب أو التغلب على أعباء الدراسة والزواج والتطلع إلى الحياة المريحة أو ما يتعرض له من ظلم الإنسان لغيره .

- هذه قضايا كثيرة ، العاقل ينظر إليها ويقارنها ببعضها ليرى أيها أخطر وأيها يجب أن تشغل تفكيره وأيها يختارها لتكون قضيته وشغله الشاغل طوال حياته ، كل القضايا المتعلقة بالدنيا ليست بشيء أمام قضية الموت والآخرة ومعرفة الخالق ، لأن جميع القضايا المتعلقة بالدنيا تفنى سريعا مع فناء الدنيا ، والذين كانت تشغلهم هذه القضايا الدنيوية فكانت شغلهم الشاغل

قد ماتوا الآن فأيها يفيدهم الآن ، فالذين يعيشون وتنشغل عقولهم طوال حياتهم بقضية الموت والاستعداد له والآخرة وما بها ومعرفة الخالق هؤلاء هم العاقلين وغيرهم لا عقل لهم ، وهؤلاء أيضا قد تنشغل عقولهم بمشاغل الحياة ولكنه انشغال عابر مؤقت قليل وهو أيضا انشغال كفرع من أصل ، فعليه أن يتغلب على بعض أعباء الحياة ولكنه يتقلل من أعباء الحياة قدر ما يستطيع وينشغل عنها بما هو أخطر .

ـ مفهوم شرك الإرادة :

ـ إذا كان هدف الإنسان أن يعيش للدنيا ولا يعيش للآخرة فهذا يسمى شرك الإرادة .

ـ وإذا كان هدف الإنسان أن يعيش للآخرة وليس للدنيا فهذا يسمى بالإخلاص : (قل الله أعبد مخلصا له ديني) .

ـ شرك الإرادة يدل على كفر الاعراض عن المعرفة التامة وعبادة الدنيا وكفر الاستكبار :

ـ غياب الهدف (شرك الإرادة) يدل على غياب أثر المعرفة التامة وبالتالي يدل على غياب المعرفة التامة (كفر الإعراض عن المعرفة التامة) .

ـ غياب الهدف (شرك الإرادة) يعني عبادة الدنيا (عبادة الدنيا هي تعلق المشاعر والهدف بالدنيا بدلا من التعلق بالله والآخرة) .

ـ غياب الهدف (شرك الإرادة) معناه أن يرفض أن يعيش لله لأن ذلك معناه أن يعيش عبدا ذليلا ومعناه أنه لا يعيش لذاته ، لذلك فهو كفر استكبار .

ـ الهدف والوسيلة :

ـ كل إنسان له هدف يعيش له ، إما أن يكون الهدف تحقيق رغبات نفسه كأن يعيش من أجل المال أو الشهوات أو غير ذلك ، وإما أن يكون هدفه تحقيق مراد الله منه ويتخلى عن رغبات نفسه فلا تكون هدفه .

ـ معرفة الإنسان بالله والآخرة تؤدي إلى أن يعيش للآخرة ، فإذا أراد الإنسان ألا يعيش للآخرة فلابد من إلغاء معرفته بالله والآخرة (نسيان الله والآخرة ـ الإعراض عن معرفة الله والآخرة) .

ـ وإذا كان يريد أن يعيش للآخرة فانه يحقق هدفه عن طريق المعرفة الحقيقية بالله والآخرة .

ـ ولماذا لا يريد الإنسان ألا يعيش للآخرة ؟ ، لأنه لا يحب حياة الخضوع فيهرب من الخضوع ليعيش للدنيا .

ـ فهو يريد ويرجو ألا تكون هناك آخرة وحساب ـ رغم أن القضية ليست بمزاجه ـ لأن وجود الآخرة يفسد عليه حياته ويجعله يعيش للآخرة ، فيلجأ إلى التكذيب بالآخرة أو الإعراض عن الآخرة (نسيان الآخرة) أو كلاهما : ((إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))[197]

ـ ولكي يعيش للدنيا هو أيضا لا يريد أن يموت لأن الموت ينغص عليه حياته فيتناسى الموت .

ـ فالناس يوقنون بالموت والآخرة ولقاء الله ، وأمامهم أمرين هما إما الهروب من الموت والآخرة ولقاء الله من خلال نسيان الموت والآخرة ولقاء الله فيكونوا كالذي يغمض عينيه حتى لا يراه الأعداء ! ـ وهذا لا يفيد لأن الموت والآخرة ولقاء الله قادم سواء تجاهل الإنسان ذلك أم لم يتجاهله ـ أو يعيش خاضعا ذليلا لله تعالى .

ـ إذن إذا كان هدف الإنسان أن يعيش للدنيا فالوسيلة التي يستخدمها لتحقيق هدفه هو إلغاء معرفته بالله والآخرة (نسيان الله والآخرة) ، لأن المعرفة بالخالق تؤدي إلى الشعور بالذل والعيش خاضعا كما أن المعرفة بأوامر الله توجب عليه ذلك .

ـ الأدلة على شرك الإرادة :

ـ الهدف هو إما الدنيا وإما الآخرة ، فهناك طريقتين للحياة هما إما أن يعيش للدنيا أو يعيش للأخرة ، والإنسان عليه الاختيار .

ـ القرآن يعبر عن الهدف بكلمة (يريد) وبكلمة (يرجو) وبكلمة (الوجه) وبكلمة (الإخلاص) كالتالي :

ـ ((مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))[198] .

ـ ((مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا))[199] .

ـ ((مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ نَصِيبٍ))[200] .

(197) يونس : 7، 8
(198) هود : 15، 16
(199) الإسراء : 18، 19
(200) الشورى : 20

ـ ((فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ))[201] .

ـ وفي التفسير الوسيط للواحدي : (({ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ } [الأنعام : 79] قال الزجاج : جعلت قصدي بعبادتي وتوحيدي لله عز وجل))[202] .

ـ ((فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ))[203] ، ((وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ))[204] ، ((فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ))[205] ، ((وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ))[206] .

ـ ((فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ))[207] .

ـ وعبارة (لا يرجون) أي لا يريدون أن يعيشوا للآخرة ، أي هدفهم ليس الآخرة وإنما هم يريدون أن يعيشوا للدنيا :

ـ ((إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))[208] ، ((بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا))[209] .

ـ وعبارة (ارجوا اليوم الآخر) تعني اجعلوا هدفكم من معيشتكم الآخرة ، ففي تفسير أبي السعود : (({ وارجوا اليوم الآخر } أي توقَّعوه وما سيقعُ فيه من فُنون الأهوالِ وافعلُوا اليوم من الأعمالِ ما تأمنون غائلتَهُ))[210] .

ـ لماذا يختار الإنسان أن يعيش للدنيا ويرفض العيش للآخرة ؟ :

ـ أمام الإنسان أمران هما : إما أن تكون له حياته المستقلة به فيدير أموره بنفسه ويفعل ما يريد ويرغب ، فيعيش حياته حرا يفعل ما يشاء ، وإما أن يجعل حياته لأحد غير نفسه ، فيعيش عبدا خاضعا لسيده ومولاه رب العالمين ، فيضع نفسه وما يملك ورغباته وحياته تحت تصرف سيده ، والنفس تستكبر أن تعيش معيشة العبيد والإنسان لا يريد يذل لأحد أو يعيش كأسير أو خادم يلبي أوامر سيده ، ولا يريد أن يلغي إرادته ورغباته وشخصيته المستقلة ويعيش تابعا منهزما تحت إرادة قاهر له .

(201) القصص : 79 ، 80
(202) التفسير الوسيط للواحدي (2/ 291)
(203) آل عمران : 20
(204) يونس : 105
(205) الروم : 43
(206) لقمان : 22
(207) الزمر : 2
(208) يونس : 7، 8
(209) الفرقان : 40
(210) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (7/ 39)

ـ الإنسان لا يريد ترك محبته للدنيا ولا يريد أن يعيش حياته ذليلا لأحد أيا كان فيؤثر محبة الدنيا على محبة الله ويرفض أن يعيش ذليلا لله أو لأي أحد ، ويرفض أن يقيد نفسه بأوامر لأحد عليه ، ولا يريد أن يتخلى عن حريته ليعيش خاضعا كالعبد الذي كان يباع ويشترى في الماضي .

ـ هل تتصور لو أنك تعيش حياتك بناءا على ما يريده ويحبه شخص آخر ، فكأنك إنسان آلي تسير بالريموت كنترول فما يريده هذا الشخص تفعله له وما يحبه تفعله له ، فالإنسان الآلي ليس له حياته الخاصة وليس له رغبات ولا يسير من تلقاء نفسه وإنما تبعا لمن يريده منه هذا الشخص .

ـ أنت ترى أن الطبيعي أن الإنسان يعيش حياته بناءا على ما يريده هو لنفسه وما يحبه ويهواه لنفسه ، وما يحقق رغباته .

ـ هذا الأمر صحيح فقط إذا كان الإنسان حرا وليس عبدا ، أما إذا كان الإنسان عبدا فإنه يعيش حياته تبعا لمراد سيده ، وهكذا يجب أن يكون حال الإنسان مع الله تعالى .

ـ العبادة في اللغة هي الذل والخضوع ، والذل والخضوع في الشرع هو أصل العبادة وأصل الدين ، معنى الخضوع والذل هو أن يُخضِع الإنسان نفسه ويذلها ويكسرها ويمنعها من تلبية رغباتها اذا ما تعارضت مع مراد الله وأوامر الشرع ، والخضوع يشمل خضوع القلب (ويسمى خشوع القلب) ، وخضوع الجوارح لأوامر الله تعالى .

ـ إذن معنى عبادة الله ألا تعيش لنفسك وإنما تعيش لغيرك (وهو الله سبحانه) وذلك من أجل إرضاء الله ومن أجل الآخرة . وبتعبير آخر هو تغليب مراد الله والدين على مراد نفسك وما تحبه نفسك ، وأصعب شيء على الإنسان هو أن يتنازل عن إرادته . ...

ـ فعبادة الله معناها أن يعيش الإنسان حياته وفقا لأوامر الله تعالى وأكثرها أوامر تخالف رغبات نفسه وهذه المخالفة مقصودة من الله تعالى حتى يتميز أنه خاضع لله وليس لما يريده الإنسان لنفسه : ((لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ))[211] .

ـ فعبادة الله معناها أن يعيش الإنسان بناءا على مراد الله منه وليس على ما يراه هو لنفسه وما يحبه وما يهواه فهو مقيد أو خاضع لمراد الله ، وهذا معناه مخالفة ما تهواه نفسه وهذا أمر صعب جدا إلا لمن يعي حقيقة نفسه أمام قدر الله تعالى ، فإما أن يخضع لله أو للشهوات .

ـ والإنسان عليه أن يختار لنفسه الطريقة التي على أساسها يعيش ، هل يبني حياته وفقا لرغبات نفسه أم مخالفة نفسه ووفقا لمراد الله ؟ ، فلمن تستجيب ؟ : ((فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ

(211) آل عمران : 92

عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى))[212] .

ـ لماذا يختار الإنسان أن يعيش لله ويرفض العيش للدنيا ؟ :

ـ إذا عرف الإنسان الله أحبه وذل له وخافه ورجاه ، فيؤدي ذلك إلى أن يجعل هدفه أن يعيش لله حبا وذلا وخوفا ورجاءا .

ـ كيف يبعد الإنسان نفسه عن حياة الخضوع ؟ :

ـ يفسد معرفته بالله والآخرة ، فيصبح كانه لا يعرف الله ولا الآخرة وبالتالي لا يشعر بالذل ولا يعيش خاضعا .

ـ أمثلة لشرك الإرادة :

ـ لاحظ أن عبادة الدنيا تشمل شرك الإرادة وشرك المحبة (توجه المشاعر إلى الدنيا وابتعادها عن الله تعالى) فصور شرك الإرادة هي أيضا صور لعبادة الدنيا .

ـ يمكن تقسيم الناس حسب أودية الدنيا الواردة في الحديث : ((من جعل الهم هما واحدا كفاه الله هم دنياه ومن تشعبته الهموم لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك))[213] ، فكل واحد يسير في واد من أودية الدنيا تكون همه وقضيته بينما المؤمن همه وقضيته الآخرة ، وهذه الأصناف كالتالي :

1ـ صنف من الناس عقولهم مبنية على شهوات النساء فلا يفكرون إلا في ذلك ولا ينشغل همهم إلا بذلك ولا يسعون إلا لذلك ولا يرغبون إلا في ذلك .

2ـ صنف من الناس عقولهم مبنية على المال والحصول عليه فلا يفكرون إلا في ذلك ولا ينشغل همهم إلا بذلك ولا يسعون إلا لذلك ولا يرغبون إلا في ذلك .

3ـ صنف من الناس عقولهم مبنية على المظاهر والمناصب والألقاب والشهادات العلمية والحصول علي ذلك ، فلا يفكرون إلا في ذلك ولا ينشغل همهم إلا بذلك ولا يسعون إلا لذلك ولا يرغبون إلا في ذلك .

4ـ صنف من الناس عقولهم مبنية على مشاغل الحياة وهمومها وأعمالها لتصبح قضيتهم ، فلا يفكرون إلا في ذلك ولا ينشغل همهم إلا بذلك ولا يسعون إلا لذلك ولا يرغبون إلا في ذلك .

5ـ صنف من الناس عقولهم مبنية على كل شهوات الدنيا ومشاغلها أو بعضا من ذلك ، فلا يفكرون إلا فيها ولا ينشغل همهم إلا بها ولا يسعون إلا لها ولا يرغبون إلا فيها مع التفاوت ، فمنهم من يكون أكبر تفكيره في المال ثم المظاهر ثم شهوات النساء مثلا وغير ذلك .

(212) النازعات : 37 - 41
(213) حديث حسن (صحيح الترغيب والترهيب ج : 3 ، برقم : 3170)

6ـ صنف من الناس عقولهم مبنية على الآخرة ولقاء الله ومعرفته ، ليست الدنيا كل همهم فرغم انشغال همهم بالدنيا إلا أن همهم الأساسي منشغل بالله والآخرة ، وهؤلاء هم أهل جنات النعيم وغيرهم يعبدون أهواءهم .

ـ الهدف الأساسي والهدف الفرعي :

ـ الهدف الأساسي هو الشيء الذي يعيش له الإنسان فإذا كان شيئا من الدنيا فذلك شرك إرادة .

ـ الهدف الفرعي يخدم الهدف الأساسي ، فيكون هدف الإنسان الفرعي جلب الطعام والشراب من أجل إزالة العوائق التي تعيقه عن تحقيق هدفه الأساسي وهو العيش للآخرة ، فالهدف الفرعي يخدم الهدف الأساسي وهو العيش للآخرة ، ولكن ما أسهل أن يضحك على نفسه فلديه يقين نظري كاذب بأنه يعيش للآخرة وحقيقة همه ومشاعره وسعيه تقول بأنه يعيش للدنيا وهو يعتبر أن معيشته للدنيا من أجل الآخرة !! .

ـ إذا كانت نية الإنسان من عمله الدنيا فهذه معصية : ((مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخرة))[214] .

****

الفصل الحادي عشر

الهدف الكاذب

ـ إذا عرف الإنسان الله والآخرة أدى ذلك إلى حب الله والذل له وخوفه ورجاءه ، فيؤدي ذلك أن يجعل هدفه أن يعيش لله حبا وذلا وخوفا ورجاءا .

ـ فإذا قال إنسان : أنا أعيش لله وليس لنفسي ، والسؤال : لماذا تعيش لله وليس لنفسك ؟ ، والإجابة : حبا لله تعظيما له أو ذلا له أو حياءا منه أو خوفا من العقاب أو رجاءا في الثواب ، فإذا كانت هذه المشاعر غير موجودة عنده على سبيل الحقيقة فهو كذاب .

ـ فقد يكون لدى الإنسان يقين نظري تام بأنه يعيش للآخرة ، ولكن بدون الوعي بالآخرة وبدون المشاعر التي تنشأ من المعرفة الحقيقية بالآخرة فهو يقين كاذب وهدف كاذب .

ـ ادعاء الهدف وادعاء اليقين بأنه يعيش للآخرة :

ـ قد يكذب الإنسان على نفسه ويحسب أنه يعيش للآخرة ولا يدري أنه لا يعيش إلا للدنيا فهمه ومشاعره وسلوكه وانفعالاته وكلامه وعمله يكشف حقيقة هدفه ، فتجد الإنسان يلهث

(214) آل عمران : 152

وراء المال وقلبه يتقطع على المال ولا هم له ولا عمل له غير الحصول على المال ورغم ذلك تجده على اقتناع نظري تام بأنه لا يعيش من أجل المال ويحسب أنه يعيش من أجل الله والآخرة رغم أنه لا يعرف الله الذي يدعي أنه يعيش من أجله ولا يعرف الآخرة التي يدعي أنه يعيش من أجلها ! ، لأنه لو عرف الله والآخرة معرفة حقيقية لعاش لله وليس للمال .

ـ المعرفة أولا أم الهدف ؟ :

ـ الناس صنفين منهم من يبدأ بمعرفة الأشياء أولا ثم يحدد هدفه بناءا على ذلك ، وهؤلاء هم العقلاء ، ومنهم من يحدد هدفه أولا ويبتعد عن معرفة أي شيء يخالف هدفه ، وهؤلاء هم الأغبياء . ونوضح ذلك كالتالي :

1ـ الصنف الأول يبدأون أولا بمعرفة الله والآخرة معرفة حقيقية وبالتالي يعرفون حقيقة أنفسهم وحقيقة الدنيا ، وتؤدي المعرفة إلى أن يحددوا هدفهم وهو العيش من أجل الله طلبا لرضاه وطلبا للآخرة .

2ـ الصنف الثاني يبدأون أولا بتحديد هدفهم وهو العيش من أجل الدنيا ، ويؤدي ذلك إلى أن يغلقوا عقولهم ويعرضوا عن معرفة الله والآخرة وحقيقة الدنيا معرفة حقيقية حتى لا يعيشوا أذلاء لله .

ـ الترتيب الطبيعي المعرفة أولا وينشأ عنها المشاعر وينشأ عن المشاعر الهدف ، فالإنسان يحدد أن هدفه أن يعيش لله حبا له وذلا له وخوفا ورجاءا .

ـ شرك الإرادة يؤدي إلى كفر الإعراض عن المعرفة الحقيقية :

ـ الذي يريد أن يعيش للدنيا يتجاهل الموت والبعث والآخرة ولقاء الله ويتجاهل التعرض للمرض والمحن ويتجاهل الوصول للشيخوخة ويتجاهل أن الدنيا دار اختبار وأنها مؤقتة ، فالمعرفة بالموت والبعث والآخرة ولقاء الله والمرض والشيخوخة عنده هي معرفة نظرية فقط وليست معرفة حقيقية ، فيعيش وكأنه خالد في الدنيا وكأن الدنيا دار اقامته وليست الآخرة وكأنه لم يسمع عن شيء اسمه الموت أو الآخرة ولقاء الله تعالى .

ـ وربما بعض هؤلاء يعرفون الموت معرفة حقيقية ولكن على أساس أنه نهاية كل شيء وليس على أساس أنه بداية للحياة الآخرة فلا يعرفون البعث والآخرة ولقاء الله تعالى معرفة حقيقية .

ـ أثر شرك الإرادة على المعرفة الحقيقية والعمل :

ـ الذي يعيش للآخرة يتعامل مع الدنيا على أنها مؤقتة عابرة وأنها دار سفر ، أما الذي يعيش للدنيا فيتعامل مع الدنيا على أنها داره ومقامه كأنه خالد فيها ومستقر فيها رغم اليقين الكاذب بأن الدنيا دار ممر وأن الآخرة هي دار إقامة ورغم اليقين الكاذب بأنه يعيش للآخرة ! .

ـ لماذا يتجاهل الإنسان الآخرة ؟ :

ـ الذي يريد أن يعيش للدنيا لا يريد أن يذهب إلى الآخرة ، ونظرا لأنه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الذهاب للآخرة فيلجأ إلى حيلة وهي أنه يغمض عينه عن الآخرة ويتناساها فيعيش كأنه لا آخرة رغم اليقين النظري التام بها ، وهذه حيلة الأحمق .

ـ كل الناس مسافرون إلى الآخرة ولقاء الله تعالى رغما عنهم سواء رضوا بذلك أم لم يرضوا ، وكل الناس ذاهبون إلى الموت رغما عنهم ، والفرار من الآخرة ومن لقاء الله ومن الموت وتناسي ذلك والتغافل عنه وتجاهله لن يفيدهم شيئا .

ـ فالهروب من الآخرة بالتغافل عنها لن يمنع من مجيئها ولكنها حيلة الأحمق .

ـ الإعراض عن معرفة أي شيء يعوق العيش للدنيا :

ـ لو أن إنسانا يعيش في منزل آيل للسقوط ، لكنه لا يريد أن يغادر المنزل فماذا يصنع ؟ ، يتناسى الأمر كأنه غير حاصل ويشغل تفكيره بأمور أخرى حتى لا ينشغل تفكيره بذلك الأمر ، وهذا من الغباء طبعا .

ـ كذلك الذي سوف تنتهي حياته في أي لحظة ، لكنه لا يريد أن يترك الدنيا التي يعتبرها داره وفيها متاعه فماذا يصنع ؟ ، يتناسى الأمر كأنه غير حاصل ويشغل تفكيره بأمور أخرى حتى لا ينشغل تفكيره بذلك الأمر ، وهذا من الغباء طبعا ، أما العاقل فيظل تفكيره منشغلا بهذا الأمر طالما أنه ما زال مقيما في هذه الدنيا .

ـ ما يعوق العيش للدنيا هو سلب النعم كالمرض والابتلاءات والشيخوخة والموت ، والموت هو سلب لجميع النعم دفعة واحدة .

ـ وهذه الأمور تعني وجود قوة خفية تقدر على الإنسان والإنسان لا يستطيع منع هذه الأمور أو التغلب عليها ، والوعي بهذه الأمور تعني خوف المهابة من سلب النعم وخوف المهابة من القوة التي قدرت على سلب النعم (قوة الله) ، وذلك يؤدي الى مشاعر هي بالنظر الى ضعف الإنسان الشعور بالذل وعدم تعلق المشاعر بنفسه وبالدنيا ، وبالنظر الى قوة الله فتعني حب الاعجاب بمدى قدرة الله والخوف والرجاء .

ـ الإعراض عن معرفة سلب النعم معناه عدم وجود خوف المهابة وعدم وجود المشاعر المتعلقة بالله وعدم وجود الشعور بالذل ، ومعناه عدم وجود اليقين الحقيقي بالموت وبالشيخوخة والتعرض للأمراض والمحن رغم وجود اليقين النظري التام بذلك ، فيعيش كأنه لن يموت أو يمرض أو يتعرض لمحن : ((قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فإنه مُلاقِيكُمْ))[215] ، ((وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ

(215) الجمعة : من الآية 8

سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ))[216] ، ولذلك من الناس من إذا وصل إلى سن الشيخوخة ، أو من النساء من إذا وصلت إلى سن اليأس ، أو إذا تعرض لمرض أو محنة فإنه يستنكر ذلك ولا يسلم به ويحدث له اكتئاب شديد لأنه لا يريد لنفسه أن يمرض ولا يريد أن يموت رغم أن الناس من حوله يمرضون ويموتون ، فهو بمشاعره يعترض أولا على إمكانية حدوث المرض أو المحنة ، وينشأ عن ذلك أنه يعترض أيضا بمشاعره على الله وأن ذلك مقدر أو بأن هذا ظلم وتعدي من الله عليه بدون وجه حق ، ونفس الشعور قد يحدث له عند خروج الروح لأنه يُسلب منه كل شيء ، أما من عرف معنى الموت معرفة حقيقية فإنه لا يفزع من الموت لأنه إعطاء الأمانة لصاحبها وهو محب لله لأنه جعله يستفيد منها طوال هذه المدة التي عاشها في الدنيا .

****

الفصل الثاني عشر

الهدف الحقيقي

ـ إذا عرف الإنسان أن الدنيا دار سفر للآخرة فلن يعيش للدنيا وسيجعل هدفه الآخرة ، فأهم ما يدل على أن هدف الإنسان الآخرة هو اليقين الحقيقي بأن الدنيا دار سفر .

ـ اليقين الحقيقي بضآلة الدنيا :

ـ ضآلة الدنيا تتمثل في كونها تزول سريعا أمام الخلود في الآخرة وفي كونها دار سفر فليست مكانا يستقر فيه الإنسان ويتمتع ، وفي كون متعها وآلامها ليست بشيء أمام متع وآلام الآخرة ، وفي كونها دار تعب وشقاء : ((لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ))[217] .

ـ وبالتالي لا ينشغل هم الإنسان بالدنيا إلا في حدود ما يحتاجه عابر السبيل أثناء سفره ، ولا تتأثر مشاعره بالدنيا وشهواتها إلا في حدود ما يحتاجه عابر السبيل ، ولا تنشغل جوارحه بالعمل فيها إلا بما ينشغل به عابر السبيل .

ـ اليقين الحقيقي بأن الدنيا دار سفر :

ـ هل على الإنسان أن يعيش طوال عمره يعد نفسه للرحيل ، أي يعيش منتظرا يوم موته ؟! ، إن هذه الحياة التي نعيشها ما خلقت إلا لهذا الغرض ، فالدنيا ما هي إلا طريق للآخرة ، فهل يمكن لإنسان عاقل أن يبني سكنه في الطريق أو الشارع الذي يسير فيه الناس ويعيش

(216) البقرة : 96
(217) البلد : 4

ويقيم في طريق المارة ، فلا تصلح المعيشة في الطريق ، إنما هو مجرد سفر أي معيشة مؤقتة عابرة لضرورة الترحال ولإعداد الحقائب .

ـ لو قيل أن بعض الناس يستعدون للسفر إلى كوكب آخر عبر الفضاء لكان ذلك العجب والدهشة ، فهل تتصور أننا مسافرون لما هو أعجب من ذلك وأبعد من ذلك إلى الدار الآخرة ؟! ، فهل أنت في انتظار حياة غير الحياة التي تعيشها الآن وطعاما غير الطعام الذي تأكله ؟! ، وسكنا غير السكن الذي تسكن فيه ؟! ، وهل تتصور أن البيت الذي تسكن فيه ليس هو بيتك ، إنما بيتك هناك ، وأن هناك مَنْ ينتظرك الآن من الحور العين (إن شاء الله تعالى) ؟! ، هل في تصورك أن الطعام الذي تأكله هو طعام مؤقت ، وأن السكن الذي تسكن فيه هو سكن مؤقت ، أم أنك تتصور أنه سكن دائم ؟! ، إن الذي يري أن طعامه إنما هو في الآخرة فإنه لا يهتم كثيرا بطعام الدنيا فهو كيفما اتفق ، وإنما هو يأخذ زاد المسافر ، وكذلك سكن الدنيا ومتطلباتها ، وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يقول : ((إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل))[218] ، فهل تشعر بالترقب والانتظار ليوم العودة إلى وطنك وأهلك ؟! ، وهل تشعر أنك تعيش الآن في بلد الغربة (الدنيا) ؟! ، وهل عندك شعور بأنك مفارق الناس وكل ما تملك ؟ ، وهل تشعر بالترقب والانتظار لمجيء اليوم الذي تصل فيه إلى بيتك بعد سفر طويل ؟! ، إن الذي يشعر فعلا بعالم الغيب فإنه يشعر بالموت علي أنه مجرد مرحلة ينتقل به إلى حياة أخري فلا يكره الموت ولا يكن مرعوبا منه ، وعندما يأتيه الموت فإنما يأتيه مَنْ كان ينتظره علي موعد وأنه ليس النهاية وإنما هو البداية للحياة الحقيقية ، أما الذي لا يشعر بعالم الغيب فإنه يعيش كأنه لن يموت ، فالموت عنده مجرد اقتناع كاذب ، وعندما يأتيه الموت يشعر أنه هو النهاية ، ولا يريد أن يموت ، ويكره مَنْ يقبض روحه ، لأنه يرى الدنيا دار سعادة ويرى في الموت النهاية وليس بداية الحياة الحقيقية (في الآخرة) وهذا يمثل الحقيقة الموجودة في مشاعره ، وإن كان في اقتناعه الكاذب عكس ذلك تماما فهو على يقين نظري تام بأن الدنيا فانية ضئيلة وأن الموت مجرد انتقال إلى الحياة الباقية لكنه يقين كاذب .

ـ الدنيا دار غربة نحن الآن مسافرون منها عائدين إلى وطننا وأهلينا ، فنحن الآن مسافرون سفر العودة والرجوع وليس سفر الذهاب بعيدا عن الوطن والأهل ، فوطن الإنسان وأهله هو في الآخرة وليس في الدنيا ، فمثلا الذي يسافر من بلده مصر إلى السعودية هو سفر ذهاب بعيدا عن الأهل ، وهو لا يريد السفر إلى السعودية إلا مؤقتا وفي ذهنه العودة إلى أهله ، أما سفر العودة والرجوع هو أنه موجود في السعودية ويريد أن يسافر سفر العودة إلى مصر حيث بلده وأهله ، وهذا هو السفر المقصود ، ففي تفسير البغوي : (({ إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى } أَيِ المرجع في الآخرة))[219] .

(218) صيد الخاطر ـ دار القلم ـ دمشق (1 / 447)
(219) تفسير البغوي [معالم التنزيل في تفسير القرآن] ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (5/ 281)

ـ ويمكن تشبيه ذلك بأن إنسانا ركب سيارة أجرة ليصل إلى مكان ما ، دخل السيارة فوجد فيها ركاب آخرين مثله ، ربما يتحدث معهم أو يتعرف على أحد منهم ، وعندما يصل إلى المكان الذي يريده ينزل من السيارة ويترك الركاب الموجودين فيها ، فالدنيا هي وقت الإنسان الذي يقضيه داخل السيارة ، والركاب الموجودون داخل السيارة هم الناس الموجودون في الدنيا ، والإنسان مهما تعامل معهم فليسوا أهله ولكنهم غرباء مسافرين مثله ، وعندما ينزل من السيارة لا يشعر بألم الفراق لأنه لا تربطهم به سوى أنه تقابل معهم أثناء الطريق .

ـ فينبغي أن تشعر أنك الآن في دار الغربة ، والأصح أن تشعر بأنك الآن أثناء السفر منتقلا من دار الغربة إلى مكان الإقامة والمعيشة فأنت عابر سبيل ، ففي الحديث : ((كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور))[220] ، و(أو) في الحديث بمعنى (بل) للإضراب أي كن في الدنيا كأنك غريب بل عابر سبيل .

ـ فأنت الآن في مكان غير المكان المعد لمعيشتك ، فقد نزل آدم إلى الأرض ليعيش هو وأبناؤه معيشة مؤقتة عابرة للاختبار ، أما معيشتك المعدة لك هي في الآخرة ، فيجب أن تعيش على أساس أن حياتك في الآخرة وليست هنا فتعيش معيشة المسافر الذي يستعد للرحيل .

ـ فالدنيا إما أنها دار إقامة مؤقتة أو أنها مجرد طريق يسير فيه السائر ليصل إلى بيته ، ومن لم يشعر بهذا أو بهذا فهو يعتبر الدنيا دار إقامة دائمة وأنها بيته وبالتالي فهو لا يوقن بالآخرة يقينا حقيقيا .

ـ شعور الإنسان تجاه دار الإقامة المؤقتة هو شعور بالفراق ، وشعور الإنسان تجاه دار الإقامة الدائمة هو شعور بالغربة ، من لم يشعر بالفراق وبالغربة فهو لا يوقن يقينا حقيقيا بأنه مسافر إلى دار إقامته (لا يوقن بالآخرة يقينا حقيقيا) ، وتعلق مشاعر الإنسان بالدنيا واتخاذها هدفا له دليل على أنه يعتبرها دار إقامة ودليل على غياب اليقين الحقيقي بالآخرة .

ـ الذي يوقن بأنه مسافر إلى الآخرة فإن صورة الآخرة ومشهد اليوم الذي يموت فيه ومشهد وقوفه أمام الله ومحاسبته له لا يكاد يفارق ذهنه ، وحاله حال الذي يسارع ويفر إلى لقاء الله تعالى ((فَفِرُّوا إلى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ))[221] .

ـ مسألة السفر نفسها هي أمر خطير يدعو إلى انشغال الهم وخوف المهابة وتأثر المشاعر وعمل الجوارح بإعداد العدة لما بعد هذا السفر .

ـ مدة البقاء في دار الإقامة المؤقتة قصير جدا والسفر فوري في أي لحظة من ليل أو نهار فلابد أن يكون الإنسان جاهزا بحقائبه مرتديا ملابس سفره في كل وقته .

(220) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 567 ، برقم : 2333)
(221) الذاريات : 50

ـ خوف المهابة من السفر إلى الآخرة (الشعور بالقلق) :

ـ اليقين النظري بأننا مسافرون إلى الآخرة لا يكفي لأن السفر إلى الآخرة أمر خطير والوعي به معناه خوف المهابة من هذا الأمر الخطير .

ـ وهو شعور بالترقب وانتظار الآخرة (الاستعداد النفسي والتطلع إلى الآخرة) .

ـ لو قيل لك أنه قد تحدد لك موعد سفرك من أرض الدنيا إلى أرض المحشر بعد شهر من الآن ، وأن جواز سفرك قد تم التأشير عليه بالهجرة بلا عودة من الدنيا ، إن هذا الأمر عندئذ سوف يشغل تفكيرك ليلا ونهارا ، ستظل تفكر في لقاء الله وتتهيب الأمر حيث تقف أمامه لتجيب عليه وهو يسألك عن أعمالك ، وسوف تتعامل مع أهلك والناس تعامل المودع لهم الراحل عنهم ، إنه تفكير دائم وشعور بالتهيب من الأمر (خوف المهابة من فراق من اعتدت على رؤيتهم في الدنيا وخوف المهابة من الوصول إلى لقاء الله نفسه) .

ـ إنه بالفعل قد تحدد لك موعد سفرك وهو قريب جدا ولكن لم يتم إعلامك به ، فلماذا لا يتوجه تفكيرك إلى هذا الأمر ولماذا لا تتهيب الأمر طوال وقتك ؟ ، ذلك لأنك تبعد تفكيرك عن هذا الأمر وتتناساه وتتجاهله وتتغافل عنه كأنك لن تسافر وترحل ولن تقابل الله نفسه سبحانه ، فأصبح يقينك بالموت والآخرة والسفر للقاء الله هو يقين كاذب وليس يقينا حقيقيا .

ـ كل إنسان يترقب اليوم الذي يحقق فيه هدفه أو اليوم الذي يحدث فيه أمر خطير فيظل همه منشغلا بهذا اليوم ، فالطالب يترقب يوم الامتحان والسجين يترقب يوم الإفراج ، والعاقل الذي يشعر بخطورة الآخرة فإنه يعيش حياته مترقبا يوم لقاء الله والآخرة ومترقبا يوم موته حيث يلقى الآخرة فيظل ذهنه منشغلا بالتطلع إلى يوم اللقاء المهيب حيث تكون الدنيا لا قيمة لها .

ـ الإنسان إما أن يشعر بالترقب والقلق انتظارا للآخرة ، وإما أن يشعر بالرضا والاطمئنان بالدنيا ، وعدم انتظار الآخرة والرضا والاطمئنان بالدنيا معناه غياب اليقين الحقيقي بالآخرة ولقاء الله ، ففي تفسير السعدي : ((يقول تعالى { إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا } أي: لا يطمعون بلقاء الله الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون وأعلى ما أمله المؤملون ، بل أعرضوا عن ذلك ، وربما كذبوا به { وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا } بدلا عن الآخرة ، { وَاطْمَأَنُّوا بِهَا } أي: ركنوا إليها، وجعلوها غاية مرامهم ونهاية قصدهم، فسعوا لها وأكبوا على لذاتها وشهواتها، بأي طريق حصلت حصلوها، ومن أي وجه لاحت ابتدروها ، قد صرفوا إرادتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها ، فكأنهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها ليست دار ممر، يتزود منها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون ، وإلى نعيمها ولذاتها شمر الموفقون ، { وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ } فلا ينتفعون بالآيات القرآنية، ولا بالآيات الأفقية

والنفسية ، والإعراض عن الدليل مستلزم للإعراض والغفلة عن المدلول المقصود ، { أُولَئِكَ } الذين هذا وصفهم { مَأْوَاهُمُ النَّارُ } أي: مقرهم ومسكنهم التي لا يرحلون عنها))[222] .

ـ والشعور بترقب لقاء الله والآخرة ورد في القرآن بمعنى الرجاء للقاء الله والآخرة ويقصد به القلق والخوف ، ففي التفسير المنير : (({ مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ } أي يأمل ويطمع في لقائه وثوابه وجزائه في الجنة))[223] ، وفي تفسير أبي السعود : (({ وارجوا اليوم الاخر } أي توقَّعوه وما سيقعُ فيه من فُنون الأهوالِ))[224] ، وفي الحديث : ((كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ ، فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا))[225] .

ـ وعدم الشعور بترقب لقاء الله والآخرة يعبر عنه بعدم الرجاء : ((بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا))[226] ، ((وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا))[227] .

ـ الناس صنفين هما :

1ـ الصنف الأول : هم الذين يتطلعون ويترقبون وينتظرون ويتوقعون ويرجون الموت والآخرة ولقاء الله تعالى :

ـ فهؤلاء يعيشون في الدنيا معيشة من يقف في مكان ما ينتظر أحدا على موعد لمقابلته وهو قلق ينظر في الساعة دائما ويتلفت يمينا وشمالا لعل من ينتظره قادم الآن ، فلحظات الانتظار هذه هي فترة عمره يبقى طوال حياته الدنيوية في حالة ترقب وانتظار وتوقع مجيء الموت والآخرة ولقاء الله في أي لحظة وإعلان النتيجة لما يصنعه في الدنيا ، فطالما تحقق اليقين الحقيقي بأن الآخرة دار استقرار فلابد من وجود الشعور بقلق الانتظار .

ـ وهؤلاء يعيشون سنوات عمرهم في حالة تأهب وترقب واستعداد نفسي متطلعين إلى اليوم المحتوم الذي يعيشون من أجله منتظرين مجيء اليوم الذي يصلون فيه إلى بيتهم بعد سفر طويل ! ، وهؤلاء يعيشون حياتهم معيشة المسافر عابر السبيل الذي ينظر إلى الحياة الدنيوية على أنها مؤقتة فانية وأنه راحل إلى حياة الخلود حيث داره وأهله ومعيشته ، وهؤلاء عندهم شعور بالترقب والانتظار والتطلع والطموح إلى الآخرة ولقاء الله ، فذلك هدفهم وغايتهم التي يعيشون من أجلها ، وهؤلاء يعيشون معيشة المتوقع المنتظر مجيء الموت والآخرة ولقاء الله ، وهؤلاء يعيشون في حالة قلق وإشفاق وخوف من الآخرة ، ويستمر ذلك طوال حياتهم وأثناء أداءهم للأعمال .

(222) تفسير السعدي ـ مؤسسة الرسالة (1 / 358)
(223) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر ـ دمشق (20/ 186)
(224) تفسير أبي السعود [إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم] دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (7/ 39)
(225) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 620 ، برقم : 2431)
(226) الفرقان : 40
(227) الفرقان : 21

ـ وهؤلاء عندهم صبر طويل ، فهم يصبرون على الدنيا منتظرين الآخرة ، والصبر على الدنيا معناه أن يصبر الإنسان مدة الستين سنة أو أكثر أو أقل حسب عمر الإنسان باعتبار أن هذه السنوات ما هي إلا لحظات منتهية ضئيلة في عمر الآخرة ، فالذي يوقن فعلا بالآخرة ويشعر بها فإنه يصبر على أيام هذه الدنيا حتى تنقضي ، لأن الإنسان منشغل عن الدنيا بانتظار الآخرة ، ولأنه يشعر بأن الدنيا عابرة وتمر سريعا : ((فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً ، إنهم يَرَوْنَهُ بَعِيداً ، وَنَرَاهُ قَرِيباً))[228] .

ـ وعدم وجود هذا الشعور بالاستعداد والتأهب والتطلع إلى الآخرة معناه عدم وجود اليقين الحقيقي باقتراب الآخرة .

ـ وفي تفسير أبي السعود : ((وارجوا اليوم الأخر أي توقعوه وما سيقع فيه من فنون الأهوال وافعلوا اليوم من الأعمال ما تأمنون غائلته))[229] ، ((فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا))[230] ، ((مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ))[231] .

2ـ الصنف الثاني : وهم الذين لا يتطلعون ولا يترقبون ولا ينتظرون الموت والآخرة ولقاء الله تعالى ، فيعيشون حياة التلهي بالدنيا والاندماج والاطمئنان بأمور لعبها ولهوها :

ـ من الناس من عنده طول أمل وطموحات في أمور الدنيا لكن ليس عنده أي أمل أو طموح في الآخرة فليست الآخرة من أهدافه فلا يرجوها ، ويقينه بالآخرة عندئذ كاذبا ، فهؤلاء لا يريدون أن يموتوا فيعيشون كأن الموت لن يأتيهم ، وهم مشغولون بالدنيا لا يترقبون الآخرة .

ـ وفي أيسر التفاسير : (({ إِنَّ الَّذِينَ لا يرجون لقاءنا } أي لا ينتظرون ولا يؤملون في لقاء الله تعالى يوم القيامة ، { ورضوا بالحياة الدنيا } أي بدلاً عن الآخرة فلم يفكروا في الدار الآخرة ، { واطمأنوا بها } أي سكنوا إليها وركنوا فلم يروا غيرها حياة يُعمل لها ، { والذين هم عن آياتنا غافلون } لا ينظرون إليها ولا يفكرون فيها ، { أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }))[232] ، وفي تفسير التسهيل لعلوم التنزيل : ((إن الذين لا يرجون لقاءنا ... وقيل (لا يرجون) لا يتوقعون أصلا ولا يخطر ببالهم ، (ورضوا بالحياة الدنيا) أي قنعوا أن تكون حظهم ونصيبهم ، (واطمأنوا بها) أي سكنت أنفسهم عن ذكر الانتقال عنها والذين هم عن آياتنا غافلون))[233] ، وفي تفسير البحر المديد : (({ إن الذين لا يرجون لقاءَنا } أي : لا يتوقعونه))[234] ، ((وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ

(228) المعارج : 5 - 7
(229) تفسير أبي السعود دار إحياء التراث العربي - بيروت (7 / 39)
(230) الكهف : 110
(231) العنكبوت : 5
(232) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (2/ 450)
(233) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي - شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت (1 / 353)
(234) البحر المديد - الناشر : الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة (2 / 452)

بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أو بَدِّلْهُ))[235] ، ((بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا))[236] ، ((أنهم كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا))[237] ، ((مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا))[238] .

ـ وعدم وجود هذا الشعور بالاستعداد والتأهب والتطلع إلى الآخرة يعني عدم وجود الشعور بقدر الآخرة ، وفي تفسير القرطبي : ((والذين كفروا عما أنذروا معرضون مولون لاهون غير مستعدين له ويجوز أن تكون ما مصدرية أي عن إنذارهم ذلك اليوم))[239] ، وفي تفسير الطبري : (({ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون } .... يقول وهم في الدنيا عما الله فاعل بهم من ذلك يوم القيامة وعن دنو محاسبته إياهم منهم واقترابه لهم في سهو وغفلة وقد أعرضوا عن ذلك فتركوا الفكر فيه والاستعداد له والتأهب جهلا منهم بما هم لاقوه عند ذلك من عظيم البلاء وشديد الأهوال))[240] .

ـ الحالة النفسية للشعور بالترقب والانتظار للقاء الله والآخرة (الاستعداد النفسي والتأهب والتطلع إلى الآخرة) :

ـ إن الذي ينتظر أحدا في موعد ، فأثناء فترة الانتظار يكون قلقا ، ويزيد ذلك القلق إذا كان لقاء هام جدا يترتب عليه مصير الإنسان ، كما يزيد القلق إذا لم يكن يعرف الموعد بالضبط ، ويزيد القلق إذا علم أن الموعد وشيك وقريب جدا ، ويزيد القلق إذا لم يكن يعلم هل نتيجة هذا اللقاء تؤدي إلى الشقاء والمصائب أم إلى السعادة والراحة ، وهل سيلقى الترحيب بهذا اللقاء أم الزجر والويل والثبور ، كما يزيد القلق إذا علم أن من سيقابله له مكانة كبيرة مثل ملك من الملوك أو زعيم من الزعماء ، هذا بالنسبة لأمور الدنيا فما بالك بلقاء الله ولقاء الآخرة والحساب الذي ينبني عليه الشقاء الأبدي أو السعادة الأبدية ، فلابد أن ينزعج ذهن المؤمن وينشغل باله طوال فترة حياته قلقا على ما ينتظره وما يحدث له من أهوال ومخاطر قادمة حتمية وقريبة .

ـ وكذلك الذي ينتظر لقاء محبوبته الجميلة ، فأثناء فترة الانتظار يكون قلقا ، ويزيد ذلك القلق إذا كان لا يعلم هل ستأتي أم لا ؟ ، كما يزيد القلق إذا لم يكن يعرف الموعد بالضبط ، ويزيد القلق إذا علم أن الموعد وشيك وقريب جدا ، هذا بالنسبة لأمور الدنيا فما بالك بلقاء الحور العين وملذات الجنة ، فلابد أن يعيش المؤمن حياته في انتظار الحور العين وفي انتظار النعيم المقيم ، ولابد أن ينزعج ذهن المؤمن وينشغل باله طوال فترة حياته قلقا على ما ينتظره وما يحدث له هل سيصل إلى الحور العين أم إلى الجحيم ؟!! .

ـ الشعور بخوف المهابة من لقاء الله ومحاسبته للعبد :

(235) يونس : 15
(236) الفرقان : 40
(237) النبأ : 27
(238) نوح : 13
(239) تفسير القرطبي [الجامع لأحكام القرآن] ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة (ج : 16 ، ص : 179)
(240) تفسير الطبري [جامع البيان في تأويل القرآن] ـ مؤسسة الرسالة (ج : 17 ، ص : 1)

ـ لو قيل لك أن لديك موعد قريب تقابل فيه رئيس الدولة شخصيا ، فإنك تشعر بخوف المهابة من هذا اللقاء ، فما بالك برب العالمين ولماذا لا تشعر بخوف المهابة من هذا اللقاء ، فذلك لأن لقاء الله لا وجود له في مشاعرك أو أنه في مشاعرك مثل لقاءك لأي إنسان تقابله في الطريق فتلقي عليه السلام ! .

ـ وكذلك لو قيل لك إنك على موعد في محكمة من المحاكم مع قاضي من القضاة ليناقشك فيما عملته ويقول حكمه على ما فعلته بماذا تشعر ؟ ، ولماذا لا تشعر بهذا الشعور من لقاء الله ليحاسبك على ما فعلت ؟ ، وبماذا تشعر لو علمت أن هذا الموعد اقترب وينعقد في أي لحظة ؟ ، وبماذا تشعر عندما تعلم أن الأمران معا ، فأنت تقابل رب العالمين وهو سبحانه الذي يحاسبك ؟ .

ـ الشعور بترقب الموت (على أساس أنه انتقال للآخرة) :

ـ هناك فرق بين المعرفة النظرية الكاذبة بأن الموت يأتي بغتة في أي لحظة وبين الشعور بذلك ، فالشعور بأن الموت يأتي بغتة في أي لحظة يعني شعور مستمر بالقلق والخوف وتوقع الموت في أي لحظة ، وبالتالي القلق والخوف من أنك تنتقل إلى الآخرة في أي لحظة ، فالإنسان بطبيعته يحب الحياة والموت مخيف بالنسبة له ، والآخرة مخيفة أكثر ، ويقول أبو حامد الغزالي : ((قال الحسن رحمه الله تعالى : فضح الموت الدنيا فلم يترك لذى لب فرحا .... ، وقال إبراهيم التيمي : شيئان قطعا عني لذة الدنيا ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل ، وقال كعب : من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها))[241] ، وأنت تسمع كل يوم أن مات فلان ومات فلان وسوف يأتي اليوم الذي ينادى فيه باسمك !! .

ـ عندما يمرض الإنسان لا يخطر على باله أنه من الممكن أن يكون ذلك مرض الموت ، ويظل يدعو الله ويصلي من أجل أن يشفيه الله فقط وليس من أجل الآخرة ، فإذا كان ذلك مرض الموت فعندما يوشك على الموت فإنه لا يرضى بقضاء الله بعدم شفاءه ولأنه يرى أن الموت هو النهاية وليس انتقال للآخرة .

ـ فلابد أن يعيش المؤمن حياته من أجل الإعداد ليوم ينادى فيه على الموتى ويحمل على الأعناق ويذهب به إلى لقاء الله تعالى ، فالمؤمن يعيش حياته وفي ذهنه ترقب وانتظار وتطلع إلى لقاء الله : ((مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ))[242] .

ـ الموت مرحلة خطيرة جدا ينتقل فيها الإنسان من دار إلى دار ، فهي تستدعي خوف المهابة من ذلك ، وليس خوفا من أن الموت نهاية للحياة لأن الموت بداية للحياة الحقيقية ، وليس خوفا من ترك الأحباب لأن المؤمن يعيش غريبا في الدنيا وأحبابه وأهله في الآخرة ، وذلك بحسب قوة الإيمان وضعفه .

(241) إحياء علوم الدين ـ دار المعرفة ـ بيروت (ج : 4 ، ص : 451)
(242) العنكبوت : 5

ـ ولا يتحقق اليقين الحقيقي بأن الموت يأتي في أي وقت بغير توقع وترقب حدوثه في أي وقت ، فيعد الإنسان نفسه من أهل القبور ، فيقول تعالى : ((إنك ميت وإنهم ميتون))[243] ، وهذا التوقع والترقب لابد أن يكون فيه خوف المهابة ، وهو شعور بالخوف والإشفاق من هيبة الفراق ومن ترقب يوم الفراق حيث يسلب من الإنسان كل شيء ، وهذا الشعور هو المميز لوجود اليقين الحقيقي بالموت .

ـ فإذا لم يشعر بالهيبة من خطورة الأمر ، فهذا يعني أنه مطمئن بالدنيا ، وأن يقينه بأنه سيموت هو فقط يقين نظري كاذب وليس حقيقي ، فالمؤمن عنده استعداد نفسي لأن يترك أهله وزوجته وأولاده وأصحابه ووطنه وأعماله التي تعود عليها وماله وكل شيء ، وهو يشعر أن ذلك وشيك وسوف يحدث خلال أيام قليلة هي ما بقي له من أيام الدنيا القليلة .

ـ أنواع خوف المهابة من الموت :

ـ هناك خمسة أنواع من خوف المهابة المرتبط بالموت هي : خوف المهابة من مفارقة هذه الحياة (فهناك قدر من الحب الفطري في الإنسان بالمال والأهل والدنيا ، فمفارقة ذلك أمر خطير يستدعي خوف المهابة) ، وخوف المهابة من ألم الموت وسكرات الموت ، وخوف المهابة من أن الموت يأتي في أي وقت ، وخوف المهابة من أن الموت انتقال إلى لقاء الله وإلى الآخرة .

ـ الشعور بالغربة :

ـ هناك من بنى حياته على أساس البقاء أي على تجاهل النهاية كأنه يبقى فيعيش كأنه خالد لن يموت ، فلا هم له ولا عمل له ولا كلام له إلا للمال والدنيا ، وهو منكب على الدنيا يلهث وراء الأموال والشهوات ، وهناك من بنى حياته على أساس أنه مفارق الناس جميعا وكل شيء وأن من حوله لن يدومون وأنه سوف يفارق كل شيء وكل الناس ، إذن يعيش كأنه غريب أو عابر سبيل .

ـ اليقين بوجود الآخرة يؤدي إلى اليقين بأن الدنيا مؤقتة وبأنها ليست دار إقامة وأنها مجرد طريق إلى الآخرة ، واليقين بأن الدنيا دار سفر وليست دار إقامة يؤدي إلى الشعور بالغربة كما يشعر المسافر في دار سفره .

ـ الشعور بالغربة هو شعور الإنسان الذي يعيش بعيدا عن أهله ووطنه (في الآخرة) فهو يعيش في ترقب ليوم العودة إلى أهله ووطنه .

(243) الزمر : 30

ـ فالدنيا في نظر المؤمن هي مجرد حياة مؤقتة وجيزة تمضي سريعا وكل شيء فيها مؤقت فهي مجرد ممر يسير فيه ليصل إلى الآخرة فهو لا ينظر إليها ولكن ينظر إلى ما هو ذاهب إليه فلا يبالي زادت أم نقصت .

ـ فالدنيا ليست المكان المعد والمجهز والمناسب لإقامة الإنسان فيه ، ولكن الدنيا عبارة عن سفينة أو مركبة تحمل الإنسان إلى بيته أو داره ومكان إقامته ، وداخل هذه السفينة يعيش الإنسان حياة مؤقتة عابرة فيها مكان مؤقت ينام فيه وطعام وشراب مؤقت .

ـ والإنسان الذي يتعامل مع الدنيا كأنها دار إقامة عندما يشعر باقتراب الموت أو قبل موته يحدث له اكتئاب شديد وخوف وهلع لأنه لا يريد أن يترك ما اعتاد عليه .

ـ فلابد أن يكون شعور الإنسان وعمله كأنه غريب ففي الحديث عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بمنكبي فَقَالَ : ((كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أو عَابِرُ سَبِيلٍ وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي أَهْلِ الْقُبُورِ ، فَقَالَ لِي ابْنُ عُمَرَ إِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِى يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ غَدًا))[244] .

ـ معني الرضا والاطمئنان بالدنيا (يعتبر نفسه مقيما وليس مسافرا) :

ـ قد يصنع الإنسان لنفسه تصورا وهميا ويعيش فيه ويندمج فيه ويطمئن به ، فقد يتصور أن المتع والآلام إنما هي في الدنيا ، ويتصور أنها عظيمة ، فيعيش في الدنيا ويطمئن بها (رغم أنها ليست دار معيشة وحياة يطمئن فيها الإنسان لأن دار الإنسان وحياته الحقيقية في الآخرة) ، فلا يحزن إلا لألم دنيوي ولا يفرح إلا للذة أو خير دنيوي ، وذهنه لا ينشغل إلا بالتعامل مع مفردات الحياة ومشاغلها ، فهذا هو الرضا والاطمئنان بالدنيا : ((إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ، أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))[245] ، ((مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))[246] .

ـ فيحدث اندماج وتعايش وتأقلم ورضا بقوانين العادات والتقاليد وما تعارف عليه الناس ، أي أنه يشعر بالاستقرار في الدنيا فهو بذلك جعل الدنيا دار مقر وليست دار ممر وارتحال ، فهو بذلك لا يرجو الآخرة ولا يخافها ولا يحمل هم لقاء الله ، أما المؤمن فيشعر بأنه غريب عن هذه الحياة لأنها ليست وطنه فهو غير مطمئن بها ولا يألف المعيشة فيها لأنه يعيش بين غرباء ينتظر الرحيل إلى وطنه وأهله .

(244) حديث صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 567 ، برقم 2333)
(245) يونس : 7 ، 8
(246) هود : 15، 16

ـ الحالة النفسية للشعور بالغربة :

ـ أنظر إلى الحالة النفسية والحالة المزاجية والعاطفية لشخص مغترب يريد العودة إلى أهله وزوجته وأولاده ووطنه ، أنظر إلى شعوره بالحنين والشوق للعودة ومدي انشغال باله وتفكيره في يوم العودة ، إن هذه الحالة النفسية هي التي تسمي شعور بالغربة ، فإذا لم يكن عندك هذه الحالة النفسية فإن الآخرة والذهاب إليها لا وجود لها في مشاعرك ، إن الشخص الذي في غربة ليست قضيته أن يبحث عن الراحة والطعام والشراب ، فإنه ينتظر الراحة والطعام والشراب عند العودة إلى وطنه ، أما طعامه وشرابه ومكان نومه وعيشه في بلد الغربة فهو كيفما اتفق يرضي بأي شيء يؤدي الغرض ، فهل في شعورك أن الطعام الذي تأكله هو طعام مؤقت وأن السكن الذي تسكن فيه هو سكن مؤقت أم أنك تشعر أنه سكن دائم ؟ ، وهل تشعر بأنك مسافر بلا رجعة أي بعدم الرجوع إلى الدنيا ؟ ، هل لديك شعور بأن هذا السفر هو سفر نهائي وأنه سفر بلا عوده ، وقد سبقك إليه الكثيرون والدور في انتظارك ، والرحيل مفاجئ وفوري وبلا رجعة ؟ ، وهل تشعر بالترقب والانتظار ليوم العودة إلى وطنك وأهلك هناك في الآخرة ؟ ، وهل تشعر أنك تعيش الآن في بلد الغربة (الدنيا) ؟ ، إذن فالقضية حاسمة وخطيرة ولا تحتمل التراخي ، ولكننا في غفلة ، وليس للإنسان أن يجرب أو يتغافل فنحن ضيوف على وجه هذه الكوكبة الأرضية ، إذن يتضح الآن أن عالم الغيب في نظرك ليس إلا اقتناع كاذب وليس له وجود في مشاعرك ، إن الذي لا يشعر بأنه مقبل على عالم آخر فإنه يعيش كأنه لن يموت ، فالموت عنده مجرد اقتناع كاذب ، وعندما يأتيه الموت يشعر أنه هو النهاية ، ولا يريد أن يموت ، ويكره مَنْ يقبض روحه .

ـ إنها ليست موعظة ورقائق ولكنها حقائق ومشاعر حقيقية في النفس ، لذلك أنظر هل عندك فعلا شعور بالغربة والحنين ؟ ، أم أنك تدعي ذلك ؟ ، والشعور بالغربة أمر خطير لأن عدم وجود الشعور بالغربة يعني أن الذهاب إلى الآخرة لا وجود له في مشاعرك .

ـ أنظر إلى الحالة النفسية لشخص سجين ، إنه يشعر بالحنين إلى أهله ووطنه ، ويشعر بالضيق مما هو فيه ، فهذا حال المؤمن ففي الحديث : ((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر))[247] ، فهل تشعر في نفسك بالغربة مثلما يشعر الإنسان الغريب أو عابر السبيل أو المسافر أو السجين ؟! .

ـ الشعور بأن الجنة هي المستقبل القريب والطموح والأمل :

ـ لماذا تؤمل في متع من الدنيا ضئيلة وتنتظرها وتفكر فيها في حين أنك قريبا جدا تصل إلى متع بلا نهاية بلا حدود ، فالجنة بعد لحظات ولكنك لا تدري ، فما سنوات العمر إلا لحظات ففي الحديث : ((الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إلى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ))[248] ، فابقي كما

(247) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 562 ، برقم 2324)
(248) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 3115 في صحيح الجامع)

أنت تؤمل في متع وملذات ولكن في متع وملذات الجنة ، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : ((مَرَّ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَنَحْنُ نُعَالِجُ خُصًّا لَنَا فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ ، فَقُلْتُ خُصٌّ لَنَا وَهَى نَحْنُ نُصْلِحُهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : مَا أُرَى الأمر إلا أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ))[249] .

ـ أثر اليقين الحقيقي بالآخرة والسفر إليها على العمل :

ـ يكون عمل الإنسان مثل عمل الغريب أو عابر السبيل المسافر المستعد للرحيل ، ولا يكون عمله مثل عمل المقيم في بلده ، فمثلا الشخص الذي يعيش في غربة في بلد ما ليست قضيته أن يبحث عن الراحة والطعام والشراب ، فإنه ينتظر الراحة والطعام والشراب عند العودة إلى وطنه ، أما طعامه وشرابه ومكان نومه وعيشه في بلد الغربة فهو كيفما اتفق يرضي بأي شيء يؤدي الغرض ، فإن الذي يري أن طعامه إنما هو في الآخرة فإنه لا يهتم كثيرا بطعام الدنيا فهو كيفما اتفق ، وإنما هو يأخذ زاد المسافر ، وكذلك سكن الدنيا ومتطلباتها ، ففي الحديث : ((عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال يا رسول الله لو اتخذت فراشا أوثر من هذا فقال ما لي وللدنيا ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها))[250] ، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ مَرَّ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَنَحْنُ نُعَالِجُ خُصًّا لَنَا فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ ، فَقُلْتُ خُصٌّ لَنَا وَهَى نَحْنُ نُصْلِحُهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : ((مَا أُرَى الأمر إلا أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ))[251] ، وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يقول : ((إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل))[252] .

ـ وهو يؤثر عمل الآخرة على عمل الدنيا ، ففي الحديث : ((مَنْ أحب دنياه أضر بآخرته ومَنْ أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى))[253] ، وفي حديث آخر : ((حلوة الدنيا مرة الآخرة ومرة الدنيا حلوة الآخرة))[254] يعني لا تجتمع الرغبة في الدنيا والرغبة في الله والآخرة ، وفي حديث آخر : ((إن أطول الناس جوعا يوم القيامة أكثرهم شبعا في الدنيا))[255] ، وفي حديث آخر : ((ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا))[256] ، وفي حديث آخر : ((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر))[257] .

****

(249) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن ابن ماجه ج : 2 ، ص : 1393 ، برقم : 4160)
(250) التخريج : صحيح (صحيح الترغيب والترهيب برقم 3283)
(251) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن ابن ماجة ج : 2 ، ص : 1393 ، برقم : 4160)
(252) صيد الخاطر ـ دار القلم ـ دمشق (1 / 447)
(253) التخريج : صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ج : 3 ، برقم : 3247)
(254) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 3155 في صحيح الجامع)
(255) حديث صحيح (السلسلة الصحيحة ج : 7 ، برقم : 3372)
(256) قال الشيخ الألباني : حسن (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 637 ، برقم 2458)
(257) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 562 ، برقم 2324)

الفصل الثالث عشر

كيف تتأثر المشاعر بالله والآخرة ؟

ـ وظيفة المشاعر في الإسلام (عمل القلب) :

ـ هل تصدق أن هناك شيء في الدين نحن مطالبين بتحقيقه عبارة عن مشاعر ، وهل تصدق أن تحقيق هذه المشاعر أهم من الصلاة والصوم وجميع الأعمال ؟ وهل تصدق أن هذه المشاعر هي أصل اصل توحيد الالوهية التي من أجلها جاءت الرسل ؟ .

ـ هذه المشاعر هي الشعور بالذل والحب والخوف والرجاء والخشوع والتوكل .

ـ الكثير يعتبرون كلمة المشاعر تستخدم فقط في الغناء واللهو .

ـ والكثير إذا أرادوا أن يلتزموا بالدين اجتهدوا في الأعمال ولا يعلمون أن تحقيق هذه المشاعر هي الأصل ، والمشكلة الأكبر أنهم يحسبون أنها متحققة عندهم والحقيقة أنها على العكس تماما فلا حب لهم إلا للمال والشهوات ولا ذل ولا خوف إلا على أمور الدنيا .

ـ كثير من الناس يغفلون عن تحقيق مشاعر الايمان رغم أنها أصل الدين وينبني عليها الخلود في الجنة أو الخلود في النار ، وينبني عليها تحديد هل يقين الإنسان صادق أم كاذب ، وينبني عليها تحديد هل الإنسان يعبد المال أم يعبد الشهوات أم يعبد الله تعالى .

ـ والمشكلة الأخرى هي أن معاني الحب والخوف والرجاء والخشوع ماتت فأصبحنا في حاجة إلى شرح ماذا تعني كلمة (حب) وكلمة (خوف) وهكذا ، واصبح الكثير يتوهمون أن حب الله والخوف منه ورجاءه والذل له تملأ قلوبهم .

ـ لماذا لا تتأثر مشاعر الإنسان بالله والآخرة ؟ :

ـ العلاقة بين الغافل وبين الله والآخرة مثل العلاقة بين النائم وبين الله والآخرة ، فلا توجد أي علاقة ولا تتأثر المشاعر بشيء سواء سلبا أو إيجابا فلا حب ولا كره ولا خوف ولا رجاء ولا فرح ولا حزن ولا أي شيء ، فجميع المشاعر تساوي صفر .

ـ وبتعبير آخر ما هي العلاقة بينك وبين إنسان آخر لا تعرفه ؟! ، طبيعي أنه لا توجد أي علاقة نهائيا ، فالذي لا يعرف الله والآخرة معرفة حقيقية هو فعلا كأنه لم يسمع عنه ولا يعرفه فلا توجد أي علاقة مشاعر بينه وبين الله والآخرة .

ـ المشاعر تنشأ من معرفة الإنسان بالصفات الحميدة والمحبوبة أو المخيفة أو الشريرة أو أي صفات مؤثرة وخطيرة ، فالإنسان يخاف من الظالم ويكرهه إذا عرف ظلمه معرفة حقيقية

ويحب المرأة إذا عرف ما فيها من صفات جميلة كالجمال والأخلاق الحسنة معرفة حقيقية وهكذا .

ـ والعجيب أن الغافل قد يتوهم أو يكذب على نفسه فيقول أن حب الله والخوف منه يملأ قلبه ولا يوجد في قلبه ذرة واحدة من أي تعلق بالله .

ـ فالغافل لو ذكرته بعقاب الآخرة لا يؤثر ذلك في نفسه شيئا ، في حين لو أخبرته بفقد شيئا من ماله لطاش عقله وتأثرت مشاعره .

ـ تأثر مشاعر الإنسان بالله والآخرة حبا وذلا وخوفا ورجاءا يسمى في الشرع بـ (عمل القلب) وهو شرط في صحة الايمان فلا يدخل الإنسان الجنة حتى يتحقق عنده (عمل القلب) .

ـ سبب عدم تأثر مشاعر الإنسان بالله والآخرة هو إما أنه لا يعرف الله والآخرة أو أنه لا يوقن بوجود الله والآخرة (اليقين النظري) أو كلاهما .

ـ كيف تتأثر المشاعر بالله والآخرة (عمل القلب) :

ـ العلاقة بين الضعيف والقوي ، أو العلاقة بين العاجز والقادر ، أو العلاقة بين العبد والسيد ، أو العلاقة بين الخاضع والمتكبر ، أو العلاقة بين الذليل والعزيز ، أو العلاقة بين الفقير والغني ، أو العلاقة بين المملوك والمالك ، أو العلاقة بين الذي لا ينفع ولا يضر والنافع الضار ، هي بالنظر إلى ضعف الضعيف علاقة خضوع وتوكل ورضا ، وبالنظر إلى قوة القوي هي علاقة خوف مهابة وحب وخوف العقاب ورجاء الثواب .

ـ معرفة الإنسان بالله تؤدي إلى حبه سبحانه ، ومعرفة الإنسان بالآخرة تؤدي إلى خوف العقاب ورجاء الثواب ، ومعرفة الإنسان بنفسه تؤدي الى الشعور بالذل والخضوع والتوكل على الله والرضا بالقضاء والقدر ، ومعرفة الإنسان بالدنيا تؤدي إلى الشعور بالغربة .

ـ الغيبيات هي أعجب من الخيال والسحر ، فلو كانت الجنة خيال أو حدوته لما صدقها أحد ، لأنه كيف لإنسان أن يعيش بلا موت ولا مرض ولا شيخوخة وفي متع لا تحصى ، فما بالك والجنة حقيقة وليست خيالا ، والقضية ليست في التصديق ولكن في وعي الإنسان وانتباهه لهذا العجب العجاب وتأثير هذا الأمر المدهش على مشاعره وانفعالاته وتصرفاته وترقبه طوال عمره لهذا الكنز الحقيقي الذي هو أعظم من الكنوز التي تذكرها القصص والخيالات .

ـ فإذا تكرر التفكير في خطورة الغيبيات على هذا النحو يؤدي ذلك إلى الوعي بخطورتها ، فيؤدي ذلك إلى الحب والذل والخوف والرجاء .

ـ لكن الذي يتعامل مع الجنة في برود تام هو مغيب عن الوعي .

ـ الحب والخوف والرجاء ينشأ من خوف المهابة (المعرفة التامة) :

ـ لابد أن ينبهر الإنسان بعظمة صفات المحبوب حتى يحبه ، فخوف المهابة من الله يؤدي إلى حبه سبحانه .

ـ لكي يتحقق الخوف من دخول النار لابد أولا أن يعقل الإنسان خطورة النار وبالتالي يخاف من مهابتها ويكرهها ، ولكي يتحقق الرجاء في دخول الجنة لابد أولا أن يعقل الإنسان خطورة الجنة وبالتالي يخاف من مهابتها لما فيها من عجائب اللذات التي تفوق كل التصورات ويحب ما فيها من اللذات .

ـ فمثلا الإنسان إذا ذهب إلى قسم الحرائق بأي مستشفى ورأى ما فعلته النار بهؤلاء المرضى فإنه يتألم رغم أنه لم يصب بأي أذى من النار ، فهذا هو خوف المهابة من النار ، وينشأ عن ذلك الخوف من أن يقترب من النار أو تدركه النار فيصاب مثلهم ، وهذا هو خوف العقاب أي خوف الوصول للنار ، فإذا لم يشعر الإنسان بالتألم لهؤلاء المرضى فهذا معناه أنه لا يعرف ماذا تعني كلمة نار معرفة حقيقية ، وهو ليس حي ولا عقل له ، وبالتالي فلن يخاف من العقاب .

ـ فكذلك في هلاك الأمم السابقة لابد أن يشعر الإنسان تجاهه بخوف المهابة مما حدث لهم ، فينشأ عن ذلك خوف العقاب من أن يكون مصيره مثل مصيرهم .

ـ المعرفة بالخالق تؤدي إلى الحب والذل :

ـ المعرفة واليقين بأن الله هو رب الكون وخالقه تؤدي إلى حبه والشعور بالذل له ، فإذا لم تؤدي المعرفة واليقين إلى ذلك فهذا معناه أن المعرفة واليقين لم يتحقق (مع بقاء المعرفة النظرية واليقين النظري الذي يصح به الاعتقاد) .

ـ ونوضح ذلك كالتالي :

ـ صفات الله تعالى تتمثل في أنها :

1ـ صفات حميدة :

2ـ صفات خارقة :

3ـ صفات مسيطرة وغالبة :

4ـ توحيد الصفات :

ـ النظر إلى صفات الله بالمقارنة بصفات الإنسان يؤدي إلى حب الله تعالى .

ـ والنظر إلى صفات الإنسان بالمقارنة بصفات الله تعالى يؤدي إلى الشعور بالذل .

ـ فالحب تعظيم لله تعالى ، والذل تحقير للنفس ، والحب والذل هما أصل العبادة .

ـ ونوضح هذا الأمر كالتالي :

ـ أولا : صفات الله هي صفات حميدة :

ـ الإنسان يحب القوي ويكره المريض الضعيف ، ولاحظ أن هناك فرق بين القوي وبين الظالم ، وهناك فرق بين الضعيف وبين المظلوم ، فالظلم من صفات الضعف وليس من صفات القوة .

ـ الصفات الحميدة محبوبة ، فالإنسان يحب الصفات الحميدة ويحب من يتصف بها ، ويكره الصفات الذميمة ، ويكره من يتصف بها ،

ـ الخالق سبحانه له جميع الصفات الحميدة ، ولا يقتصر الأمر على ذلك فهذه الصفات تصل إلى درجة الكمال وفوق كل تصورات الإنسان ، ولا يقتصر الأمر على ذلك فالخالق وحده له كل الصفات الحميدة وما عند الناس من الصفات الحميدة هو مجرد عطاء من الله لهم وليست صفات أصيلة فيهم ، فالله وحده الغني والناس الفقراء ، والله وحده العليم والناس لا يعلمون شيئا ، وهكذا .

ـ ومن الصفات الحميدة الكرم والإنعام ، فالإنسان يحب الكريم ولو لم يعطه شيئا فالإنسان يحب الله لأنه الكريم المنعم .

ـ والقوة من الصفات الحميدة ، ولاحظ أنه لو أن إنسانا اعتدى على غيره فأفقده قواه بغير حق أو أخذ منه ماله بغير حق فهو ظالم ، والظلم صفة نقص وذم ، والاحتياج إلى الغير صفة نقص وذم .

ـ صفات القوة عند الإنسان والتي تتمثل في قوة جسمية وجاه وسلطان ومال وممتلكات ونعم يتمتع بها ، كل هذه الصفات ليست قوة له وهو ضعيف ، لأنه لا يملك شيئا منها وما هي إلا نعم من الله عليه ، والله هو الذي يملك كل شيء ، فجميع الناس ضعفاء وليس فيهم قوى ، ولا قوي قوة حقيقية إلا الله ((أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً))[258] .

ـ ومن صفات الضعف في الإنسان أنه يتعرض للمرض والموت ويتعرض لزوال النعم التي يحسب أنه بها قوي .

ـ الله له كل الصفات المحمودة وهي صفات قوة ، والإنسان بطبعه يحب هذه الصفات ويحب من يتصف بها ، ويعجب بها .

ـ فأنت مثلا إذا رأيت ساحرا يقوم بأعمال سحر فأنت تعجب به وتنبهر بما يعمله ، فإن قدرة الله أكبر مما يعمله الساحر في أنها قدرة كبيرة على عمل أي شيء ، وفي أنها قدرة حقيقية وليست سحرا وخيالا ، فمثلا عندما خرجت ناقة صالح من الصخرة لم تكن خيالا حتى أنهم ذبحوها وأكلوها ، وقدرة الله على خلق السماوات أعجب من السحر وهي حقيقة وليست سحرا .

(258) البقرة : من الآية 165

ـ فالإنسان يحب الصفات الحميدة ويكره صفات النقص والعجز ، فمثلا الإنسان لا يحب النظر إلى إنسان أعمى أو معوق أو أصابه حرق أو مريض ، وكذلك لا يحب أن يصاحب إنسان غبي أو ضعيف البنية أو بخيل أو ليس بجميل المنظر أو ظالم .. الخ ، وعلى العكس فالإنسان القوي الذكي الكريم حسن المنظر يحبه الناس .

ـ فالله سبحانه فيه كل الصفات الحميدة ، وهذه الصفات تصل إلى درجة الكمال ، وكل ما سوى الله فيه كل صفات النقص والعجز والضعف وما عنده من صفات حميدة إنما هي مجرد عطاء من الله وليست أصيلة فيه وبالتالي ليست مدحا له وإنما مدحا لمن أعطاها إياه .

ـ الصفات الحميدة في الإنسان مثل الشجاعة والكرم والنجدة والقوة .... الخ هي صفات محبوبة ، والصفات السيئة مثل الجشع والظلم والقسوة والطمع .... الخ هي صفات مكروهة ، الله سبحانه له كل الصفات الحميدة فهو ينعم على الناس ولا يريد شيئا منهم ويرحمهم ويغفر لهم ويحلم عليهم ويتصف بكل الصفات الحميدة الجميلة .

ـ وكل صفات الله تعالى محبوبة ، والتكبر عكسه الخضوع ، فالتكبر صفة قوة والخضوع صفة ضعف ونقص ، وهناك فرق بين تكبر الظالم على المظلوم ، وتكبر القوي حقا على الضعيف حقا ، فالظالم ليست له قوة حقيقية ولكنه أخذها من المظلوم ، والمظلوم كانت له قوة فسلبت منه ، أما إذا كان المتكبر ليس ظالما فهو في ذاته قوى ولم يأخذ قوته من أحد ، وتكبر على من ليست له قوة أصلا فلم يسلب منه أحد قوة ، فذلك التكبر صفة مدح ، فالإنسان ليس له أن يتكبر على غيره لأن جميع البشر لا قوة لهم ، فما عندهم من قوة هو نعمة من الله عليهم وليست ملكا لهم ، فالقوى بحق يتكبر على الضعيف الذي لا قوة له فلم يسلب منه أحد قوته .

ـ فصفات الله مثل الجبار والمتكبر والقهار هي أيضا صفات محبوبة ، لأن صفات القوة والإرادة عند البشر هي صفات مخلوقة فيهم وليسوا هم أقوياء من ذوات أنفسهم وحقيقتهم أنهم ضعفاء وما عندهم من قوة هو محض تكرم من الله عليهم ، لذلك فالإنسان ليس له أن يتكبر لأنه ليس بقوي ، والقوي بحق هو الذي له أن يتكبر على الضعيف .

ـ وفي تفسير الرازي : ((واعلم أن المتكبر في حق الخلق اسم ذم ، لأن المتكبر هو الذي يظهر من نفسه الكبر ، وذلك نقص في حق الخلق ، لأنه ليس له كبر ولا علو ، بل ليس معه إلا الحقارة والذلة والمسكنة ، فإذا أظهر العلو كان كاذباً ، فكان ذلك مذموماً في حقه أما الحق سبحانه فله جميع أنواع العلو والكبرياء ، فإذا أظهره فقد أرشد العباد إلى تعريف جلاله وعلوه ، فكان ذلك في غاية المدح في حقه سبحانه ولهذا السبب لما ذكر هذا الاسم قال : { سبحان الله عَمَّا يُشْرِكُونَ } كأنه قيل : إن المخلوقين قد يتكبرون ويدعون مشاركة الله في هذا الوصف لكنه سبحانه منزه عن التكبر الذي هو حاصل للخلق لأنهم ناقصون بحسب ذواتهم ، فادعاؤهم الكبر يكون ضم نقصان الكذب إلى النقصان الذاتي ، أما الحق سبحانه

فله العلو والعزة ، فإذا أظهره كان ذلك ضم كمال إلى كمال ، فسبحان الله عما يشركون في إثبات صفة المتكبرية للخلق))[259] .

ـ والإنسان يحب الله لأنه الوكيل ، فهو يتكفل بما يحتاجه العبد ، فيتوكل العبد على الله وفي ذلك راحة وسعادة ، ويحب الله لأنه تواب غفور رحيم ودود فيتوب على من أذنب ويغفر له ويتودد إلى عباده ، فأنت إذا أخطأت في حق ملك من ملوك الدنيا وخالفت أمره فقد يبطش بك ولكن الله يظل يغفر لك طالما أنك تتوب مهما كثرت الذنوب ، فذلك يؤدي بالضرورة إلى محبته .

ـ والإنسان يحب الله لأنه الهادي ، فالله يعرف الإنسان بطريق الهداية ويعينه عليه ويحب له الخير وأرسل إليه الرسل ليرشده إلى ما فيه نجاته وسعادته .

ـ والإنسان يحب الله لأنه يجيب الدعاء ، فكلما احتجت إلى أي شيء دعوته في أي وقت ، فالله عنده القوة التي تحميك وعنده كل ما تريد وتطلب في الدنيا والآخرة .

ـ والإنسان يحب الله لأن الله يريد للإنسان الخير ، وما يحدث للإنسان من ابتلاءات هو خيرا له لكي يفيق من غفلته ، كما أن الابتلاءات والمصائب فيها تكفير للذنوب ، وفي الحديث : ((يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلاَءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ في الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ))[260] .

ـ والإنسان يحب الله لأنه يعطي الحسنة بعشر أمثالها ويضاعف لمن يشاء ، والسيئة بمثلها فقط .

ـ ومن الصفات الحميدة الجمال ، فالإنسان يحب الله لجمال ذاته .

ـ لا يمكن تصور صفات الذات : ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ))[261] لأن جمال الله لا يقارن بأي جمال في العالم لمدى عظمته .

ـ فالإنسان يستطيع أن ينظر إلى جمال الطبيعة كالورود والأسماك والجبال فيرى الجمال الخلاب ، لكنه لا يستطيع أن ينظر إلى جمال الخالق لأنه ليس له شبيه ولا نظير ولا يمكن قياسه على جمال الدنيا كلها لأنه جمال عالي جدا جدا ، فهو جمال أمتع من كل متع الجنة نفسها ، فجمال الله يصعق الإنسان إذا نظر إليه فلا يستطيع مخلوق أن ينظر إليه سبحانه ، وجمال الله أعلى من كل جمال الدنيا والمخلوقات لأنه هو الذي أعطى لهم هذا الجمال ، والخالق لابد أن يتصف بالكمال في كل شيء فلابد أن يصل جمال الخالق إلى الكمال سبحانه ، فمهما أحب الإنسان شيئا لجماله فهو لا شيء أمام جمال الله تعالى فيكون حبه لجمال الله تعالى أعظم من كل شيء .

(259) تفسير الرازي [مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير] ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (ج : 29 ، ص : 514)
(260) قال الشيخ الألباني : حسن (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 603 ، برقم 2402)
(261) الشورى : 11

ـ ثانيا : صفات الله هي صفات خارقة وغالبة :

ـ القدرات الهائلة للخلق هي معجزات فوق الأسباب ، كقدرة الله على أن يسمع كل شيء ويرى كل شيء ولا ينسى شيء مما يفعله العباد من صغيرة او كبيرة منذ بدأ الخلق الى قيام الساعة .

ـ الإنسان يحب الصفات الحميدة ، وحبه أكبر لمن تتميز هذه الصفات الحميدة عنده فتكون أعلى من الناس ، فيحب من يضرب به المثل في الإنفاق أو أعمال الخير ، ويحب من يحقق رقما قياسيا في بطولة رياضية مثلا ، ويحب الانتماء إليه ومودته والعزة به ، وقد يعلق صوره في بيته ويكثر من الحديث عنه وينسب نفسه إليه ويفتخر بقدرة ذلك الإنسان الذي جعله مثلا أعلى له .

ـ ولأن الله هو الأعلى في كل الصفات الحميدة ، فمن شعر بالعلو والكمال في هذه الصفات لله تعالى شعر بحب الله وحب الانتماء إليه والحديث عنه وعن فضله ، فيعتز بانتسابه إلى الإسلام ، ويستمد فخره وشرفه وقوته من انتسابه إلى الإسلام .

ـ ولأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أعلى الناس في الصفات الحميدة كما أنه أرشد الناس وعرفهم بطريق النجاة ، فمن شعر بهذه الصفات للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شعر بحب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحب الانتماء إليه والحديث عنه وعن فضله ، فيعتز بانتسابه إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ويستمد فخره وشرفه وقوته من انتسابه إلى الإسلام ، ويفرح بانتسابه إلى الله ورسوله والمؤمنين : ((وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ))[262] .

ـ فالجمال والصفات المحمودة كالكرم والرحمة وغيرها هي صفات محبوبة ، والإنسان يحب هذه الصفات ويحب من يتصف بهذه الصفات ، وكلما كانت هذه الصفات موجودة بصورة أكبر كان حب الإنسان لمن يتصف بها أكبر كأن يحب فلانا الذي كرمه كبير جدا أو جماله لا يوصف مثلا ، فإذا كانت جميع الصفات المحمودة هي من صفات الخالق وتصل إلى درجة الكمال التام وما عند الإنسان من صفات محمودة هي محض تكرم من الله عليه لأن الإنسان لا يملك شيئا يعطيه لغيره ليكون كريما مثلا ، فلا كريم كرما حقيقيا إلا الله تعالى ، والذي خلق كل هذا الكم من الجمال في الخلق والمخلوقات لابد أن يكون عنده من الجمال ما هو أكبر من مجموع ما أعطى من الجمال للخلق والمخلوقات منذ خلق الكون والبشر والمخلوقات إلى يوم القيامة ، وبالتالي فلذة النظر إلى وجه الله أعظم من مجموع كل جمال الدنيا ، وبالمثل كل الصفات المحمودة من الكرم والرحمة وغيرها فالله خلقها وهي عند الله أعظم فلله الكمال في الجمال والصفات ، وبالتالي فكل صفات الله تدعو إلى حبه حبا عظيما ، فمن لم يشعر بشيء من حب الله تعالى هو لا يعرف الله ولا يوقن يقينا حقيقيا بالخالق وصفاته .

(262) المنافقون : من الآية 8

ـ ثالثا : صفات الله هي صفات مسيطرة :

ـ قدرة الله تعالى مسيطرة على الإنسان وكل شيء تجعل الإنسان خاضعا لها ، فمن مدى قدرة الله انها محيطة بالإنسان ولا يستطيع الإنسان الهروب منها فالله يقدر عليه في أي مكان واي وقت ويقدر أن يفعل به أي شيء ، فمن الممكن أن يحوله لخنزير مثلا بكن فيكون ، كما أن سمع الله وبصره يصله في أي مكان وأي وقت ، والله لا يغفل ولا ينام ففي جميع الأوقات يقدر عليك ويسمعك ويراك ، ومن ضمن السيطرة أن الإنسان ملكا لله تعالى فكل ما عند الإنسان من قدرة وسمع وبصر وقوة وعلم هي ملك لله تعالى ، فمن صفات العظمة الملكية فالضعيف المملوك لسيده ليس له حياة خاصة به وإنما يعيش خادما لمراد سيده .

ـ فالإنسان ضعيف لا حول له ولا قوة لا يستطيع أن يهرب من هيمنة الله وسيطرته عليه ومراقبته له ورؤيته له وعلمه به في كل وقت ولا يجد حيلة ليفلت من قدرة الله المحاصرة له فيشعر بالاستسلام والذل والخضوع ، كما يشعر بالحب لمدى عظمة قدرة الله وعلمه الذي بلغ كل شيء .

ـ رابعا : توحيد الصفات :

ـ كل صفات القوة والعظمة والكمال هي لله تعالى ، وكل ما دون الله فيه كل صفات الضعف والنقص وكل ما دون الله لا ينفع ولا يضر ، ولاحظ أن البشر ليس فيهم ضعيف وقوي ، فجميعهم ضعفاء والله وحده هو القوي : ((وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا))[263] ، وما عند الناس من صور القوة ما هي إلا عطاء من الله إليهم وليست ملكا لهم ، فالقوي بحق هو الذي يمتلك صفات القوة والقدرة .

****

الفصل الرابع عشر

أثر المعرفة الحقيقية بالله والآخرة على المشاعر

ـ أنت إذا وقفت أمام أسد حقيقي ولم تتصور خطورة الأمر فلم تشعر بالخوف فهذا معناه أن هذا الأسد في حقيقته بالنسبة لك هو تمثال أو صنم ، والفرق بين الأسد الحقيقي والأسد الصنم أن الأخير لا ينفع ولا يضر ، وهما مشتركان فقط في الاسم ، فالأول له اسم حقيقي والثاني له اسم مخترع ما أنزل الله به من سلطان ، لذلك عاب الله علي قوم يعبدون أصنام لا تنفع ولا تضر ((قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكُمْ شيئا وَلا يَضُرُّكُمْ))[264] .

(263) البقرة : من الآية 165
(264) الأنبياء : 66

ـ فإذا كنت تقول بأنك توقن يقينا تاما بأن هناك أسد يجرى نحوك ويقترب منك ولم تتصور خطورة هذا الأمر ولم تنتبه لهذا الخطر ولم تخف منه فتسرع بالهرب فأنت كذاب أو يقينك بأنه أسد كاذب .

ـ المشاعر نوعين :

1ـ مشاعر غير مرتبطة بالثواب والعقاب : وهي الشعور بالذل والحب والحياء .

2ـ مشاعر مرتبطة بالثواب والعقاب : وهي الخوف والرجاء .

****

ـ حب الله تعالى

ـ حب الله ينشأ من المعرفة التامة بالله تعالى فيقول شيخ الإسلام ابن القيم : ((وَالْحب تبع للْعلم يقوى بقوته ويضعف بضعفه))[265] .

ـ لا يتحقق الإيمان حتى يكون الله أحب إليك من الدنيا وما فيها ، فيكون حب الله أكبر من حب الأهل والزوجة والمال والجاه .

ـ النفس مجبولة على حب الشهوات ، ورغم ذلك لابد أن يكون حب الله أعظم من حب الشهوات .

ـ كلما نقص حب الدنيا زاد حب الله تعالى والعكس صحيح ، وإذا لم يكن في القلب سوى حب المال والشهوات والدنيا فلا يوجد شيء اسمه حب الله مطلقا .

ـ معنى الحب :

ـ الحب هو أحلى وألذ ما يشعر به القلب ، ونحن في زمان كثر فيه الكلام عن الحب ، فلا تحتاج إلى أن أذكر لك فوائد ومزايا وجمال ولذة ومتعة الحب .

ـ حب الله عبارة عن لذة ومتعة وسعادة يحس بها الإنسان عندما يعرف (معرفة حقيقية) مدى جمال صفات الله ومدى جمال ذاته فيشتاق إلى لقاءه والنظر إليه ويأنس به ويحب ذكره .

ـ فالحب هو الشعور بالراحة والميل والإعجاب والسعادة والطمأنينة والسكينة بالشيء لما فيه من صفات جميلة ، فإذا كنت تشعر بهذا الشعور تجاه الله فأنت تحب الله .

ـ إن الله تعالى يقول : ((قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ))[266] ، وأنت تسمع من كلام الحب للعشاق في الغناء وفي الشعر ما معناه : إن كل أعمالي وكل حياتي وروحي ومماتي للمحبوب ، وهذا هو ملخص معظم الأغاني والأشعار ، وهذا لا يكون

(265) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (1/ 150)
(266) الأنعام :162

إلا لله ، لأن هذا الكلام يفيد أن كل مشاعري وكل ما يشغل بالي وكل أهدافي هي المحبوب ، فخطورة أغاني العشاق أن فيها تعظيم لحب غير الله ، ففي ذلك صرف عن حب الله كما أن فيها تلهي وتشاغل عن الله ، وهذا يعني أن كلام الحب للعشاق لابد أن يتحول إلى الله بشرط تعديله بحيث يليق ويتناسب مع الله سبحانه ، وبشرط إزالة الكلمات والمعاني التي تتناسب مع الطين (الإنسان) لأنك تتعامل مع الله سبحانه ، وإنك تجد أن أهل الغناء والشعراء كثيرا ما يبالغون مبالغة شديدة في معاني القرب من محبوبهم ، وهذه المبالغة الشديدة إنما تجب أن تكون لله تعالي ، والعكس فإن الكلمات والمعاني الدينية التي تستخدم للتقرب إلى الله فإنك تجد أهل الغناء يستخدمون معاني قريبة أو شبيهة أو حتى نفس الكلمات في التقرب إلى المحبوب وهذا يجب أن يكون لله تعالى .

ـ الحالة النفسية للحب :

ـ الحب صورة من صور الشعور باللذة ، فإذا لم يشعر الإنسان باللذة فهو لا يحب ، فالحب عبارة عن متعة ولذة ، فمن لم يجد في محبة الله متعة ولذة فهو لا يحب الله تعالى .

ـ كثيرا من الناس يدعون حب الله فإن الذي يحب شخصا فإنه يحب أن يذهب إليه ويتحدث معه فهل تجد في نفسك الشوق إلى لقاء الله والشوق إلى النظر إلى وجه الله الكريم في جنات النعيم ، ومن أدعية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((اللهم وأسألك لذة العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك وشوقا إلى لقاك))[267] ، والمحب يفرح ويطمئن بذكر محبوبه والحديث عنه ، فكذلك المؤمن يفرح ويطمئن بذكر الله : ((الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ إلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ))[268] .

****

ـ المشاعر المتعلقة بالثواب والعقاب (الخوف من العقاب والرجاء في الثواب)

ـ ما يطمح إليه الإنسان ويرجوه ويتمناه ويحلم به ويكون أمله ورغبته إما أن يكون تجارة أو مال أو شهوات أو منصب وجاه ، وإما أن يكون رضا الله والجنة ، وكلما زاد أمله في الدنيا قل أمله في الجنة ، والعكس صحيح ، فهذا معنى الرجاء .

ـ فقد يكون للإنسان هدفان متناقضان ، فهدفه الدنيا وهدفه الآخرة ، وكلما زاد هدفه ورغبته في الدنيا نقص هدفه ورغبته في الآخرة ، والعكس صحيح ، فإذا آثر الهدف الدنيوي على الهدف الأخروي فقد خسر : ((فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ

(267) التخريج : صحيح (ظلال الجنة ج : 1 ، برقم 424)
(268) الرعد : 28

الْمَأْوَى))[269] ، ((الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخرة))[270] ، ((ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخرة))[271] .

ـ ومن الناس من عنده طول أمل بحيث كلما حقق هدفا دنيويا لم يقنع ولم يحقق له سعادة ، ويستجد له طموحات أكثر وطول أمل أكثر وهكذا يظل يريد أن يصل إلى أهدافه التي يرى فيها الراحة حتى يموت ، فكثير من الناس من يرى الراحة والسعادة حينما ينجح في دراسته ثم ينجح فلا يرتاح لأنه يرى الراحة في أن يتخرج من الجامعة ثم لا يرتاح لأنه يرى الراحة في أن يجد عملا ثم لا يرتاح لأنه يرى الراحة في أن يتزوج ثم لا يرتاح لأنه يرى الراحة في إنجاب الأطفال ثم لا يرتاح لأنه يرى الراحة في أن يزوج أبناءه ثم لا يرتاح لأنه يرى الراحة في أن يكون ذو صحة وعافية ولا يرتاح الإنسان ويرضى بما هو فيه من العمل فلا يرى في عمله الراحة ويظن أن عملا آخر أفضل ، ولا يرتاح ويرضى بما هو فيه مع زوجته ويرى أن آخرين يعيشون حياة أفضل ولا يرتاح ولا يرضى بمسكنه ويظن أن غيره أفضل ولا يرتاح ولا يرضى ويظل عنده أمل في تحقيق أشياء كلما تحققت لم يجد فيها الراحة وكان عنده آمال أخرى لا تنتهي حتى يموت وهو على ذلك لم يجد الراحة ، فلا راحة في الدنيا ، إنما الراحة في الجنة ، ومثال ذلك مثال الرجل الذي قيل له اجري في هذه الأرض فكلما قطعت مسافة من هذه الأرض فهي لك ، فكان الرجل كلما جرى مسافة يقول لنفسه : كلما أجرى أكثر آخذ مساحة أكبر من الأرض ويظل هكذا لا يتوقف حتى يقع ميتا ، ولا أحد يعجبه حاله أو يرضى بحاله ويقول الشاعر :

صغير يشتهي الكبرا وشيخ ود لو صغرا
ورب المال في تعب وفي تعب من افتقرا
وخالي يشتهي عملا وذو عمل به ضجرا
ويشقى المرء منهزما ولا يرتاح منتصرا
فهل حاروا مع الأقدار أم هل حيروا القدرا

ـ ودائما يجعل الإنسان ما يحتاجه أكثر مما معه من مال ، ويتصور أنه لو جاء إليه قدر معين من المال لحقق ما يريد وارتاح وسعد ، ولكنه كلما زاد دخل الإنسان كلما صنع لنفسه احتياجات أكثر من دخله ، فيظل في احتياج وتطلع وشكوى مستمرة حتى يموت ، فكلما حقق طموحه استجد له طموح آخر ، ودائما يتصور أن ما يطمح إليه هو شيء مهم وضروري لأسباب واهية ، وقد يكون لا داعي له أصلا أو غير مبرر أو لا يحتاج إليه على وجه الضرورة ، ويظل يعمل طول عمره من أجل مستقبله ولن يأتيه المستقبل حتى يموت ، فهو دائما لا يرضى بحاله والوضع الذي هو فيه ويريد التغيير ولو لمجرد التغيير ، فهو غير راض عن

(269) النازعات: 37 - 39
(270) إبراهيم: 3
(271) النحل: 107

مسكنه أو عن عمله أو عن دخله أو عن زوجته وأسرته ، فيظل دائما يبحث عن السعادة وينتظرها فلا يجدها ولا يصل إليها ، والسبب هو أن الذي يعيش للدنيا كلما حقق طموحا فلابد أن يصنع لنفسه طموحا آخر وإلا فلماذا يعيش وماذا يصنع ؟ فالإنسان لا يستطيع أن يعيش بغير طموح وهدف ، وطالب الدنيا ليس له هدف محدد لأن الدنيا ليست شيئا واحدا فهي ألوان من المظاهر والشهوات والأموال والمتاهات ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ، أما الذي يعيش للآخرة فطموحه الجنة ، أما الدنيا فهو يعلم أنه عابر سبيل فلا يطمح فيها ، كما أنه يعلم أن رزقه لا يزيد ولا ينقص لا بطموح ولا بغير طموح وأنه لا حيلة في الرزق ، وأن رزقه لن يأخذه غيره لذلك فهو مطمئن سعيد ، ولذلك ففي الحديث : ((انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم))[272] .

ـ وما لم يكن لقاء الله والآخرة هو الهدف يظل الإنسان يخترع لنفسه أهداف دنيوية حتى يموت .

ـ الإنسان لديه خوف وقلق بشأن وجود وظيفة ومسكن والتغلب على أعباء الحياة والتغلب على مشاكله الخاصة والحصول على النفقات التي تمكنه من الزواج وغير ذلك من أمور الدنيا ومخاوفها ، وقد يكون خوفه وقلقه بشأن النجاة من النار وأهوال القيامة ، وكلما زاد خوفه من مخاوف الدنيا قل خوفه من مخاوف الآخرة ، والعكس صحيح ، فهذا معنى خوف العقاب .

ـ كل الناس يريدون الشهوات واللذات وتحقيق السعادة وتجنب المضار والآلام ، وهم في ذلك صنفين هما :

ـ الصنف الأول يرى السعادة في شهوات الدنيا ولذاتها وتجنب مشاكل الدنيا وآلامها فيكون تفكيره في شهوات الدنيا وهمه في الحصول عليها ، وهؤلاء كفار أو منافقون ، وهؤلاء كل خوفهم ورجاؤهم في الدنيا .

ـ الصنف الثاني يرى السعادة في شهوات الجنة ولذاتها وتجنب عذاب النار وآلامها فيكون تفكيره في شهوات الجنة والحور العين وهمه في الحصول عليها ، وهؤلاء هم المؤمنون ، وهؤلاء هم العاقلين الذين يصبرون أنفسهم عن شهوات الدنيا القليلة ليتمتعوا بالنعيم الأبدي في الآخرة ، والدنيا في نظرهم ما هي إلا صبر ساعة ، وهؤلاء خوفهم ورجاؤهم في الله .

ـ الخوف من النار هو في حقيقته خوف من الله ، ورجاء الجنة هو في حقيقته رجاء الله :

ـ الخوف من النار هو في الحقيقة خوف من الله ، لأن النار ليست هي التي أوجدت نفسها وليست هي التي تريد أن تعاقب أحدا ، ولكنها عقوبة من الله ، لذلك فالخوف من النار في الحقيقة هو خوف من الله من أن يعاقبك بالنار ، وكذلك رجاء الجنة هو في الحقيقة رجاء الله .

(272) تحقيق الألباني : صحيح (صحيح الجامع برقم : 1507)

في أن ينعم عليك بالجنة ، وكذلك الخوف من الآخرة هو في الحقيقة خوف من الله في أن يقيك هول ذلك اليوم ، لذلك يقول تعالى : ((إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً))[273] .

ـ الحالة النفسية للخوف وللرجاء :

ـ أنظر إلى طالب في الثانوية العامة ، فإنه قد يأخذ حالة طوارئ ويتهيأ نفسيا لأنه أمر مصيري يتحدد عليه مستقبله ، إنه يكون في قلق واضطراب وخوف وترقب حتى تظهر النتيجة ، إن الحالة النفسية التي عنده هي التي تسمي خوف وقلق ، فإذا كنت تدعي الخوف من الآخرة فهل عندك هذه الحالة النفسية ؟ ، وأنظر إلى حالته وهو في انتظار النتيجة ، أنظر إلى حالته المزاجية وانشغال باله بالنتيجة ، فإن الشعور الحقيقي يظهر علي الوجه ويؤثر في وجدانه وربما يأرق من النوم وتقل شهيته للطعام .

ـ أنظر إلى إنسان مطلوب منه أن يقوم بعمل معين وإلا يتعرض مثلا للفصل من العمل ، أنظر إلى حالته النفسية قبل وأثناء وبعد تأدية العمل فتجد حالة نفسية مميزة للخوف ، وأنظر إلى قوة هذه الحالة النفسية واستمراريتها والشعور بها ، وحتى بعد العمل يظل خائفا هل أداه علي ما يجب أم أنهم لن يرضوا عن هذا العمل .

ـ مثال آخر : هل خوفك من القيام بعمل يعاقب عليه القانون مثل خوفك من القيام بمعصية ، فأين خوفك من عقاب الله ، وهل ندمك وحزنك على الوقوع في معصية مثل حزنك على ضياع مائة جنيه مثلا ، وهل الحالة النفسية التي تشعر بها في هذا مثل هذا ؟! .

ـ لو كنت تدعي أن هناك أحدا من الناس يتعقبك ويريد قتلك ثم أنت لا تشعر بالخوف من ذلك فأنت كذاب ، كذلك إذا كنت تدعي بوجود الآخرة بما فيها من أهوال وعقاب ولم تخف خوف المهابة وخوف العقاب فأنت كذاب ، فالآخرة مثل الجيش الذي يهجم عليك ليقتلك ، ففي الحديث : ((مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبته طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق))[274] ، فهل عندك الحالة النفسية للذي يهرب من الجيش المقبل عليه ليفتك به .

ـ الإنسان الذي يعيش من أجل الدنيا كلما مر عليه يوم شعر بأنه اقترب من تحقيق طموحه الدنيوي فيزداد نشاطا للدنيا ، والذي يعيش منتظرا لقاء الله كلما مر عليه يوم شعر بأنه اقترب من الموت ولقاء الله ، فالرجاء فيه شوق وحنين وفرح وحب وتطلع وانطلاق وشعور بالهدف الذي تسعى إليه ، فإذا كنت تدعي أنك ترجو الله واليوم الآخر فهل عندك مثل الحالة

(273) الإنسان : 10
(274) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5860 في صحيح الجامع)

النفسية التي تكون عند من يرجو ويهدف إلى القيام بعمل دنيوي كمشروع تجاري أو السعي لمنصب أو جاه أو شهوة ؟! .

****

ـ ادعاء وجود المشاعر المتعلقة بالله والآخرة

ـ كل الناس يعلمون أنه يجب عليهم أن يخضعوا لله ويحبوه ويخافوه ويرجوه ولكنهم يتغافلون عن ما يعلمونه ويتناسون الأمر كأنه ليس بقضية أصلا ! .

ـ كل إنسان يدعى الخضوع ولا يسأل نفسه هل هو خاضع حقا أم لا ؟ ولا يتبين طبيعة وحقيقة الخضوع ، وكذلك يدعي أنه يخاف الله ويحبه ويرجوه ويخاف من الآخرة ؟ ولا يسأل نفسه هل هو خائف حقا من الله أم لا ؟ وهل هو يشعر بحب الله حقا أم لا ؟ ، ولا يهمه الأمر كأن المسألة غير مهمة ، ولكي يهرب من مواجهة نفسه أمام نفسه قد يدعي أن هذه الأمور موجودة بالفطرة عند كل الناس مسلمين وكافرين أو يدعي أن هذه الأمور هي عند المقربين وهي لمن يريد الدرجات العليا في الجنة وليست مسألة خلود في الجنة أو خلود في النار ، أو يدعي أن هذه المشاعر موجودة بالفعل عنده في حين لا توجد عنده الحالة النفسية المميزة لكل شعور من هذه المشاعر فهذه المشاعر غائبة تماما .

ـ كل الناس يعلمون أن الخضوع هو شعور بالذل ويعلمون أن معنى أن لهم إله هو أن يخضعوا له ، ويعلمون أنهم يجب عليهم أن يخضعوا لله ويحبونه ويخافونه ويرجونه لكنهم يتناسون هذه المشاعر ، ويهربون منها ولا يشغلوا أنفسهم وتفكيرهم بهذه المشاعر كأنها لا قيمة لها ، وقلما تجد إنسان يفكر في حقيقة الخضوع والحب والخوف ليرى هل هي موجود فعلا عنده أم لا ؟ .

ـ كل الناس يدعون أنهم خاضعين لله وهم يتناسون معنى أن يعيش الإنسان خاضعا ذليلا لغيره طول حياته ، فهم لا يقبلون أن يعيشوا معيشة الذل ويعتبرون أنفسهم أحرارا ولا يقبلون أن يستعبدهم أحد فيكونون عبيدا له .

ـ مشاعر الإيمان كحب الله والخوف منه ورجاءه والخضوع له والخوف من الآخرة تحولت عند بعض المسلمين إلى عبارات محفوظة مقدسة وليست مشاعر حقيقية يحس بها الإنسان في داخله ، فليس لها وجود في قلوبهم رغم أنهم يدعون وجود هذه المشاعر في أنفسهم ، وهي في الحقيقة أصبحت مفرغة من معناها .

ـ فاليقين بالله إذا لم يؤدي إلى هذه المشاعر فهو يقين كاذب وليس يقينا حقيقيا ، أما اليقين الحقيقي فهو الذي يؤدي إلى هذه المشاعر ، ولأنه بالفطرة من عرف الله (أحس بقدره) خاف من مهابته وأحبه وخاف عقابه ورجا ثوابه وخضع له وأطاعه .

ـ لقد أصبح بعض الناس مخدوعون في أنفسهم يظنون أنهم يحبون الله ويخافونه ويخضعون له ويخافون الآخرة رغم أنه لا يوجد عندهم ولو ذرة واحدة من ذلك ، فرغم أن هذه المعاني بسيطة ويعرفها الصغار والكبار لكن مات معناها الحقيقي ، لذلك أصبحنا نحتاج إلى توصيف وتعريف معنى شعور الإنسان بالخوف أو بالحب أو بالخضوع حتى يستطيع أن يعرف الإنسان في نفسه بدقة هل هذه المشاعر موجودة أم لا ؟ .

ـ ورغم بساطة هذه المشاعر فعدم وجودها يعني الخلود في النار ، ومع ذلك لا يهتم أحد بتوصيفها للتأكد من وجودها أم لا ، وقد يعتبر توصيف هذه المشاعر نوعا من الفلسفة ! رغم أنها مسألة خلود في الجنة أو خلود في النار .

ـ وطبيعي أن الشيء الذي ينبني عليه الخلود في الجنة أو النار لابد أن يكون شيئا بسيطا جدا بحيث يعرفه كل الناس مهما كانت بساطتهم وعلى جميع مستوياتهم ، فكل الناس يعرفون معنى حب الشيء والخوف منه ومعنى الخضوع والاستسلام ولكنهم يتناسون ذلك .

ـ وقد أوضحنا حقيقة الحب والذل وخوف العقاب ورجاء الثواب ، وقمنا بتحليل كل شعور من هذه المشاعر من داخل النفس وأوضحنا الحالة النفسية المميزة لكل شعور من هذه المشاعر حتى يتبين لمن يدعى حب الله والخضوع له وأن الله غايته أنه مخدوع وأن مشاعر الإيمان غير موجودة عنده وأن اقتناعه بوجودها هو مجرد وهم وخداع يخدع الإنسان به نفسه .

ـ كيف تعرف هل المشاعر المتعلقة بالله والآخرة موجودة عندك أم لا ؟ :

ـ كل الناس يدعون وجود المشاعر المتعلقة بالله والآخرة ، فشرط وجود المشاعر المتعلقة بالله والآخرة هو وجود الحالة النفسية المميزة لكل شعور ، وهو شرط بديهي جدا من الفطرة ، وبالتالي فهو حجة على جميع الناس مهما اختلفت ثقافاتهم ومستوى فهمهم ولا عذر فيه لأحد لأنه لا يجهله أحد ، فالذي يدعي الخوف من الله لابد أن يشعر بما يشعر به الإنسان من أمر من أمور الدنيا بل أشد ، والذي يدعي حب الله لابد أن يشعر بما يشعر به الإنسان الذي يحب أمرا ما من أمور الدنيا بل أشد ، والذي يدعي الخضوع لله لابد أن يشعر بما يشعر به الإنسان الذي يعمل خادما عند سيدا له بل أشد ، فلابد من وجود الحالة النفسية والعاطفية والوجدانية والمزاجية والحالة الانفعالية المناسبة لكل شعور وما فيها من الشعور بالضيق أو الألم أو الشعور بالفرح والسرور ، وإلا فإن هذا الشعور غير موجود وهو مجرد ادعاء ، فالخوف فيه شعور بالقلق والاضطراب الداخلي والحب فيه شعور بالشوق والفرح والارتياح النفسي والإعجاب والخضوع فيه شعور بالانكسار والذلة والمسكنة ، وهكذا .

ـ فإن حب الله والخوف منه والخضوع له ليست أشياء هلامية غير مفهومة وإنما هي من نفس جنس المشاعر التي يعرفها الإنسان ويشعر بها في الدنيا ، فإذا أردنا تعريف الحالة النفسية للخوف مثلا فنقول هو الحالة النفسية التي تحدث للشخص عندما يتعرض لخطر ما (مثلا طالب ينتظر نتيجة امتحان) ، وتفسير هذه الحالة النفسية من داخل النفس واضح

يشعر به كل إنسان وإن صعب عليه التعبير عما يحس به ، أو مثلا الغضب تجد له انفعال عصبي داخلي يشعر به الإنسان الغاضب كما يظهر علي سلوكه وانطباعاته ، أو مثلا الطمأنينة هو حالة نفسية فيها شعور بالارتياح والسكينة ...الخ .

ـ والحالة النفسية لكل شعور من المشاعر تكشف الإنسان أمام نفسه حتى لا يظن أنه يخاف الله وليس في قلبه ذرة من الخوف أو يحسب أنه يحبه وليس في قلبه ذرة من الحب ، وهكذا .

ـ أحد أهم الأشياء التي يتغافل عنها الإنسان وهي هل حقق الإنسان الحالة النفسية المميزة لخوف المهابة والحب وخوف العقاب ورجاء الثواب والخضوع لله والخوف من الآخرة أم لا ؟ ، وأن يجتهد في تحقيقها ولو طول عمره .

ـ من ناحية أخرى فلا يمكن لإنسان أن يدعي حب امرأة من غير الانشغال بما فيها من صفات حميدة ، ولا يمكن لإنسان أن يدعي أن هدفه المال والثروة أو أنه يحب المال من غير أن ينشغل همه أولا بالمال وجمعه وهكذا .

ـ فيدعي الإنسان أن لديه يقين جازم بأنه يحب الله وأن رضا الله والجنة هي هدفه وأنه لا يخاف إلا الله وهذا كذب ومجرد ادعاء يكذب به على نفسه .

ـ ملحوظة :

ـ المشاعر مرتبطة ببعضها وتحدث معا ، فمثلا الذي يحب الله فهو يخافه ويخاف من الآخرة ...الخ ، وكذلك كل مشاعر الإيمان مرتبطة ببعضها ، وكذلك الهموم والأهداف مرتبطة مع المشاعر فتحدث جميعا معا لأنها مستمدة من شيء واحد وهو معرفة الله والآخرة معرفة حقيقية .

ـ مهما وصفت لك الحالة النفسية لكل شعور من المشاعر فلن تكون مثل الحالة النفسية لإنسان حققها فعلا ، فمهما وصفت لك حال الطالب عند الامتحان وما ينتابه من قلق وخوف فلن يكون مثلما تعاين أنت هذا الأمر فتشعر بهذا الشعور ، ففي الحديث : ((ليس المخبر كالمعاين))[275] .

ـ ومهما وصفت لك عن طبيعة المشاعر التي ينبغي أن يشعر بها المسلم من حب الله والذل له والخوف منه ورجاءه والخوف من الآخرة هي أمور شعورية وليست أمور معرفية ، والإنسان الذي يشعر بألم أو بلذة قد لا يستطيع أن يصف لك ما يشعر به ، لأن الألم واللذة هو شيء له طعم يذوقه ويشعر به وقد لا يستطيع أن يعبر عنه .

ـ إذا لم تكن تشعر بشيء من الحالة النفسية للشعور بحب الخالق أو بشيء من الحالة النفسية للشعور بالخضوع له فهذا ناشئ من غياب المعرفة التامة بالله والآخرة .

(275) التخريج : صحيح (تخريج الطحاوية ، ص : 377)

ـ الفرق بين تحقيق مشاعر الإيمان والاقتناع بالعمل على تحقيقها :

ـ إن العبرة بتحقيق مشاعر الإيمان ، وليست العبرة بالاقتناع بها وتمني التحلي بها والدعوة إليها وتعليمها الناس ولا حتى السعي نحوها دون الوصول لتحقيقها ، فَمَنْ هذا حاله فلا فائدة من عمله : ((أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ))[276] ، وفي الحديث : ((مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه مثل الفتيلة تضيء للناس وتحرق نفسها))[277] ، وحتى لو كان الإنسان عالما عاملا بكل أمور الدين والدنيا من غير أن يحقق مشاعر الإيمان فلا يغني ذلك عنه شيئا ، ومن الناس مَنْ يظل طول عمره يقول أنا مقصر في هذه المشاعر وأريد تحقيقها : ((قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ))[278] ، فهذه المشاعر من الثوابت التي يقرها الجميع وعلى اقتناع نظري تام بأهميتها وأهمية تحقيقها ، ولكن مَنْ يحققها فعلا ؟! : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ))[279] ، وإنك لتجد الكثير ممَنْ يدعي أنها متحققة في نفسه : ((فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ))[280] ، ((وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ))[281] .

ـ احذر من النية الكاذبة :

ـ إذا قال إنسان : أنا أعمل هذا العمل لله ، والسؤال : لماذا تعمل هذا العمل من أجل الله ؟ ، والإجابة : أعمله حبا لله تعظيما له أو ذلا له أو حياءا منه أو خوفا من العقاب أو رجاءا في الثواب ، فإذا كانت هذه هي الدوافع التي جعلتك تعمل هذا العمل من أجل الله فهذه النية صالحة ، أما إذا كانت هناك دوافع أخرى غير ذلك فهي نية كاذبة .

ـ وإذا كانت هذه المشاعر غير موجودة عندك على سبيل الحقيقة فالنية كاذبة .

ـ ونوضح هذا الأمر كالتالي :

ـ النية تنشأ من سببين هما :

1ـ الحب والشعور بالذل والشعور بالحياء :

ـ والطاعة هنا لا ترتبط بالثواب والعقاب بمعنى أنه لو لم يكن هناك جنة ولا نار لأطاع الإنسان الله حبا وذلا وحياءا .

ـ فاليقين الحقيقي بربوبية الله يؤدي إلى طاعته .

(276) البقرة : 44
(277) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5837 في صحيح الجامع)
(278) الأنبياء : 14، 15
(279) الصف : 2
(280) العنكبوت : من الآية 3
(281) العنكبوت : 11

2ـ خوفا ورجاءا .

ـ فالمعرفة الحقيقية تؤدي إلى مشاعر ، والمشاعر تؤدي إلى عمل كالتالي :

ـ المعرفة النظرية بشيء ما معناها أن الإنسان لا علاقة له بذلك الشيء فلا هو معه ولا ضده ولا يعمل ما يؤيده ولا ما يعارضه ولا يشعر تجاهه بشيء فلا يحبه ولا يكرهه ، لأن المعرفة النظرية بالشيء تعنى كأنه لم يعرف ولم يسمع عن هذا الشيء .

ـ أما المعرفة التامة فتؤدي إلى مشاعر ، والمشاعر تؤدي إلى العمل .

ـ المعرفة التامة بالله تؤدي إلى أن يعيش الإنسان حياة العبد لسيده ، والمعرفة التامة بالآخرة تؤدي إلى أن يعيش حياة الخائف الهارب من النار ، ويعيش حياة المسافر المستعد للرحيل ، ويعيش حياة الطالب في لجنة الامتحان تحت مراقبة تحسب عليه كل حركاته وسكناته .

ـ المشاعر المرتبطة بالثواب والعقاب (الخوف والرجاء) تؤدي إلى طاعة الله من أجل الجنة والنجاة من النار ، والمشاعر غير المرتبطة بالثواب والعقاب (الحب والذل والحياء) تؤدي إلى طاعة الله من أجل رضا الله ولو لم يكن هناك جنة ولا نار ، والمؤمن يعبد الله للأمرين معا ، فيعمل لله حياءا منه وخضوعا له وتعظيما له وحبا له وخوفا من عقابه ورجاءا لجنته .

ـ الخوف من الله يؤدي إلى أن يكون سلوك الإنسان وعمله سلوك الخائف وعمل الخائف فيعيش حياته خائفا مترقبا لقاء الله تعالى ، وكذلك الخضوع لله يؤدي إلى أن يكون سلوك الإنسان وعمله سلوك الخاضع وعمل الخاضع ، وكذلك حب الله تعالى يؤدي إلى أن يكون سلوك الإنسان وعمله سلوك المحب وعمل المحب .

ـ العمل المقبول وغير المقبول :

ـ العمل المقبول هو العمل الناشئ من تأثر مشاعر الإنسان بالله والآخرة ، أي الناشئ من الحب أو الذل أو الخوف أو الرجاء ، وبتعبير آخر الناشئ من المعرفة التامة بالله والآخرة .

ـ العمل الناشئ من أي سبب آخر غير متعلق بالله والآخرة فهو عمل غير خالص لله وغير مقبول .

ـ بل إن الإنسان إذا عمل طاعة رجاء الدنيا ورجاء الآخرة في نفس الوقت أو خوفا من النار وفي نفس الوقت خوفا من عقاب الناس فعمله غير مقبول ، ففي الحديث القدسي : ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل لي عملا أشرك فيه غيري فأنا منه برئ وهو للذي أشرك))[282] .

(282) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن ابن ماجة ج : 2 ، ص : 1405)

ـ فإذا كان الإنسان يقوم ببعض أعمال الدين فهذا ليس معناه أنه يعرف الله والآخرة فقد يكون عمله ناشئا لحسابات أخرى دنيوية كالتعود وحياءا من الناس وخوفا منهم وغير ذلك .

****

الفصل الخامس عشر

أثر المعرفة الحقيقية بالنفس على المشاعر

ـ معرفة الله والآخرة تؤدي إلى معرفة حقيقة النفس والدنيا :

ـ اليقين بعظمة صفات الله وهيمنة قدرته على الإنسان يؤدي إلى اليقين بضعف الإنسان وخضوعه لقدرة الله تعالى ، فإذا علم الإنسان أنه ضعيف شعر بالذل ، وإذا علم أنه خاضع لقدرة الله كان ذله لله .

ـ المعرفة بصفات الضعف والنقص والذل للإنسان تؤدي إلى عدم تعلق مشاعر الإنسان بنفسه ، لأنه يرى نفسه ضئيلة القيمة .

ـ وكذلك فاليقين بخطورة الآخرة يؤدي إلى اليقين بضآلة الدنيا ، وذلك يؤدي إلى عدم تعلق مشاعر الإنسان بالدنيا ، لأنه يرى الدنيا ضئيلة القيمة .

ـ تعلق المشاعر بالدنيا دليل على غياب المعرفة بالله والآخرة :

ـ المعرفة بالأمر الخطير عكس المعرفة بالأمر التافه ، فالأمر الخطير تتعلق به المشاعر حبا أو كرها وخوفا ورجاءا ، والأمر التافه لا تتعلق به المشاعر ولا يشغل الهم ، فتعلق المشاعر بالدنيا دليل على أن الإنسان لا يزال لا يعرف ما هي الدنيا وهو بدوره ناشئ من عدم معرفته بالآخرة .

ـ والذي يعيش من أجل دنيا فانية ولا يعد نفسه للآخرة هو رجل لا عقل له .

ـ كل ما سوى الله لا قيمة له في ذاته :

ـ كل ما سوى الله هو أمر تافه لا قيمة له في ذاته ، ويكون ذو قيمة في الله أي فيما يتصل به بالله ، فالنفس والناس والدنيا لا قيمة لها إلا في الله أي فيما تتصل بالله ، ونوضح ذلك كالتالي :

ـ حب الله لذاته وبغض جميع المخلوقات لذاتها :

ـ جميع المخلوقات هي في ذاتها فيها كل الصفات المذمومة وما عند المخلوقات من صفات حميدة هي عطاء من الخالق وليست أمور في ذاتها ، فالمخلوقات في ذاتها لا تمتلك شيئا وليس لها حول أو قوة أو علم ، كما أن الذي لديه صفات حميدة معرضة لأن تسلب منه فهذه صفات ذم ، وجميع الصفات الحميدة هي للخالق وحده ، فهي صفات ذاتية في ذات الخالق سبحانه لم يكتسبها من أحد ولم يعطيها أحد له ولا يستطيع أحد أن يسلبها منه سبحانه ، إذن فلا يحب لذاته إلا الله ، وجميع المخلوقات يبغضها الإنسان لذاتها لضعفها ونقصها ، وما يحبه الإنسان في المخلوقات هو من حب الله أي هو حب في الله وليس حب لذات المخلوق لأن المخلوق في ذاته لا يملك ولا يعلم شيئا وما عنده من إرادة هي عطاء من الله ومعرضة لأن يسلبها الله منه في أي وقت ، فحب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو حب في الله أي هو من حب الله تعالى وكذلك حب المؤمنين .

ـ ففي النهاية في غريب الأثر : ((أَلِهَ يأْلَهُ إذا تَحَيَّر ، يُريد إذا وقع العبد في عظمة الله تعالى وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية وصرف وهمه إليها أبْغَض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد))[283] ، وفي غريب الحديث لابن قتيبة : ((أَلِهَ يَأْلَه إذا تحيّر كأَنَّ القُلوب تأْلَهُ عند التفكّر في عَظَمة الله ... إذا وَقَع العَبْد في هذه الدَّرجَة لم يُعْجِبهُ أَحد ولم يُحبّ إلا الله عز وجلَّ))[284] ، وفي تاج العروس : ((وفي حدِيثِ وهب بنِ الوَرْدِ : (إذا وَقَعَ العَبْدُ في أُلْهانِيَّةِ الرَّبِّ ، ومُهَيْمِنِيَّة الصِّدِّيقِيْن ورَهْبَانِيَّةِ الأبْرارِ لم يَجِدْ أَحَداً يَأْخُذ بقَلْبِه) ، أَي لم يَجِدْ أَحَداً يَعجبُه ولم يُحِبَّ إلا اللَّهَ سبحانه ، قالَ ابنُ الأثيرِ : هو فُعْلانِيَّة مِن أَلِهَ يَأْلَهُ إذا تَحَيَّرَ ، يُرِيدُ إذا وَقَعَ العَبْدُ في عَظَمَةِ اللَّهِ وجَلالِهِ وغيرِ ذلِكَ مِن صفَاتِ الرُّبُوبيَّةِ وصَرَفَ توهّمُه إليها ، أَبْغَضَ الناسَ حتى ما يميلَ قَلْبُه إلى أَحَدٍ))[285] .

ـ تصور معنى (النافع الضار) :

ـ الشيء الذي لا ينفع ولا يضر هو شيء ليس له قيمة فهو أمر تافه سواء كان شيئا معنويا أو شيئا ماديا ، فلا يهتم به أحد ولا ينشغل به ولا يتأثر به أحد .

ـ إذن كل شيء سوى الله لا قيمة له فيجب أن لا تتعلق به مشاعر الإنسان ، ولكن ذلك ينطبق على ذات الشيء وليس على ما يستمده من الله ، فمثلا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو عظيم القدر لارتباطه بالله ولأن الله أرسله ولإيمانه وتقواه ، فلا يحب لذاته إلا الله تعالى ، فحب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو حب في الله ، وكذلك العزة بالله ، فالمؤمن يستمد عزته من اتصاله بالله والدين ، فالمؤمن لا يحب شيء ولا يكره شيء ولا يخاف من شيء إلا في الله (يستثنى المشاعر الفطرية التي لا دخل للإنسان فيها) .

(283) النهاية في غريب الأثر ـ المكتبة العلمية ـ بيروت (1 / 62)
(284) غريب الحديث لابن قتيبة ـ مطبعة العاني ـ بغداد (3 / 728 ـ 728)
(285) تاج العروس من جواهر القاموس ـ دار الهداية (36 / 322)

ـ إذن المؤمن ينظر إلى صاحب الصولجان والجاه والسلطان في الدنيا على أنه تافه لا قيمة له ما لم يكن متصلا بالله فيحب ما فيه من صلة بالله وليس يحب ذاته .

ـ إذن فالمؤمن لا يحب إلا الله ولا يخاف إلا من الله ولا يخضع إلا لله ولا يرجو إلا الله ولا يتوكل إلا على الله ، وهذا من كمال الإيمان ، فإذا أحب شيئا غير الله (ولكن كان حبه لله أكبر) فذلك من ضعف الإيمان وضعف اليقين الحقيقي بأن الله هو النافع الضار .

. فاليقين الحقيقي بأن الله وحده هو النافع الضار يؤدي إلى الشعور بالتسليم والخضوع حيث يعلم الإنسان أنه ضعيف لا يملك لنفسه حول ولا قوة ولا يملك لنفسه نفع ولا ضرر .

ـ كما يؤدي إلى التوكل على الله والشعور بالاحتياج إليه والاعتماد عليه لأن الإنسان لا يستطيع أن يجلب لنفسه النفع ويبعد عن نفسه الضر ويحتاج إلى من يجلب له النفع ويبعد عنه الضرر .

ـ كما يؤدي أيضا إلى عدم وجود مشاعر أو هموم أو أهداف متعلقة بالدنيا (إلا بالقدر الذي يحتاجه المسافر أثناء سفره) لأن الشيء الذي لا ينفع ولا يضر لا قيمة له ولا يهتم به أحد ، فلا يخاف من بطش أحد ويعيش هادئا سعيدا .

ـ تصور حقيقة ضعف الإنسان :

ـ الإنسان أوله نطفة مذرة (أي نطفة لا قيمة لها ولا حياة فيها) وآخره جيفة قذرة ، وهو بين ذلك يحمل العذرة (أي يحمل في أمعاءه البراز النتن أثناء حياته) ، ((كما ورد أن بعض الأمراء لقي بعض البله في طريق فلم يفسح له ، فغضب وقال : كأنك ما تعرفني ؟ فقال بلى والله ! إني لأعرفك ، أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة ، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة))[286] ، ((فتفكر فيما قال ابن السماك للرشيد وقد دعا بحضرته بقدح فيه ماء ليشربه ، فقال له : يا أمير المؤمنين فلو منعت هذه الشربة بكم كنت ترضى أن تبتاعها ؟ ، فقال له الرشيد : بملكي كله ، قال : يا أمير المؤمنين فلو منعت خروجها منك بكم كنت ترضى أن تفتدي من ذلك ؟ ، قال : بملكي كله ، قال ؟ يا أمير المؤمنين أتغتبط بملك لا يساوي بولة ولا شربة ماء !))[287] ، ويقول الشاعر : نسي الطين يوما أنه طينا ..... فصال تيها وعربدا .

ـ فالإنسان ضعيف : ((أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ))[288] ، ((هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شيئا مَذْكُوراً))[289] ، ومما يدل على ضعف الإنسان أنه ينام ويمرض ويتعرض للشيخوخة والموت فذلك من صفات النقص .

ـ انتقال الهم والمشاعر :

(286) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ـ دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة (ج : 6 ، ص : 35)
(287) الأخلاق والسير ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت (ج : 1 ، ص : 8)
(288) يّس : 77
(289) الإنسان : 1

ـ هم الإنسان ومشاعره وكلامه وعمله إما أن يتجه للدنيا أو يتجه إلى الله والآخرة ، وإذا كان كثيرا في جانب كان قليلا في الجانب الآخر ، فكلما زاد ارتباط الإنسان بالدنيا وأمورها كلما نقص ارتباطه بالله والآخرة .

ـ فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ((كُلَّمَا قَوِيَتْ مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِمَوْلَاهُ صَغُرَتْ عِنْدَهُ الْمَحْبُوبَاتُ وَقَلَّتْ ، وَكُلَّمَا ضَعُفَتْ كَثُرَتْ مَحْبُوبَاتُهُ وَانْتَشَرَتْ ، وَكَذَا الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَإِنْ كَمُلَ خَوْفُ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ لَمْ يَخَفْ شيئا سِوَاهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى { الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إلا اللَّهَ } وَإِذَا نَقَصَ خَوْفُهُ خَافَ مِنْ الْمَخْلُوقِ وَعَلَى قَدْرِ نَقْصِ الْخَوْفِ وَزِيَادَتِهِ يَكُونُ الْخَوْفُ كَمَا ذَكَرْنَا فِي الْمَحَبَّةِ وَكَذَا الرَّجَاءُ وَغَيْرُهُ))[290] .

ـ ويقول شيخ الإسلام ابن القيم : ((اعلم أن القلب إذا خلى من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها من مال أو رياسة أو صورة وتعلق بالآخرة والاهتمام بها من تحصيل العدة والتأهب للقدوم على الله عز و جل فذلك أول فتوحه وتباشير فجره))[291] .

ـ الحالة النفسية المميزة لابتعاد المشاعر عن ما سوى الله وما يتصل به (الشعور بالراحة والسعادة النفسية ـ حلاوة الإيمان) :

ـ اليقين الحقيقي بضآلة الدنيا يؤدي إلى عدم الخوف من آلام الدنيا أو الحزن الشديد عليها ، ويؤدي كذلك إلى عدم الرجاء وطول الأمل في نعيمها أو الفرح الشديد بها ، وهذا يجعل الإنسان في راحة واطمئنان لا يهمه شيء ولا يخيفه شيء .

ـ وكذلك اليقين الحقيقي بالقضاء والقدر وبأن الخالق له أن يفعل ما يشاء فيما خلق يجعل الإنسان راضيا متقبلا ما يحدث له لأنه قضاء الله والله ليس بظالم ، فهذا يجعل الإنسان يعيش في سعادة وراحة .

ـ عندما يشعر الإنسان بأن كل ما هو غير الله ضعيف ولا ينفع ولا يضر فإنه عندئذ لا يخاف من أي شيء سوى الله ولا يحب أي شيء غير الله ولا يرجو أي شيء غير الله ولا يخضع لأي شيء غير الله ولا يستعين ويتوكل على أي شيء غير الله ولا يحزن أو يفرح بأي شيء لأن كل شيء لا قيمة له والقدر كله والعظمة لله وحده ، فهو عندئذ تنقطع مشاعره وهمومه وأهدافه عن الدنيا وعن أي شيء سوى الله ، وهذا يؤدي إلى الشعور بالراحة النفسية والسعادة النفسية وراحة البال تجاه أمور الدنيا (حلاوة الإيمان) .

ـ ولاحظ أن وجود مشاعر متعلقة بغير الله في الله هي من تعلق المشاعر بالله تعالى كحب النبي وحب المؤمنين ، ووجود مشاعر متعلقة بغير الله ليست في الله (أي من أجل الدنيا) هي من ضعف الإيمان ، وإذا كان حب غير الله أكبر من حب الله فذلك نفاق أكبر .

(290) مجموع الفتاوى ـ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة النبوية (1 / 94)
(291) مدارج السالكين ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت (3 / 352)

ـ ولاحظ أيضا أنه يستثنى من ذلك المشاعر الجبلية التي فطر الإنسان عليها وهي خارجة عن إرادة الإنسان كخوف الإنسان من الأسد إذا هجم عليه .

ـ فشعور الإنسان بالغضب والضيق والحزن والخوف على أمور الدنيا هو من ضعف الإيمان ، وكذلك فرحه بها وحبه لها .

ـ صور ابتعاد المشاعر عن النفس :

ـ تشمل الشعور بالخضوع والرضا بالقضاء والقدر والتوكل على الله والشعور بالحياء ، ونوضح هذه المشاعر كالتالي :

ـ أولا : الشعور بالخضوع (ما يشعر به العبد عند سيده ـ الشعور بالضعف ـ إلغاء الإرادة)

ـ معرفة الله تؤدي الى حبه ، ومعرفة النفس تؤدي الى الذل ، فالحب تعظيم لله والذل تحقير للنفس ، والإله هو الذي تعظمه وتذل له ، فاصل العبادة هي كمال الحب وكمال الذل ، وهما امران ليس لهما علاقة بالثواب والعقاب ، فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ((وَالْعِبَادَة تَتَضَمَّن كَمَال الْحبّ ونهايته وَكَمَال الذل ونهايته فالمحبوب الَّذِي لَا يعظم وَلَا يذل لَهُ لَا يكون معبودا والمعظم الَّذِي لَا يحب لَا يكون معبودا))[292] .

ـ الخضوع ورد في القرآن بعبارات أخرى مثل الإخبات والاستكانة والخشوع : ((وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ))[293] ، والاستكانة أي استكنَ من السكون لأن الخاضعَ يسكُن لمن يخضع له ليفعلَ به ما يريدُه .

ـ الخضوع معناه أن الإنسان لا يعيش لنفسه ولكن يعيش لغيره ، فليست له حياة خاصة به ، مثل العبد الذي تم بيعه في سوق العبيد ليعمل عند سيده ـ كما كان يحدث قديما ، فهو ألغى إرادته وجعل نفسه يتحرك وفقا لإرادة سيده . ويرى أن سيده له أن يفعل به ما يشاء .

ـ أي ملك من ملوك الدنيا لا يريد من الناس أن يطعموه أو يرزقونه مالا أو يعينوه من قوة فعنده الطعام والشراب والمال والقوة وإنما هو يريد منهم أن يعظموه ويعترفوا له بالقوة فينظروا إليه نظرة تعظيم فينشغل همهم بتذكر عظمته ، فالقوي لا يحتاج من الضعيف شيئا ولا يريد منه إلا أن يعترف بضعفه وبقوة القوي فيشعر بالخضوع للقوي ويعظمه .

ـ فمن الناس من يعظم الله ويخضع له ويهابه ويخافه ويطيعه فهو بذلك يجعله ملكا عليه ، ومن الناس من يرفض الخضوع لأن فيه ألم وذل ويرفض أن يطيعه لأن ذلك يقيده ويخالف هواه رغم علمه ويقينه النظري التام بأن الله هو الملك عليه وأنه يجب عليه أن يخضع له ويخافه ويطيعه ولكنه يستكبر .

ـ مفهوم الشعور بالذل والخضوع :

(292) المؤمنون: 76
(293) أمراض القلوب وشفاؤها (ص : 63)

ـ الشعور بالخضوع معناه الشعور بأننا واقعون تحت سيطرة قوة قاهرة أكبر من قوى العالم ، وهذا يعني أننا لسنا أحرارا ولكننا مملوكين عبيدا تابعين ، والشعور بأننا ضعفاء لا نملك شيئا ولا حتى أنفسنا ، ولا نستطيع أن نجلب أي نفع لأنفسنا ، وأن ما عندنا من صفات كالقوة والإرادة والسمع والبصر ...إلخ هي أمور مخلوقة فينا ، فنحن وكل ما عندنا عبارة عن جزء من ممتلكاته وكل أمرنا بيده .

ـ فالخضوع هو الشعور بعدم الملكية ، والملكية قوة وعدم الملكية ضعف ، فالذي لا يملك مالا ولا متاعا ولا شهوات ويشعر بملكية كل شيء لله يشعر بافتقاره وضعفه أمام الله تعالى ، ولن يخضع الإنسان طالما أنه يشعر بأنه يمتلك .

ـ فالنفس تأبي أن تنكسر وتريد أن تكون هي المالكة ولا تريد أن يمن أحد عليها بعطاء أو يتكرم عليها بفضل ، وأصعب شعور علي النفس هو الذل فلا تريد أن تركع وتسجد ، فالركوع والسجود معناه الإقرار بالذل والاعتراف بالنقص ، لذلك قد يركع الإنسان ويسجد بجسده لكن النفس تأبى أن تركع وتسجد أي تأبى أن تقر بالذل وتعترف بالنقص ، وركوع الجسد عندئذ وسجوده لا قيمة له ، والإنسان يظن أنه هو الذي جلب هذه النعم لنفسه لذلك فهو يخضع لنفسه وهواه : ((أَرَأيتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأنت تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً))[294] .

ـ الإنسان أمامه خياران هو إما أن يبيع نفسه كما كان يحدث قديما في سوق العبيد فيعيش تابعا منقادا لسيده وليس له أي شيء خاص به ، فالخاضع ليس له أهداف وطموحات خاصة به فهو يعيش تبعا لما يريده منه سيده وليس تبعا لما يريده هو لنفسه ، وما عنده من مال هو ملك لسيده وما عنده من ملابس وطعام هو ملك لسيده ، وسيده له أن يفعل به ما يشاء ، أو يتحرر من هذه العبودية ويكون له رأيه وشخصيته الخاصة به .

ـ الخضوع والذل هو الاستسلام أي إسلام النفس وكل ما تملك إلى مالكها الحقيقي هو الله سبحانه ، أي التجرد من كل ما تملك لتنسبه إلى مالكه الحقيقي وهو الله سبحانه ، لذلك هو أصعب شعور علي النفس ، فأنت مستسلم مغلوب علي أمرك من الله والله غالب علي أمره ، والخضوع والذل معناه أن تعيش مرهونا بعطائه فمن غيره تموت ، ذليلا لعطائه محتاجا لعطائه ، فبغير عطاءه ونعمه لا تستطيع أن تتنفس ، فالنفس والهواء نعمة ، فأنت عبد إحسانه خاضع لما يجود به عليك ، وكما يقولون فالإنسان أسير الإحسان .

ـ كما أن الشعور بالخضوع معناه الشعور بأن كل الأمور وكل شيء يخضع لهيمنة الله وسيطرته خضوعا كاملا وسيطرة كاملة ، فأنت وكل شيء خاضع لهيمنة الله وسيطرته الكاملة ، كما أن الشعور بالخضوع معناه الشعور بالرضا بما أراد الله وقدر لكل واحد من رزق وأجل ، والله لا يسأل عما يفعل ولا يحاسبه أحد ، لماذا هذا ولماذا هذا ؟ : ((لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ))[295] ، فالشعور بالتسليم بدون السؤال : (لماذا ؟) يعني الشعور

(294) الفرقان : 43
(295) الأنبياء : 23

بالخضوع كما أن الله هو الذي خلق عقولنا وأفهامنا التي نفهم بها وخلق الأسباب التي نفهم بها ، والله فوق الأسباب والناس مقهورون تحت سلطانه ، ولا يفهمون إلا ما أفهمهم الله ، ولا يعلمون إلا ما علمهم الله ، فمَنْ لم يشعر بكمال الخضوع والاستسلام لله ، فهو لا يشعر بالرضا بسلطان الله علي كل شيء وتحكمه في كل شيء وهيمنته علي كل شيء وأي شيء .

ـ والشعور بالخضوع هو شعور بالعجز والضعف وأنه لا يستطيع أن يقوم بأمر نفسه ولا يستطيع أن يتنفس إلا بأمر الله .

ـ الخضوع معناه الرضا بالقضاء والقدر وبالرزق وبكل ما يفعله الله تعالى :

ـ الخاضع ليس له أن يعترض أو يبدي رأيه أو يسأل لماذا ؟ وليس له أي حقوق ، وسيده له الحق في أن يفعل به ما يشاء وهو في منتهى الرضا والاستسلام ، وفي الحديث : ((لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه))[296] ، فعدم الرضا والتسليم بأنه خاضع معناه أنه لا يزال يشعر بأنه ليس بضعيف وأن القوة التي يحسب أنه يمتلكها سلبها منه غيره بغير حق (الابتلاء) لذلك فهو غير راض ، لذلك فلا يتحقق الإيمان حتى يتحقق الاعتراف والرضا .

ـ الإنسان مغرور بنفسه وبالدنيا ، فعندما يعلم بأنه ضعيف ولا يملك شيئا وبأن الدنيا ضئيلة فانية يكون شعوره مثل شعور الإنسان الذي تخسر تجارته ويفقد وظيفته ويتركه أهله ويعيش عالة على الناس فهو لا يستطيع أن يتمتع ولا يكون لديه طموح حيث لا يملك قدرات ، ويكون سلوكه سلوك الذي لا يستطيع أن يفعل شيء وهو معتمد على الله في كل شيء فكلما أراد أن يفعل شيئا أو يصل لشيء قال : يا رب ، وهذا لا ينفي أخذه بالأسباب ، فالخضوع هو الشعور بالضعف والانكسار والتبعية وعدم الحرية وأن مشيئتك لا تستطيع أن تخرج بها عن مشيئة الله .

ـ الحالة النفسية للخضوع والاستسلام :

ـ اليقين الحقيقي بأن الله هو المالك يؤدي إلى الشعور بالخضوع ، فمعني أن ينخلع الإنسان من كل ما يملك حتى من نفسه هو أن يكون كالميت بين يدي مغسله يفعل به ما يشاء ، فيكون كالميت بين يدي الله يفعل به ما يشاء (وهذا أيضا أصل الشعور بالتوكل علي الله) ، فإن شعورك بهذه الحالة النفسية هو الذي يسمي بالخضوع وأيضا بالتوكل ، فإذا كنت تدعي الخضوع أو التوكل علي الله فأين هذه الحالة النفسية ؟! ، فالإنسان عبارة عن مادة مصنوعة تتحرك وفق أمر الصانع ومصنوعة بالكيفية التي صنعها بها ، فلابد أن تشعر أنك مادة مصنوعة في يد غيرك يفعل بك ما يشاء .

(296) التخريج : صحيح (السلسلة الصحيحة ، ج : 7 ، برقم : 3019)

ـ والشعور بالخضوع يعني اليقين الحقيقي بضعف قدرته وعجزه أمام قدرة الله وشعور بالانكسار والتسليم وأن الإنسان واقع تحت تصرف من له القدرة عليه وخائف منه .

ـ هل يستطيع الإنسان أن يعيش لغيره أي لا يعيش من أجل نفسه هو ولكن من أجل أحدا غيره ، إن الخضوع معناه أن تعيش لغيرك ، وتعيش تحت سلطة وسيطرة غيرك عليك وتقبل ذلك مستسلما ذليلا خاضعا ، إن المسلم يعيش لله بل ويموت أيضا لله : ((قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ))[297] .

ـ أنظر إلى خادم يعمل في بيت من بيوت السادة ، إن الحالة النفسية التي يشعر بها هذا الخادم هي التي تسمي خضوع ، فإذا كنت تدعي الخضوع لله فهل عندك هذه الحالة النفسية ؟! .

ـ أنظر إلى الرجل الفقير المعدوم الذي يسأل الناس ليعطوه ، بماذا يشعر ؟ ، إنه يشعر بالخضوع والذل والحاجة إلى إنعام الناس عليه ، إن الحالة النفسية التي عند هذا الرجل هي التي تسمي خضوع ، فإذا كنت تدعي الخضوع لله فهل عندك هذه الحالة النفسية ؟! ، كما أنك تجد هذا الرجل يظل يدعوا لمَنْ يعطيه محبة له ، وإذا كان هذا الرجل فقير إلى إنعام الناس من أموال ، ومحب لما يعطونه ، فكيف بك وقد أنفق عليك الله فأعطاك عينا وأعطاك الهواء الذي تتنفسه ونعما لا تحصي (والمشكلة أننا لا نشعر بنعم الله) .

ـ مثال آخر : تصور أنه تم بيعك في سوق العبيد مثلما كان يحدث في الماضي فأصبحت عبدا وخادما لسيدك ، هل تقبل هذه الحال الآن وأنت في عصر الحرية ؟! ، هل تقبل أن تضع نفسك تحت تصرف غيرك ؟! ، وهل تقبل أن يتحكم فيك غيرك ؟! وهل تتحمل هذه الحالة النفسية من الخضوع وطوال عمرك ؟ ، إنك مطالب بما هو أصعب من ذلك أن تكون عبدا لسيدك ومولاك رب العالمين ، فلماذا لا تشعر أنك واقع تحت سيطرة مَنْ يتحكم فيك وأنت عليك أن تقبل الخضوع والذل ؟ ، فأنت تخضع له خضوع مَنْ شعر بأنه القهار المهيمن ، وخضوع المحتاج إلى نعماءه ، وتحب الذل إليه ليعطيك ، كما يفعل الشحاذ حين يسأل الناس فإنه يخفض رأسه ويمد يده للناس ليعطوه ، فهل تخفض رأسك وتمد يدك لله ليعطيك ؟ ، إذن أين هذه الحالة النفسية المميزة للخضوع ؟ .

ـ تصور أن أحدا ما رفع في وجهك سلاحا وطلب منك أن تستسلم ، ماذا يكون شعورك عندئذ ؟ هذا الشعور هو شعور بالهزيمة والاستسلام والانقياد ، إن الحالة النفسية التي تشعر بها عندئذ هي التي تسمي خضوع واستسلام ، فإذا كنت تدعي الخضوع لله ، فهل عندك هذه الحالة النفسية ؟ والله هو الجبار المنتقم ذو البطش المتكبر شديد العقاب سريع الحساب .

ـ تصور أن هناك أحدا ما أو شيئا ما ذو قوة قاهرة يمكن أن يقضي عليك ويزهق روحك فبماذا تشعر عندما تتعامل معه أو يأمرك بشيء ؟ ، إن الله هو القهار الجبار الذي سوف يزهق روحك ولن تفلت منه (فهو المميت) وهو يراك الآن ولن تستطيع أن تفلت منه أو

(297) الأنعام : 162

تهرب عن نظره ، فلماذا لا تجد مثل هذا الشعور ؟ ، بل إن الله هو الذي يميتك كل يوم ويحييك فأين قدرتك وقوتك وإرادتك وأنت نائم ؟! ، فلماذا لا تشعر بالاستسلام لمَنْ يقهرك ويقدر عليك كل يوم وكل لحظة ؟ ، ولماذا لا تشعر أنك مقبل علي حياة أبدية ؟ ، فالذي يحييك كل يوم سوف يحييك يوم الدين والذي يميتك كل يوم سوف يميتك ويسلب منك كل شيء ، فلماذا لا تستسلم وتخضع وترضخ لله ؟ : ((اللَّهُ يَتَوَفَّى الآنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إلى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))[298] ، فالروح تخرج من الإنسان فإن عادت في الدنيا فذلك النوم وإن عادت في الآخرة فذلك الموت .

ـ ومن الخضوع أنك تشعر بأنك لست تخضع لأمر نفسك وما يمليه عليك عقلك وإرادتك وإنما وفقا لما يريده منك سيدك الذي أنت خادما عنده بل الذي أنت عبدا عنده .

ـ إذا لم تشعر بالخضوع فهذا معناه أن شعورك بأن لك ربا وإلها عظيما وشعورك بأنه المالك والعزيز والقهار والمهيمن كل هذا لا يكون متحققا في المشاعر وإن كان متحققا في الاقتناع الكاذب ، لأن تحقيق ذلك في المشاعر يعني الشعور بالخضوع .

****

ـ ثانيا : الرضا بالقضاء والقدر

ـ لا يستطيع الإنسان أن يمنع أفعال الله فيه ، وليس له الحق أن يعترض عليها ، وليس له أن ينظر إلى أي فعل من أفعال الله نظرة اعتراض ، وعدم الرضا بها معناها أنه يرى أن الله ليس حكيما أو يسيء العمل وهذا شرك قلبي .

ـ الرضا بالقضاء والقدر معناه أن يسلم أمره لله ويقول لله : افعل بي ما تشاء ، فهو راضي بأي شيء سواء كان عطاءا أو منعا .

ـ الإنسان الذي في يده قطعة من الطين الصلصال له أن يفعل بها ما يشاء ويشكلها كيفما يشاء لأنه قوي يقدر على أن يشكلها كيفما شاء وهو مالكها وهي لا حول لها ولا قوة ، فالقوي بحق له أن يفعل ما يشاء بما صنعه وامتلكه ، والعبد الضعيف ليس له أن يفعل إلا ما يأمره به سيده ، فهذه هي العلاقة بين القوي والضعيف .

ـ الإنسان لا يملك شيئا ولا يستحق شيئا ، وبالتالي إذا لم يجد غير لقمة صغيرة لا تسد جوفه فإنه يكون سعيدا مسرورا بها لأن الأصل أنه لا يمتلك شيء ، فما عنده من عين وأنف وما عنده من مال وزوجة وأولاد وكل شيء هو ملك لله وهو عطاء من الله للإنسان ، وبالتالي يشعر الإنسان بالسعادة والراحة ولو كان في أشد الأزمات والمحن لأنه أصلا لم يكن مالكا لأي شيء افتقده ، فالرضا بالقضاء والقدر هو شعور نفسي بالراحة والطمأنينة .

(298) الزمر : 42

ـ كما أن الذي يعلم بأنه مفارق للناس ومفارق لما كان يعمله في الدنيا ومفارق للأموال والدنيا وما فيها ومن فيها فإنه يعيش سعيدا مسرورا لأنه لا يبالي بشيء ، فإذا افتقد شيئا من أمور الدنيا فلا يبالي لأنه سوف يترك ذلك الشيء وكل شيء حتما حينما يموت .

ـ كما أن الذي يشعر بضآلة متع الدنيا وضآلة آلامها فإنه لا يبالي هل أقبلت الدنيا أم أدبرت .

ـ والله سبحانه لا يسأل عما يفعل ، ولا يحاسبه أحد ، لماذا هذا ولماذا هذا ؟ : ((لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ))[299] ، وفي الحديث : ((إن الله تبارك وتعالى يبتلي عبده بما أعطاه فمن رضي بما قسم الله عز وجل له بارك الله له فيه ووسعه ومن لم يرض لم يبارك له فيه))[300] .

ـ الفرق بين الاقتناع الكاذب والرضا بالقضاء والقدر :

ـ الاقتناع الحقيقي بالقضاء والقدر هو الرضا به ، لكن الاقتناع مع تسخط القلب هو اقتناع كاذب .

ـ كل الناس علي اقتناع نظري تام بالقضاء والقدر ، أما في لغة المشاعر فلا تجد الشعور بالاستسلام والانقياد والخضوع لله والشعور بالرضا والصبر ، وقد يحدث للإنسان مصيبة فيقول الحمد لله ولكن قلبه ساخط غير راضي وإن قال : أنا راضي ، وتجده يقول (الحمد لله) لكنه من باب الروتين والتعود في الكلام ، وفي الحقيقة قلبه ساخط ، ونحن قد ندعي الصبر ، فما ورد في القرآن هو الصبر الجميل وهو حبس القلب عن التسخط وحبس اللسان عن الشكوى ، وهو أن تتجرع المر وأنت مبتسم في منتهي الأريحية والانبساط ، فيتقبل الإنسان المصيبة برضا ، وهو سكون القلب تحت مدار الأحكام واطمئنان للعاقبة وانتظار للفرج واحتساب للأجر .

ـ الشعور بأن الله هو المالك يؤدي إلى الرضا بالقضاء والقدر :

ـ إن الذي يشعر بأن الله هو المالك لكل النعم فإنه يصبر علي سلب النعمة لأنها ليست ملكا له وليست حقا له ويرضي بذلك ، شرح ابن كثير معنى (إنا لله) في الآية : ((الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ))[301] أي : (({ الَّذِينَ إذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ } أَيْ تَسَلَّوْا بِقَوْلِهِمْ هَذَا عَمَّا أَصَابَهُمْ **وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ مِلْكٌ لِلَّهِ** يَتَصَرَّفُ فِي عَبِيدِهِ بِمَا يَشَاءُ))[302] ، فمالك الشيء يفعل به ما يشاء ، فلا ضير أن يفعل الله بما يملك ما يشاء ، فلو قطعك إربا إربا فإنك ترضي لأنك نفسك ملكا له خاضعا له ، ومالك الشيء له الحق في أن يفعل بما يملك ما يشاء ، بل إن الله لو عذب جميع الخلق لعذبهم وهو غير ظالم لهم لأنه مالكهم له الحق أن يفعل بما يملك ما يشاء : ((وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ

(299) الأنبياء : 23
(300) التخريج : صحيح (السلسلة الصحيحة : ج : 4 ، ص : 215 ، برقم : 1658)
(301) البقرة : 156
(302) تفسير ابن كثير ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت (1 / 338)

لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً))[303] ، ((لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ))[304] ، وفي الحديث : ((لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم ، ولو كان لك مثل أحد ذهبا ـ أو مثل جبل أحد ذهبا ـ تنفقه في سبيل الله ما قبله منك حتى تؤمن بالقدر كله فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك وأنك إن مت على غير هذا دخلت النار))[305] ، إن الذي يشعر بأن حياته وكل شيء ملك لله وإنما هي نعم وعارية يستردها مالكها فعند الموت يكون راضيا لأن الله يأخذ ما يملكه ويكون شاكرا لله لأنه أعطاه هذه النعم طوال هذه المدة تنعم بها بغير استحقاق ، فتخرج الروح سهلة ، لكن الإنسان الذي يشعر أنه هو الذي جلب النعم لنفسه من عقله وكده وتعبه ، فعند الموت لا يريد أن يترك النعم فتخرج روحه بصعوبة لتعلقها بهذه النعم ، ويكره مَنْ يقبض روحه ، فعندما يأتيه الموت يكره هذا القدر .

ـ الرضا عن الله :

ـ قد ينظر الإنسان إلى أي فعل من أفعال الله كابتلاء مثلا نظرة اعتراض ، أو يرى إنسانا لا حيلة له ورزقه عظيم فينظر إلى الله نظرة اعتراض ـ فهذا معناه أنه غير راض عن الله وغير راض بقضاء الله وقدره وهذا معناه استكبار ، فالله لا يسأل لماذا يفعل كذا أو كذا .

ـ لقد جعل الله فلان غني وفلان فقير ، وفلان يتعب في عمله ورزقه قليل ، وفلان لا يعمل أو عمله قليل ورزقه كبير ، وفلان أجاب الله دعاءه رغم معاصيه وفلان لم يستجب له رغم تقواه ، وفلان يريد أمرا ما ليستعين به على الطاعة لكن الله لا يعطيه إياه ، وفلان يبتلى ويزيده الله ابتلاءا رغم دعاءه وعبادته ، وفلان يؤذي الناس في دنياهم ودينهم ويظلمهم ويزيده الله في الترقي في المناصب والمزيد من الدنيا فيتمكن من ظلمهم أكثر ، وفلان حرمه الله من البنين ، وفلان أعطاه الكثير ، وفلان ترك عملا لأنه كان يكسب منه مالا حراما ثم سعى للبحث عن عمل فلم يجد .

ـ طالما أن الإنسان مع الله ويطيعه فلابد أن يكون الله معه ، ولكن قد يظن الإنسان أن ذلك معناه أنه لابد أن ينقذه الله من الشدائد ويعطيه من الدنيا ويستجيب له فورا ، وقد يظن الإنسان أن معاصيه أمور بسيطة وأنه لا يستحق هذا العقاب الدنيوي من الله بابتلائه .

ـ لكن الذي يشعر بأن الله هو المالك ، وأن مالك الشيء له الحق أن يفعل بما يملك ما يشاء ، فإنه يرضى بكل ما يفعله الله لأن هذا حقه وشأنه ، ويعلم أن كل ما يفعله الله هو بعلم وحكمة يعلمها سبحانه وليس تخبطا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا سبحانه ، ويرضى بما قسمه الله له وبما يفعله الله في عباده .

(303) الفتح : 14
(304) الأنبياء : 23
(305) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن ابن ماجه ج : 1 ، ص : 29 ، برقم 77)

ـ وكل من شعر بمدى عظمة الله وضآلة نفسه تعلم الأدب مع الله وعلم أن لله أن يفعل ما يشاء وشعر بخوف المهابة من عظمته ، فعدم الرضا ينشأ من عدم خوف المهابة والتعظيم لله ، ومن خاف عظمة الله رضي بالله فرضي الله عنه : ((رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ))[306] .

ـ الحالة النفسية للشعور بالرضا :

ـ عندما يشعر الإنسان أن كل شيء بقدر الله ومشيئته ، وأن الخالق من حقه أن يفعل بمخلوقه ما يشاء ، فإنه يرضى بما يفعله الله ويسلم نفسه لله يفعل بها ما يشاء ، فيعيش في حالة من الارتياح والسعادة النفسية ، فهو لا يقلق بشأن ما حدث أو ما سيحدث فكله بقدر الله ، فيعمل وهو هادئ مطمئن قد أسلم أمره لله وتوكل عليه سبحانه .

****

ـ ثالثا : التوكل (الاستعانة)

ـ الشعور بأن الله وحده القوي والقادر والنافع والضار وغيره لا يقدر ولا ينفع ولا يضر يؤدي إلى الشعور بالتوكل عليه والخضوع له ، فمن كان عنده يقين حقيقي بذلك أسلم نفسه لله وفوض أمره إليه فهذا هو معنى التوكل .

ـ العجز معناه عدم قدرة الإنسان على القيام بما يحتاج إليه واحتياجه لغيره ليساعده ويقضي له حاجته ، وهذا هو التوكل .

ـ القادر إذا أمر العاجز بأمر ما ، فإن العاجز يستعين بالقادر على أداء هذا الأمر لأنه بغير ذلك لا يستطيع القيام بالأمر ، فكذلك إذا أمر الله الإنسان بالعبادة فإنه يستعين بالله على القيام بهذه العبادة كما أراد الله تعالى ، فيقول تعالى : ((إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ))[307] .

ـ الحالة النفسية للتوكل :

ـ الإنسان يستعين بغيره عندما يشعر بثلاثة أمور هي الشعور بالاحتياج والنقص (الشعور بضعف الإنسان) ، والشعور بقدرة من يعينه على إعانته (الشعور بقدرة الله) ، والاطمئنان والثقة في أن من يستعين به سيعينه (الشعور بأن الله هو الوكيل والكفيل والكافي والرزاق والولي) ، والإنسان يتوكل على الله وحده إذا شعر بأن غير الله ضعيف ولا ينفع ولا يضر .

ـ والتوكل على الله يؤدي إلى عدم انشغال الهموم بجلب الرزق وتحصيل الدنيا ، فالحالة النفسية المميزة للتوكل هي الشعور بالاطمئنان والراحة النفسية من هموم الدنيا ومن الهم بجلب الرزق وتحصيل الدنيا فلا تكون هدف الإنسان وقضيته ، كما أن الشعور بأن غير الله

(306) البينة : 8
(307) الفاتحة : 5

لا ينفع ولا يضر يؤدي إلى الارتياح النفسي لأنه لا يحمل هما لما سوى الله ، وكلما نقص إيمان العبد كلما نقص توكله وانشغل همه بالدنيا .

ـ فالإنسان قد يشعر بالاطمئنان والثقة والراحة إلى أن له مصدر دخل ثابت شهريا من عمل حكومي أو معاش مثلا يوفي له ما يريد (وذلك ينشأ من ضعف شعوره بأن الله هو الرزاق أو من غياب ذلك الشعور) .

ـ كذلك المتوكل على الله يشعر بالاطمئنان والثقة والراحة إلى أن هناك من يمده بما يحتاجه فهو يطمئن إلى الله الوكيل والرزاق ، فهو مطمئن إلى رزقه ومطمئن إلى أنه إن استعان بالخالق لم يخذله .

ـ فالتوكل هو شعور بضعف الإنسان واستسلامه لله وانهزامه بين يدي الله وتفويض أمره لله ليفعل الله به ما يشاء ، مثل شعور اليتيم الذي يحتاج إلى من يكفله وينفق عليه ، ومثل شعور الأعمى الذي يحتاج إلى المبصر ليحدد له اتجاه سيره ويسير به حيث يريد ، ومثل شعور الذي يجلس على كرسي بعجلات ويحتاج إلى من يقوده ، ومثل شعور السائل (الشحاذ) الذي يحتاج إلى الناس فيسألهم أن يعطوه ، ومثل شعور الفقير الذي ذاق طعم الفقر فهو يحتاج إلى الغني ليعطيه ، ومثل شعور الطفل الذي يحتاج إلى أبويه في طعامه وشرابه ونومه ورعايته ، ومثل شعور التائه الذي ضل الطريق فهو يحتاج إلى من يهديه ، ومثل شعور الجائع الذي ذاق طعم الجوع فهو يحتاج إلى الغني ليعطيه طعاما ، ولذلك ففي الحديث القدسي عن رب العزة سبحانه : ((يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم))[308] ، وحقيقة الإنسان هو أنه أعمى لا يبصر لأن عينه ليست ملكه وإنما هي ملك لله تعالى أعطاها الله له ، وهو أصم وأبكم لأنه لا يملك الأذن ولا اللسان ، وهو فقير لأن المال الذي عنده هو ملك لله ، وهو مجرد من كل شيء ولا يعلم شيئا لأن عقله ملك لله ، فهو مثلما كان في بطن أمه في المراحل الأولى حيث كان لا يسمع ولا يرى : ((وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ))[309] .

ـ فالإنسان إذا شعر بأن غير الله لا ينفع ولا يضر فشعر بأنه هو نفسه لا ينفع ولا يضر وبأن الأسباب لا تنفع ولا تضر وبأن كل الناس والأشياء لا تنفع ولا تضر ، والشيء الذي لا ينفع ولا يضر هو شيء لا قيمة له فإنه عندئذ يشعر بالاستسلام والانهزام ويشعر بأنه في حاجة إلى من يكفله ويقوم بأمره ويرعاه لأنه عاجز عن أن ينفع نفسه ، فيلجأ إلى الله ليستعين به ويحتمي به ، فيكون كالطفل كلما احتاج إلى أمر لجأ إلى أبويه وهو يثق بأن أبويه لن يخذلانه ، لأن القوي لا يخذل الضعيف ، ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن القيم : ((فإن قلت فما معنى

(308) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 4345 في صحيح الجامع)
(309) النحل : 78

التوكل والاستعانة ، قلت هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير والضر والنفع والعطاء والمنع وأنه ما شاء كان ـ وإن لم يشأ الناس ـ وما لم يشأ لم يكن ـ وإن شاءه الناس ـ فيوجب له هذا اعتمادا عليه وتفويضا إليه وطمأنينة به وثقة به ويقينا بكفايته لما توكل عليه فيه وأنه ملي به ولا يكون إلا بمشيئته شاءه الناس أم أبوه ، فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مليان بهما ، فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه وحبس همه على إنزال ما ينويه بهما ، فهذه حال المتوكل ، ومن كان هكذا مع الله فالله كافيه ولا بد قال الله تعالى : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) [الطلاق/3] أي كافيه))[310] .

ـ ((قيل لحاتم الأصم : على ما بنيت أمرك هذا من التوكل ؟ ، قال : على أربع خلال : علمت أن رزقي لا يأكله غيري فلست أهتم له ، وعلمت أن عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به ، وعلمت أن الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره ، وعلمت أني بعين الله في كل حال فأنا أستحيي منه))[311] .

ـ قلق الإنسان من عدم وجود عمل يتكسب منه ، أو خوفا من أنه قد يترك العمل ... الخ ، فكل ذلك يدل على عدم توكله على الله (يستثنى القلق الفطري الخارج عن إرادة الإنسان) ، وكذلك من سرق مليما فليس بمتوكل ، لأنه استعجل رزقه الذي كان سوف يأتيه حتما ، والإنسان إذا أخذ مليما ليس من رزقه فلن يستطيع إنفاقه أو أنه يَضيع منه أو يصرفه في شيء لا قيمة له أو يمرض أو يمرض أحد من أبناؤه فيصرفه في العلاج ، أو يصاب بابتلاء بفقد شيء من ممتلكاته .... الخ .

****

ـ رابعا : الشعور بالحياء

ـ تخيل أنك تعيش في مسكن أحد الناس وتأكل من طعامه وينفق عليك من ماله فبماذا تشعر وكيف يكون حالك ؟ ، وكذلك الحال فالمسكن الذي تسكن فيه ليس ملكا لك ، إنما هو ملك لله ، وكذلك المال الذي معك إنما أعطاك إياه الله وهو مال الله ، ولذلك إذا أردت أن تعصي الله فاخرج من تحت سماءه ومن فوق أرضه واخرج من ملكه إن استطعت !! .

ـ فالإنسان يترك الذنب خشية أنه عندما يقف أمام الله فماذا يقول له ؟ فهو يستحي أن يضع نفسه في هذا الموقف المخجل حيث يأكل من رزق الله ويعيش على أرضه وينعم بنعمه ثم يقف أمامه وقد عصاه فما يقول له ؟! .

****

(310) التفسير القيم لابن القيم ـ دار ومكتبة الهلال ـ بيروت (ج : 1 ، ص : 76)
(311) شعب الإيمان للبيهقي ـ مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض (ج : 2 ، ص : 456)

الفصل السادس عشر

الأدلة على أن عمل القلب شرط في الإيمان

ـ الأدلة على أن المشاعر المتعلقة بالله والآخرة (عمل القلب) شرط في الإيمان :

ـ أولا : غياب الشعور بالخضوع :

ـ الله خلقنا من أجل عبادته ، وأصل معنى العبادة الشعور بالخضوع ، فلا تتحقق العبادة بغير خضوع ، والرسل جاءت تنادي في الناس : ((اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ))[312] .

ـ غياب الشعور بالخضوع معناه الاستكبار : ((وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ))[313] ، ((إنهم كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ))[314] .

ـ ثانيا : غياب الشعور بحب الله تعالى :

ـ إذا كان حب غير الله متساوي لحب الله أو أكبر كان ذلك نفاق أكبر ، فما بالك لو لم يكن حب الله موجود أصلا ، قال تعالى : ((وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ))[315] ، ((إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ))[316] .

ـ عدم محبة التذكير بالله وما أنزل الله نفاق أكبر : ((وَإِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخرة وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ))[317] ، ((ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أعمالهُمْ))[318] .

ـ ثالثا : غياب الشعور بالخوف والرجاء :

1ـ قال تعالى : ((وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى))[319] ، ((جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ))[320] ، ((يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ))[321] ، ((قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا

(312) الأعراف : 59
(313) البقرة : 34
(314) الصافات : 35
(315) البقرة : من الآية 165
(316) الشعراء : 98
(317) الزمر : 45
(318) محمد : 9
(319) النازعات : 40، 41
(320) البينة : 8
(321) الشورى : 18

مُشْفِقِينَ (26) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ))[322] ، ((وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ))[323] .

2- الذي يخاف من الله هو الذي استجاب فعلا لدعوة الرسل وغيره لم يستجب ، وهو الذي اهتدى ، فيقول تعالى : ((إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ))[324] ، ((وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ))[325] ، ((فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ))[326] ، ((إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ))[327] ، ((مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى))[328] ، ((سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى))[329] ، ((إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا))[330] ، ((وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى))[331] .

- وفي تفسير ابن كثير : ((وقوله { إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا } أي : إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه ، فمن خشي الله وخاف مقامه ووعيده ، اتبعك فأفلح وأنجح))[332] ، وفي تفسير زاد المسير : (({ إنما أنت منذر من يخشاها } ... إنما أنت مُخَوِّفٌ من يخافها ، والمعنى : إنما ينفع إنذارك من يخافها))[333] .

- رابعا :

- يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ((فالإيمان في القلب لا يكون إيمانا بمجرد تصديق ليس معه عمل القلب وموجبه من محبة الله ورسوله ونحو ذلك))[334] ، ويقول أيضا : ((وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَعَ التَّصْدِيقِ شَيْءٌ مِنْ **حُبِّ اللَّهِ وَخَشْيَةِ اللَّهِ** وَإِلَّا فَالتَّصْدِيقُ الَّذِي لَا يَكُونُ مَعَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ لَيْسَ إيمَانًا أَلْبَتَّةَ بَلْ هُوَ كَتَصْدِيقِ فِرْعَوْنَ وَالْيَهُودِ وَإِبْلِيسَ))[335] ، ويقول أيضا : ((ومحبة الله هي أصل الإيمان الذي هو عمل القلب وبكمالها يكمل))[336] ، ويقول شيخ الإسلام ابن القيم : ((فمن لا محبة له لا إسلام له البتة بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله فإن الإله هو الذي يأله العباد حبا وذلا وخوفا ورجاء وتعظيما وطاعة له بمعنى مألوه وهو الذي **تألهه القلوب أي تحبه وتذل له**))[337] .

(322) الطور : 26، 27
(323) الأعراف : 154
(324) فاطر : 18
(325) الأنعام : 51
(326) ق : 45
(327) يس : 11
(328) طه : 2، 3
(329) الأعلى : 10
(330) النازعات : 45
(331) النازعات : 19
(332) تفسير ابن كثير - دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 8 ، ص 318)
(333) زاد المسير - دار الكتاب العربي - بيروت (ج : 4 ، ص : 398)
(334) مجموع الفتاوى - مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة النبوية (ج : 7 ، ص : 529)
(335) مجموع الفتاوى - مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة النبوية (ج : 7 ، ص : 307)
(336) الاستقامة - لشيخ الإسلام ابن تيمية - الناشر : جامعة الإمام محمد بن سعود - المدينة المنورة (ج : 1 ، ص : 260)
(337) مدارج السالكين - دار الكتاب العربي - بيروت (ج 3 ، ص : 26)

ـ ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ((الصواب قول السلف والأئمة إن الإيمان قول وعمل ، أصله قول القلب وعمل القلب))[338] ، وبالتالي فإن عمل القلب هو من أصل الإيمان أو أصل الدين أو أصل العبادة فإذا ذهب ذهب الإيمان ، كما يقول أيضا : ((الدين والإيمان قول وعمل وأوله قول القلب وعمله فمن لم ينقد بقلبه ولم يذل لله لم يكن مؤمنا))[339] ، كما يقول أيضا : ((فالإيمان في القلب لا يكون إيمانا بمجرد تصديق ليس معه عمل القلب وموجبه من محبة الله ورسوله ونحو ذلك كما أنه لا يكون إيمانا بمجرد ظن وهوى بل لابد في أصل الإيمان من قول القلب وعمل القلب))[340] ، ويقول ابن القيم : ((فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبته وانقياده كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول بل ويقرون به سرا وجهرا ويقولون ليس بكاذب ولكن لا نتبعه ولا نؤمن به))[341] .

ـ خامسا : المشاعر المتعلقة بالله كالحب والذل والخوف والرجاء هي أصل توحيد الألوهية ، وبدونها لا يتحقق توحيد الألوهية .

****

الفصل السابع عشر

التذكير لإيجاد الوعي

ـ إذا أخبرت إنسانا بأمر ما مؤثر ولم يتأثر به فهو عندئذ لم يعرف الأمر معرفة حقيقية ، وهو يحتاج لأن تكرر له الأمر أي تذكره به حتى يعرفه معرفة حقيقية ، فالتذكير وسيلة لإيجاد الوعي وبالتالي تحقيق المعرفة الحقيقية ولكن ليس بالضرورة فقد تظل تذكر إنسانا بالأمر فلا يتذكر ، أي لا يعرف الأمر معرفة حقيقية .

ـ الفرق بين المعرفة والتذكير :

ـ التذكير هو تكرار المعرفة النظرية ، فيسمع عن الأمر لأكثر من مرة .

ـ المعرفة الحقيقية قد تحتاج إلى أن يكرر الإنسان المعرفة النظرية .

ـ التذكير نوعين :

ـ إما أن يذكرك أحد بالأمر أو تذكر نفسك بالأمر بأن تكرر التفكير في الأمر أو تكرر النظر إليه أو سماعه .

(338) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ـ دار العاصمة، السعودية (ج : 6 ، ص : 36)
(339) الاستقامة لابن تيمية ـ الناشر : جامعة الإمام محمد بن سعود ـ المدينة المنورة (ج : 1 ، ص : 145)
(340) مجموع الفتاوى ـ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة النبوية (ج : 7 ، ص : 529)
(341) الصلاة وأحكام تاركها ـ لابن القيم الجوزية ـ مكتبة الثقافة بالمدينة المنورة (ج : 1 ، ص : 56)

ـ لماذا يفكر الإنسان ولماذا يسمع ولماذا يرى ؟ :

ـ الهدف من ذلك هو تحقيق الوعي بما يفكر فيه أو يسمعه أو يراه ، فالوسيلة إلى تحقيق الوعي هي أدوات المعرفة والتذكير .

ـ فإذا تحقق الوعي تحققت المعرفة الحقيقية وتأثرت المشاعر والجوارح .

ـ وظيفة الهم الطبيعية :

ـ ما الشيء الذي يستحق أن تفكر فيه وينشغل به همك ؟ ، هل الدنيا أم الآخرة ؟ ، أيهما يستحق التفكير أكثر ؟ العاقل يوجه تفكيره للشيء الخطير وينشغل تفكيره وهمه به ، والذي لا ينشغل تفكيره وهمه بأمر خطير هو لا يعقل وهو يعطل عقله .

ـ هل يوجد شيء أخطر من اقتراب الموت والسفر إلى الآخرة ولقاء الله ؟ ، فهذا الأمر لا يمكن أن يفارق ذهن إنسان عاقل أبدا ، وكيف ينسى الإنسان الله وهو يعيش في ملكه ويأكل من نعمه ! .

ـ القاعدة الفطرية تقول بأن الإنسان إذا علم أمرا خطيرا فإنه يفكر في هذا الأمر ويشغل به همه ، وإذا علم أمرا تافها فإنه لا يهتم به فلا يفكر فيه ولا يحمل له هما ولا يشغل باله به .

ـ فكلمة (خطير) أي مهم ولابد من الاهتمام به ، وكلمة (تافه) أي غير مهم ولا يبالي به .

ـ إذا وصل إلى علم الإنسان بأن هناك شيء غامض أو لغز أو مشكلة أو أمر خطير ومهم ، فذلك يجعل الإنسان يفكر ما هو هذا الشيء وماذا أصنع ؟ .

ـ الغيبيات تجمع بين أنها أمر خطير جدا وأنها لا يراها الإنسان فذلك يدعو الإنسان للتفكير في الأمر لمعرفته ومعرفة أثره على الإنسان ومعرفة ماذا يمكن أن يفعل حيال هذا الأمر ؟ .

ـ كما أن وجود هذا الكون الهائل هو لغز يدعو الإنسان لمعرفة سر وجوده ، والموت لغز يدعو الإنسان لمعرفة ما هو وماذا بعده ، ووجود الإنسان لغز يدعو الإنسان لمعرفة سر وجوده والهدف من وجوده .

ـ الآخرة مشكلة كبيرة لا يدرى الإنسان ما يحدث فيها مهما وصفوا له فذلك يدعو الإنسان للتفكير في الأمر .

ـ دخول الجنة أو النار أمر يبعث على القلق والحيرة وبالتالي يشغل ذلك تفكير الإنسان .

ـ ليس الغرض من التفكير الوصول للمعرفة النظرية فقط وإنما المعرفة الحقيقية للأمر .

ـ فالطبيعي أن الإنسان يشغل همه بالأمر الخطير ولا يشغل همه بالأمر التافه وحيث أن الآخرة ولقاء الله هو أخطر من كل أمور الدنيا فالطبيعي أن الإنسان يشغل همه بالآخرة ولقاء الله والإعداد لذلك .

ـ ويستمر انشغال الهم طالما أن الخطر ما زال قائما ، وإذا كان خطر مرتقب متوقع في المستقبل فيظل يفكر فيه حتى يقع .

ـ فالفرق بيننا وبين السلف الصالح هو أن الآخرة ولقاء الله هو الذي كان يشغل عقولهم أما نحن فما يشغل عقولنا هو الدنيا وأمورها .

ـ الهدف من التفكير :

ـ الهدف من التفكير هو أن يعي الإنسان حقيقة الشيء ، فالتفكير والاستمرار فيه يؤدي الى تحقيق الوعي (الخروج من الغفلة) .

ـ الإنسان دائما يفكر ويتدبر ويتأمل ويتفكر ويتصور ، فذهن الإنسان دائما يعمل ، ولا يستطيع الإنسان أن يوقف وظيفة التفكير ، ولكن يستطيع الإنسان أن يوجه هذا التفكير .

ـ قد يجعل الإنسان تفكيره في اتجاه واحد فقط وهو المال والشهوات والدنيا مثلا ويبعد تفكيره عن معرفة الله والآخرة ويتمسك بإبعاد تفكيره تماما عن معرفة الله والآخرة لدرجة أنه يوصف بأنه وضع على تفكيره في معرفة الله والآخرة من خلال القرآن قفل لا ينفتح أبدا : ((أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا))[342] .

ـ لو شغل الإنسان كل تفكيره في أمور الدنيا فليس هذا هو أصل المشكلة ، ولكن أصل المشكلة هو أنه لم يشغل تفكيره بمعرفة الله والآخرة حتى يتحقق الوعي والانتباه لخطورة الأمر ، فعندما يعرف الإنسان الله والآخرة فإنه سوف يعرف حقيقة الدنيا ولن يجعلها كل همه وسوف يضعها تحت قدمه .

ـ مفهوم أدوات المعرفة والتذكير :

ـ أدوات المعرفة والتذكير هي العقل والأذن والعين واللسان ، وهي أدوات للوصول للمعرفة النظرية وللمعرفة التامة أيضا ، فهي تؤدي للوصول إلى الوعي الذي به تتحقق المعرفة التامة .

ـ ولاحظ أن كلمة (القلب) في أكثر مواضع القرآن يقصد بها العقل .

ـ السمع والبصر مسئول عن وصول المعلومة لأول مرة وكذلك مسئول عن التذكير بالمعلومة .

ـ والعقل مسئول عن التفكير في المعلومة سواء لأول مرة وكذلك تكرار التفكير فيها وهو تفكر وتذكير بالأمر .

ـ وكذلك اللسان وظيفته وصول المعلومة لأول مرة بالسؤال عنها وكذلك التذكير بالمعلومة من خلال التحدث بها والكلام عنها (سواء بالحديث مع الناس أو بالأذكار وقراءة القرآن

(342) محمد : 24

وغير ذلك) ، لذلك فالإنسان الذي يريد أن يبتعد عن المعرفة الحقيقية بالله والآخرة لا يحب أن يسمع أو يتكلم عن الله والآخرة والآيات الكونية أو يفكر في ذلك لأن ذلك يؤدي إلى الوعي به ومعرفته معرفة حقيقية .

ـ ووصول المعلومة لأول مرة أو التذكير بها يؤدي إلى الوعي بالأمر (ولكن ليس بالضرورة) وبالتالي المعرفة الحقيقية بالأمر .

ـ إغلاق أدوات المعرفة والتذكير هو إغلاق السمع والبصر واللسان وإغلاق الهم (إغلاق العقل فلا يفكر في الأمر ولا يشغل همه بالأمر) .

ـ إغلاق أدوات المعرفة والتذكير هو الوسيلة التي تؤدي إلى الجهل (غياب المعرفة التامة) ، فالإنسان يتجاهل الشيء حتى يصبح جاهلا به ويتناسى الشيء حتى ينساه .

ـ الهدف من خلق أدوات المعرفة والتذكير هو معرفة الله تعالى :

ـ السمع والبصر والعقل هي وسائل يستخدمها الإنسان من أجل التفكر والتصور لحقيقة الأشياء ، فإذا منع الإنسان نفسه من التفكير في الأمر ، فقد أضاع الفائدة من السمع والبصر والعقل .

ـ ففي تفسير أبي السعود : (({ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وأبصارا وَأَفْئِدَةً } ليستعملُوهَا فيمَا خُلقتْ لهُ ويعرفُوا بكلَ منَها ما نِيطتْ بهِ معرفتُه من فنونِ النعمِ ويستدلُّوا بها على شؤونِ منعمِها عزَّ وجلَّ ويداومُوا على شُكرِه ، { فَمَا أغنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ } حيثُ لم يستعملُوه في استماعِ الوَحي ومواعظِ الرسلِ ، { وَلاَ أبصارهم } حيثُ لم يجتلُوا بها الآياتِ التكوينيةَ المنصوبةَ في صحائفِ العالمِ ، { وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ } حيثُ لم يستعملُوها في معرفةِ الله تعالَى))[343] .

ـ وفي صفوة التفاسير : (({ وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة } أي خلق لكم هذه الحواس لتسمعوا وتبصروا وتفقهوا ، وفيه توبيخ للمشركين حيث لم يصرفوا النعم في مصارفها ، لأن السمع خلق ليسمع به الإنسان ما يرشده ، والبصر ليشاهد به الآيات الكونية في الآفاق ، والعقل ليتأمل به في مصنوعات الله وباهر قدرته ، فمن لم يصرف تلك النعم في مصارفها ، فهو بمنزلة فاقدِها ، كما قال تعالى : { فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء }))[344] .

ـ وفي تفسير الخازن : (({ وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً } يعني إنا أعطيناهم هذه الحواس ليستعملوها فيما ينفعهم في أمر الدين فما استعملوها إلا في طلب الدنيا ولذاتها فلا جرم فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ))[345] .

(343) تفسير أبي السعود دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (6 / 144)
(344) صفوة التفاسير ـ دار الصابوني ـ القاهرة (2 / 239)
(345) تفسير الخازن ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت (4 / 134)

ـ وفي تفسير الرازي : (({ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَة } والمعنى أنا فتحنا عليهم أبواب النعم وأعطيناهم سمعاً فما استعملوه في سماع الدلائل وأعطيناهم أبصاراً فما استعملوها في تأمل العبر وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله تعالى بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها فلا جرم ما أغنى سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من عذاب الله شيئاً))[346] .

ـ إعادة ضبط أدوات المعرفة والتذكير :

ـ إذا علم الإنسان كيف تتم الوظيفة الطبيعية للتفكير في الإنسان قد يكتشف أن تفكيره غير سليم وأنه في حاجة إلى عقل جديد أو في حاجة إلى إعادة ضبط عملية التفكير من جديد فيستعيد عقله بعد أن مات عقله : ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إليه يُرْجَعُونَ))[347] ، ((لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ))[348] .

ـ قد يحتاج الإنسان إلى أن يعيد الكشف على عقله ليعرف هل عقله سليم ويعمل بصورة سليمة أم عقله مريض ؟ ، والمفاجأة أن الإنسان قد يكون عبقريا من علماء الذرة ورغم ذلك قد يكون عقله مريض ، وقد يبذل الإنسان عشرون سنة في التعليم وعشرون أخرى فيما يكتسبه من خبرة في عمله حتى يرتقي بخبرته إلى أعلى المناصب ولكن في الحقيقة قد يحتاج إلى أن يعود إلى الوراء أربعون عاما ليكتشف أنه لا يعرف أبجديات الحياة التي يتعلمها الطفل وأن عقله لا يعمل بصورة سليمة ، فهو لا يزال لا يعرف حقيقة الأشياء من حوله ، فلا يعرف ماذا تعني كلمة (شجرة) ولا يعرف ماذا تعني كلمة (شمس) ولا يعرف ماذا تعني كلمة (موت) ولا يعرف ماذا تعني كلمة (خالق) ولا يعرف ماذا تعني كلمة (آخرة) وهكذا ، فلو عرضنا هذه الكلمات على خطوات عمل العقل الطبيعي وخطوات تعامل الإنسان مع المعلومات فعندئذ قد يكتشف الإنسان أنه لم يكن عاقلا .

ـ فمثلا كلمة (شجرة) تعني خروج كائن حي من بذرة ميتة وتعني تحول الطين إلى خشب وثمار ومن غير أن نرى أحد يقوم بهذه الأمور الهائلة ، وهذه الأمور فوق قدرة الإنسان وفوق قدرة الشجرة نفسها فهي إعجاز خارق للأسباب ، فلابد أن الذي يقوم بهذه الأمور لا نراه ولابد أن له من القدرة الهائلة فوق قدرة الإنسان ، فهو يقدر على أن يحي الموتى ويقدر على تحويل الطين إلى طعام مقصود به الإنسان ، وهذا معناه شعور بالتحير والذهول والانبهار من مدى قدرة الخالق ، وشعور بالضعف والعجز أمام قدرته ، فالضعيف يخاف من القوي ويخضع له ويعجب بقوته فيحبه ويرجو أن يعطيه ويتطلع إلى رؤيته والتذلل له ، فيحدث الخوف والخضوع والحب والرجاء والشوق إلى لقاء الله وينشأ عن ذلك طاعة أوامره إذا علمها ، فهذا هو معنى كلمة (شجرة) إذا نظر إليها العاقل فأدرك ماذا تعني وما حقيقتها

(346) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (28 / 25)
(347) الأنعام : 36
(348) يس : 70

وما وراءها ، أما الذي ألف النظر إلى الأشجار ولم يتصور حقيقتها ولم يشعر بالتحير مما يحدث فيها من العجب ومن قدرة الخالق العجيبة الهائلة ولم يشعر بالخضوع وضعف وعجز الإنسان عن القيام بهذا الأمر ولم يشعر بالقلق والخوف من عجب الأمر ولم يشعر بحب الإعجاب لقدرة الصانع فهو لم يفقه ويفهم ويعقل ماذا تعني كلمة شجرة ، وهكذا .

ـ وبهذا المفهوم فالفصول من 25 ـ 29 هي بيان لمعنى كلمة (خالق) ، والفصلين 23 ، 24 هما بيان لمعنى كلمة (الآخرة) ، والفصل الثلاثون هو بيان لمعنى كلمات : الملائكة والجن .

ـ ما فائدة أن يرى الإنسان الأشياء أو أن يسمع الكلام والمعلومات التي تصل إلى أذنيه إذا لم يكن يعقل ما يراه وما يسمعه ، فهو عندئذ كأنه لا يسمع وكأنه لا يرى ، لأنه لا يسمع سماع فهم وتدبر ولا يرى الشيء فيعي حقيقته ، لذلك فالناس قسمين هما الذين يسمعون (أي الذين يفهمون ويعقلون) والذين لا يسمعون (وهم الذين لا يعقلون) : ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إليه يُرْجَعُونَ))[349] .

ـ التعامل الصحيح مع المعلومات :

ـ التعامل مع المعلومات يتناسب حسب قيمة ومقدار المعلومة ، فالمعلومة فائقة القيمة يكون معها تفاعل شديد جدا ، فمثلا يكاد الإنسان يصعق ويموت عندما يسمع بخبر وفاة أهله واحتراق بيته ، والإنسان العاقل يحترق من داخله ويسرع بالفرار عندما يعلم بوجود النار والحساب في الآخرة واقتراب أجله ، فإذا لم يحترق من داخله أو يتأثر خوفا ورهبة وترقب فهذا معناه انه لا عقل له وأنه غير واع لما يحدث حوله أو أنه كالميت ، وهذا حال الغافلين عن الآخرة ، وهكذا .

ـ كيف يؤدي التذكير إلى إيقاظ الوعي ؟ :

ـ ليس الغرض من شغل الهم بمعرفة الله والآخرة هو المعرفة النظرية ولكن الغرض هو إيقاظ الوعي ، لذلك قد يعرض الإنسان عن التذكير بالله والآخرة بحجة أنه يعرف الله والآخرة ويوقن بها فيرى أنه لا حاجة لذلك التكرار .

ـ يقول شيخ الإسلام ابن القيم : ((التفكر والتذكر أصل الْهدى والفلاح وهما قطبا السَّعَادَة وَلِهَذَا وسعنا الْكَلَام فِي التفكر فِي هَذَا الْوَجْه لعظم الْمَنْفَعَة وَشدَّة الْحَاجة إليه ، قَالَ الْحسن : مَا زَالَ أهل الْعلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التَّذَكُّر ويناطقون الْقُلُوب حَتَّى نطقت فَإِذا لَهَا أسماع وأبصار))[350] ، ويقول أيضا : ((التفكر والتذكر أصل الهدى والفلاح

(349) الأنعام : 36
(350) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (1/ 213) ـ دار الكتب العلمية – بيروت .

... قال الحسن : ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت فإذا لها أسماع وأبصار))[351] .

ـ لكي يؤدي التفكير إلى إيقاظ الوعي لابد من الآتي :

1ـ المقارنة وتكرار ذلك :

ـ لماذا يرى الإنسان شهوات الدنيا كبيرة ولا يستطيع مقاومتها ؟ ، ذلك لأنه لم يقارنها بشهوات الجنة أو بالعقاب على هذه الشهوات فلا وجه للمقارنة ، فمعنى أن الإنسان لا يزال لا يستطيع مقاومة شهوات الدنيا فهو لا يزال لم يعرف الآخرة ، وكذلك طالما أن الإنسان لا يزال يغضب وينفعل ويتأثر بآلام الدنيا ومشاكلها فهو لا يزال لم يعرف أن الدنيا إلى فناء وأن آلام الدنيا ليست بشيء أمام آلام النار .

ـ قيمة الشيء تعرف من خلال مقارنته بغيره فمثلا : هل ألف جنيه هو مبلغ كبير أم صغير ؟ ، بدون المقارنة بشيء لا نعرف ، بالمقارنة بالمليون جنيه فهو تافه ، وبالمقارنة بالجنيه فهو عظيم القيمة .

ـ ولابد من المقارنة بين قوة الله وقوة الإنسان ، ورؤية الله ورؤية الإنسان وقدرة السمع عند الله وقدرة السمع عند الإنسان ، وبين الأمر الطبيعي والأمر الخارق للأسباب ، وبين قيمة الدنيا وقيمة الآخرة ، والمقارنة بين صحة الإنسان في الدنيا وصحته في الجنة وقصر عمره في الدنيا أمام طول عمره في الآخرة ، والمقارنة بين الأمر الغيبي والأمر المحسوس ، والمقارنة بين الشهوات والعقاب عليها ، وهكذا .

2ـ تذكير النفس بالله والآخرة وتكرار ذلك :

ـ وبخاصة التذكير بخطورة الأمر ، ولذلك فأسلوب القرآن هو تكرار التذكير بالله والآخرة وآيات الله حتى يتأثر القلب .

ـ فالمطلوب من الإنسان هو أن يذكر نفسه بالله والآخرة حتى يتذكر ، ويكون قد تذكر عندما تتحقق مشاعره ، فالعلم الحقيقي بالآخرة يحدث بتكرار التذكير والتصور لخطورة الآخرة حتى تتأثر المشاعر بالآخرة ، فإذا تأثرت المشاعر بالآخرة عندها يكون الإنسان قد علم وفهم ماذا تعنى كلمة (الآخرة) .

3ـ التصور والوصف للآخرة كأنك تراها وكذلك قدرة الله وليس ذاته وتكرار ذلك :

ـ لا يمكن تصور صفات الذات للخالق سبحانه لأنه سبحانه ليس كمثله شيء ، ولكننا نستطيع أن نتصور الصفات المعنوية كالقدرة والعلم ، فالذي يتصور مدى قدرة الله ومدى علمه فلا يمكن أن يفارق ذهنه صورة هذه القدرة المذهلة وهذا العلم الهائل ، فنتصور مدى قدرة الله

(351) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت (ج : 1 ، ص : 213)

على السمع ، فسبحانه من فوق سبع سماوات له القدرة على أن يسمع كل الكائنات وكل المخلوقات في آن واحد ، وكذلك نتصور مدى قدرة الله على رؤية كل شيء حتى الذي في الظلمات والذي في الجحور والذي في السماء والذي في الأرض ويرى كل ما تعمله المخلوقات في آن واحد ، ونتصور مدى قدرة الله على العلم بكل شيء حتى الذي سوف يحدث في المستقبل هو يعلمه ومدى علمه سبحانه وحكمته في تدبير أمور جميع المخلوقات وما يحدث داخل الذرات وفي المجرات بدقة متناهية كاملة بالغة سبحانه ، ونستطيع أن نتصور مدى قوة الله إذا قورنت بقوة المخلوقات فهو يستطيع أن يبيد البشرية والكون وينشئهم من جديد .

ـ وكذلك تصور الآخرة وما يحدث فيها .

4ـ التخيل كأنك في الآخرة وتكرار ذلك :

ـ تخيل أنك تقف الآن على أرض المحشر في الآخرة أو أنك الآن داخل جنة الآخرة أو أنك الآن داخل نار الآخرة ، أنت الآن فقط تعرف قيمة الدنيا وأنها بكل ما فيها من لذات وآلام لم تكن سوى لعب ولهو ، وأنت الآن تدرك أن الناس الذين يعيشون في الدنيا في غفلة تامة عن الآخرة وأن الآخرة خطر هائل جدا فوق كل تصورات الناس ، وأنت تدرك الآن أن الأمور معكوسة تماما فكل تفكير الناس ومشاعرهم وأعمالهم هي في أمور الدنيا وأنت تقول أهؤلاء أغبياء لا عقل لهم ! .

ـ الإنسان العاقل هو الذي لا يحتاج إلى أن يذهب للآخرة لكي يصدق بكل هذا الخطر ويشعر به ولكي يصدق بأن الدنيا ما كانت إلا لعب ولهو ، وإنما هو يستطيع أن يدرك ذلك بأن يتصور خطورة الأمر وهو ما زال في الدنيا وهذا هو المؤمن الذي وعده الله بالجنة .

ـ فلو أن إنسانا غمس في النار غمسة واحدة ثم عاد إلى الدنيا فكل آلام الدنيا ومشاكلها في نظره لهو ولعب ولا قيمة لها ، ولو أن إنسانا غمس في الجنة غمسة واحدة ثم عاد إلى الدنيا فكل متع الدنيا ولذاتها في نظره لهو ولعب ولا قيمة لها ، ولو إن إنسانا عاد من الآخرة إلى الدنيا فسوف ينظر إلى السنوات الطويلة التي يقضيها في الدنيا على أنها ثواني معدودة لا قيمة لها وأنه باقي على قيام الآخرة ثواني معدودة : ((قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إلا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ))[352] ، وفي الحديث : ((يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنَ الْكُفَّارِ فَيُقَالُ اغْمِسُوهُ فِي النَّارِ غَمْسَةً ، فَيُغْمَسُ فِيهَا ثُمَّ يُقَالُ لَهُ أي فُلاَن هَلْ أَصَابَكَ نَعِيمٌ قَطُّ ، فَيَقُولُ لاَ مَا أَصَابَنِي نَعِيمٌ قَطُّ ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ الْمُؤْمِنِينَ ضُرًّا وَبَلاَءاً ، فَيُقَالُ اغْمِسُوهُ غَمْسَةً فِي الْجَنَّةِ ، فَيُغْمَسُ

(352) المؤمنون : 112 - 114

فِيهَا غَمْسَةً فَيُقَالُ لَهُ أي فُلأن هَلْ أَصَابَكَ ضُرٌّ قَطُّ أو بَلاَءٌ فَيَقُولُ مَا أَصَابَنِى قَطُّ ضُرٌّ وَلاَ بَلاَءٌ))[353] .

5ـ تصور الأمر كأنه يسمع عنه لأول مرة :

ـ يتصور الأمر كأنه يسمع عنه أول مرة ، وفي كل مرة يفكر فيها في الأمر يتصوره كأنه يسمع عنه لأول مرة .

ـ أخطر مشكلة هي التعود على الأمر ، فكل يوم ينظر إلى السماء ويرى الشمس ولا مشكلة في ذلك ، والحل هو أنه ينظر إلى السماء كأنه يراها لأول مرة ، وينظر إلى الشمس كأنه يراها لأول مرة وكأنه لأول مرة يسمع عن كلمة غريبة اسمها (الشمس) مثلا .

ـ الاعتياد على سماع اهوال القيامة لن يغير من حقيقة الاهوال القادمة شيء .

ـ من أكثر المعلومات التي يعلمها الناس ويسمعونها كثيرا في حياتهم هي أن لهم خالقا وأن هناك آخرة ، ولكن هذا الأمر أصبح عند البعض تعود ومعلومات روتينية باهتة ، فلابد أن يتصور الإنسان معنى الخالق ومعنى الآخرة كأنه يسمع عن ذلك لأول مرة .

ـ فمثلا لابد أن يتعامل الإنسان مع النوم والموت كأنه يسمع عن ذلك الأمر لأول مرة ، فيجد الأمر عجيبا مدهشا يلفت النظر ويستوجب انشغال البال ، وكلما أراد أن ينام كأنه يسمع عن النوم لأول مرة فيتساءل ماذا يعني النوم ؟ ، إنه سلب للسمع والبصر والكلام والحركة ، فمن الذي يسلب هذه الصفات رغما عن الإنسان ويجبره على النوم مرات ومرات ، فهو دليل على قدرة هائلة مهيمنة على الإنسان ودليل على ضعف الإنسان ، وكذلك كلما قام يتساءل من أين عادت هذه الصفات إليه ؟ ، لكن تعودنا أن ننام ونصحوا وتعودنا أن نسمع كل يوم : مات فلان ، ولم نتخيل اليوم الذي نموت فيه : ((اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))[354] ، وفي الحديث : ((النوم أخو الموت ولا ينام أهل الجنة))[355] .

ـ عندما يأكل الإنسان برتقالة ينظر إليها كأنه يراها لأول مرة ، ويتساءل من أين أتت ؟ وفي أي مصنع أو شركة تم تصنيعها ؟ ولماذا صنعت بهذا الشكل ؟ ، والإجابة أنه لا أحد من البشر صنعها وإنما خرجت من الطين لتكون طعام مناسب ومعد للإنسان ومحفوظ بطريقة معينة بحيث لا تفسد ، فلابد من قوة خفية لها قدرة هائلة وخبرة هائلة وبراعة على صناعة هذه البرتقالة ولابد أن الذي صنعها يحب الإنسان ويرسل له ما يفيده ، فعندئذ يكون الإنسان شاكرا ممتنا لمن أعطاه هذه البرتقالة وكل هذه النعم ، وكلما أكل برتقالة لا تغيب هذه الصورة عن عينه ، فعندئذ قد تصور الإنسان معنى كلمة (برتقالة) .

(353) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن ابن ماجه ج :2، ص : 1445 ، برقم : 4321)
(354) الزمر: 42
(355) التخريج : صحيح : (السلسلة الصحيحة ج : 3 ، ص : 74 برقم : 1087)

ـ كذلك يتعامل مع قضية البعث كأنه يسمع عنها لأول مرة فيتعجب من الأمر ومن غرابته ثم يدرك هذه الحقيقة المذهلة .

ـ والعاقل هو الذي يرى الأمر كأنه أول مرة ولو تكرر مئات المرات لأن التعود يجعل الإنسان لا يتصور الأمر : ((وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ))[356] ، ((كَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ))[357] ، ((ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ))[358] .

6 ـ تصور أصل القضية :

ـ أصل القضية هي أهم شيء فيها ، فإذا تناسى الإنسان الأصل أصبحت القضية بلا معنى ولا قيمة ، فالعاقل يفكر في أصل القضية وحقيقتها وليس في تفاصيلها متناسيا أصل القضية .

ـ تصور أصل القضية معناه أن يستمر في السؤال لماذا ؟ وما حقيقة الأمر ؟ ، فالإنسان يأكل ويعيش ولا يسأل لماذا يأكل ولماذا يعيش ؟ ، وهدفه كذا وكذا ولا يسأل ماذا بعد تحقيق أهدافه ؟ ، فهي أهداف وراءها أهداف ، فلابد أن يستمر السؤال : وماذا بعد ؟ الإجابة بعد كل هذا يموت وتأتي القيامة وكل ما حققه من أهداف تفنى ويأتي الحساب عليها ، فمن يتصور ذلك لن يعيش من أجل أهداف دنيوية وسوف يكون هدفه شيئا واحدا هو الإعداد ليوم موته وما بعده من حياة .

ـ ويسأل الإنسان نفسه عن حقائق الأشياء من حوله كيف وجدت ولماذا وجدت ومن أوجدها ومن الذي أوجد الإنسان وما الهدف من ذلك ؟ وماذا عليه أن يفعل ؟ ولماذا يعيش وما الهدف من حياته ؟ وليس المطلوب المعرفة النظرية على هذه الأسئلة فهي معروفة ولكن يستشعر خطورة هذه المعرفة وما تدل عليه .

ـ والجاهل لا يفكر إلا في قيمة المال في الدنيا ولا يفكر في ضآلة المدة التي ينتفع بها بالمال وزواله سريعا وعدم نفعه في الآخرة وأن ما يزيد من مال عن طعام يسد جوفه وملبس يستره ومكان ينام فيه لا يحتاج إليه .

7 ـ تصور عجز الأسباب عن تفسير الأمر :

ـ أهم شيء يمنع الإنسان من معرفة الله هو أن يحصر تفكيره في حدود الأسباب فقط .

ـ سبب عدم الاتعاظ من الابتلاءات هو تصور أن الفاعل للابتلاءات هي الأسباب ، فالمرض بسبب الفيروس وحرارة الجو مثلا وينسى من الذي صنع الفيروس وجعله يقدر على الإنسان

(356) الأنعام: 110
(357) الزخرف: 23
(358) يونس: 74

ويجعله ضعيفا ومريضا ، ويحسب أن سبب تعرض السفينة للانقلاب هو الريح والأمواج وينسى من الذي يسير الريح ، ويتصور أن الزمن هو الفاعل للشيخوخة .

ـ الأسباب عبارة عن قوانين تسير بها الأشياء فمن الذي وضع هذه القوانين ؟ ، الله هو الذي خلق القانون الذي يسير به الكون ، ففي تفسير الشعراوي : ((فلا تظن أن الكون قائم على قانون يُديره ، بل على القيومية القائمة على كل أمر من أمور الكون))[359] ، فالإنسان إما أن يؤمن بالله الذي يخرق الأسباب وإما أن يؤمن بالأسباب فيكون مادي ، فإما أن يعبد الله وإما أن يعبد الأسباب ، فالأسباب هي قوانين مخلوقة لا تنفع ولا تضر ، وهذه القوانين عند البشر فقط وليست عند الله ، والبشر لا يستطيعون إلغاء الأسباب ولكن الله يستطيع أن يلغي الأسباب لأنه هو الذي خلقها ووضعها .

ـ فمثلا قانون الجاذبية هو الذي يجعلك إذا سقط شيء من يدك أن يقع على الأرض ، فهذا القانون مخلوق يلزمك أنت ولكن لا يلزم الله ، فالله إذا أراد أن لا يقع على الأرض ما يسقط من يدك لفعل ، كما أن قانون الجاذبية لا يستطيع أن يفعل شيء فليس هو الفاعل الحقيقي ، ولكن الفاعل هو الله سبحانه ، فإذا سقط شيء من يدك فوقع على الأرض فنقول أن سبب ذلك قانون الجاذبية مجازا لكن في الحقيقة الله هو الذي أوقع ما سقط من يدك على الأرض لأن الله هو الذي صمم هذا القانون .

ـ وكذلك فالدواء لا يشفي والشافي هو الله ، فالله هو الذي جعل الدواء يؤدي إلى الشفاء لأنه هو الذي خلق القانون الذي به يستطيع الدواء أن يؤدي إلى الشفاء ، أي أن الله هو الذي خلق الخواص المعينة التي في الدواء ، والخواص المعينة الموجودة في الجسم بحيث إذا وضع الدواء نتج الشفاء ، والإنسان فقط يكتشف ويعرف ما هو موجود فيستفيد من خواصه وليس يخترع ويبتكر الخواص التي تؤدي إلى الشفاء ، وقد يريد الله للمريض أن يشفى بغير دواء ولا أسباب ، وقد يبقيه على مرضه وإن أخذ بكل الأسباب ، والإنسان مطالب أن يأخذ بالأسباب فقط لأن الله أمره بذلك لأن عدم الأخذ بالأسباب معصية .

ـ وقد يوقف الإنسان تصوره عند الحدود المادية فقط ، فهو يتصور ما يحدث داخل النبات من أسباب ، وعندما يسأل عن السبب يجد له سبب آخر ، وعندما يصل إلى كيفية اختيار النبات للعناصر التي يحتاجها من التربة وبدقة متناهية (النفاذية الاختيارية) لا يجد لذلك سبب ويعلم أن هناك قوة خفية هي التي تصنع ذلك لكنه لا يتصور ذلك الأمر ولا يلفت انتباهه إليه ولا يشغل همه به .

ـ عندما تتفكر في أي أمر ينبغي عدم التوقف عند الحدود المادية للأسباب ، فعندما تتفكر في أي أمر تجد له مبررات علمية لحدوثه ، فتبحث عن سبب هذه المبررات فتجد لها مبررات أخري وهكذا ، وعليك أن تستمر في هذا حتى يعجز العلم المادي ويقول هذه لا أجد لها

(359) تفسير الشعراوي ـ مطابع أخبار اليوم (ج : 1 ، ص : 5585)

مبررات فتعرف أن هناك قوة خفية خارجية خارقة للأسباب هي التي أحدثت ذلك الأمر ، وعندئذ تشعر أن هناك قوة قاهرة تهيمن على كل شيء وتسيطر علي كل شيء سيطرة كاملة وهيمنة كاملة وعلى الجميع الاستسلام والخضوع الكامل للخالق : ((ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ))[360] ، أما التوقف عند الحدود المادية للأسباب يجعل الإنسان يشعر أن الأسباب هي التي أوجدت وصنعت وخلقت هذه الأمور ، وإن كان مقتنعا نظريا أن الخالق هو الذي أوجدها ، فيعيش بمشاعره في دنيا الأسباب ، دون أن تخرج مشاعره عن التعلق بالأسباب ، فينبغي أن تكون نظرة الإنسان إلى كل شيء على هذا النحو .

ـ فالمشكلة أننا نتوقف عند الأسباب ونفسر حدوث كل شيء بالأسباب العلمية ونتغافل عن عدم مقدرة الأسباب عن تفسير الأمر ، فمثلا خروج النبات من الأرض هو معجزة وأمر خارق للأسباب ولكننا نفسر أي عملية تحدث في النبات لوجود شيء معين هو الذي يؤدي إلى ذلك ، وإذا سألنا عن سبب وجود ذلك الشيء نكتشف أن هناك شيء آخر أدى إليه وهكذا حتى نصل إلى أن العلم يعجز عن تفسير ذلك الأمر ، هنا نكتشف أن القضية كلها خرق للأسباب وأن هناك قوة خارجية هي التي تصنع ذلك الأمر ، والمشكلة أننا لا نترك أنفسنا نصل إلى عجز العلم عن تفسير الأمر ولا نتفكر في هذه النقطة لكن تفكيرنا يتوقف عند حدود الأسباب العلمية .

ـ فمثلا الأشياء المصنوعة جاءت من خامات ، وهذه الخامات من خامات أخرى ، فلابد أن هناك خامات أو أشياء بدأت من العدم ، وهذا لا يقدر عليه غير الخالق سبحانه ، فالإنسان لا يستطيع إيجاد نفسه ، والأشياء لا تستطيع إيجاد نفسها .

ـ فالأسباب هي قوانين مخلوقة لا تنفع ولا تضر ، فهذه القوانين عند البشر فقط وليست عند الله ، فالبشر لا يستطيع أن يلغي الأسباب ولكن الله يستطيع أن يلغي الأسباب لأنه هو الذي خلقها ووضعها .

ـ عجز علم الإنسان عن تفسير وفهم الأمور يدل على وجود قوة خارقة للأسباب ، مثل وجود الروح وخروجها .

ـ التصور السليم هو التصور الذي يتجه إلى حقائق الأمور وليس ظاهرها ، فإذا نظر إلى الأشياء من حوله نظر إلى حقيقتها وكيف وجدت ولماذا وجدت ، وإذا نظر إلى الدنيا نظر إلى قيمتها وما تؤول إليه وفنائها ، وإذا نظر إلى الشهوات نظر إلى حقيقتها الضئيلة وفناءها والعقاب عليها ، وإذا نظر إلى نفسه نظر إلى سر وجوده كيف وجد ولماذا يموت وماذا بعد الموت ؟ ، وينظر إلى حقائق الأشياء من حوله وكيف جاءت ولماذا جاءت ؟ ، والتصور

(360) الملك : 4

الخاطئ هو أن يتجه التصور إلى ظواهر الأشياء دون أصولها ولم يسأل لماذا يأكل ولماذا يشرب ولماذا ينام ؟ .

ـ المشكلة أن الإنسان قد يقطع هذا التصور ويعتبره فلسفة ، فيكون مثل الذي سار في الطريق ونسي هدفه .

8 ـ تصور جميع الجوانب :

ـ الذي ينظر إلى ظاهر الأشياء ينخدع بظاهر شهوات الدنيا فيراها كبيرة القيمة ، فينشغل تفكيره بأنه يريد أن يأكل ويشرب وينام ويتناسل ويتمتع ويعيش كما يعيش الآخرون ، وتلهيه مشاغل الحياة فلا يفكر إلا في ظاهر الأمور : ((يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ))[361] ، ورغم أن الأشياء تدعو الإنسان إلى أن يعرف سر وجودها وما وراءها لكنه يتناسى حقائق الأشياء ويشغل عقله بظواهر الأشياء فقط ، وينشأ عن ذلك شعور خادع بقيمة الدنيا فيراها عظيمة القيمة رغم ضآلتها وفناءها .

ـ وكذلك ينظر إلى ظاهر أمر الغيبيات فلا يرى شيئا لأن الغيبيات لا نراها فظاهرها عكس حقيقتها ، فلا ينظر إلى حقيقتها وخطورتها ولا يوجه تفكيره في معرفتها ، فلا تتعلق مشاعره بها ولا يعيش لها .

ـ فالإنسان الذي لا عقل له عنده علم سطحي وظاهري بأمور الدنيا ، فلا ينظر إلى حقائق وجود الأشياء وما وراءها وحقيقة قيمتها ، ولكن فقط علمه مقصور ومحدود في إطار السطحيات والظاهر ، ففي تفسير البغوي : (({ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } يعني : أمر معاشهم ، كيف يكتسبون ويتجرون ، ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون ، وكيف يبنون ويعيشون ، قال الحسن : إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه ولا يخطئ وهو لا يحسن يصلي ، { وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ } ساهون عنها جاهلون بها ، لا يتفكرون فيها ولا يعملون لها))[362] ، وفي تفسير الشيخ المراغى : (((ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ) أي إن منتهى علمهم أن يتفهموا شئون الحياة الدنيا ، ويتمتعوا باللذات ، ويتصرفوا في التجارات ، ليحصلوا على ما يكون لهم فيها من بسطة في المال ، وسعة في الرزق ، ويكونوا ممن يشار إليهم بالبنان ، وما به يذكرون لدى الناس ، ولا يعنون بما وراء ذلك ، فشئون الآخرة دبر أذنهم ، ووراء ظهورهم ، لا يعرفون منها قبيلا من دبير))[363] .

ـ فمثلا يتصور المتعة الظاهرة في المعصية مع عدم تصور حقيقة المعصية وألم العقاب عليها وعدم تصور غياب الاستحياء من الله وعدم تصور أن الله هو المالك والمالك له الحق في أن يفعل فيما يملك ما يشاء .

(361) الروم : 7
(362) تفسير البغوي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (ج : 3 ، ص : 571)
(363) تفسير الشيخ المراغي ـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر (ج : 27 ، ص : 56)

ـ تصور ظاهر الأمر مع عدم تصور باقي الجوانب يؤدي إلى رؤية الشيء التافه عظيما ورؤية الشيء العظيم تافها ، وهذا هو التصور الخاطئ ، فيرى الأمور مقلوبة : ((أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ))[364] ، ((فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ))[365] .

ـ فتكون نظرة الإنسان للمال وأصحاب الثروات نظرة انبهار وإعجاب وتعظيم وتقدير لعظيم قيمته ، وكذلك نظرته إلى حجم المتعة من شهوة النساء أو النظر إلى العورات ، وهكذا ، في حين نظرته إلى قدر الله مثل نظرته إلى أي شيء لا ينفع ولا يضر ، فقدرة الله لا تلفت نظره أصلا ولا يستشعر في ذلك أثر أو أهمية ، وكذلك نظرته إلى الآخرة تكون مثل نظرته إلى الحواديت وهكذا ، وكل هذا يختلف عن الاقتناع الكاذب بعظمة الله وضآلة الدنيا وخطورة الآخرة .

ـ أما إذا نظر الإنسان إلى حقائق الأشياء تغيرت نظرته إلى ما حوله ، لأنه يكتشف حقيقة الدنيا فيشعر بضآلتها ، ويكتشف حقيقة الآخرة فيشعر بخطورتها ، فتكون نظرته للأشياء نظرة أخروية وليست نظرة دنيوية ، فمثلا إذا وقع بصره إلى نساء متبرجات فإنه يغض بصره ولا يكون تفكيره في زينتهن ولكن تفكيره في أن زينتهن فانية وهن أموات كجيف نتنة تحت التراب مثل مصير كل البشر ، وهن يلقون جزاء تبرجهن في الآخرة ، وكذلك لا ينظر إلى أصحاب الجاه والسلطان نظرة انبهار ولكن يتذكر أنهم صائرون إلى القبور ويتركون كل شيء ، وكذلك ينظر إلى الظلمة على أنهم ضعفاء مساكين وهم في النار يعذبون فيشفق عليهم في الدنيا وهم يوردون أنفسهم موارد الهلاك : ((إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ))[366] وهكذا .

ـ كيف تتحقق معرفة الله والآخرة ؟ :

ـ بتكرار التفكر والتذكر لخطورة قدرة الله وخطورة الآخرة حتى يتحقق الوعي والانتباه لذلك ، ويقول شيخ الإسلام ابن القيم : ((وَالتَّذَكُّرُ وَالتَّفَكُّرُ مَنْزِلَانِ يُثْمِرَانِ أَنْوَاعَ الْمَعَارِفِ، وَحَقَائِقَ الْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ، وَالْعَارِفُ لَا يَزَالُ يَعُودُ بِتَفَكُّرِهِ عَلَى تَذَكُّرِهِ، وَبِتَذَكُّرِهِ عَلَى تَفَكُّرِهِ، حَتَّى يُفْتَحَ قُفْلُ قَلْبِهِ بِإِذْنِ الْفَتَّاحِ الْعَلِيمِ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: مَا زَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَعُودُونَ بِالتَّذَكُّرِ عَلَى التَّفَكُّرِ، وَبِالتَّفَكُّرِ عَلَى التَّذَكُّرِ، وَيُنَاطِقُونَ الْقُلُوبَ حَتَّى نَطَقَتْ))[367] ، ويقول شيخ الإسلام ابن القيم أيضا : ((فها هُنَا خَمْسَة أمور : الْفِكر وثمرته الْعلم وثمرتهما الْحَالة الَّتِي تحدث للقلب وَثَمَرَة ذَلِك الارادة وثمرتها الْعمل ، فالفكر إِذا هُوَ المبدأ والمفتاح لِلْخَيْرَاتِ كلهَا وَهَذَا

(364) ص: 5
(365) النمل: 56
(366) الشعراء : 135
(367) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (1/ 440)

يكْشف لَك عَن فضل التفكر وشرفه وأنه من أفضل أعمال الْقلب وانفعها لَهُ حَتَّى قيل تفكر سَاعَة خير من عبَادَة سنة فالفكر هُوَ الَّذِي ينْقل من موت الفطنة إلى حَيَاة الْيَقَظَة))[368] .

ـ ما هو المطلوب منا تحديدا ؟ :

ـ الذي يريده الله منا هو العبادة ، والعبادة تنشأ من المعرفة ، والمعرفة تنشأ من الوعي ، والوعي ينشأ من التذكير ، إذن فأصل ما هو مطلوب منا هو التذكير (يذكر الإنسان نفسه حتى يتذكر) .

ـ وبتعبير آخر فالله يريد الله منا العبادة ، والعبادة عبارة عن يقين وعمل قلب (حب وذل وخوف ورجاء) وعمل جوارح ، والمشكلة أننا ننسى أن الله يطالبنا بتحقيق عمل القلب ، رغم أن الفارق في الأهمية بين عمل القلب وعمل الجوارح مثل الفارق بين السماء والأرض ، فعمل القلب هو أصل العبادة ، والذي يجب أن يهتم بتحقيقه الإنسان هو تحقيق عمل القلب الذي هو شرط في الإيمان وبدونه يخلد الإنسان في النار .

ـ فأي ملك من ملوك الدنيا يريد من الناس أن يعظموه (الحب) ويخضعوا له (الذل) ويخافونه ويرجونه ويطيعوه ، فهو بذلك يكون ملكا عليهم ، فإذا لم يفعلوا ذلك فهم عندئذ لم يجعلونه ملكا عليهم ، فكل الناس يعلمون ما الذي يريده الله منهم وهو أن يعظموه ويخضعوا له ويخافونه ويرجونه ويطيعوه .

ـ من الناس من يظن أن الدين عبارة عن أعمال فقط ، فكلما أراد الالتزام بالدين اجتهد في الأعمال والطاعات كالعبادات والأذكار والصلوات فقط وهي أمور من أعظم ما يمكن ، ولكن المطلوب من المسلم ما هو أهم من الأعمال وهو تحقيق عمل القلب .

ـ ولا يتحقق عمل القلب إلا من المعرفة التامة واليقين التام بالله والآخرة ، ويتحقق ذلك بتحقيق الوعي من خلال تكرار التذكير بالله والآخرة .

ـ فالبداية تبدأ من التذكير .

****

الفصل الثامن عشر

الإعراض عن التذكير لتغييب الوعي

ـ الفرق بين الجهل المتعمد والتجاهل :

(368) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (1/ 183)

ـ الجهل المتعمد هو الإعراض عن المعرفة النظرية فلم يسمع عن الأمر أصلا ويؤدي إلى غياب المعرفة النظرية ، والتجاهل هو الإعراض عن التذكير وهو وسيلة تؤدي إلى غياب المعرفة الحقيقية .

ـ السمع والبصر والعقل واللسان هي أدوات مسئولة عن المعرفة النظرية ومسئولة عن التذكير ، واغلاقها معناه الجهل المتعمد أو التجاهل .

ـ مفهوم الإعراض عن التذكير :

ـ أي يرفض أن يذكره أحد بالأمر ولا يذكر نفسه بالأمر لتغييب الوعي بالأمر .

ـ فلا يحب أن يذكره أحد بالله والآخرة والموت والآيات الكونية والحلال والحرام ولا يرد على المتحدث إذا تكلم في ذلك ، ويهرب من سماع ذلك ، ولا يتكلم في الأمر مع أي أحد ، كأن الأمر غير مطروح أصلا كأنه أمر تافه ، ولا يُذَكِّر نفسه بذلك ولا يفكر في ذلك ولا يتحدث بذلك مع الناس ويبتعد عن كل ما يذكره بالله والآخرة كالأذكار والقرآن وغير ذلك .

ـ فالقضايا التي تشغل همه وتفكيره وكلامه ونقاشاته وطموحاته كلها أمور الدنيا ومشاغلها وليس فيها الآخرة ويتجاهل أي شيء فيه تذكير بالله والآخرة كأنه لم يسمع .

ـ كلمة (القلب) في القرآن تشمل العقل والمشاعر !! :

ـ كلمة (القلب) في القرآن تشمل العقل والمشاعر ، وهي في الأساس تعني العقل .

ـ لا تتعجب إذا أخبرتك أن العقل في القلب ! ، فالقلب هو الذي يعقل وليس المخ كما هو شائع بين الناس ، وهذا أمر ثابت في الشرع ولكن العلم إلى الآن لا يزال لم يكتشف ذلك وسوف يكتشف ذلك مستقبلا ، فالإنسان يفكر في الأمر بقلبه ويعقل الأمر بقلبه ، فالتدبر بالقلب والفهم بالقلب ، ويقول الشيخ ابن عثيمين : (({ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها } وقال { فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور } ولم يقل القلوب التي في الأدمغة ، فالأمر فيه واضح جدا أن العقل يكون في القلب ويؤيد هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم : (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)))[369] .

ـ وظيفة العقل :

ـ العقل له وظيفتان هما :

1ـ الفهم واليقين النظري .

2ـ الهم : ومن خلاله يتم إيقاظ الوعي أو تغييب الوعي بالأمر عن طريق شغل الهم بالتفكير في الأمر أو عدم شغل الهم بالتفكير فيه .

(369) شرح رياض الصالحين (ص: 67)

ـ غياب وظيفة العقل :

ـ يقال أن الإنسان لا يعقل في حالتين هما :

1ـ لا يفهم الأمر أو لا يوقن به نظريا (رغم الأدلة الواضحة عليه) .

2ـ لا يشغل همه بالأمر رغم خطورته : أي إغلاق العقل عن التفكير في الأمر بغرض تغييب الوعي به فيكون كأنه لم يسمعه ، وهذا هو ما يقصده القرآن من وصف الكفار بأنهم لا يعقلون ، فالكفار كلهم أو معظمهم يفهمون الحق ويوقنون به نظريا ولو كذبوا بألسنتهم .

ـ هل أنت حي أم ميت ؟ :

ـ يقصد بالموت أي إغلاق أدوات المعرفة والتذكير (أنظر البند رقم 55 بالفصل التاسع عشر) .

ـ سبب عدم معرفة الله والآخرة هو أن الإنسان لم يستخدم عقله وسمعه وبصره في معرفة الله والآخرة ولم يستمر على ذلك حتى يتحقق الوعي الذي به تتحقق المعرفة ، وإذا استخدم عقله وسمعه وبصره ولم يتحقق الوعي فهو لا يزال مغلق العقل والسمع والبصر فهو ميتا : ((وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ))[370] .

ـ فهل أنت حي أم ميت ؟ ، أي هل أنت عاقل فتعي معنى الخالق والآخرة أم طُبِع على عقلك فهو مغلق ؟ .

ـ تعطيل وظيفة التفكير الطبيعية :

ـ يمنع الإنسان نفسه من التفكير في الأمر فيغلق عقله ويمنع نفسه من أي شيء يذكره بالأمر ظنا منه أنه بذلك قد ألغى وجود هذا الخطر أو هرب منه وهذا من أعظم الغباء فالآخرة قادمة ولقاء الله قادم سواء تناسيت ذلك أم تذكرته .

ـ مثال :

ـ عندما أتى سيدنا موسى بمعجزة تحول العصا لثعبان ، رأى الناس بأعينهم أمر خارق للأسباب ولغز محير وأمر مدهش وعجيب فذلك يدعو الإنسان لأن يفكر فيه ، وهذا التفكير يؤدي إلى الوعي والانتباه والدهشة والتحير وخوف المهابة من غرابة ما يرى ، وبالتالي خوف المهابة من مدى قدرة من صنع هذا (وهو الله سبحانه) فعندئذ قد عرفوا الله معرفة حقيقية ، لكنهم أغلقوا عقولهم ، أما سحرة فرعون أعملوا عقولهم فآمنوا ولم يبالوا بشيء : ((لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ))[371] .

(370) الأنفال : 23
(371) الشعراء: 49، 50

ـ معنى غياب السمع والبصر والكلام والعقل :

ـ عدم استخدام أدوات المعرفة والتذكير في القيام بوظيفتها يؤدي إلى عدم إيجاد الوعي (الغفلة) .

ـ إذن أدوات المعرفة والتذكير بدون القيام بوظيفتها فلا قيمة لها وهي كاذبة ، وبتعبير آخر فأدوات المعرفة بدون تحقيق الوعي الذي هو الهدف منها فلا قيمة لها وهي كاذبة .

ـ فمعنى أن الإنسان لا يسمع ولا يرى ولا يتكلم ولا يعقل أي لا يعي الأمر .

ـ فمعنى الآية : ((صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ))[372] ، أي لا يتذكرون ولا يفكرون ، ومعناها أيضا ليس لديهم وعي لما يسمعونه وما يرونه وما يتكلمون به وما يفهمونه بعقولهم ، أي لم يؤدي بهم السمع والكلام واللسان والعقل إلى إيجاد الوعي الذي به تتحقق المعرفة الحقيقية .

ـ تعبيرات القرآن عن إغلاق أدوات المعرفة والتذكير :

ـ إغلاق أدوات المعرفة والتذكير معناه إغلاق القلب والأذن واللسان والعين لمنع التفكير في الأمر ومنع التذكير به ، فلا يفكر إلا في المال والدنيا ، وهذا الإغلاق في القرآن له أسماء كثيرة هي : القفل والعمى والعشى (ضعف الرؤية) والوقر على الاذن (ضعف السماع) والصمم وعدم السماع والبكم والطبع على القلب ، والأكنة والزيغ والغطاء والغلاف والحجاب والران والغل والسد والصد والختم والوقر والغشاوة والصرف والشد والصدف والضلال والإغفال والرجس وتقليب الأفئدة وقساوة القلب وضيق الصدر وغمرة القلب والحيلولة بين المرء وقلبه وإنساء العبد نفسه وتقليب الأفئدة والأبصار ومرض القلب وموت القلب وإنكار القلب والحمية وترك إرادة الله تطهير القلب وزيادة القلوب مرضا على مرضها ، وغياب العقل واللب والقلب ، وثني الصدر (يطأطئ رأسه ويميله فوق صدره) والاستخفاء واستغشاء الثياب (يتغطى بالثياب) والسمود (أي يرفع رأسه لأعلى يتجاهل من يتحدث إليه) ، والموت (موت الحواس) ، والتعامل مع الأمر كأنه هزل ولعب ولهو (إشارة إلى عدم التفكير)، والتقليد (إشارة إلى عدم التفكير) والانصراف والإدبار والتولي والإعراض والفرار والنفور واللغو (عند سماع القرآن بغرض التشويش) ، والاشمئزاز (للتعبير عن عدم الرغبة في السماع) والتلهي (ليشغل تفكيره بأمر آخر) ، واتخاذ الأمر ظهريا ، والنكوص (الرجوع للخلف) والتشبيه بالبهائم وبالحمار في أنها لا تفكر ولا تعقل فلا هم لها إلا الطعام والشراب والجماع ، والحيلولة بين المرء وقلبه ، وعدم التفكر وعدم التوسم وعدم التدبر وعدم التذكر ، والعناد والإصرار والجحود ، وغير ذلك .

(372) البقرة : من الآية 171

ـ مفهوم الإعراض عن التذكير (التجاهل ـ الهروب من المعرفة) :

ـ معناه أنه لا يريد أن يفكر في الأمر ولا يريد أن يذكره أحد بالأمر ، والغرض من ذلك هو تغييب الوعي عن خطورة الأمر وبالتالي نسيان الأمر (غياب المعرفة التامة بالأمر) .

ـ أي أنه يتجاهل الأمر كأنه لا يعرفه فلا يفكر فيه ويبتعد عن ما يذكر به .

ـ لماذا يغلق الإنسان عقله وسمعه وبصره ؟ :

ـ إغلاق أدوات المعرفة والتذكير هو وسيلة لتغييب الوعي وبالتالي غياب المعرفة الحقيقية .

ـ فالهدف من إغلاق أدوات المعرفة والتذكير هو التجاهل والهروب من المعرفة والتناسي والتغافل والتعامي وتغييب الوعي .

ـ معرفة الإنسان بالله معرفة حقيقية تجعله يعيش حياته ذليلا لغيره (لله سبحانه) وهو لا يريد أن يعيش ذليلا لأحد ، فمعنى معرفة الله أي معرفة أن الله هو القوي وأن الإنسان هو الضعيف ، ولكن الإنسان مغرور بنفسه ، فعندما تأتي لإنسان مغرور بنفسه ويحسب أنه قوي فتخبره بأنه ضعيف فإنه لن يسمع لك ولن يشغل همه بكلامك ، وهو يفعل ذلك لأنه لا يملك دليلا يرد به عليك ، والأشد من ذلك إذا أخبرته بأنه خاضع وتحت السيطرة الكاملة فلن يسمع لك .

ـ الهروب من الموت ومن الخضوع :

ـ كل إنسان يوقن يقينا تاما بأنه سيموت ، ولكن الإنسان لا يريد أن يموت ، فيلجأ إلى حيلة وهي أنه يتجاهل قضية الموت ويتغافل عنها ولا يشغل همه بها ويعيش كأنه لن يموت وبذلك يتوهم أنه لن يموت ! ، فيقينه بأنه سيموت هو يقين كاذب .

ـ نفس الأمر بالنسبة للخضوع ، فكل الناس أذلاء مستسلمين خاضعين قهرا ، ولا يستطيعوا الخروج عن سلطان الله لأنهم جميعا واقعين تحت سيطرته وسلطانه وقوته وهم ضعفاء أمام قدرته وهيمنته عليهم ، فالإنسان خاضع رغما عنه والمطلوب منه الشعور بهذا الخضوع ، وسواء رضي الإنسان بالخضوع أم لم يرضى ، وسواء شعر به أم لم يشعر فهو خاضع رغما عن أنفه ولا يستطيع الخروج عن الخضوع لله إلا إذا استطاع أن يخرج من ملكه ومن تحت سماءه ومن فوق أرضه ، وإلا إذا استطاع أن يمنع نفسه من الموت ومن المرض ومن البعث والوقوف بين يدي الله تعالى ! ، فالإنسان خاضع لله ومشيئته خاضعة لله تعالى ، ورغم أن الإنسان يعلم بأنه خاضع لله لكنه لا يريد أن يشعر بالخضوع فيتناسى أنه واقع تحت قدرة الله ومراقبته ويتناسى أنه لن يستطيع أن يفلت منه ، فكل شيء يدعوه إلى الشعور بالخضوع يتناساه كأنه لا يعلمه ، والإنسان الذي يريد الهروب من الخضوع مثل الذي يريد الهروب من الموت يتناسى مسألة الخضوع ويعيش كأنه غير خاضع ، يتناسى خضوعه لله فهو بذلك

يهرب من الخضوع ، وهذا من الغباء ، لأنه يكون كالنعامة التي تدفن رأسها في التراب حتى لا يراها الأعداء ! .

ـ ونفس الأمر يفعله الذي لا يريد أن يذهب إلى الآخرة ولقاء الله تعالى .

ـ كيف يتم إلغاء المعرفة وكيف يتم استعادتها ؟ :

ـ الاستمرار في عدم التذكير بالأمر يؤدي إلى تغييب الوعي به (الغفلة عنه) أي فقدان أهم عنصر من عناصر المعرفة .

ـ وتكرار التذكير بالأمر يؤدي إلى إيقاظ الوعي به ، وبالتالي تتحقق المعرفة الحقيقية ، كما قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : (ما زَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَعُودُونَ بِالتَّذَكُّرِ عَلَى التَّفَكُّرِ، وَبِالتَّفَكُّرِ عَلَى التَّذَكُّرِ، وَيُنَاطِقُونَ الْقُلُوبَ حَتَّى نَطَقَتْ) .

ـ كيف يمنع الإنسان نفسه من المعرفة الحقيقية بعدما سمع واقتنع فيكون كالذي لم يسمع عن الأمر ؟ :

ـ عن طريق إغلاق أدوات المعرفة والتذكير ، أي يمنع نفسه من التذكير بقدرة الله وخطورة الآخرة ويمنع نفسه من كل ما يذكره بالله والآخرة ويستمر على ذلك حتى يفقد الوعي والانتباه إلى خطورة قدرة الله وخطورة لقاءه وخطورة الآخرة فيكون كالسكران الذي لا يدرى ما الله وما الآخرة فبذلك يكون قد فقد معرفته بالله والآخرة ويؤدي ذلك إلى أن يعيش حياته كأنه لم يسمع عن الله والآخرة .

ـ أي بتغييب الوعي من خلال عدم شغل الهم بالأمر والابتعاد عن كل ما يذكر به .

ـ فالإنسان يستطيع أن يصنع فقدان وعيه تجاه أمر ما لا يرغبه فيصبح كالسكران تجاه ذلك الأمر ، وذلك بتجاهل الأمر وتناسيه وعدم التفكير فيه وعدم شغل الهم به والابتعاد عن كل ما يذكر به ويشغل همه بما سواه فيصبح الأمر بالنسبة له كأنه معدوم القيمة والأهمية حتى يصبح الإنسان فاقد الوعي تجاه هذا الأمر .

****

الفصل التاسع عشر

الأدلة على التجاهل (إغلاق أدوات المعرفة والتذكير)

ـ التجاهل نوعين :

1ـ الإعراض عن وصول المعلومة أو فهمها :

ـ فيمنع نفسه من معرفة ما هو ذلك الشيء ، فمثلا يعرف أن هناك شيء اسمه الإسلام ، فيمنع نفسه من معرفته ومعرفة إلى ماذا يدعوا ، وهذا كفر إعراض عن المعرفة النظرية .

2ـ الإعراض عن التذكير بالمعلومة :

ـ بعد أن سمع عن الأمر وفهمه يمنع نفسه من تكرار سماعه وفهمه ، أي يمنع نفسه من التذكير به ، فمثلا سمع وعرف بوجود الغيبيات لكنه يمتنع عن التذكير بها ، والغرض من ذلك أنه يمنع نفسه من تحقيق الوعي بها حتى تموت معاني الغيبيات عنده فلا يتأثر بها قلبه (غياب عمل القلب) ولا تؤثر في جوارحه .

ـ والإعراض عن التذكير هو وسيلة لتغييب الوعي وافساد المعرفة الحقيقية ، وهذه الوسيلة ليست كفرا ولكنها وسيلة قد تؤدي إلى كفر الإعراض عن المعرفة التامة .

ـ مفهوم (التجاهل) في القرآن :

ـ هناك آيات تشرح مفهوم الابتعاد عن المعرفة أو التذكير بابتعاد المستمع عن المتحدث سواء على سبيل الحقيقة أو على سبيل التشبيه .

ـ ونوضح ذلك كالتالي :

ـ أي حوار يتم بين اثنين لابد فيه من أربعة أمور هي :

1ـ متحدث : وهو الله أو الرسل أو الدعاة .

2ـ كلام المتحدث : ويطلق عليه كلمة (الذكر) أو (الآيات) ، فذكر الله هو كلامه أو كلام رسله إلى المستمعين (الناس) .

ـ وكلام المتحدث عبارة عن إخبار الناس بوجود الخالق والآخرة وأوامر الله وأمره بالخضوع لأوامره تعالى .

3ـ مستمع : وهم الناس .

4ـ موقف المستمع من هذا الذكر (كلام الله والرسل) : وموقفه أحد ثلاثة أمور هي :

1ـ يمتنع عن السماع لأول مرة فلا يعرف الأمر ، وهذا معناه غياب المعرفة النظرية .

2ـ يمتنع عن التذكير بالأمر ، وهي وسيلة تؤدي إلى غياب المعرفة التامة ، وقد يحدث هذا مع التصديق أو مع التكذيب .

3ـ يسمع ويعرف فيصدق ويعمل به .

ـ الحالة الأولى هي كفر إعراض عن المعرفة النظرية ، والحالة الثانية ليست كفرا وإنما هي إعراض عن التذكير وهي وسيلة تؤدي إلى كفر الإعراض عن المعرفة التامة .

ـ والقرآن يعبر عن الحالة الأولى والثانية كالتالي :

ـ عبارات القرآن عن إغلاق أدوات المعرفة والتذكير :

1ـ التصام : أي الابتعاد عن التذكير فلا يسمعون سماع تفهم وتدبر واستبصار واعتبار :

ـ وفي معاني القرآن : (({ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا } أي لم يتغافلوا عنها ويتركوها حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع ولا يبصر))[373] ، وفي تفسير توفيق الرحمن : (({ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً } أي : تعاموا ، وتصامّوا ، وتغافلوا عن قبول الحق ، واستماع القرآن ، كما قال تعالى : صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ))[374] .

ـ ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ))[375] ، ((مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ))[376] ، ((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ))[377] ، ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ))[378] ، ((خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ))[379] ، ((أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إلا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا))[380] ، ((فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ))[381] .

ـ ففي تفسير أبي السعود : (({ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون } أي شأنهم أن يسمعوا الكلام سماع تفهم واستبصار))[382] ، وفي تفسير أبي السعود أيضا : ((ولو علم الله فيهم خيرا ... لأسمعهم سماع تفهم وتدبر))[383] ، وفي تفسير القرطبي : (({ وهم لا يسمعون } أي لا يتدبرون ما سمعوا ولا يفكرون فيه فهم بمنزلة من لم يسمع وأعرض عن الحق .... ولو أسمعهم أي لو أفهمهم))[384] ، وفي تفسير الواحدي : ((ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا سماع قابل وليسوا كذلك يعني المنافقين وقيل أراد المشركين لأنهم سمعوا ولم يتفكروا فيما سمعوا فكانوا بمنزلة من لم يسمع))[385] .

ـ وفي تفسير الجلالين : ((وقالوا لو كنا نسمع أي سماع تفهم أو نعقل أي عقل تفكر ما كنا في أصحاب السعير))[386] ، وفي تفسير روح المعاني : ((فهم لا يعقلون : أي لا يدركون شيئا لفقدان الحواس الثلاثة وقد قيل من فقد حسا فقد فقد علما وليس المراد نفي العقل

(373) معاني القرآن للنحاس ـ جامعة أم القرى ـ مكة المرمة (5 / 55)
(374) توفيق الرحمن في دروس القرآن ـ دار العاصمة ، السعودية (3 / 40)
(375) الأنعام : 36
(376) هود : 20
(377) النمل : 80
(378) يونس : 42
(379) البقرة : 7
(380) الفرقان : 44
(381) فصلت : 4
(382) تفسير أبي السعود ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (ج : 7 ، ص : 57)
(383) تفسير أبي السعود ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (ج : 4 ، ص : 15)
(384) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة (ج : 7 ، ص : 388)
(385) تفسير الوجيز للواحدي (ج : 1 ، ص : 435)
(386) تفسير الجلالين دار الحديث ـ القاهرة (ج : 1 ، ص : 755)

الغريزي باعتبار انتفاء ثمرته))[387] ، وفي تفسير روح المعاني أيضا : (({ فهم لا يسمعون } أي سماع تفهم واعتبار))[388] ، وفي تفسير روح المعاني أيضا : ((إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون : أي شأنهم أن يسمعوا الكلام سماع تفهم واستبصار .... من ألقى السمع وهو شهيد ينتبه لوعظ الله تعالى ويصغى إليه))[389] .

ـ وفي تفسير ابن كثير : (({ أو ألقى السمع وهو شهيد } أي استمع الكلام فوعاه وتعقله بعقله وتفهمه بلبه))[390] ، وفي تفسير الطبري : (({ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون } { وهم لا يسمعون } يقول وهم لا يعتبرون ما يسمعون بآذانهم ولا ينتفعون به لإعراضهم عنه وتركهم أن يوعوه بقلوبهم ويتدبروه فجعلهم الله لما لم ينتفعوا بمواعظ القرآن وإن كانوا قد سمعوها بآذانهم بمنزلة من لم يسمعها))[391] ، وفي تفسير الجلالين : ((ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون سماع تدبر واتعاظ وهم المنافقون أو المشركون ، إن شر الدواب عند الله الصم عن سماع الحق البكم عن النطق به الذين لا يعقلون ، ولو علم الله فيهم خيرا صلاحا بسماع الحق لأسمعهم سماع تفهم))[392] ، وفي تفسير البغوي : (({ وَمِنْهُم } يعني من هؤلاء الكفار، { مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ } وهم المنافقون، يستمعون قولك فلا يعونه ولا يفهمونه، تهاونًا به وتغافلا))[393] .

2 ـ التعامي :

ـ ((أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أو تَهْدِي الْعُمْيَ))[394] ، ((أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ))[395] ، ((صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ))[396] ، ((قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا))[397] ، ((أنهم كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ))[398] ، ((أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ))[399] ، ((أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أعمى))[400] ، ((وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أعمى فَهُوَ فِي الآخرة أعمى وَأَضَلُّ سَبِيلًا))[401] ، ((أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أو آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فإنها لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ))[402] ، ((وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا))[403]

(387) تفسير الألوسي [روح المعاني] ـ دار الكتب العلمية – بيروت (ج : 1 ، ص : 439)
(388) تفسير الألوسي [روح المعاني] ـ دار الكتب العلمية – بيروت (ج : 5 ، ص : 15)
(389) تفسير الألوسي [روح المعاني] ـ دار الكتب العلمية – بيروت (ج : 11 ، ص : 33)
(390) تفسير ابن كثير ـ دار الكتب العلمية – بيروت (ج : 7 ، ص : 382)
(391) تفسير الطبري ـ مؤسسة الرسالة ـ مؤسسة الرسالة (ج : 12 ، ص : 458)
(392) تفسير الجلالين دار الحديث ـ القاهرة (ج : 1 ص : 230)
(393) تفسير البغوي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (ج 4 / ص 213)
(394) الزخرف : 40
(395) محمد : 23
(396) البقرة : من الآية 171
(397) الأنعام : 104
(398) الأعراف : 64
(399) يونس : 43
(400) الرعد : 19
(401) الإسراء : 72
(402) الحج : 46
(403) الأعراف : 179

، ((وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ))[404] ، ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ))[405] .

3 ـ يضع أصبعه في أذنيه حتى لا يسمع المتحدث :

ـ ففي صفوة التفاسير : (({ جعلوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ } أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا دعوتي))[406] .

4 ـ التشويش على المتحدث (التحدث أثناء حديثه) :

ـ أي يتشاغل بالكلام مع أحد آخر أو مع آخرين أثناء حديث المتكلم حتى يتداخل الكلام مع بعضه .

ـ ففي إعراب القرآن وبيانه : (({ لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ } أي أظهروا اللغو برفع الأصوات تخليطا وتشويشا عليه))[407] .

5 ـ التشاغل أثناء سماع المتحدث باللعب واللهو :

ـ ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ))[408] .

6ـ تصنع ضعف السماع كأن به ثقل في السمع :

ـ ففي تفسير الدرر في تناسب الآيات والسور : (({وفي آذانهم وقراً} أي ثقلاً يمنع من سمعه حق السمع، لأنه يمنع من وعيه الذي هو غاية السماع))[409] ، ((وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ))[410] .

7 ـ تصنع ضعف الرؤية :

ـ ففي تفسير الدر المصون : (({ وَمَن يَعْشُ } : .. أي : يتعامى ويتجاهل))[411] ، وفي تفسير السمعاني : ((عشا يعشو إذا ضعف بَصَره، وعشى يعشي إذا عمى بَصَره ، .. { يَعش عَن ذكر الرَّحْمَن } أَي : يذهب عَن ذكره ؛ فيسير فِي ظلمَة وخبط عَن جَهَالَة))[412] .

8 ـ تصنع ضعف السماع فيسمع صوتا فقط :

(404) الأعراف : 198
(405) يونس : 43
(406) صفوة التفاسير (3/ 427)
(407) إعراب القرآن وبيانه ـ دار الإرشاد للشئون الجامعية ـ حمص ـ سورية (6/ 455)
(408) الأنبياء : 1 - 3
(409) تفسير الدرر في تناسب الآيات والسور (7/ 84)
(410) لقمان : 7
(411) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (9/ 586)
(412) تفسير السمعاني (5/ 102)

ـ يتصنع كأنه لا يستطيع أن يميز الأصوات التي يسمعها هل هي أصوات بشرية أم أصوات معدنية أم ضجيج فالذي يصل إلى أذنه مجرد صوت فقط .

ـ ففي تفسير الهداية إلى بلوغ النهاية : (({ وَمَثَلُ الذين كَفَرُواْ كَمَثَلِ الذي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ } أي : مثل الكافر في قلة فهمه لما يتلى عليه من عند الله عز وجل وما يدعى إليه ويوعظ به، مثل البهيمة التي تسمع الصوت إذا نعق بها، ولا تعقل ما يقال لها ، قال عكرمة : " معناه : مثلهم كمثل البعير أو الحمار تدعوه فيسمع الصوت، ولا يفقه ما تقول له " ، قال ابن عباس : " معناه : مثل الكافر كمثل البعير أو الحمار أو الشاة ، إذا قلت لبعضها : كُلْ ، لم تعلم ما تقول ، غير أنها تسمع الصوت ، كذلك الكافر إن أمرته بخير أو نهيته عن شر أو وعظته لم يعقل ما تقول غير أنه يسمع صوتك))[413] .

9 ـ لا يسمع المنادي بوضوح لأنه في مكان بعيد :

ـ ففي تفسير الجلالين : (({ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر } ثقل فلا يسمعونه { وهو عليهم عمى } فلا يفهمونه { أولئك ينادون من مكان بعيد } أي هم كالمنادى من مكان بعيد لا يسمع ولا يفهم ما ينادى به))[414] .

10ـ يتباعد عن المتحدث :

ـ ففي تفسير الهداية إلى بلوغ النهاية : (({ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ } وقيل : المعنى أنهم ينهون [الناس عن] أن يستمعوا ما في القرآن، ويتباعدون هم عن استماعه، فالهاء للقرآن))[415] .

11 ـ لا يوجه سمعه إلى المتحدث :

ـ الذي ينتفع بالقرآن هو الذي يلقي إليه سمعه غير متغافل عنه ففي التفسير القيم لابن القيم : ((وقوله : «أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ» أي وجه سمعه، وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له ، وهذا هو شرط التأثير بالكلام ، وقوله : «وَهُوَ شَهِيدٌ» أي شاهد القلب حاضر ، غير غائب ، قال ابن قتيبة: استمع لكتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه ، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثر ، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له ، والنظر فيه وتأمله ، فإذا حصل المؤثر، وهو القرآن، والمحل القابل، وهو القلب الحي، ووجد الشرط ، وهو الإصغاء ، وانتفي المانع، وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر: حصل الأثر، وهو الانتفاع بالقرآن والتذكر))[416] .

12ـ لوي الرأس :

(413) الهداية إلى بلوغ النهاية ـ الناشر : مجموعة بحوث الكتاب والسنة ـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة الشارقة (1/ 544)
(414) تفسير الجلالين (ص: 636)
(415) الهداية إلى بلوغ النهاية (3/ 1991)
(416) التفسير القيم = تفسير القرآن الكريم لابن القيم (ص: 484)

ـ تصور الأمر على أنه تافه لا قيمة له ، ففي تفسير المراغي : (({وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ } لوّوا رءوسهم : أي حوّلوها استهزاء))[417] ، وفي صفوة التفاسير : (({ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ } أي حركوها وهزوها استهزاءاً واستكباراً))[418] .

13ـ تحريك الرأس لأعلى ولأسفل :

ـ علامة للتعجب من تفاهة الأمر (في نظره) :

ـ ففي أيسر التفاسير للجزائري : (({ فسينغضون }: أي يحركون رؤوسهم تعجباً ، .. { فسينغضون } أي يحركون إليك رؤوسهم خفضاً ورفعاً استهزاء))[419] ، وفي تفسير فتح البيان : (({ فسينغضون إليك رؤوسهم } أي يحركونها استهزاء ، يقال نغض رأسه ينغض نغضاً ونغوضاً إذا تحرك وأنغض رأسه حركه كالمتعجب من الشيء))[420] .

14ـ السمود أي يرفع رأسه لأعلى كأنه يبحث عن شيء في السماء ، ولا شيء (كأنه يتغافل عن من يتحدث إليه) :

ـ ففي التفسير القرآني للقرآن : ((« وَأَنْتُمْ سامِدُونَ » أي وأنتم غافلون في صلف وكبر ، والسامد هو البعير الذي يرفع رأسه كأنه يبحث عن شيء في السماء ، ولا شيء ! ..))[421] .

15ـ يرفع رأسه إلى أعلى ويثبتها على ذلك حتى لا ينظر إلى المتحدث :

ـ ففي أيسر التفاسير للجزائري : (({ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا } أي جعلنا أيديهم مشدودة إلى أعناقهم بالأغلال { فهي إلى الأذقان } أي أيديهم مجموعة إلى أذقانهم ، والأذقان جمع ذقن وهو مجمع اللحيين { فهم مقمحون } أي رافعو رؤوسهم لا يستطيعون خفضها))[422] .

ـ وفي التفسير القرآني للقرآن : ((لقد جعل الله «فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا» أي أطواقا من حديد، أشبه بالقلادة، تطوق بها أعناقهم ، «فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ» أي وهذه الأغلال أو القلائد تشتمل على العنق كله ، حتى لتصل إلى الأذقان ، «فَهُمْ مُقْمَحُونَ» أي مشدود والرؤوس إلى أعلى فهم لا يستطيعون أن يحركوا رءوسهم يمينا أو شمالا أو إلى تحت أو فوق ، والصورة التي تبدو ممن طوّق بهذا الطوق أنه تمثال جامد))[423] .

(417) تفسير المراغي (28/ 110)
(418) صفوة التفاسير (3/ 364)
(419) أيسر التفاسير للجزائري (3/ 201 ، 202)
(420) فتح البيان في مقاصد القرآن (7/ 404)
(421) االتفسير القرآني للقرآن ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة (14 / 625)
(422) أيسر التفاسير للجزائري (4/ 365)
(423) التفسير القرآني للقرآن (11/ 908)

16- الاستخفاء من المتحدث بثني الرأس على الصدر :

- أي يطأطئ رأسه ويميله فوق صدره ليستخفي من المتحدث إليه كأنه منشغل بأمر آخر غير المتحدث :

- ففي أيسر التفاسير : ((وقوله تعالى : { ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه } هذا النوع من السلوك الشائن الغبي كان بعضهم يثني صدره أي يطأطئ رأسه ويميله على صدره حتى لا يراه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبعضهم يفعل ذلك ظناً منه أنه يخفي نفسه عن الله تعالى وهذا نهاية الجهل ، وبعضهم يفعل ذلك بغضاً للرسول صلى الله عليه وسلم حتى لا يراه فرد تعالى هذا بقوله : { ألا حين يستغشون ثيابهم } أي يتغطون بها))[424] .

- وفي تفسير مقاتل : (({ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ } يعني يلوون وذلك أن كفار مكة كانوا إذا سمعوا القرآن نكسوا رءوسهم على صدورهم كراهية استماع القرآن لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ يعني من النبي- صلى الله عليه وسلم- فالله قد علم ذلك منهم))[425] .

17- نكس على رأسه (جعل رأسه أسفل ورجلاه أعلى إشارة إلى تعطيل العقل) :

- ففي أيسر التفاسير : (({ فرجعوا إلى أنفسهم } : أي بعد التفكر والتأمل حكموا على أنفسهم بالظلم لعبادتهم مالا ينطق ، { نسكوا على رؤوسهم } : أي بعد اعترافهم بالحق رجعوا إلى إقرار الباطل فكانوا كمن نكس فجعل رأسه أسفل ورجلاه أعلى))[426] .

18- التباكم :

- لا يرد على المتحدث ولا يتكلم في الأمر مع أي احد كأن الأمر غير مطروح أصلا كأنه أمر تافه : ((صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ))[427] .

19- يضع يده على فمه :

- نفس المعنى السابق : ((جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ))[428] .

20 - تصنع ضعف البصر (كأنه يرى بالكاد فلا يميز ما الذي يراه) :

- ففي التفسير المنير للزحيلي : (({ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } يتعام ويتغافل ويعرض عن النظر في القرآن والعمل به، نهيئ له شيطانا يوسوس له ويغويه، فهو له ملازم لا يفارقه، بل يتبعه في جميع أموره، ويطيعه في كل ما يزين له به ، والعشا في العين : ضعف البصر، والمراد هنا عشا البصيرة ، والمراد بالآية : إن من يعرف كون القرآن حقا ولكنه يتغافل عن ذلك فهو في ضلال، ومادة كل آفة وبلية الركون إلى الدنيا

(424) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة (2 / 157)
(425) تفسير مقاتل بن سليمان (2/ 271)
(426) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة - السعودية (3 / 423)
(427) البقرة : من الآية 171
(428) الأعراف : 51

وأهلها، فإن ذلك بمنزلة الرمد للبصر، ثم يصير بالتدريج كالعشى، ثم كالعمى))[429] ، وفي تفسير البيضاوي : (({ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ } يتعام ويعرض عنه لفرط اشتغاله بالمحسوسات وانهماكه في الشهوات))[430] .

21 ـ استغشاء الثياب (يغطي رأسه بثوبه حتى لا يراه المتحدث) : للدلالة على التغافل والتجاهل :

تفسير القرطبي : (({ وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ } أَيْ إِلَى سَبَبِ الْمَغْفِرَةِ، وَهِيَ الْإِيمَانُ بِكَ وَالطَّاعَةُ لَكَ ، { جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ } لِئَلَّا يَسْمَعُوا دُعَائِي { وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ } أَيْ غَطَّوْا بِهَا وُجُوهَهُمْ لِئَلَّا يَرَوْهُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: جَعَلُوا ثِيَابَهُمْ عَلَى رؤوسهم لِئَلَّا يَسْمَعُوا كَلَامَهُ. فَاسْتِغْشَاءُ الثِّيَابِ إِذًا زِيَادَةٌ فِي سَدِّ الْآذَانِ حَتَّى لَا يَسْمَعُوا، أَوْ لِتَنْكِيرِهِمْ أَنْفُسَهُمْ حَتَّى يَسْكُتَ، أَوْ لِيُعَرِّفُوهُ إِعْرَاضَهُمْ عَنْهُ))[431] .

22 ـ وضع غطاء على العين ووجود غشاوة على العين :

ـ العمى يقصد به الغفلة بدليل الآية : ((لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ))[432] .

ـ وفي تفسير السمعاني : (({ لقد كنت فِي غَفلَة من هَذَا } يُقَال: إِن هَذَا فِي الْكفَّار؛ لأَنهم فِي الْغَفْلَة من الآخرة على الْحَقِيقَة. وَيُقَال : فِي كل غافل ، وَقَوله : {فكشفنا عَنْك غطاءك} أَي : كشفنا عَنْك مَا غشيك وغطى سَمعك وبصرك وعقلك ، حَتَّى لم تسمع وَلم تبصر وَلم تعقل الْحق، وَهُوَ فِي معنى قَوْله تَعَالَى: {أسمع بهم وَأبْصر}))[433] ، ((الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا))[434] .

ـ وفي تفسير بيان المعاني : (({ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ } سبل الهدى لأنهم يتعامون عن النظر في آيات الله فلا يستطيعون الخروج من الكفر إلى الإيمان))[435] ، وفي تفسير روح المعاني : (({ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ } أي أنهم كانوا يتعامون عن آيات الله تعالى المبسوطة في الأنفس والآفاق))[436] ، ((وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ))[437] ، ((وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً))[438] .

23 ـ الانصراف في سرية كأنه غير موجود :

(429) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر ـ دمشق (25 / 156)
(430) تفسير البيضاوي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (5 / 91)
(431) تفسير القرطبي (18/ 300)
(432) ق: 22
(433) تفسير السمعاني (5/ 241)
(434) الكهف : 101
(435) بيان المعاني مطبعة الترقي ـ دمشق (2 / 25)
(436) روح المعاني ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت (6 / 232)
(437) البقرة : 7
(438) الجاثية : 23

ـ ((وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ))[439] .

24 ـ التسلل في سرية كأنه غير موجود :

ـ ففي تفسير الماتريدي : (({ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا } يتسللون أي يذهبون مستخفين ، يقال: انسل الرجل، أي: انسرق من الناس، أي فارقهم، وهم لا يعلمون به، .. وقَالَ الْقُتَبِيُّ : قوله : { يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا } أي: من يستتر بصاحبه، ويتسلل، ويخرج))[440] ، وفي تفسير البغوي : ((قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : { لِوَاذًا } أَيْ يَلُوذُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانَ يَثْقُلُ عَلَيْهِمُ الْمَقَامُ فِي الْمَسْجِدِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاسْتِمَاعُ خُطْبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانُوا يَلُوذُونَ بِبَعْضِ أَصْحَابِهِ فَيَخْرُجُونَ مِنَ الْمَسْجِدِ فِي اسْتِتَارٍ))[441] .

25 ـ الغمرة : استخفى في مكان يغطيه من كل جانب فلا يراه أحد :

ـ الغمرة هي الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطيها ، كما يغمر الماء الغريق فيحيط به من كل جوانبه ، ففي تفسير فتح البيان : (({ الذين هم في غمرة } أي في غفلة وعمى وجهالة عن أمور الآخرة وأصل الغمرة ما ستر الشيء وغطاه ومنها غمرات الموت))[442] .

ـ ((بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا))[443] أي من القرآن ، ((فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ))[444] .

26 ـ التولي :

ـ التولي معناه أنه ترك المتحدث وتولى عنه كما في قوله تعالى : ((وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا))[445] ، ((وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ))[446] ، ((فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا))[447] .

27 ـ النكوص (الرجوع إلى الوراء) :

ـ ابتعد عن المتحدث ونفر منه بالرجوع إلى الوراء ، ففي التفسير المنير : (({ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ } أي إنه متى تليت عليكم آيات القرآن نفرتم منها وأعرضتم عن سماعها وعمن يتلوها ، كما يذهب الناكص (الراجع) على عقبيه

(439) التوبة : 127
(440) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (7/ 603)
(441) تفسير البغوي - إحياء التراث (3/ 433)
(442) فتح البيان في مقاصد القرآن (13/ 193)
(443) المؤمنون : 63
(444) المؤمنون: 54
(445) لقمان : 7
(446) الأنفال : 23
(447) النجم : 29

بالرجوع إلى ورائه ، والمراد : أنهم يعرضون عن الحق ، فإذا دعوا أبوا ، وإن طلبوا امتنعوا))[448] .

28- النفور (الابتعاد) : الابتعاد عن التذكير لأنه لا يريد أن يتذكر ويتدبر :

- ففي تفسير القرطبي : (({ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا } (وَما يَزِيدُهُمْ) أَيِ التَّصْرِيفُ وَالتَّذْكِيرُ ، (إِلَّا نُفُوراً) أَيْ تَبَاعُدًا عَنِ الْحَقّ وَغَفْلَةً عَنِ النَّظَرِ وَالِاعْتِبَارِ))[449] ، وفي تفسير السمرقندي : (({ وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ } يعني: وحدانيته، قول لا إله إلا الله ، { وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً} أي أعرضوا تباعداً عن الإيمان ، وقال القتبي: ولوا على أعقابهم هرباً))[450] .

- وفي تفسير فتح القدير : (({ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ } بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ أَيْ: لَمْ يَتَأَثَّرُوا لِذَلِكَ، بَلْ تَمَادَوْا فِي عناد واستكبار عن الحقّ ونفور عنه، ولم يَعْتَبِرُوا، وَلَا تَفَكَّرُوا))[451] .

- وفي تفسير الهداية إلى بلوغ النهاية : (({وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القرءان وَحْدَهُ } أي إذا قلت لا إله إلا الله في القرءان {وَلَّوْاْ على أدبارهم نُفُوراً} أي: انفضوا عنك وذهبوا نفوراً من قولك واستعظاماً من توحيد الله جل ذكره))[452] .

29 - الابتعاد :

- ففي تفسير البغوي : (({ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ } عَنْ ذِكْرِنَا وَدُعَائِنَا { وَنَأَى بِجَانِبِهِ } أَيْ تَبَاعَدَ عَنَّا بِنَفْسِهِ أَيْ تَرَكَ التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ بِالدُّعَاءِ))[453] ، وفي تفسير الرازيُ : (({ أَعْرَضَ } أَيْ وَلَّى ظَهْرَهُ أَيْ عَرْضَهُ إِلَى نَاحِيَةٍ { وَنَأَى بِجَانِبِهِ } أَيْ تَبَاعَدَ ، وَمَعْنَى النَّأْيِ فِي اللُّغَةِ الْبُعْدُ وَالإعراض عَنِ الشَّيْءِ أَنْ يُوَلِّيَهُ عَرْضَ وَجْهِهِ وَالنَّأْيُ بِالْجَانِبِ أَنْ يَلْوِيَ عَنْهُ عِطْفَهُ وَيُوَلِّيَهُ ظَهْرَهُ ، وَأَرَادَ الِاسْتِكْبَارَ لِأَنَّ ذَلِكَ عَادَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ))[454] .

30 - الاشمئزاز : لا يطيق سماع الأمر فينفر منه متغافلا عنه ومتجاهلا له :

- ((وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخرة وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ))[455] .

- فاذا كان الكلام عن الله اشمئزوا واذا كان الكلام عن غيره من أمور الدنيا كالكلام عن المال والنساء يَسْتَبْشِرُونَ .

(448) التفسير المنير للزحيلي - دار الفكر المعاصر - دمشق (18 / 73)
(449) تفسير القرطبي (10/ 265)
(450) تفسير السمرقندي = بحر العلوم (2/ 314)
(451) فتح القدير للشوكاني (5/ 314)
(452) الهداية إلى بلوغ النهاية (6/ 4216)
(453) تفسير البغوي - طيبة (5/ 123)
(454) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (21/ 390)
(455) الزمر : 45

31 - الفرار :

- التشبيه بالحمار الوحشي حين يفر من الأسد : ففي صفوة التفاسير : (({ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كأنهم حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ }[456] { كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ } أي كأن هؤلاء الكفار حمر وحشية نافرة وشاردة { فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ } أي هربت ونفرت من الأسد من شدة الفزع ... وقال ابن عباس : الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت، كذلك هؤلاء المشركون إذا رأوا محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هربوا منه كما يهرب الحمار من الأسد))[457] .

- وهم يفرون من الموت رغم أنهم موقنون به لأن الموت يعني ضعفهم وقوة من يقدر عليهم فيميتهم ، فالموت يأمرهم بالخضوع لذلك يفرون منه : ((قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فإنه مُلَاقِيكُمْ))[458] ، فكذلك يفرون من الله والآخرة وكل ما يأمرهم بالخضوع .

32 - يهرب ويحيد :

- ففي تفسير السمعاني : (({ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ } أَي : تَفِر وتهرب ، وَيسْتَحب لِلْمُؤمنِ حب الْمَوْت؛ لِأَنَّهُ بِهِ يستخلص من الأوزار، ويصل إِلَى محبوبه إِن قدر لَهُ خير ، وَعَن بعض السّلف : لَا يكره الْمَوْت إِلَّا مريب. وَإِنَّمَا كره تمني الْمَوْت بضر نزل بِهِ على مَا فِي الْخَبَر ، فَأَما إِذا تمنى الْمَوْت ليستخلص من الدُّنْيَا وفتنها وشوقا إِلَى لِقَاء ربه فَهُوَ مَحْبُوب))[459] .

- لا يستطيع الإنسان أن يهرب من الله بحيث لا تصل إليه قدرة الله تعالى ، ولا يستطيع أن يهرب من الآخرة فلا يكون ممن يحشر فيها ، ولا يستطيع أن يخرج من ملك الله ولا من قدرته وسلطانه عليه ، فالآخرة قادمة وقدرة الله واقعة على الإنسان : ففي التفسير الوسيط للواحدي : ((وأنا ظننا علمنا وأيقنا ، {أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ} [الجن: 12] لن نفوته إذا أراد بنا أمرًا، {وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا} أي: أنه يدركنا حيث كنا))[460] ، وفي تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين : (({فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْض} فَلَيْسَ بِالَّذِي يسْبق اللَّه حَتَّى لَا يبْعَث.))[461] .

- وفي تفسير الهداية الى بلوغ النهاية : (({فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأرض} أي: ليس بمعجز ربه بهربه في الأرض إن أراد عقوبته؛ لأنه حيث كان في قبضة ربه وسلطانه))[462] .

(456) المدثر : 49-51
(457) صفوة التفاسير - دار الصابوني - القاهرة (3/ 456)
(458) الجمعة : 8
(459) تفسير السمعاني (5/ 241)
(460) التفسير الوسيط للواحدي (4/ 366)
(461) القرآن العزيز لابن أبي زمنين (4/ 231)
(462) الهداية الى بلوغ النهاية (11/ 6869)

33 ـ الانسلاخ (خرج من العلم) : تشبيه للدلالة على التغافل عن العلم كأنه لم يسمع عنه أصلا :

ـ الإنسان يترك العلم إما بالإتيان بالأدلة التي تثبت بطلانه أو بتناسيه وتجاهله والتغافل عنه ، فهو لم يرفض العلم لأنه لم يقتنع به ولكنه هرب منه وتغافل عنه كأن الله لم يؤتيه علما فانشغل بالدنيا وشهواتها متلهيا عن هذا العلم ، فلا تنفع معه موعظة سواء وعظته أم لا لأنه يتعامل مع الموعظة كأنه لم يسمعها : ((وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ))[463] .

34 ـ الهجر : تشبيه للدلالة على التغافل كأنه ابتعد عن الأمر تماما ولم يرجع اليه :

ـ ففي تفسير الهداية إلى بلوغ النهاية : (({ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا } وقال ابن زيد : مهجوراً : أي لا يريدون أن يسمعوه ، أي هجروه وأعرضوا عنه فلا يسمعونه))[464] ، وفي أيسر التفاسير للجزائري : (({ مهجوراً } أي شيئاً متروكاً لا يلفت إليه))[465] .

35 ـ التفلت : تشبيه للدلالة على التغافل والتجاهل :

ـ والتفلت كما في الحديث : ((مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الفراش والجنادب يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي))[466] .

36 ـ انفضوا (تفرقوا عن المتحدث وتركوه) :

ـ ففي تفسير الرازي : (({ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } [الجمعة: 11] وَقَوْلُهُ: { انْفَضُّوا إِلَيْها } أَيْ تَفَرَّقُوا))[467] .

37 ـ الزيغ (الميل عن الحق) :

ـ فهو قد ترك المتحدث يتحدث وانصرف عنه : ففي معاني القرآن وإعرابه للزجاج (5/ 164) فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) ، أي عدَلُوا عنِ الحق وانصرفوا عنه فأضلَّهم الله وَصرَفَ قُلوبَهُمْ

38 ـ الإدبار :

(463) الأعراف: 175، 176
(464) الهداية الى بلوغ النهاية (8/ 5213)
(465) أيسر التفاسير للجزائري (3/ 612)
(466) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5859 في صحيح الجامع)
(467) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (30/ 544)

ـ أي يترك المتحدث يتحدث ويعطيه ظهره (أي يدبر عنه) ويتركه مبتعدا عنه ، والآيات في ذلك كثيرة منها : ((ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ))[468] ، ((تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى))[469] ، ((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ))[470] .

39 ـ اتخاذ الأمر ظهريا :

ـ ففي تفسير فتح القدير للشوكاني : (({ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا } وَالضَّمِيرُ فِي { وَاتَّخَذْتُمُوهُ } رَاجِعٌ إلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَالْمَعْنَى: وَاتَّخَذْتُمْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِسَبَبِ عَدَمِ اعْتِدَادِكُمْ بِنَبِيِّهِ الَّذِي أَرْسَلَهُ إلَيْكُمْ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا أَيْ: مَنْبُوذًا وَرَاءَ الظَّهْرِ لَا تُبَالُونَ بِهِ))[471] ، وفي تفسير أبي السعود : (({وَرَاءكُمْ ظِهْرِيّاً} أي شيئاً منبوذاً وراء الظهر منسياً لا يبالى به))[472] ، وفي تفسير السمرقندي : ((وقال الزجاج: معناه، اتخذتم أمر الله وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا أي: نبذتموه وراء ظهوركم- والعرب تقول لكل من لا يعبأ بأمره: قد جعل فلان هذا الأمر بظهره ، وقال الأخفش: وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا يقول: لم تلتفتوا إليه))[473] .

ـ وفي تفسير الطبري : (({ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا } أي وكان الكافر على ربه هينا، من قول العرب: ظهرت به، فلم ألتفت إليه، إذا جعله خلف ظهره فلم يلتفت إليه))[474] .

40 ـ جعلوه كالمنبوذ وراء ظهورهم :

ـ ففي تفسير المراغي : (((فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ) أي لم يبالوا به ولم يهتموا بشأنه، وقد كان من الواجب عليهم أن يجعلوه نصب أعينهم لا شيئا مهملا ملقى وراء الظهور لا ينظر إليه، ولا يفكّر في أمره ، فقد كان منهم الذين لا يستفيدون منه شيئا- ويحملونه كما يحمل الحمار الأسفار))[475] .

ـ وفي تفسير فتح القدير : ((وَقَوْلُهُ : وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ أَيْ: خَلْفَ ظُهُورِهِمْ، وَهُوَ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَنْ يَسْتَخِفُّ بِالشَّيْءِ فَلَا يَعْمَلُ بِهِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: اجْعَلْ هَذَا خَلْفَ ظَهْرِكَ، وَدُبُرَ أُذُنِكَ، وَتَحْتَ قَدَمِكَ أَيِ: اتْرُكْهُ وَأَعْرِضْ عَنْهُ))[476] .

41 ـ يذر الأمر (يتركه) : تشبيه للدلالة على إهمال الأمر والتغافل عنه وتجاهله :

ـ ((كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الآخرة))[477] ، ((إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا))[478] .

(468) المدثر : 23
(469) المعارج : 17
(470) النمل : 80
(471) فتح القدير للشوكاني (2/ 590)
(472) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (4/ 236)
(473) تفسير السمرقندي = بحر العلوم (2/ 168)
(474) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (19/ 286)
(475) تفسير المراغي (4/ 157)
(476) فتح القدير للشوكاني (1/ 139)
(477) القيامة : 20، 21
(478) الإنسان : 27

42 ـ الإعراض :

ـ الأعراض معناه أنه ترك المتحدث وأعرض عنه ، ففي أيسر التفاسير : (({ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ } وما يأتي هؤلاء المُشركينَ ، الذين يُكَذِّبُونَكَ ، شيءٌ من عندِ اللهِ يُذَكِّرهُم بالدّينِ الحَقّ ، إلا أعْرَضُوا عنِ اسْتِمَاعِهِ وتَرَكُوا إعْمَالَ الفِكْرِ فيهِ ، ولَمْ يُوَجِّهُوا هَمَّهُمْ إلى تَدَبُّرِهِ))[479] ، وفي تفسير ابن كثير : ((يَقُولُ تَعَالَى : وَأَيُّ عِبَادِ اللَّهِ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا، أَيْ تَنَاسَاهَا وَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلَمْ يَصْغَ لَهَا وَلَا أَلْقَى إِلَيْهَا بَالًا))[480] .

ـ والإعراض ورد في آيات كثيرة منها : ((فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ))[481] ، ((قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ))[482] ، ((وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ))[483] .

43ـ الصدف (الإعراض) :

ـ ففي تفسير الماتريدي : (({ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا }[484] أي أعرض عنها))[485] .

44 ـ الصد (الإعراض) :

ـ ((فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا))[486] ، ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا))[487] .

45 ـ وضع حاجز بين المتحدث والسامع حتى لا يصل الكلام (إشارة إلى التغافل عن كلام المتحدث) :

ـ ففي أيسر التفاسير : (({ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ } أي مانع وفاصل بيننا فلا نسمع ما تقول ولا نرى ما تفعل))[488] .وفي أيسر التفاسير أيضا : (({ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخرة حِجَابًا مَسْتُورًا } أي ساتراً لهم فلا يسمعون كلام الله تعالى))[489] .

46 ـ الحاجز والسد والحائل :

(479) أيسر التفاسير لأسعد حومد (1 / 2819)
(480) تفسير ابن كثير ط العلمية (5/ 155)
(481) فصلت : 4
(482) ص : 67، 68
(483) يوسف : 105
(484) الأنعام : 157
(485) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (4/ 325)
(486) النساء: 55
(487) النساء: 61
(488) أيسر التفاسير للجزائري ـ مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة (4/ 560)
(489) أيسر التفاسير للجزائري ـ مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة (3/ 199)

ـ أحاط نفسه بسد محيط بكل جهة ، ففي تفسير نظم الدرر : (({ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ } ... أي فصارت كل جهة يلتفت إليها منسدة، فصاروا لذلك لا يمكنهم النظر إلى الحق ولا الخلوص إليه، فلذلك قال : { فأغشيناهم } أي جعلنا على أبصارهم بما لنا من العظمة غشاوة))[490] .

47 ـ المشاقة :

ـ أي جعل بينه وبين المتحدث فاصل فأحدهما في جانب والآخر في جانب آخر فأحدهما يتكلم في وادي والآخر في وادي آخر ، ففي التفسير المنير : (({ شاقوا الله ورسوله } أي عادوهما وخالفوهما، فساروا في شق أو جانب وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق آخر))[491] .

48 ـ عدم المبالاة وعدم الاهتمام بالمتحدث :

ـ ففي أضواء البيان : (({ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ } فَقَوْلُهُ تَعَالَى عَنْهُمْ : { مَاذَا قَالَ آنِفًا } يَدُلُّ عَلَى أنهم مَا كَانُوا يُبَالُونَ بِمَا يَتْلُو عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ مِنَ الْآيَاتِ وَالْهُدَى))[492] ، وفي تفسير الخازن : ((قوله تعالى : { وَمِنْهُمْ } يعني ومن هؤلاء الكفار { مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ } وهم المنافقون يستمعون قولك فلا يعونه ولا يفهمونه تهاونا به وتغافلا عنه))[493] ، وفي تفسير الشعراوي : ((وقولهم : { مَاذَا قَالَ آنِفاً . . } دليل على عدم اهتمامهم بالقرآن ، وأنه شيء لا يُؤْبَهُ له))[494] .

ـ وفي تفسير البيضاوي : (({ وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ } أي يخرجون من عندك كما دخلوا لم يؤثر فيهم ما سمعوا منك))[495] .

ـ فهم يستمعون إلى الأمر وهم لاهون يفكرون في أمور دنياهم متشاغلين عن الأمر : ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ))[496] .

49 ـ التناسي :

ـ ففي تفسير الشيخ المراغي : (({ فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ } أي إنهم لما تركوا ما ذكّرهم به الصالحون وأعرضوا عنه حتى صار كالمنسيّ في كونه لا تأثير له))[497] ، وفي تفسير ابن كثير : (({ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا به } أي: أعرضوا عنه **وتناسوه** وجعلوه وراء ظهورهم

(490) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (16/ 98)
(491) التفسير المنير للزحيلي (9/ 270)
(492) أضواء البيان ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت (7 / 189)
(493) تفسير الخازن ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت (4 / 144)
(494) تفسير الشعراوي ـ مطابع أخبار اليوم (14 / 8711)
(495) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (2/ 134)
(496) الأنبياء : 1 - 3
(497) تفسير الشيخ المراغي ـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر (9 / 96)

))[498] ، وفي تفسير أبي السعود : (({ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ } أي تركوا ما ذكرهم به صلحاؤُهم تركَ الناسي للشيء وأعرضوا عنه إعراضاً كلياً بحيث لم يخطُر ببالهم شيءٌ من تلك المواعظ أصلاً))[499] .

ـ وفي أيسر التفاسير للجزائري : (({ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا }[500] أي تركتها ولم تلتفت إليها معرضا عنها))[501] ، وفي تفسير أبي السعود : (({ فَنَسِيتَهَا } أي عَمِيتَ عنها وتركتها ترْكَ المنسيِّ الذي لا يُذكر أصلاً))[502] .

ـ ((وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ))[503] ، ((يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ))[504] ، ((فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ))[505] .

ـ ومن التناسي أنه يعلم أنه يعيش في غفلة ناسيا الله تعالى ورغم ذلك لا يبالي بذلك ولا يهتم ، ففي التفسير المنير : (({ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ، فَأَعْرَضَ عَنْها ، وَنَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ } أي لا أحد أظلم ممن أعرض عن آيات الله ، ونسي ما قدم من الكفر والمعصية ، أو لا ظلم أعظم من كفر من يشاهد الآيات والبينات الدالة على الحق والإيمان، ثم يعرض عنها، ومع إعراضه عن التأمل في الدلائل والبينات يتناسى ما قدمت يده من الأعمال المنكرة والمذاهب الباطلة ، وعلى رأسها الكفر بالله ، **والمراد من النسيان التشاغل والتغافل عن كفره المتقدم**))[506] أي أنه يتشاغل عن كفره ويتناساه ويحسب أنه من المهتدين .

ـ لذلك جاءت الرسل إلى الناس يتعجبون من عدم خوف الناس من الله رغم علمهم أن الله حتما سيعاقبهم على تغافلهم عن الله وشركهم : ((وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا))[507] .

50 ـ يغلق عقله بأن يضع على عقله غطاء (أكنة) : تشبيه للدلالة على أنه لا يعرض الأمر على عقله ، فلا يفكر في الأمر ولا يتصور قيمته ، أي يتغابى :

ـ ففي تفسير ابن كثير : (({ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ } أَيْ : قُلُوبِ هَؤُلَاءِ {أَكِنَّةً} أَيْ: أَغْطِيَةً وَغِشَاوَةً، {أَنْ يَفْقَهُوهُ} أَيْ: لِئَلَّا يَفْهَمُوا))[508] ، وفي تفسير زاد المسير : (({ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ } أي : في أغطية فلا نفقه قولك))[509] .

(498) تفسير ابن كثير / دار طيبة (3 / 256)
(499) تفسير أبي السعود دار إحياء التراث العربي - بيروت (3 / 59)
(500) طه : 126
(501) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (3 / 388)
(502) تفسير أبي السعود دار إحياء التراث العربي - بيروت (4 / 392)
(503) الفرقان : 18
(504) الأعراف : 53
(505) المؤمنون : 110
(506) التفسير المنير للزحيلي - دار الفكر المعاصر - دمشق (15 / 282)
(507) الأنعام : 81
(508) تفسير ابن كثير ت سلامة (5/ 173)
(509) زاد المسير في علم التفسير (4/ 45)

51 ـ قسوة القلب (عقله كالحجارة) :

ـ أي عدم التفكير (سبق أن أوضحنا أن وظيفة التفكير تتم في القلب وليس في المخ وهي من أهم وظائف القلب) ، يقال للإنسان الذي لا يفكر ولا يستخدم عقله بأن عقله كالحجارة غير قابل للتفكير والتدبر في الأمر فمهما ذكرته ووعظته لن يفكر ويعي ما تقول :

ـ ففي تفسير فتح البيان : (({ وجعلنا قلوبهم قاسية } أي صلبة لا تعي خيراً ولا تعقله وغليظة يابسة لا تلين ولا رحمة فيها لأن القسوة خلاف الرقة))[510] ، وفي تفسير البحر المديد : (({ وَجَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً } أي : يابسة صلبة لا ينفع فيها الوعظ والتذكير))[511] ، وفي تفسير الماتريدي : (({ لا تكونوا كالذين كانوا من قبلكم } من أهل الكتاب ، { فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ } أي : طال عليهم أن ينظروا في كتبهم ؛ { فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ } بطول ترك نظرهم فيها))[512] .

ـ ((ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً))[513] .

52 ـ الصرف :

ـ ففي تفسير السراج المنير : (({ سأصرف عن آياتي } المنصوبات في الآفاق والأنفس كخلق السموات والأرض وما بينهما { الذين يتكبرون في الأرض } أي : أصرفها عنهم بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها))[514] ، وفي تفسير البحر المحيط : (({ سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } ... قَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ سَأَصْرِفُهُمْ عَنِ الِاعْتِبَارِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِالدَّلَائِلِ وَالْآيَاتِ عَلَى هَذِهِ الْمُعْجِزَاتِ وَبَدَائِعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، .. وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ سَأَمْنَعُهُمْ مِنْ تَدَبُّرِهَا وَنَظَرِهَا النَّظَرِ الصَّحِيحِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْحَقِّ))[515] .

53 ـ الختم والطبع على القلب :

ـ أي العقل مغلق لا يعمل فلا يفكر في الأمر كأنما تم تشميعه بالشمع الأحمر (سبق أن أوضحنا من قبل الأدلة على أن كلمة " القلب " كثيرا ما تُذكر ويقصد بها العقل) ، ففي تفسير العثيمين : ((قوله تعالى : { ختم الله على قلوبهم } و"الختم": الطبع ؛ و"الطبع" هو أن الإنسان إذا أغلق شيئاً ختم عليه من أجل ألا يخرج منه شيء ، ولا يدخل إليه شيء ؛ وهكذا فهؤلاء ـ والعياذ بالله ـ قلوبهم مختوم عليها لا يصدر منها خير ، ولا يصل إليها خير..))[516]

ـ جاء في تفسير القرطبي : (({ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ } فالختم على القلوب عدم الوعي عن الحق سبحانه مفهوم مخاطباته والكفر في آياته ،

(510) فتح البيان في مقاصد القرآن (3/ 375)
(511) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (2/ 18)
(512) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (9/ 524)
(513) البقرة : 74
(514) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (1/ 516)
(515) البحر المحيط في التفسير (5/ 173)
(516) تفسير العثيمين : الفاتحة والبقرة (1/ 37)

وعلى السمع عدم فهمهم للقرآن إذا تلي عليهم أو دعوا إلى وحدانيته ، وعلى الأبصار عدم هدايتها للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته هذا معنى قول أبن عباس وابن مسعود وقتادة وغيرهم))[517]

ـ وفي تفسير الكشف والبيان : (({ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ } فذهب بها { وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ } وطبع عليها يعني لا يفقهوا قولا ولا يبصروا حجة))[518] ، وفي التفسير المظهرى : ((خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ ـ فلا تعي خيرا ـ والقلب هو المضغة وقد يطلق على المعرفة والعقل قال الله تعالى : { إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ }))[519] .

ـ وفي تفسير القرطبي : ((أولئك الذين طبع الله على قلوبهم أي عن فهم المواعظ وسمعهم عن كلام الله تعالى وأبصارهم عن النظر في الآيات وأولئك هم الغافلون عما يراد بهم لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون))[520]

ـ الطبع على القلب (الاعراض عن التفكير) يؤدي إلى غياب الوعي وبالتالي عدم السماع وعدم الفقه وعدم العلم ، والآيات تبين ذلك كالتالي : ((وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ))[521] ، ((وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ))[522] ، ((كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ))[523] .

54 ـ الموت : يقصد به موت أدوات المعرفة والتذكير فلا يسمع ولا يرى ولا يعقل ، فلا يمكن أن تحدث إنسانا ميتا ، لأنه لا يسمع ولا يرى ولا يتأثر بكلامك ولا يتحرك ، ففي أيسر التفاسير : (({ وما أنت بمسمع من في القبور} أي فكذلك لا تسمع الكفار فإنهم كالأموات))[524] ، وفي تفسير القرطبي : (({ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتى } أَيْ وَضَحَتِ الْحُجَجُ يَا مُحَمَّدُ، لَكِنَّهُمْ لِإِلْفِهِمْ تَقْلِيدَ الْأَسْلَافِ فِي الْكُفْرِ مَاتَتْ عُقُولُهُمْ وَعَمِيَتْ بَصَائِرُهُمْ، فَلَا يَتَهَيَّأُ لَكَ إِسْمَاعُهُمْ وَهِدَايَتُهُمْ))[525] ، وفي تفسير الزمخشري : (({ مَنْ كانَ حَيًّا } أي عاقلا متأملا، لأن الغافل كالميت))[526] ، وكما يقول الشاعر : لقد أسمعت إذ ناديت حيا ، ولكن لا حياة لمَنْ تنادي ، فمهما أنذرته فلن يستجيب إلا إذا كان حيا .

(517) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة (ج : 1 ، ص : 136)
(518) تفسير الثعلبي [الكشف والبيان عن تفسير القرآن] دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان عن تفسير القرآن (4 / 148)
(519) التفسير المظهرى ـ مكتبة الرشدية ـ الباكستان (1 / 23)
(520) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة (ج : 10 ، ص : 192)
(521) الأعراف : 100
(522) التوبة : 87
(523) الروم : 59
(524) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (4/ 349)
(525) تفسير القرطبي (14/ 46)
(526) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (4/ 27)

ـ ولذلك يقول تعالى : ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ **وَالْمَوْتَى** يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إليه يُرْجَعُونَ))[527] ، ((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ **الْمَوْتَى** وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ))[528] ، ((لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ **حَيًّا** وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ))[529] ، ((أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ))[530] .

ـ وفي التفسير المنير : ((الاستجابة لدعوة النّبي صلّى الله عليه وسلّم تتطلب سماع آيات القرآن سماع إصغاء وتفهم وإرادة الحق، وهذا منهج المؤمنين الذين يقبلون ما يسمعون، فينتفعون به ويعملون ، أما الإعراض عن الدعوة فمنشؤه تعطيل طاقات الحواس، فهم لا يسمعون سماع تدبر، ولا يتفهمون الآيات في إمعان وروية ، فصاروا كأنهم موتى لموت قلوبهم ، لا موتى أجساد))[531] .

55 ـ انقلاب العقل والبصر :

ـ بدلا من أن يستخدم عقله وتفكيره وبصره في الأمر الهام والخطير وهو معرفة الله ومعرفة الآيات الكونية لا يفكر إلا في المال والدنيا ، فهو يقلب وظيفة عقله وبصره ، حتى لو حدت المعجزات أمام عينه فكأنه لم يعرفها ولم براها :

ـ ففي تفسير القرآن العزيز : (({ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم } أَيْ : نَطْبَعُ عَلَيْهَا ، وفي التفسير المنير : (({ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ } نحول قلوبهم عن الحق فلا يفهمونه وَأَبْصارَهُمْ عنه فلا يبصرونه))[532] .

56 ـ الحيلولة بين المرء وقلبه :

ـ أي يمنع عقله من التفكير في معرفة الله والآخرة فيكون كأنما يعيش بلا عقل .

ـ ففي تفسير البحر المحيط : (({ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ } ... وقال مجاهد : يحول بين المرء وعقله فلا يدري ما يعمل عقوبة على عناده ففي التنزيل { إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب } أي عقل))[533] .

57 ـ التشبيه بالكلب :

ـ التشبيه بالكلب في أنه أغلق عقله فلا يقبل الوعظ ، فإذا وعظته أو لم تعظه فكلاهما سواء :

ـ ففي تفسير الهداية : (({ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب } أي مثله إذ لم ينتفع بما أُوتي مثل الكلب الذي لا ينتفع بترك الحمل عليه ، هو يلهث على كل حال ، فكذلك هذا ، هو ضال على كل حال ، لا ينتفع بما أوتي من الآيات ، كما لم ينتفع الكلب بترك الحمل عليه ، وقيل : إن هذا مثل من

(527) الأنعام : 36
(528) النمل : 80
(529) يس : 70
(530) الأنعام : 122
(531) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر ـ دمشق (7 / 192)
(532) تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (2/ 91)
(533) البحر المحيط ـ دار الفكر ـ بيروت (ج : 6 ، ص : 68)

يتلو كتاب الله عز وجل ، ولا يعمل به ، هو مثل الكلب لا ينتفع بترك الحمل عليه ، ولا يترك اللهث ، كذلك هذا لا ينتفع بقراءة كتاب الله عز و جل فيعمل ، هو مِثلَ من لا يقرأه ولا يعمل به ، ومعنى {تَحْمِلْ عَلَيْهِ} تطرده وتشرده ، فهو يلهث طردته ، وكان الحسن يقول : هو المنافق))[534] ، وفي تفسير السراج المنير : (({ كمثل الكلب } أي : كمثله في أخس أوصافه وهو { إن تحمل عليه } أي : بالطرد والزجر { يلهث } أي : يدلع لسانه {أو} إن {تتركه يلهث} فهو يلهث دائماً سواء حمل عليه بالزجر والطرد أو ترك ، وليس غيره من الحيوان كذلك ، قيل : كل شيء يلهث إنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب ، فإنه يلهث في حال الكلال والراحة ؛ لأنّ اللهث طبيعة أصلية فيه ، فكذلك حال من كذب بآيات الله إن وعظته فهو ضال ، وإن تركته فهو ضال ، وكذلك حال الحريص على الدنيا إن وعظته فهو حريص لا يقبل الوعظ ولا ينجع فيه ، وإن تركته ولم تعظه فهو حريص أيضاً ؛ لأنّ الحرص على طلب الدنيا صار طبيعة له لازمة كما أن اللهث طبيعة لازمة للكلب))[535] .

ـ وفي تفسير المنتخب : (({ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إلا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا } .. وهل تظن أن أكثرهم يسمعون سماع الفهم أو يهتدون بعقولهم؟! لقد نفذوا ما تأمرهم به أحلامهم ، وصاروا كالبهائم لا همّ لهم إلا الأكل والشرب ومتاع الحياة الدنيا ، ولا تفكير لهم فيما وراء ذلك ، بل هم شر مكاناً من البهائم ، فالبهائم تنقاد لأصحابها إلى ما فيه خيرها ، وتنأى عما يضرها ، وهؤلاء يلقون بأنفسهم فيما يهلكهم))[536] .

58 ـ الران على القلب : العقل محاط بصدأ فلا يعمل :

ـ ففي تفسير عمدة الحفاظ : (({ بل ران على قلوبهم } [المطففين : 14] {أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم} [المائدة: 41]. وكأن المعنى أن الله جعل عليها صدأ كصدإ الحديد ووسخًا كوسخ الثوب منع بصيرتها من إبصار الهدى))[537] .

59 ـ ضيق الصدر : يجد صعوبة في أن يتفكر في الأمر ويعقله فلا يستطيع التفكير فيه مثلما يجد الإنسان صعوبة في التنفس إذا كان صدره ضيقا :

ـ ففي تفسير القاسمي : (({ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً } أي : شديد الضيق، فلا يتسع للاعتقادات الصائبة في الله ، والأمور الأخروية))[538] .

60ـ التقليد (إشارة إلى عدم التفكير في الأمر) :

ـ {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ }))[539] ، ((وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ

(534) الهداية إلى بلوغ النهاية ـ الناشر : مجموعة بحوث الكتاب والسنة ـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة الشارقة (4 / 2643)
(535) السراج المنير ـ مطبعة بولاق (الأميرية) ـ القاهرة (1 / 537)
(536) المنتخب ـ الناشر : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ مصر، طبع مؤسسة الأهرام (1 / 537)
(537) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (2/ 395)
(538) تفسير القاسمي = محاسن التأويل (4/ 487)
(539) البقرة : 170

مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ}))[540] ، ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا }))[541] .

61 ـ الكفر :

ـ فالكفر معناه أنه وضع ساترا أو غطاءا بينه وبين المتحدث ، أي وضع ساترا أو غطاءا بينه وبين الله أو بينه وبين الحق أو بينه وبين الدين ، ففي شرح سنن أبي داود للعباد : ((وأصل الكفر: الستر، ويقال: سمي الكافر كافراً لستره نعمة الله عليه، أو لستره على نفسه شواهد ربوبية الله ودلائل توحيده))[542] .

62 ـ الاحتقار :

ـ تصور الأمر على أنه تافه لا قيمة له (تجاهل الأمر) :

ـ هذا الاحتقار قد يكون تصورا في الذهن أي ينظر إلى الأمر نظرة احتقار إهمالا له ، وقد يكون بالكلام والفعل ، واذا كان الإنسان في مجتمع يلومه ويزجره إذا احتقر بكلامه وفعله فإنه يمتنع مع بقاء الاحتقار الذي في ذهنه ونظرته للأمور :

((ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ))[543] .

63 ـ التعامل مع الأمر بغير جدية كأنه لعب ولهو (عدم الاهتمام بالأمر والتفكير فيه) :

ـ الدنيا لعب ولهو والدين أمر جاد وخطير ، ولكن بعض الناس يفعلون عكس ذلك فيتعاملون مع الدنيا كأنها أمر جاد وخطير ويتعاملون مع الدين بغير جدية كأنه لعب ولهو ، فالآيات تبين أن الدنيا لعب ولهو : ((وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ))[544] ، ولكنهم تعاملوا مع الدين بغير جدية كأنه لعب ولهو : ((وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا))[545] ، ((الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا))[546] .

ـ ففي تفسير القرطبي : (({ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ } [الأنبياء : 1، 2]{ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ } يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ، أو القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم أو من أمته ، { وَهُمْ يَلْعَبُونَ } الواو واو الحال يدل عليه { لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ } ومعنى { يَلْعَبُونَ } أي يلهون. وقيل يشتغلون ؛ فإن حمل تأويله على اللهو احتمل ما يلهون به وجهين : أحدهما : بلذاتهم ،

(540) الزخرف : 23
(541) لقمان : 21
(542) المغرب في ترتيب المعرب ـ دار الكتاب العربي (1 / 411)
(543) الجاثية : 35
(544) الأنعام: 32
(545) الأنعام: 70
(546) الأعراف: 51

الثاني : بسماع ما يتلى عليهم ، وإن حمل تأويله على الشغل احتمل ما يتشاغلون به وجهين : أحدهما : بالدنيا لأنها لعب ؛ كما قال الله تعالى : { إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ } [محمد : 36] ، الثاني : يتشاغلون بالقدح فيه ، والاعتراض عليه))[547] .

ـ وفي تفسير إيجاز البيان : ((الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً : [اتخذوا أمر دينهم] كأمر دنياهم ، والدنيا لهو وباطل))[548] ، وفي تفسير الرازي : ((هؤلاء الكفار بأنهم اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وفيه وجهان : الوجه الأول أن الذي اعتقدوا فيه أنه دينهم تلاعبوا به وما كانوا فيه مجدين ، والوجه الثاني أنهم اتخذوا اللهو واللعب ديناً لأنفسهم))[549] ، وفي تفسير السعدي : (({ لَهْوًا وَلَعِبًا } أي: لهت قلوبهم وأعرضت عنه، ولعبوا واتخذوه سخريا ، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب ، واستعاضوا بذلك عن الدين القيم ، { وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } بزينتها وزخرفها وكثرة دعاتها، فاطمأنوا إليها ورضوا بها وفرحوا، وأعرضوا عن الآخرة ونسوها ، { فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ } أي: نتركهم في العذاب { كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا } فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا ، وليس أمامهم عرض ولا جزاء))[550] ، وفي تفسير السمعاني : ((قوله تعالى : { الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا } معناه : أكلا وشربا ، قاله عبد الله بن الحارث ، وقيل : معناه : الذين كانت همتهم الدنيا ، واشتغالهم بها ؛ فهم الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ، وغرتهم الحياة الدنيا))[551] .

ـ فهو يستمع إلى الأمر وهو يلعب فلا يلقي له بالا : ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ، لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ))[552] .

64 ـ التعامل مع الأمر بغير جدية كأنه هزل (عدم تصور خطورة الأمر) :

ـ يتعامل مع الأمر كأنه هزل : ((إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ))[553] .

ـ كانت المشكلة عند بني إسرائيل أنهم لم يأخذوا الأمر بقوة وجدية ، وعكس القوة التهاون واللعب وعدم أخذ الأمر بجدية وبقوة : ((وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ))[554] ، ((وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ))[555] ، ((يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا))[556] ، ((فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي

(547) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة (11 / 268)
(548) إيجاز البيان عن معاني القرآن ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت (1 / 332)
(549) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (14 / 77)
(550) تفسير السعدي ـ مؤسسة الرسالة (1 / 290)
(551) تفسير السمعاني دار الوطن ـ الرياض (2 / 187)
(552) الأنبياء : 1 ـ 3
(553) الطارق : 13 ، 14
(554) البقرة : 93
(555) الأعراف : 171
(556) مريم : 12

أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ))[557] ، ((وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ))[558] .

65 ـ إغلاق العقل وإن رأى المعجزات أو ذهب للآخرة ثم عاد ! :

ـ هو أغلق عقله تماما فأصبح عقله حجرا ، فلو شاهد الإنسان كل المعجزات بعينه وذهب إلى الآخرة ورأى الجنة والنار بعينه فلن ينفعه طالما أنه يتعامل مع الأمر كمعرفة نظرية فقط ، فلو عاد إلى الدنيا فسوف يتناسى الخطر الذي رآه بعينه : ((وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ))[559] .

ـ وطالما أن الإنسان يمنع نفسه من تصور حقيقة الشيء فلن يتأثر حتى لو رأى الملائكة تصعد وتنصرف في باب مفتوح من السماء ، ففي تفسير البحر المحيط : (({ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ } [الحجر: 14، 15] ... أَيْ : وَلَوْ رَأَوُا الْمَلَائِكَةَ تَصْعَدُ وَتَنْصَرِفُ فِي بَابٍ مَفْتُوحٍ فِي السَّمَاءِ لَمَا آمَنُوا))[560] .

ـ فهو مهما رأى من الآيات فلن تغني عنه شيئا ، وهناك علماء صعدوا الفضاء واكتشفوا فيه الكثير ولم يغني ذلك عنهم شيئا : ((وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا))[561] ، ((وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ))[562] ، ((وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ))[563] .

****

الفصل العشرون

الأدلة على الإعراض عن التذكير بغير الدنيا

ـ قد يخترع الإنسان لنفسه هدف معين (المال مثلا) ويعيش له ويغلق عقله عن التفكير في غير ذلك أو التفكير في حقيقة هذا الهدف ، وهو يعلم علما نظريا أن هدفه لا قيمة له وأنه لابد أن يعيش للآخرة لكن يُصر أن يغلق عقله على هذا الهدف .

ـ كلما شغل الإنسان همه بالدنيا كلما ابتعد عن معرفة الله والآخرة فيؤدي ذلك إلى الغفلة .

(557) الزخرف : 43
(558) الأعراف : 170
(559) الأنعام : 28
(560) البحر المحيط في التفسير ـ دار الفكر ـ بيروت (6/ 470)
(561) الأنعام : 25
(562) الطور : 44
(563) الأعراف : 132

ـ استغراق الإنسان في أعمال الدنيا وأمورها يؤدي إلى سرقة عمر الإنسان فيموت ولم يجد وقتا يشغل فيه همه بمعرفة الله والآخرة .

ـ ففي تفسير القرطبي : (({ لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ } أَيْ سَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ، مُعْرِضَةً عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، مُتَشَاغِلَةً عَنِ التَّأَمُّلِ وَالْتَفَهُّمِ ، مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ: لَهَيْتُ عَنْ ذِكْرِ الشَّيْءِ إِذَا تَرَكْتُهُ وَسَلَوْتُ عَنْهُ))[564] .

ـ ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ))[565] .

ـ وفي تفسير البيضاوي : (({ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ } بأنواع النعم فاستغرقوا في الشهوات { حتى نَسُواْ الذكر } حتى غفلوا عن ذكرك أو التذكر لآلائك والتدبر في آياتك))[566] .

ـ وفي تفسير فتح القدير : (({ ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر } .. والمعنى : ما أضللناهم ولكنك يا رب متعتهم ومتعت آباءهم بالنعم ووسعت عليهم الرزق وأطلت لهم العمر حتى غفلوا عن ذكرك ونسوا موعظتك والتدبر لكتابك والنظر في عجائب صنعك وغرائب مخلوقاتك))[567] .

ـ وقد ينشغل الإنسان بالمال وجمعه حتى يشغله عن التفكير في حقائق الأشياء ومعرفة الخالق والآخرة ، ففي تفسير زاد المسير : ((قوله تعالى : { أما من استغنى } قال ابن عباس : استغنى عن الله وعن الإيمان بماله))[568] ، وفي تفسير البحر المحيط : (({ أما من استغنى } : ظاهره من كان ذا ثروة وغنى ، وقال الكلبي : عن الله ، وقيل : عن الإيمان بالله))[569] .

ـ وفي تفسير فتح القدير : ((قوله : { ألهاكم التكاثر } أي : شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد ، والتفاخر بكثرتها ، والتغالب فيها ... وقال الحسن : معنى ألهاكم : أنساكم))[570] .

ـ فقد يظل الإنسان منشغلا بالمال والأولاد وجمع الدنيا ، وتظل الدنيا تسرق منه عمره وهمه ومشاعره وأهدافه ثم يفاجئ بلحظة يذهب فيها للقاء الله تعالى لم يكن قد حمل لها هما أو تفكر فيها واستعدت لها نفسه ، وفي الحديث : ((عن مطرف عن أبيه قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ (ألهاكم التكاثر) قال يقول ابن آدم مالي مالي ، قال وهل لك يا ابن آدم إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت ؟))[571] ، ومعنى (حتى زرتم المقابر) أي حتى دفنتم فيها ، وفي تفسير أضواء البيان : ((قوله تعالى : { كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ

(564) تفسير القرطبي (11/ 268)
(565) المنافقون: 9
(566) تفسير البيضاوي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (ج : 4 ، ص : 120)
(567) تفسير فتح القدير ـ دار ابن كثير- دمشق (ج : 4 ، ص : 78)
(568) تفسير زاد المسير ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت (ج : 4 ، ص : 400)
(569) تفسير البحر المحيط ـ دار الفكر ـ بيروت (ج : 10 ، ص : 434)
(570) تفسير فتح القدير ـ دار ابن كثير- دمشق (ج : 5 ، ص : 596)
(571) التخريج : صحيح (مشكاة المصابيح ج : 3 ، برقم : 5169)

عِلْمَ الْيَقِينِ }، أي : لو تعلمون علم اليقين لما { أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ }))[572] ، وفي تفسير ابن كثير : (({ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ } [التغابن : 15] أي : الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم والشفقة المفرطة عليهم))[573] .

ـ وفي تفسير البيضاوي : (({ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن } يتعام ويعرض عنه لفرط اشتغاله بالمحسوسات وانهماكه في الشهوات))[574] .

ـ وفي تفسير القرطبي : ((قوله تعالى : (لاهية قلوبهم) أي ساهية قلوبهم ، معرضة عن ذكر الله ، متشاغلة عن التأمل والتفهم ، من قول العرب : لهيت عن ذكر الشيء إذا تركته وسلوت عنه))[575] .

ـ وفي تفسير القرطبي : ((ومعنى { يلعبون } أي يلهون وقيل : يشتغلون فإن حمل تأويله على اللهو احتمل ما يلهو به وجهين : أحدهما : بلذاتهم ، الثاني : بسماع ما يتلى عليهم ، وإن حمل تأويله على الشغل احتمل ما يتشاغلون به وجهين : أحدهما : بالدنيا لأنها لعب كما قال الله تعالى : { إنما الحياة الدنيا لعب ولهو } [محمد : 36] ، الثاني : يتشاغلون بالقدح فيه والاعتراض عليه قال الحسن : كلما جدد لهم الذكر استمروا على الجهل))[576] .

ـ وفي تفسير النسفي : (({ ذَرْهُمْ } أمر إهانة أي اقطع طمعك من ارعوائهم ودعهم عن النهي عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة وخلهم { يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ } بدنياهم { وَيُلْهِهِمُ الأمل } ويشغلهم أملهم وأمانيهم عن الإيمان { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } سوء صنيعهم ، وفيه تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدي إليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين))[577] .

ـ وفي أيسر التفاسير : (({ أذهبتم طيباتكم في حياتكم } : أي يقال لهم أذهبتم طيباتكم باشتغالكم بملذاتكم في الدنيا ، { واستمتعتم بها } : أي تمتعتم بها في الحياة الدنيا))[578] .

ـ وفي تفسير الكشف والبيان : (({ وَالَّذِينَ كَفَرُوا } محلّه رفع على الابتداء { يَتَمَتَّعُونَ } في الدُّنيا { وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأنْعَامُ } ليس لهم همّة إلا بطونهم ، وفروجهم ، وهم لاهون ساهون عمّا في غدهم))[579] ، وفي تفسير الجلالين : ((وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ" فِي الدُّنْيَا "وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُل الْأَنْعَام" أَيْ لَيْسَ لَهُمْ هَمّ إلا بُطُونهمْ وَفُرُوجهمْ وَلَا يَلْتَفِتُونَ إلى الآخرة))[580] .

(572) أضواء البيان دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ـ لبنان (1 / 41)
(573) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 5 ، ص : 161)
(574) تفسير البيضاوي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (ج : 5 ، ص : 163)
(575) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة (ج : 11 ، ص : 268)
(576) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة (ج : 11 ، ص : 237)
(577) تفسير النسفي ـ دار الكلم الطيب، بيروت (ج : 2 ، ص : 183)
(578) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (ج : 5 ، ص : 56)
(579) تفسير الثعلبي [الكشف والبيان عن تفسير القرآن] ـ دار إحياء التراث العربي، بيروت (ج : 9 ، ص : 31)
(580) تفسير الجلالين دار الحديث ـ القاهرة (ج : 10 ، ص : 68)

ـ وفي تفسير بحر العلوم : (({ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ } يقول : اتركهم ، وخلّ عنهم يا محمد في الدنيا . يأكلوا ، ويتمتعوا ؛ يأكلوا كالأنعام ، ويتمتعوا بعيشهم في الدنيا ، لا تهمهم الآخرة ولا يعرفون ما في غد { وَيُلْهِهِمُ الأمل } يعني : يشغلهم الأمل الطويل عن الطاعة ، وعن ذكر الله تعالى ، ويقال يشغلهم طول الأمل عن الطاعة ، وعن ذكر الأجل { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } وهذا وعيد لهم أي يعرفون ما نزل بهم من العذاب والشدة يوم القيامة))[581] ، وفي تفسير البغوي : ((وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ } في الدنيا ، { وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ } ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم ، وهم لاهون ساهون عما في غد))[582] ، وفي تفسير الجلالين : ((وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ" فِي الدُّنْيَا "وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُل الْأَنْعَام" أَيْ لَيْسَ لَهُمْ هَمّ إلا بُطُونهمْ وَفُرُوجهمْ وَلَا يَلْتَفِتُونَ إلى الآخرة))[583] .

ـ وفي تفسير البحر المديد : (({ وتركتم ما خولناكم } أي : تفضَّلنا به عليكم من الدنيا فشُغلتم به عن الآخرة))[584] .

وفي تفسير الطبري : ((عن مجاهد في قوله (إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ) قال : بذكر الآخرة فليس لهم همّ غيرها))[585] ، وفي تفسير بحر العلوم للسمرقندي : ((قوله عز وجل : { إِنَّا أخلصناهم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدار } يعني : اختصصناهم بذكر الله تعالى ، وبذكر الجنة ، وليس لهم همّ إلا همّ الآخرة))[586] .

ـ وفي التفسير المنير للزحيلي : (({ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إلا الْحَياةَ الدُّنْيا } أي فأعرض أيها الرسول عمن أعرض عن القرآن أو تذكير الله ، ولم يكن همّه إلا الدنيا ، وترك النظر إلى الآخرة))[587] .

ـ وفي تفسير الشيخ المراغي : (({ ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ } أي إن منتهى علمهم أن يتفهموا شئون الحياة الدنيا ، ويتمتعوا باللذات ، ويتصرفوا في التجارات ، ليحصلوا على ما يكون لهم فيها من بسطة في المال ، وسعة في الرزق ، ويكونوا ممن يشار إليهم بالبنان ، وما به يذكرون لدى الناس ، ولا يعنون بما وراء ذلك ، فشئون الآخرة دبر أذنهم ، ووراء ظهورهم ، لا يعرفون منها قبيلا من دبير))[588] .

ـ وفي تفسير أبي السعود : (({ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ } ، { وَهُمْ يَلْعَبُونَ } أي يلهُون من فرط الغفلةِ أو يشتغلون بما لا ينفعهم كأنهم يلعبون))[589] .

****

(581) بحر العلوم للسمرقندي (ج : 2 ، ص : 251)
(582) تفسير البغوي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (ج : 7 ، ص : 281)
(583) تفسير الجلالين دار الحديث ـ القاهرة (ج : 1 ، ص : 674)
(584) البحر المديد ـ الناشر : الدكتور حسن عباس زكي ـ القاهرة (ج : 2 ، ص : 146)
(585) تفسير الطبري ـ مؤسسة الرسالة (ج : 21 ، ص : 218)
(586) بحر العلوم للسمرقندي (ج 3 ، ص : 170)
(587) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر ـ دمشق (ج : 27 ، ص : 115)
(588) تفسير الشيخ المراغي ـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر (ج : 27 ، ص : 56)
(589) تفسير أبي السعود ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (3 / 22)

الفصل الحادي والعشرون

المعرفة الحقيقية بأن الدنيا دار امتحان

ـ الدنيا عبارة عن مكان خلقه الله ليتم فيه امتحان واختبار الإنسان ، وهذا الامتحان يشمل حياة الإنسان كلها فيشمل كل حركة الإنسان وأعماله وكلامه وأيضا كل ما يحدث في قلبه من اعتقادات ومشاعر ونيات ، ومصير الإنسان في الآخرة يتحدد بناءا على نتيجة هذا الامتحان في الآخرة .

ـ المعرفة الحقيقية بأننا نعيش الآن في حالة امتحان وانتهاءه في أي لحظة :

ـ خلق الله الإنسان وأسكنه الكرة الأرضية لتكون مكان اختباره ، أما زمن الاختبار هو فترة حياته التي يمكثها على الأرض ، والنجاح في الاختبار هو أن يعبد الإنسان الخالق .

ـ عدم وجود اليقين الحقيقي بأنك الآن داخل لجنة الامتحان وأنك في أي لحظة تنتهي من الامتحان (بالموت) معناه عدم وجود اليقين الحقيقي بالآخرة ومعناه أنك تحسب أن الدنيا دار إقامة رغم اليقين الكاذب بالآخرة وبأن الدنيا معبرة للآخرة .

ـ تصور حدوث الاختبار الآن وانتهاءه في أي لحظة هو شعور مخيف ومرعب ، فنحن نعيش في حالة اختبار ، وكل شيء مراقب ومحسوب عليك سواء ما في قلبك أو ما تعمله طوال حياتك ، فما نعيشه ليس حياتنا ولكنها حياة اختبار ، فالحكمة من وجود الدنيا هي أن الله جعل الأرض مكان معد لاختبار الإنسان .

ـ تصور لو أن هناك كاميرات مراقبة موضوعة لك في كل مكان في بيتك وفي الشارع تسجل كل شيء عنك ، فهذا يؤدي إلى الخوف الشديد من مهابة الأمر وخطورته ، فوجود الملكين الرقيب والعتيد أخطر من ذلك .

ـ فإذا لم نشعر بأننا نعيش الآن في حالة امتحان فهذا معناه عدم وجود اليقين الحقيقي بالآخرة ، وهذا معناه أن الإنسان يقول بمشاعره أن الله خلق البشر وتركهم يفعلون ما يشاءون فهو خلقهم عبثا ، فالذي يصنع شيئا ثم يتركه فهو قد صنعه عبثا ، فالله لم يخلقنا ثم يتركنا يعيش كل واحد كيفما يريد وكل واحد يفعل ما يريد ، ولم يخلق الله الناس ويحدث ما يحدث بينهم ويتركهم وشأنهم ، وإنما خلقهم لحكمة وغاية هي أن يعيشوا وفق ما يريده الله أي لعبادته : ((أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ))[590] .

ـ إن الدنيا مزرعة للآخرة ، فالدنيا كلها بمثابة امتحان ، فلم تخلق الدنيا لتكون مناسبة لنعيش ونقيم فيها ونبحث فيها عن السعادة وإنما هي دار اختبار ، فيكون هم المؤمن وشعوره طيلة

(590) المؤمنون : 115

حياته مثل شعور الطالب قبل الامتحان بل أعظم بكثير ، فنحن نعيش الآن في مرحلة اختبار هي أيام عمرنا في هذه الحياة ، والمطلوب تحديدا حتى نكون من أهل الجنة هو النجاح في اختبار الدنيا .

ـ فالحياة التي نعيشها في الدنيا هي حياة أوجدها الله للاختبار فقط وليست حياة يقيم فيها الإنسان ويعيش حياته ، والاختبار يشمل كل ما تفعله وتقوله وتشعر به منذ أن بلغت حتى اللحظة التي تموت فيها ، فالاختبار يشمل كل الأعمال الظاهرة والباطنة طوال الحياة الدنيا .

ـ لابد أن يشعر الإنسان أنه داخل في مسابقة لها جوائز ، ولكن وجه الاختلاف عن مسابقات الدنيا أن كل ناجح في المسابقة ينال جائزة كبيرة ، وكل خاسر عليه عقاب شديد ، وأن هذا السباق ينتهي فجأة ، فمرحلة الدنيا هي مرحلة سباق وتنافس في تحصيل الإيمان وجمع الحسنات : ((سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ))[591] ، ((وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ))[592] .

ـ الإنسان أثناء السباق أو أثناء الامتحان لابد أن يشعر بالقلق والترقب ، ولابد أن يشعر بالتحمس والتحفز كلما قطع خطوات ، ويشعر بالضيق كلما أخطأ ، وهذا السباق خطير ومصيري لأنه يترتب عليه العذاب الأليم أو النعيم المقيم ، وبالتالي إذا لم يشعر الإنسان بالقلق وبالمشاعر التي يشعر بها أي إنسان أثناء الاختبار فهذا معناه أن اليقين بأنه يعيش حياته الآن في مرحلة اختبار غير موجود ، وبالتالي فاليقين الحقيقي بالآخرة غير موجود ، وعدم شعور الإنسان بأنه في حالة اختبار فهذا معناه أنه يقول بمشاعره أننا خلقنا عبثا رغم وجود اليقين التام بأن الدنيا دار اختبار لكنه عندئذ يقين كاذب .

ـ وسواء رضينا أم لم نرضي ، وسواء شعرنا بذلك أم لم نشعر ، فنحن دخلنا الآن في لجنة امتحان منذ سن البلوغ ، ونحن واقعين الآن وفي أثناء هذه اللحظة التي تقرأ فيها هذا الكتاب وفي كل اللحظات تحت رقابة تامة ومتابعة تامة من الخالق نفسه ومن الملكين الرقيب والعتيد ، ويتم تسجيل كل شيء بمنتهى الدقة ، ومدة الامتحان هي كل فترة عمرنا في هذه الدنيا ، وينتهي الامتحان فجأة في أي لحظة ويبدأ بعدها فورا الحساب حيث احتساب الدرجات والنتيجة .

ـ إن البعض قد يرى منافسة ما في مباراة كرة أنها مصيرية وحاسمة فتحوذ على اهتمامه وتؤثر على أعصابه ومشاعره ، ألا يرى هؤلاء أننا نعيش في حالة منافسة مصيرية أشد من هذه المباراة هي الامتحان الذي نعيشه في الدنيا والذي ينتهي بالخلود في الجنة أو الخلود في النار فكيف لا يؤثر ذلك على أعصابهم ومشاعرهم ، فأي المنافستين أشد وأخطر وأهم ؟! .

(591) الحديد : من الآية 21
(592) المطففين : من الآية 26

ـ وقت الامتحان وجيز جدا ، لأن عمر الإنسان في الدنيا لا يساوى شيء أمام عمره في الآخرة ، كما أن الامتحان ينتهي في أي لحظة ، ولا يوجد إعادة في امتحان آخر ، فنحن في سباق ومسارعة ، وهذا الامتحان خطير جدا ومصيري لأنه يترتب عليه أن يوضع الإنسان داخل نار هائلة لمدة أكبر من ملايين السنين هي الخلود في النار ، أو أن يعيش في كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين في شباب دائم ومتع دائمة وشهوات لا تنقطع هي الخلود في الجنة ، كما أنه امتحان صعب لأن النفس تميل للشهوات ، وفي الحديث : ((حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات))[593] .

ـ وكما أن الاختبار شيء مرعب فهو أيضا فرصة ذهبية لا تعوض لنيل الجنة والنجاة من النار ، فالإنسان طالما لا يزال حي في هذه الدنيا فالفرصة لا تزال قائمة أمامه ليغير من مساره ويعمل لإنقاذ نفسه من النار ويتزود من الطاعة وللفوز بالجنة ، وهذا معناه شعور بالشوق والرجاء والأمل والتطلع إلى الجنة ، فالذين ذهبوا للقبور يتمنون لحظة واحدة ليعودوا ويعملوا أي شيء لعله ينقذهم من النار أو يرتقي بهم درجات أعلى في الجنة فلا يسمح لهم .

ـ فتخيل أنك قد جاءت لحظة موتك وذهبوا بك للقبور ، فطلبت من الله أن يعطيك فرصة لتعود ، وها أنت الآن قد عدت للدنيا وأمامك الفرصة فماذا أنت صانع ؟ .

ـ المعرفة الحقيقية بأن الدنيا دار استعداد للموت وما بعده :

ـ هل الوقت الذي يقضيه الإنسان طوال عمره وطوال أيامه ولياليه هو استعداد للموت وما بعده ؟ ، نعم الدنيا دار استعداد للموت وما بعده ، فالموت أمام عين الإنسان العاقل دائما يفكر فيه ومنشغل بانتظاره ومستعد له ، ليس شيء يستعد له وينشغل به ويعمل له غيره بعد معرفة الله تعالى ، وجعل الله الإنسان يموت كل يوم بنومه ثم يصحو حتى يتذكر الموت كل يوم لا ينساه وحتى يكون ذلك حجة عليه .

ـ فلماذا تأكل ولماذا تشرب ولماذا تأتي وتذهب ولماذا تعمل الطاعات ؟ لكي تستعد للموت وما بعده .

****

الفصل الثاني والعشرون

المعرفة الحقيقية بالغيبيات

(593) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 3147 في صحيح الجامع)

ـ فقدان عنصر الوعي (خوف المهابة من الغيبيات) معناه أن معرفة الإنسان بالغيبيات هي معرفة نظرية فقط ، ومعناه أن الإنسان لا يزال لا يعرف ما هي الغيبيات وكأنه لم يسمع عنها .

ـ وكذلك ففقدان أثر المعرفة (مشاعر الإنسان وهدفه) معناه أن الإنسان لا يزال لا يعرف ما هي الغيبيات وكأنه لم يسمع عنها .

ـ فالغيبيات خطر رهيب ، وبالتالي فالمعرفة الحقيقية بالغيبيات تعني خوف المهابة منها .

ـ الوسيلة لإيقاظ الوعي بالخطر الرهيب الذي ننتظره من لقاء الله والآخرة هو التفكير في مدى هذا الخطر الهائل وتكرار ذلك .

ـ المتغافل عن حقيقة وجوده وحكمة خلقه هو مثل رجل دخل مغارة مظلمة في مكان موحش ، فوجد عند مدخلها بقايا لجثة إنسان ، فما كان منه إلا أن وضع رأسه وأسلم جفنيه للنوم ، غير آبه بما يحتمل أن يكون في جوف هذه المغارة من وحوش ضارية ، وهو يمنّي نفسه بالفرار إذا استيقظ ، مع أن الموت قد يفاجئه في أي لحظة ، ولذلك ففي الحديث : ((ما رأيت مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها))[594] .

ـ فهذا الرجل على يقين نظري تام بأن هذه المغارة فيها مخاطر كبيرة ورغم ذلك فهو يتجاهل هذه المخاطر وينام كأنه لا شيء ، فهذا الرجل ليس لديه شعور بخطورة الأمر ويقينه بالخطر هو يقين كاذب .

ـ لو افترضنا أن الناس يرون الغيبيات من حولهم ، فهم يرون الملائكة تسير حولهم ويرى كل واحد قرينه من الشيطان يسير معه ، وإذا نظر أحدهم إلى أعلى في السماء رأى الله ورأي الكرسي والعرش ورأى الجنة ورأى نور الحور العين التي تطل من نوافذ الجنة ، وكان هناك انسانا أعمى يعيش وحوله الناس مبصرون ، والناس يقولون له حولك الآن ملائكة هائلة مخيفة ويسير معك الآن قرين من الجن وفوقك في السماء رب العالمين فبماذا يشعر هذا الأعمى ؟ ، إنه يشعر بالرهبة والرعب والخوف وربما ما استطاع أن ينام وهمه منشغل بهذا الأمور المذهلة .

ـ ولو افترضنا أن الناس يتكلمون مع الله والله يسمعهم ويتكلم إليهم وهم يسمعون كلامه ، وهذا الأعمى أيضا يتكلم مع الله ويدعوه والله يسمعه ويتكلم إليه ولكنه لا يسمع كلام الله إليه فهو أصم عن سماع كلام الله إليه وأصم عن سماع كلام الملائكة والجن من حوله ، وهؤلاء الناس المبصرون يقولون للأعمى لقد تكلم إلينا الله وامرنا أن نخبرك أنه علينا جميعا أن نسجد له وأمرنا بأوامر وأمرنا أن نخضع لأوامره ، فبماذا يشعر هذا الأعمى ؟ ، إنه سوف يعيش حياته في قلق ورهبة ولن ينشغل همه بغير ذلك .

(594) تحقيق الألباني : حسن (انظر حديث رقم : 5622 في صحيح الجامع)

ـ لقد خلق الله الناس وأعماهم عن رؤية الغيبيات من حولهم ، وأصم أذنهم عن سماع الغيبيات من حولهم ليختبرهم ، وهؤلاء الناس المبصرون هم الرسل جاءوا ليخبروا الناس بما لا يرونه من الغيبيات من حولهم وجاءوا ليخبرونهم بما لم يسمعوه من كلام الله إلى البشر .

ـ والدليل على أن الله خلق الناس وأعماهم عن رؤية الغيبيات قوله تعالى : ((لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ))[595] .

ـ فالملائكة مثلا ليست مصنوعة من مادة كالهواء بحيث لا تراها ولكن المشكلة عندك هي أن عينك ممنوعة من رؤية الملائكة الموجودة معك الآن وأنت تقرأ هذه السطور .

ـ الدين أمر خطير جدا فالرسل جاءت لتحذر الناس كالذي يحذر من جيش قادم وعلى وشك أن يهلكهم ، ففي الحديث : ((إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق))[596] ، ومعنى (النذير العريان) أن الرجل إِذا كَانَ على مَكَان عَال فَبَصر بالعدو نزع ثَوْبه فألاح بِهِ لينذر القوم ، فَيبقى عُرياَنا ، وعري النذير أبلغ فِي الْإِنْذَار ؛ لِأَن القوم إِذا رَأَوْهُ عُريَانا علمُوا أَن الْأَمر عَظِيم .
وفي حديث آخر : ((مثلي كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها فذلك مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار هلم عن النار فتغلبوني فتقتحمون فيها))[597] .

ـ لو أن رجلا عاش في الآخرة ثم جاء إلى أهل الدنيا ماذا يمكن أن يقول لهم ؟ إنه سوف يجد أهل الدنيا يعيشون في حالة من السكر في غياب تام عن الوعي لما في الآخرة من خطر فينادي عليهم : أفيقوا من الغيبوبة ! ، فالغيبيات من أخطر ما يمكن ولكن لماذا لا تؤثر فينا ونتأثر بها ؟ ، ذلك لأننا نعيش في غيبوبة لا ندري ما الله وما الآخرة في حقيقة الأمر .

ـ جاءت الرسل بالإنذار والتحذير لينتبه الناس إلى خطورة لقاء الله والآخرة وليعدوا أنفسهم لذلك ، أي اتقوا واحذروا ، وأول الاستجابة أن ينتبه لما يحذره منه الأنبياء .

ـ قد يشرب الإنسان خمرا لكي ينسى أمرا ما ، هو في الحقيقة يفقد نفسه الوعي بالأمر لكن أصل المعرفة بالأمر موجود عنده لكنها معرفة ليست لها قيمة ، فكذلك حال الغافل عن الآخرة أمامه خطر هائل جدا وهو سكران فيقينه بالآخرة ليس له قيمة رغم أنه يقين يصح به الاعتقاد .

(595) ق : 22
(596) متفق عليه (مشكاة المصابيح ج :1، برقم 148، وهو أيضا في صحيح الجامع برقم 5860)
(597) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5858 في صحيح الجامع)

ـ اليقين المطلوب من المسلم ليس مجرد اليقين النظري الذي يصح به الاعتقاد ولكن اليقين التام (اليقين النظري مع الوعي) ، واليقين التام هو شرط لدخول الجنة وعدم تحقيقه يؤدي إلى الخلود في النار .

ـ الإنسان يعيش وقدرة الله الهائلة محيطة به والملائكة والجن تعيش معه وتحيط به فهذا أمر مرعب ومخيف جدا ومفزع من مهابته ولو لم يكن فيه ضرر يلحق بالإنسان ، وكذلك الآخرة الكارثة الكبرى المرعبة المفزعة هي أمر مرعب ومخيف جدا ومفزع من مهابته ولو لم يكن فيه ضرر يلحق بالإنسان ، ورغم ذلك فكل شيء عادي جدا بالنسبة للإنسان ولا يشغل همه غير أمور الدنيا الفانية ! .

ـ فالمشكلة أن رد فعل الإنسان وانفعالاته ومشاعره لا تتناسب مع حجم الألم أو اللذة الشديدة جدا فوق كل التصورات ، فالجنة فيها متع ونفع كبير جدا فوق كل التصورات لكن الإنسان لا يشعر بلذة الشوق تجاهها ، وإذا كان عنده شعور بلذة الشوق لها فلا يتناسب أبدا مع حجم المتع والملذات الهائل جدا الذي يفوق كل التصورات .

ـ والنار فيها ضرر كبير جدا فوق كل التصورات لكن الإنسان لا يشعر بألم الخوف من مهابتها وألم الخوف من دخولها ، وإذا كان عنده شعور بألم الخوف منها فلا يتناسب أبدا مع حجم الضرر والألم الهائل جدا الذي يفوق كل التصورات .

ـ بل إن الإنسان مهما كان يقينه ففي يوم القيامة سوف يكتشف أن حجم الألم أو اللذة كان يفوق كل تصوراته عندما يرى الملائكة ويرى الجنة والنار ويجد أن الدنيا قد انتهت وأنها ليست بشيء على الإطلاق ! ، فهو عندئذ يعلم الحقيقة واضحة ولكن بعد فوات الأوان ، فالناس في غفلة فإذا ماتوا انتبهوا ، ففي اللحظة التي يموت فيها الإنسان فإنه يرى الملائكة ويرى الأهوال ويعلم أنه كان في الدنيا أعمى لا يرى شيئا والآن أصبح يرى وأنه كان أحمقا لا عقل له والآن أدرك الحقائق ولكن لا يستطيع أن يعود ولو لحظة واحدة ، فالغافل يرى أمر الآخرة بعيد جدا ولا يعلم أنه في لحظة واحدة مفاجأة مباغتة من ليل أو نهار يأتيه عذاب الآخرة فورا : ((قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أو نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ))[598] .

ـ الله سبحانه له قدرات هائلة جدا فوق كل التصورات ولو اجتمع البشر جميعا لا يستطيعوا أن يصنعوا شيئا ولو بسيطا مما يصنعه الخالق كأن يخلقوا ذبابة مثلا ، وعلم الله بكل شيء حتى ما سيكون ومقدرته على كل شيء فوق كل التصورات ، ولكن الإنسان لا يشعر بالخوف من مهابة هذه القدرات ، ولا يشعر بالانبهار والإعجاب والحب لهذه الصفات الخارقة التي تصل إلى الكمال ، ولا يشعر بالشوق والرجاء في الجنة بما فيها من المتع والحور العين

(598) يونس : 50، 51

والخمور والملذات التي تفوق كل التصورات ، ولا يشعر بالخوف والرعب والفزع من آلام النار المحرقة .

ـ وجميع آلام الدنيا وملذاتها ليست بشيء أمام الآخرة ورغم ذلك تتفاعل معها مشاعر الإنسان وانفعالاته في حين لا تتفاعل وتتأثر بالغيبيات ، فذلك يدل على حماقة الإنسان وعدم وجود اليقين الحقيقي بالغيبيات .

ـ العجيب أن الإنسان يعيش في هدوء تام وغفلة تامة عن هذه المخاطر الهائلة ، فهو يوقن بها ولكن لا يشعر بخطرها مطلقا .

ـ وأراد الله أن تكون الدنيا معزولة تماما عن هذه المخاطر وهادئة تماما ، فالإنسان لا يرى الغيبيات بعينه فلا يرى تلك المخاطر ، وجعل الله ذلك ليختبر الإنسان ، والرسل جاءت تحذر من هذه المخاطر ولكن لا حياة لمن تنادي ، ولكن بعد لحظات من الآن نجد أنفسنا واقفين على أرض المحشر لنتذكر تحذير الرسل ولكن ذلك لا ينفع .

ـ فالإنسان يعيش وسط خطر رهيب وعلى حافة هاوية سحيقة وأمامه كم هائل لا يستطيع تصوره من شهوات الحور العين والملذات والطعام والشراب ، لكنه معزول تماما عن رؤية كل هذا وهو يعيش في هدوء تام ، بل على العكس تبدو الحياة حلوة خضرة بما فيها من شهوات تبدو عظيمة القيمة في حين أن الحقيقة عكس ذلك تماما ، فالمتع التي نعيشها ليست هي المتع ، والآلام التي نعايشها ليست بآلام ، وإنما المتع هي متع الجنة والآلام هي آلام النار ونحن نعرف ذلك ولكننا نتناسى ونتغافل .

ـ الحياة عند لحظات وقوع الخطر :

ـ عندما تقع كارثة معينة أو توشك أن تقع أو عندما يتعرض الناس لخطر معين ما الذي يحدث ؟ ، إن الناس يعيشون لحظات الخطر في رعب وخوف وهلع وترقب لما يمكن أن يحدث ، كل الناس يتركون عملهم ولعبهم ويتوقفون عن الطعام والشراب ولا ينشغلون بأمور الدنيا مطلقا ، منهم من يجري ومنهم يموت من هول الصدمة ومنهم من يصاب بالهستريا .

ـ السنوات التي نعيشها في هذه الحياة ولو كانت مائة سنة ليست إلا لحظات وقوع الخطر ، والخطر الذي نتعرض له هو أننا الآن مسافرون في لحظات إلى الآخرة بكل ما فيها من أهوال لنعيش فيها حياة أبدية وبلا رجعة ، وكذلك الخطر الهائل جدا الذي هو قدرة الله وعلمه ومراقبته لنا ، فقدرة الله معنا في كل مكان أينما ذهبنا ولو في الحصون والمخابئ المحصنة ، وقدرة الله هائلة جدا فهي أمر مخيف ومرعب ، وكذلك علم الله ومراقبته لنا ورؤيته لنا في كل مكان ولو في الظلام ولو داخل الحجرات المغلقة ، نحن نعيش في حصار تام ونخضع لهيمنة تامة لن نستطيع أن نفلت أو نهرب .

ـ أعمال الدنيا كلها عند لحظة وقوع الخطر ما هي إلا لعب ولهو ، والدنيا ما هي إلا لحظات الخطر ، والعجيب أن هناك نائمون وآخرون يلعبون والخطر يحيط بهم فهؤلاء لا عقل لهم قد

ماتت عقولهم ، وهناك آخرون قد أخرجوا كل أعمال الدنيا من قلوبهم وشمروا سواعدهم ولاذوا بالفرار في رعب وخوف لا يأمنون ما الذي يمكن أن يحدث لهم أو يصيبهم من هذا الخطر الهائل ، فهؤلاء هم أصحاب العقول وهؤلاء هم أولوا الألباب : ((أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (97) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ))[599] .

ـ الفارق بين الخيال والسحر وبين الغيبيات :

ـ الفارق في أمرين هما :

1ـ الغيبيات اعجب واغرب من الخيال والسحر ، فمثلا الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، والله يقول للشيء كن فيكون ولا يعجزه شيء .

2ـ الغيبيات حقيقة أما الخيال والسحر فهو وهم .

ـ مثال يوضح حجم الخطر الهائل الواقع علينا :

ـ الدنيا عبارة عن حجرة هادئة تماما وساكنة ، وداخل هذه الحجرة يوجد رجل يلهو ويلعب وسط هذا الجو الهادئ ، وخارج الحجرة توجد نار هائلة تقترب وتوشك أن تشتعل بالحجرة ، والرسل جاءت تدق الباب بشدة وتنادي بصوت عالي : احذروا النار احذروا النار ! ، وتنادي على من في الحجرة أن ينظر إلى الشباك ليرى النار ، وتدله على ممر للنجاة وسط النار يؤدي إلى حدائق وقصور فيها الأمان والمتع والملذات (الجنة) ، فسمع الرجل النداء ورأى النار من الشباك ، ولكنه تجاهل الأمر وتغافل عنه كأنه لم يسمع النداء وكأنه لم يرى النار من الشباك وكأنه لم يفهم ما قالته الرسل ، واستمر في لعبه ولهوه وسط الجو الهادئ داخل الحجرة ، ولم تتأثر مشاعره ولم يتحرك للهرب ، فكأن هذا الرجل لا سمع له ولا بصر له ولا عقل له ولا مشاعر له وكأن جوارحه لا تعمل فكأنه ميت ، فرغم أن هذا الرجل يلعب ويلهو لكنه في الحقيقة ميت ! ، فمهما أخذت تنادي فيه : احذر النار ! فكأنما تكلم ميتا لا روح فيه : ((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ))[600] ، فهذا الرجل كالأنعام يأكل ويشرب ويتناسل وينام ، والبهائم لا تفقه خطاب البشر مهما ناديتها : ((وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ))[601] ، فما زالت الرسل تدق الباب وتنادي وهو يستمع إليهم وهو يلعب مثلما يستمع إلى أمر تافه أو لا قيمة له : ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ، لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ))[602] .

(599) الأعراف : 97 - 99
(600) النمل : 80
(601) الأعراف : 179
(602) الأنبياء : 1 - 3

ـ ويمكن تشبيه ذلك بأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء إلى الناس ليحذرهم من أن هناك خطر عظيم سوف يجتاحهم ، هذا الخطر هو جيش جرار جاء ليقضي عليهم ، فكان طائفة منهم لم يتأثروا ولم ينتبهوا لخطورة الأمر ولم يشعروا بالخوف والرعب ، ومن أثر ذلك أنهم لم يتحركوا من مكانهم ولم يهربوا ، وكأن شيئا لم يكن ، وكأنهم لم يسمعوا ، وكأنهم كالحائط الذي لا يحس ، وبقوا مكانهم منشغلين بحياتهم وطعامهم وشرابهم ، فهؤلاء جاء الجيش إليهم فقضى عليهم ، وطائفة أخرى تحركت مشاعرهم وشعروا بالخوف ولاذوا بالفرار فنجو من الجيش ، وهذا المثل هو ما أوضحه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ففي الحديث : ((إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق))[603] ، ومعنى " أنا النذير العريان " أصله أن الرجل كان إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيدا عنهم ليخبرهم بما دهمهم ، وإنما يفعل ذلك لأنه أبين للناظر وأغرب وأشنع منظرا فهو أبلغ في استحثاثهم في التأهب للعدو ، وقيل معناه أنَا النَّذِير الَّذِي أَدْرَكَنِي جَيْشُ الْعَدُوّ ، فَأَخَذَ ثِيَابِي ، فانفلت منهم ، فَأَنَا أُنْذِرُكُمْ عُرْيَانًا .

ـ فالإنسان الغافل يعيش كأنه لا يوجد أي خطر يهدد الكرة الأرضية والحياة الدنيوية ولا يوجد أي خطر يهدد حياته رغم أنه يعلم بأن الموت خطر يهدد حياته فيأتيه في أي لحظة ورغم أنه يعلم أن الكرة الأرضية وحياة البشر سوف تفنى في لحظة مباغتة بظهور علامات الساعة ، ويعيش كأن حياة البشر على الأرض والمنظومة الكونية ليس لها أحد يسيطر عليها ويحكمها وكأن كل إنسان يعيش حياته كيف يشاء ، كأن البشر موجودون من تلقاء أنفسهم ولا توجد حكمة من إيجادهم ، ويتغافل عن كل الإخطار التي حوله ويعيش في الحياة هادئا مطمئنا كأن حياته إنما هي على ظهر هذه الأرض ، فهو مطمئن وراض بالحياة الدنيا رغم أن وجود الإنسان على الأرض ليس حياة يقيم فيها ويسكن ولكنها مجرد طريق وسفر واختبار وليست معدة للمعيشة ، والحياة التي يعيشها الناس ويقيمون فيها هي في الآخرة : ((إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ، أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))[604] ، فالحياة التي يعيش فيها الإنسان ويأكل ويشرب ويلبس ويقيم هي الآخرة أما هذه الحياة التي نعيشها فهي حياة كاذبة مؤقتة مثل الحياة التي يعيشها عابر السبيل ليصل إلى بيته ووطنه : ((وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخرة لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ))[605] ، " الحيوان " أي الحياة الحقيقية وفي الآية : ((يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي))[606] أي لحياته في الآخرة ، لذلك من الناس من تكون

(603) متفق عليه (مشكاة المصابيح ج :1، برقم 148، وهو أيضا في صحيح الجامع برقم 5860)
(604) يونس : 7 ، 8
(605) العنكبوت : 64
(606) الفجر : 24

قضيته كيف يعيش حياته وكيف يقوم بشئون معيشته وكيف يدبر أموره المعيشية وهو لا يدري أنها ليست بحياة وأنها مجرد سفر أوشك أن ينتهي ، أما الذي يدرك أنه على سفر فهو منشغل بسفره عن هذه الأمور المعيشية المؤقتة فهو لا يبالي بلقيمات تعينه على سفره كيفما اتفق ولا يبالي كيف تكون هذه الحياة المعيشية العابرة لأنها زائلة سريعا فتكون عنده كيفما اتفق .

ـ عدم رؤية الخطر لا يمنع وقوعه :

ـ عدم رؤية الملائكة والجن من حولنا ، وعدم رؤية الله في السماء ، وعدم رؤية الجنة والنار الموجودتان الآن كل هذا لا يغير من حقيقة الأمر شيء فكل هذا واقع سواء رضينا أم أبينا سواء تجاهلنا الأمر أم انتبهنا له ، ونحن بعد وقت وشيك من الآن سوف نجد أنفسنا في الآخرة ونجد أنفسنا واقفين أمام الله ونرى الملائكة والجنة والنار أمامنا ، سواء رضينا أم أبينا سواء تجاهلنا ذلك أم انتبهنا له .

ـ فنحن نعيش في عزلة تامة عن الخطر الهائل في حياة هادئة تماما مناقضة تماما للحياة الحقيقية ، ونحن معزولون تماما عن رؤية الخالق ورؤية الملائكة والجن ، ومعزولون تماما عن رؤية ما يحدث في القبر ورؤية أهوال الحساب ورؤية الجنة والنار ، وعلى العكس تماما نعيش في حياة خادعة تماما في ظاهرها ، فتبدو كأنها حياة الإقامة والخلود وكأنه لا حياة بعدها .

ـ والعاقل يعلم أن رؤية الله ورؤية الملائكة والجن من حوله أو عدم رؤيتهم لن يغير من حقيقة الأمر شيء فهو يعيش وحوله قدرة الله ومراقبته وحوله كائنات هائلة غير مرئية تعيش معه من الجن والملائكة فيعيش في رعب وقلق .

ـ فظاهر الأمور في الدنيا على عكس حقيقتها ، وهذه خدعة كبيرة جدا لا يفطن إليها إلا الذي يتأمل ويتدبر الحقيقة دون أن ينخدع بالظاهر ، وفي تفسير ابن كثير : (({ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } أَيْ هِيَ مَتَاعٌ فَانٍ غَارٌّ لِمَنْ رَكَنَ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ يَغْتَرُّ بِهَا وَتُعْجِبُهُ حَتَّى يَعْتَقِدَ أَنَّهُ لَا دَارَ سِوَاهَا وَلَا مَعَادَ وَرَاءَهَا، وَهِيَ حقيرة قليلة بالنسبة إلى دار الآخرة))[607] .

ـ وبالتالي يعيش الإنسان في هدوء تام جدا ومحاط بسور هائل جدا يعزله تماما عن الخطر الذي يحيط به من كل جانب ، وبالتالي كلما نظر الإنسان إلى ما وراء الحائط تذكر ثم إذا نظر داخل الحائط نسي ، والعاقل هو الذي لا يغفل نظره عن الواقع الحقيقي الذي هو الخطر المحيط به وليس الواقع المزيف الذي هو مجرد سور يعزله عن الخطر .

****

الفصل الثالث والعشرون

(607) تفسير ابن كثير ط العلمية (8/ 57)

المعرفة الحقيقية بالآخرة

ـ فقدان عنصر الوعي (خوف المهابة من الآخرة) معناه أن معرفة الإنسان بالآخرة هي معرفة نظرية فقط ، ومعناه أن الإنسان لا يزال لا يعرف ما هي الآخرة وكأنه لم يسمع عنها .

ـ وكذلك ففقدان أثر المعرفة (مشاعر الإنسان وهدفه) معناه أن معرفة الإنسان بالآخرة هي معرفة نظرية فقط .

ـ فطالما أن مشاعر الإنسان لم تتأثر بالآخرة (الخوف والرجاء) وطالما أن المال والدنيا والشهوات ما زالت هدف الإنسان فهو لا يزال لا يعرف ما هي الآخرة وكأنه لم يسمع عنها .

ـ الآخرة شيء مهيب ومخيف ومرعب ومفزع ويدعوا إلى القلق ، فبدون أن يحدث خوف مهابة من الآخرة فالإنسان لا يزال لا يعرف ما هي الآخرة .

ـ لو قالوا أن الكرة الأرضية معرضة لخطر ما محقق ووشيك مثل نزول نيزك ضخم يحطم الأرض أو تعرض الأرض لأشعة تهلك البشر وأن هذا الخطر حقيقة سوف تقع ، فماذا يمكن أن يكون سلوك الناس عندئذ ؟ ، هل يكون همهم مشاغل الحياة والأكل والشرب والبحث عن الشهوات والذهاب للعمل أم يكون همهم مُنصَبًّا على هذا الأمر الذي سوف يهلك البشرية كلها ، إن هذا الخطر واقع فعلا وهو أنك سوف تموت قريبا وسوف يموت كل البشر وسوف تدمر الأرض وكل الكون فلماذا لا يشغل هذا الأمر بال الناس ويفكرون فيه ؟ ، ذلك لأنهم يتجاهلونه بينما يفكرون ويهتمون بأمور الدنيا .

ـ وكذلك لو حدث كسوف للشمس أو حدث كوني كبير ثم قيل أن القيامة سوف تقوم الآن مثلا ، فماذا يمكن أن يفعل الناس ؟ إنهم لن ينشغلوا بأي أمر من أمور الدنيا وسوف يهرعون إلى الصلاة والعبادة خائفين وجلين مترقبين الآخرة : ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وهم في غفلة معرضون))[608] .

ـ ونوضح الأمر بمثال آخر :

ـ كان أحد الناس يجلس على مكتبه داخل أحد المباني الكبيرة يؤدي عمله في هدوء ، ثم فجأة دق جرس الإنذار ، لكنه لم ينزعج وبقي هادئا في مكانه جالسا على مكتبه ، رغم أنه كان يعلم أن جرس الإنذار يعني أن هناك حريق بالمبنى وأنه سوف يسقط ويوقن بذلك تماما ، وأسرع الناس في المبنى يلوذون بالفرار وهم ينادون على هذا الرجل الجالس على مكتبه احذر النار احذر النار ! ، ألا تعلم أن هناك حريق كبير بالمبنى ؟ ، فيقول لهم في برود أعلم

(608) الأنبياء : 1

ذلك ، وبقي في هدوءه منشغلا بأعماله ، وظل الناس ينادون عليه حتى نبح صوتهم من كثرة النداء ، لكن لا حياة لمن تنادي ، فكأنما ينادون رجلا لا عقل له أو ينادون أصما لا يسمع أو ينادون جماد من الجمادات أو ينادون رجلا ميتا ليس لديه أي إحساس أو عقل أو وعي ، إنه فعلا ميت وليس بحي ، وكما يقول الشاعر : لقد أسمعت إذ ناديت حيا ، ولكن لا حياة لمَنْ تنادي ، فمهما أنذرته فلن يستجيب إلا إذا كان حيا : ((لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ))[609] ، ((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ))[610] ، ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إليه يُرْجَعُونَ))[611] .

ـ فهذا الرجل كان عليه أن يتصور خطورة الأمر فينشغل همه به ، ثم يخاف من هيبة الأمر (خوف المهابة) ، ويخاف من الضرر إذا لحقته النار (خوف العقاب) ، ثم يسرع للهرب .

ـ فكذلك الذي يقول بأنه يوقن بالآخرة وبسقوط الدنيا وبأنه راحل إلى الآخرة ثم هو لا يتصور هذا الخطر ولا يخافه ولا يسرع بالاستعداد لذلك ويعيش في الدنيا هادئا منشغلا بأمور الدنيا التي سوف تسقط حالا يسمع الموسيقى ويأكل الحلوى ! .

ـ إن الرسل جاءت لتنذر الناس بوجود الآخرة والجنة والنار ، وهذا الإنذار أشد من الإنذار بوجود حريق أو خطر ما ، ورغم ذلك هناك من لا ينزعج للأمر ولا يتصور خطورته ويدعي أنه يخاف الآخرة .

ـ يقين الإنسان بأن هناك عالم آخر غير عالمنا الذي نعيش فيه مجهز ومعد لاستقبالنا حينما نصل إليه لابد أن يكون يقينا حقيقيا ، لكن مات المعنى لكلمة (الآخرة) ، ولإحياء هذا المعنى يجب التعامل مع الآخرة كأن الإنسان يسمع عنها لأول مرة .

ـ فالذي يعرف نظريا فقط معنى أن هناك آخرة هو في الحقيقة لا يعرف شيء اسمه (الآخرة) ، فلا يتحقق اليقين الحقيقي بالآخرة حتى تكون الآخرة حقيقة واقعة في ذهن المؤمن يشعر بخطورتها وبالتالي تؤثر على مشاعره وهمومه وتفكيره وأمانيه لأنها الخطر المترقب والحياة المنتظرة .

ـ تصور خطورة الآخرة يكون من ثلاثة نواحي هي :

1ـ تصور الآخرة كعالم آخر رهيب ، وهذا يدعو إلى خوف المهابة من الآخرة :

ـ فلو افترضنا مثلا أن الآخرة فيها جنة فقط ، وكل الناس ينتقلون من حياة الدنيا إلى الحياة في الجنة ، فهذا أمر رهيب يدعو إلى خوف المهابة فهو انتقال من حياة إلى حياة مختلفة تماما وأعلى بكثير جدا مما يدعو إلى خوف المهابة ، ولو افترضنا جدلا أن كل الناس لن يدخلوا النار فوجود النار نفسها تدعو إلى خوف المهابة من مدى ضخامتها وشدتها وعجبها

(609) يس : 70
(610) النمل : 80
(611) الأنعام : 36

، وكذلك الوقوف على أرض المحشر وما يحدث على أرض المحشر من أمور الحساب هو أيضا أمر رهيب يدعو إلى خوف المهابة .

ـ هذا التصور لن يتحقق إلا إذا تصور الإنسان أنه يسمع عن الآخرة وما فيها لأول مرة فيتعجب من الأمر ، وبدون هذا التصور لا يعرف الإنسان شيئا اسمه (الآخرة) معرفة حقيقية .

ـ كما يؤدي هذا التصور إلى كراهية النار وحب الجنة .

2ـ تصور الآخرة كصورة من صور قدرة الله : وتتمثل في قدرته على البعث وقدرته على الثواب والعقاب الهائل وقدرته على خلق الجنة والنار الهائلتين ، وهذا يدعو إلى خوف المهابة من الله سبحانه .

3ـ تصور الآخرة كثواب وعقاب ، وهذا يدعو إلى خوف المهابة من مبدأ الثواب والعقاب وخوف العقاب ورجاء الثواب .

ـ اليقين الحقيقي بعذاب القبر وسؤال الملكين :

ـ أنت توقن تاما بعذاب القبر وسؤال الملكين ، لكن لو قام إليك أحد الموتى ليخبرك عن ما كان من سؤال الملكين وعذاب القبر فتقول له وأنت بارد القلب : أنا أعرف ذلك وأكثر منه ، فلو جاء بعصاة وضربك بها لكان محقا ويقول لك أنت ليس لديك أي تصور عن عذاب القبر لأنك لا تشعر بمدي خطورة هذا الأمر وألم هذا العذاب .

ـ اليقين الحقيقي بقدرة الله على البعث :

ـ لو أن إنسان مات منذ سنين وبلي جسمه ثم أخبروك أنه سوف يقوم حيا يسعى إليك وتراه وتتحدث معه ، إنه أمر مرعب يجعلك ترتعد وتخاف ، وسبب هذا الرعب أن ذلك الأمر خارق للأسباب ، إن هذا الأمر سوف يحدث بالفعل لجميع الناس ولكن أنت ستكون واحدا من هؤلاء الذين يقومون بعد أن ماتوا وفنيت أجسامهم ، إن هذا الأمر حقيقة فعلية وقادمة قريبا فلماذا لا تصاب بالخوف من مهابة هذا الأمر ولماذا لا تنشغل به ؟ ، ذلك لأن قضية البعث ليس لها قيمة في مشاعرك فأنت غافل عنها كأنها لن تحدث على وجه الحقيقة ، فالبعث والحياة في الآخرة هي أخطر قضية في حياة أي عاقل ، فلماذا لا ينشغل بها عقل الإنسان ؟ ، ذلك لأن اليقين بالبعث والآخرة هو يقين كاذب .

ـ بل إنك كنت ميتا ثم أحياك الله ، فكنت نطفة ميتة لا روح فيها في رحم أمك ثم نفخ الله فيك الروح فأصبحت حيا ، وهذا ما تراه كل يوم لجميع الناس حيث يخلق الله الأطفال في الأرحام من نطفة لا قيمة لها وينفخ فيها الروح ، إن ذلك أشد عجبا وغرابة وليس سحرا ولكنه حقيقة وخرق للأسباب ، فلماذا لا تشعر بالتحير والتعجب من مدى عظمة الخالق وقدرته فتشعر بالاستسلام والخضوع لقدرة الله : ((كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ

ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إليه تُرْجَعُونَ))[612] ، وتشعر بضعفك وضآلتك حيث يفعل الله بك ما يشاء فيحييك ثم يميتك ثم يحييك : ((قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ))[613] .

ـ والزروع تراها أمام عينك بذور ميتة تتحول إلى أشجار حية تتنفس وتكبر ثم تموت ، فإذا لم يؤثر كل هذا في الإنسان فيشعر بالرهبة من أمر البعث وخطورته ويشعر بالخضوع والاستسلام لله ، فهذا معناه أن اليقين بالبعث كاذبا وليس يقينا حقيقيا .

ـ فلو أن إنسان وضع في يده حفنة من التراب ثم قال لك انظر إلى هذا التراب فلما نظرت إليه وجدته يتحول إلى برتقالة ! ، إنك تقول إن هذا الإنسان ساحر ، إن هذا الأمر يحدث بالفعل ولكن الساحر هنا ليس إنسان ولكنه بذرة البرتقال حيث تستطيع بذرة شجرة البرتقال أن تستخدم تراب الأرض وتحوله إلى برتقال ! ، وهكذا كل النباتات والزروع ، وفي الحقيقة فإن بذرة البرتقال ليس لديها القدرة على عمل ذلك ولكن هناك قوة خارجية خفية هي التي تمكن بذرة البرتقال من هذا العمل ، فالبذرة هي جماد تحول إلى كائن حي (نبات) : ((وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ))[614] .

ـ إذا لم يتحير ذهن الإنسان من مدى قدرة الله على إحياء الأموات ويشعر بخوف المهابة من البعث ويتأثر همه بهذا الحدث المنتظر القريب الهائل حينما يقوم من موته ويقوم معه كل الناس فهذا معناه أنه يقول بمشاعره وهمومه : (لا يستطيع أحد أن يعيد الإنسان بعد أن أصبح ترابا إلى الحياة وما الجنة والنار إلا أساطير) .

ـ الذي يعيش للآخرة يتعامل مع البعث والآخرة على أنها حقيقة واقعة وجد لا هزل فيه وخطر محقق ، والذي يعيش للدنيا يتعامل مع البعث والآخرة كأنها لعب أو أمر غير مهم ولا يأخذها مأخذ الجد ويتغافل عنها رغم اليقين الكاذب بها (إذا كان يوقن بها نظريا) .

ـ لماذا يعرض الإنسان عن معرفة الآخرة ؟ :

ـ لأنه يريد أن يعيش للدنيا ولا يريد أن يعيش ذليلا ، لأن معيشة الآخرة تعني أن يعيش ذليلا لله من أجل رضا الله ومن أجل الآخرة .

ـ فوجود الآخرة يجعل الإنسان يعيش لها ، كما أن معرفة الآخرة تعني معرفة قدرة الله التي تتمثل في الثواب والعقاب وبالتالي يعيش ذليلا لله .

ـ تصور خطورة الآخرة :

(612) البقرة : 28
(613) عبس : 17 - 19
(614) العنكبوت : 63

ـ إن الآخرة فوق مستوى الخيال وأشد رعبا من كابوس مرعب وأشد رعبا من رؤية أشباح وأعجب من السحر ، لكن الآخرة في مشاعر البعض هي عالم عادي جدا لا خطورة منه ولا مشكلة فيه مثل حواديت ، فمثل هؤلاء يفاجئون بعد الموت بعالم حقيقي أخطر وأعجب وأغرب من هذه الأشياء ، فيرون الملائكة ويفاجئون بالحساب والجنة والنار : ((وَنُفِخَ فِي الصُّور فَإِذَا هُم مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ))[615] .

ـ عندما يرى الإنسان كابوس مرعب فإنه قد لا ينام عدة أيام لأنه كلما نام رأى الكابوس ، ويكون في حياته قلقا متوترا خائفا منزعجا وصورة الكابوس لا تفارق عينه ولا يستطيع أن ينساها ، فالآخرة أشد في خطورتها من أي كابوس لأن فيها أهوال أشد من أي كابوس ، فضلا عن أنها حقيقة وليست كابوسا ، فالذي يوقن بالآخرة يقينا حقيقيا لا تفارق صورة الآخرة ذهنه : ((كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ))[616] .

ـ من الناس مَنْ ليس عنده أي هم بالآخرة رغم ما بها من أهوال وأنها المصير لدرجة أنك قد تجد المرء يستغرب ولماذا الهم بالآخرة ؟! ، وكأنه لا يوجد أي شيء يدعو للهم بالآخرة ! ، فهو في غفلة تامة عن الآخرة فلا يوجد أي تأثر بالآخرة سواء سلبا أو إيجابا فلا يخاف الآخرة ولا يكرهها ولا يحبها لأنه لا يشعر بها أصلا وكذلك كل الغيبيات .

ـ اليقين الحقيقي بالآخرة يؤدي إلى أن يعيش الإنسان حياته من أجل الإعداد للآخرة ، فتكون حياته كلها كالذي يرتب أموره ويعد حقائبه ويجهز نفسه ويستعد للرحيل ، فلا يعيش حياة المقيم وإنما حياة الإعداد والترتيب والاستعداد النفسي والتأهب للمرحلة القادمة الخطيرة .

ـ إن الإنسان عندما يشعر بالآخرة فإن حساباته في الحياة سوف تختلف تماما ، وإنه سوف يسقط أمور الدنيا والناس من حساباته ، لأنه يشعر أن الدنيا ضئيلة ويشعر بأن السعادة إنما هي في الجنة ، فتكون الجنة هدفه وطموحه وغايته ومستقبله ، لأنه سوف يشعر بأن الحياة التي نعيشها الآن بكل ما فيها من الأعمال الضخمة هي حياة كاذبة ومجرد لعب ولهو مثل لهو ولعب الأطفال : ((وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخرة لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ))[617] ، فالمكان الطبيعي لمعيشة البشر ليس الكرة الأرضية وإنما هو الآخرة ، والكرة الأرضية ليست إلا مكان هبط إليه آدم ليتم اختباره وذريته ثم يعودون إلى حيث ديارهم وأهليهم وأوطانهم في الآخرة ، أما إذا ظل الإنسان غافلا تلهيه الدنيا فغدا سوف يشعر بالآخرة حين لا ينفع الندم : ((يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي))[618] .

ـ الدنيا هادئة تماما ومعزولة عن خطر الآخرة الهائل :

(615) يس : 51، 52
(616) التكاثر : 5 ، 6
(617) العنكبوت :64 ، ومعنى (الحيوان) أي الحياة الحقيقية .
(618) الفجر : 24 ، ومعنى (لحياتي) أي حياته الحقيقية في الآخرة .

ـ رغم أن الدنيا عبارة عن طريق قصير يوصل إلى الآخرة ، وكل الناس مقبلون على هذا الخطر الهائل ، ورغم ذلك أراد الله أن تكون الدنيا معزولة تماما عن الآخرة وحجب عنا رؤية الآخرة ، والإنسان له أن يعمل ما شاء في الدنيا ولا يحاسبه أحد ، فالحساب في الآخرة ، فالدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل .

ـ فالعاقل هو الذي لا ينخدع بهدوء الدنيا كأنه لا خطر يتعرض له أو يوشك أن يلحق به ، ويسارع بالفرار قبل الكارثة والطامة الكبرى .

ـ الدنيا لها ظاهر وباطن والآخرة كذلك ، والظاهر عكس الباطن تماما ، فظاهر الآخرة أننا لا نراها ، وظاهر الدنيا زينة هائلة توحي بأن الدنيا عظيمة في متعها وآلامها ، والعاقل هو الذي لا ينخدع بالظاهر ويفكر في الباطن ليعرف حقيقة الشيء .

ـ فمثلا لو كان في يدك ظرف فارغ لا شيء فيه ومكتوب عليه مليون جنيه ، فالذي ينظر إلى المكتوب على ظاهر الظرف ولا ينظر إلى حقيقة ما بداخله فهو أحمق لا عقل له ، فالمكتوب على الظرف هو زينة الدنيا ، وما بداخل الظرف هو حقيقة الدنيا ، والعكس لو كان في يدك ظرف مكتوب عليه صفر ولكن بداخله مليون جنيه فالعاقل هو الذي ينظر إلى داخل هذا الظرف ليعرف حقيقته ، فالدنيا والآخرة كاذبتان تقولان عكس ما بداخليهما تماما .

ـ تصور قصر عمر الإنسان في الدنيا أمام عمره في الآخرة :

ـ فارق العمر أمر مهم جدا جدا ، فعمر الدنيا هو أقل من ثانية أمام عمر الإنسان في الآخرة ، فمهما حدث للإنسان من خير أو شر في هذه الثانية فلا قيمة له لأنها مجرد ثانية ، ولكن الشيطان يزين للإنسان أن الحياة في الدنيا طويلة ، وأن الستين سنة (مثلا) التي يحياها في الدنيا أعمار طويلة ، فاليقين الحقيقي بأن العمر في الآخرة ما لا نهاية معناه عدم الإهتمام الكبير والتأثر بآلام الدنيا أو لذاتها .

ـ ((قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ))[619] ، ((وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ))[620] ، ((أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ))[621] .

ـ وفي الحديث : ((الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ))[622] ، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : ((مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا لنا فقال ما هذا ؟ ، فقلنا : قد وَهَى فنحن نصلحه ، قال : ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك))[623] أي الآخرة قريبة ووشيكة حتى كأنه لا وقت للانشغال بشيء غيرها .

---

(619) المؤمنون : 112 - 114
(620) يونس : من الآية 45
(621) الشعراء : 205- 207
(622) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 3115 في صحيح الجامع)
(623) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 568 ، برقم : 2335)

ـ الشعور بضآلة الدنيا أمام الآخرة :

ـ إذا قارنا الدنيا بالآخرة فالدنيا لعب ولهو مثل لعب ولهو الأطفال لأنها حياة قصيرة جدا وتافهة جدا بل إنها ليست بحياة أصلا : ((وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخرة لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ))[624] ، ((وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخرة خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ))[625] .

ـ فالدنيا أشبه بحلم في المنام ثم يفيق منه الإنسان ، ((عن يونس بن عبيد ، قال : ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب ، فبينما هو كذلك إذ انتبه ... قيل لبعض الحكماء : أي شيء أشبه بالدنيا ؟ قال : « أحلام النائم »))[626] ، وفي إحياء علوم الدين أيضا : ((وكتب رجل إلى أخ له أما بعد فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن في أضغاث أحلام والسلام))[627] .

ـ إذا شعر الإنسان بأن الآخرة هي داره ومستقرة وأن الدنيا ليست إلا ممر فيزول تعظيم الدنيا والمال والشهوات من عقله وقلبه ، لأنه لا وجه للمقارنة بين الدنيا والآخرة ، فمن عرف حقيقة الآخرة وحقيقة ما بها من نعيم فإنه بالضرورة ينظر إلى شهوات الدنيا والأموال نظرة احتقار ، وطالما أن الإنسان لا يزال ينظر إلى الأموال والشهوات والمناصب نظرة انبهار على أنها ذات قيمة كبيرة فهذا يدل على أن يقينه الحقيقي بالآخرة لم يتحقق ، لأن من يوقن بالآخرة يقينا حقيقيا فإن الدنيا تصبح لا قيمة لها في عينه .

ـ الدنيا وما بها من مال وشهوات ومتع لا تساوي شيئا بالمقارنة بالآخرة ، فمن يوقن بالآخرة يقينا حقيقيا تكون كل أموال الدنيا وشهواتها ومناصبها هي مثل الطين في نظره لأنه يقارنها بالآخرة فلا تساوي شيئا ، وهو ينظر إلى من عنده قدر كبير من أموال الدنيا ومناصبها وشهواتها على أنه عنده قدر كبير من الطين ، فلا ينظر له نظرة انبهار ، وينظر إلى الفقير المعدوم على أنه عنده قدر قليل من الطين ، وإذا ظلمه أحد فلا يتألم ويشتد حزنه لأنه يعلم أن ذلك الظالم مسكين قد أتعب نفسه وأخذ منه قدرا من الطين ، وهذا لا يمنع من أن يطالب بحقه ، أما الذي لا يوقن بالآخرة يقينا حقيقيا فإذا كان مظلوما أو فقيرا فإنه يكون دائم التسخط والتألم الشديد والحزن الشديد ودائم الشكوى وإذا خسر في تجارة أو أصابه مصاب قد يصاب بسكتة قلبية أو اكتئاب شديد جدا ، وإذا كان ظالما أو غنيا فإنه يكون دائم التهلل والفرح الشديد ويعجب بنفسه بشدة ويتكبر على غيره ، والذي لا يوقن بالآخرة يقينا حقيقيا فهو خائف خوف شديد جدا على صحته وعلى عمره لدرجة الهلع كأنه لا يريد أن يموت ، وكذلك فهو خائف بشدة على ألا يفوته أو ينقص منه شيء من متع الدنيا وحريص بشدة كبيرة جدا على أن يفقد غيره من الناس متع الدنيا وألا يحصلوا على شيء من متعها حتى

(624) العنكبوت: 64
(625) الأنعام: 32
(626) الزهد لابن أبي الدنيا ـ دار ابن كثير، دمشق (ج : 1 ، ص : 31 ، 32)
(627) إحياء علوم الدين ـ دار المعرفة ـ بيروت (4 / 455)

يكون هو الأعلى ، وذلك لأن الدنيا ومناصبها وأموالها وشهواتها هي في نظره عظيمة وكبيرة جدا ويوم القيامة يفاجئ بأن كل ذلك كان مجرد طين وأنه كان حريصا على جمع الطين ! ، فالناس أمامهم جبل من الذهب الحقيقي وجبل من الطين ، وهم يتهافتون ويتنافسون على جبل الطين الذي هو أموال الدنيا وشهواتها ومناصبها ، ويتركون جبل الذهب الذي هو رضا الله وجنات النعيم .

ـ فالتأثر الشديد بظلم الظالم هو من الغباء لأن الدنيا ليست إلا طينا ، فالظالم أخذ كثيرا من الطين والمظلوم عنده قليل من الطين .

ـ تصور خطورة الانتقال للآخرة في أي لحظة :

ـ ليست المشكلة فقط في قصر عمر الدنيا وأنها دار سفر ، فالأخطر من ذلك أن الانتقال إلى الآخرة يكون في لحظة مفاجئة مباغتة وبلا مقدمات وينتهي كل شيء للأبد : ((قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا))[628] ، ((وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إلا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أو هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))[629] ، فيفتح الإنسان عينيه فلا يجد بيته الذي كان يسكن فيه وعمله الذي كان يعمل فيه وأهله وأصدقاءه الذين ألف المعيشة معهم ، فجأة يفتح عينه ليجد كل شيء قد تغير في لحظة : ((وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ))[630] ، فاليقين الحقيقي بأن الموت يأتي في أي لحظة وينتقل الإنسان للآخرة معناه استمرار انشغال البال واستمرار خوف المهابة من خطورة الانتقال إلى الآخرة في أي لحظة ، ففي الحديث عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بمنكبي فَقَالَ : ((كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أو عَابِرُ سَبِيلٍ وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي أَهْلِ الْقُبُورِ ، فَقَالَ لي ابْنُ عُمَرَ : إِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِى يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ غَدًا))[631] .

ـ الغفلة التامة عن الخطر العظيم (الآخرة) !! :

ـ إذا أخبرت إنسانا أنه مقبل على خطر ما ولم يشعر بالخطر فهذا معناه أنه لم يوقن بما أخبرته ، رغم أنك أتيت له بالأدلة على صدق كلامك فهو يوقن بصدق كلامك من حيث صحة الأدلة ، فكذلك الرسل جاءت لتنذر الناس بالخطر العظيم الذي هم مقبلون عليه ، فمن شعر بالخطر تحقق عنده اليقين بالآخرة ، ومن لم يكن عنده أي قدر من الشعور بالخطر فيقينه كاذبا وليس يقينا حقيقيا بالآخرة ، فاليقين الحقيقي بالآخرة معناه الشعور بخطورة الحياة

(628) الأنعام : 31
(629) النحل : 77
(630) يس : 51 - 52
(631) حديث صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 567 ، برقم 2333)

الآخرة : ((قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ))[632] ، ((إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ))[633] .

ـ مجرد العلم بأن هناك آخرة فهذه ليست معلومة سهلة لأن معناها أننا نعيش حياتنا مترقبين ليوم المعاد ، ولكن لا يزال البعض يعيش في غيبوبة أو في حالة سكر لم يفق بعد إلى حجم الخطر الذي ينتظره ولا يدري بما هو صائر إليه بعد لحظات من الخطر العظيم ، فنحن مقبلون على خطر عظيم وحدث هام جدا ، والعد التنازلي مستمر الآن ، ويوشك أن نلحق بالآخرة ، لكننا لا نشعر بذلك ، ونظن أن الأيام طويلة والعمر مديد ، وإذا كان هناك أحد عنده شيء من الشعور بقدر الآخرة فتكون درجة شعوره ودرجة إفاقته لا تتناسب أبدا مع خطورة الحدث ، فلابد أن تشعر بمدى الفرق الهائل بين الدنيا والآخرة ، فعندئذ تشعر بمدى خطورة الآخرة ومدى ضآلة الدنيا فتشعر بالخوف من ذلك الخطر العظيم (الآخرة) .

ـ إن تصور لحظة واحدة من الحياة في القبر أو الحياة في الآخرة يجعل الإنسان ينسى الحياة الدنيا ، وبالتالي فالعاقل هو الذي يتجه تفكيره واهتمامه وتصوره إلى الحياة في الآخرة وليس الدنيا .

ـ فلو أن رجلا عاد إلينا من الآخرة ، ماذا يمكن أن يقوله ؟ ، إن هذا الكتاب عبارة عن تصور لما يمكن أن يقوله ذلك الرجل ، إنه سوف يجد الناس علي يقين واقتناع نظري تام بالله واليوم الآخر وكل ثوابت الدين ، وربما عندهم تفاصيل قد أيقنوا بها أكثر منه هو نفسه ، ورغم ذلك فالله والآخرة ليس لهما وجود في شعور البعض ومشاعرهم وهمومهم وأهدافهم ، إنه سوف يَعجب من هذا الانفصام التام الذي يتمثل في وجود مسلمين يقرون بالغيبيات ، ولكنهم علمانيين في شعورهم ومشاعرهم وهمومهم وأهدافهم حيث أن الغيبيات غائبة تماما من شعورهم ومشاعرهم وهمومهم وأهدافهم ، فكيف يوقن الإنسان بالآخرة التي هي المستقبل والمصير ثم لا يشعر بخوف المهابة وخوف العقاب وكيف لا يشعر بالغربة وهو مسافر إليها ؟! ، وكيف يوقن الإنسان بالله الذي صنع بقدرته كل البشر والكون وهم مقهورون تحت قدرته ثم لا يشعر بخوف المهابة والحب إعجابا بقدرته والخضوع وخوف العقاب ورجاء الثواب ؟! ، ذلك لأن هذا اليقين كاذب عند البعض .

ـ الإنسان قد يتجاهل الآخرة فتصبح كأنها لا قيمة لها ، فهي عندئذ غير موجودة في شعوره ، وهو بذلك قد أفرغ الكلمة من محتواها ، مثل الطفل الذي في يده أسد مصنوع من البلاستيك فهو يلعب به رغم أنه يوقن تماما أنه أسد لكنه مسلوب القوة ، ولكن تجاهل الإنسان للآخرة وألمها لن يغير من حقائق الأمور شيء ، فالآخرة قادمة وشيكة والألم شديد والموت قادم ، فهو عندئذ مثل النعامة التي تضع رأسها في التراب حتى لا يراها الأعداء ، أي كأنها تقول لنفسها أنه طالما أنها لا ترى الأعداء إذن فهم غير موجودون ولا أحد يطاردها ! .

(632) صّ : 67 ، 68
(633) الطارق : 13 ، 14

ـ الآخرة هي الحقيقة الكبرى المرعبة : ((يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ))[634] ، وقد سبقنا إليها الكثير والدور علينا ، ورغم ذلك فإن مشاعر الناس تجاه الآخرة وأمور الدين فاترة باردة ، في حين تتفاعل مشاعرهم وانفعالاتهم تجاه أمور الدنيا الفانية ، فالآخرة أمر جاد جدا وخطير جدا ولا يحتمل التراخي ، ونحن نتعامل معه بلا مبالاة وفتور شديد بغير جدية وإدراك لخطورته ، هذا معناه أن هناك غفلة تامة عن الخطر العظيم الذي نحن مقبلون عليه ، إن الآخرة هي خطر عظيم جدا نحن مقبلون عليه حتما بعد وقت ضئيل جدا يمر سريعا دون أن ندري .

ـ وكان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا خطب على المنبر فذكر الآخرة تحركت مشاعره وانفعل بشدة ففي الحديث : ((وكان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه نذير جيش يقول صبحكم مساكم))[635] .

ـ الشعور بأن الآخرة خطر واقع لا اختيار فيه :

ـ مهما أصابك من الملل أو الغضب أو الضجر ومهما ضعف إيمانك ومهما كانت أسباب انشغالك بالدنيا ومهما حدث فالآخرة واقع قادم والسفر لا اختيار فيه فهو إجباري رغما عن أنفك وموعد السفر قد تحدد وهو في وقت قريب جدا ، وإذا جاء موعد السفر فلا رجعة سواء كنت مستعد للرحيل أم غير مستعد ولا انتظار ولو ثانية واحدة وانتهت القضية وقد اقفل دفتر حياتك : ((إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ))[636] .

ـ فهل لديك شعور بأن هذا السفر هو سفر نهائي وأنه سفر بلا عوده ؟! ، وقد سبقك إليه الكثيرون والدور في انتظارك ، والرحيل مفاجئ وفوري وبلا رجعة ، فالقضية حاسمة وخطيرة ولا تحتمل التراخي ولكننا في غفلة ، وغدا تنتهي الحياة فماذا أنت صانع ؟ ، إنها ليست موعظة ورقائق ولكنها حقائق ومشاعر حقيقية في النفس ، يتضح الآن أن عالم الغيب في نظرك ليس إلا اقتناع كاذب وليس له وجود في مشاعرك ، فمشاعرك تقول أننا لسنا في دار غربة ولسنا علي سفر ، ومشاعرك تقول : ((إِنْ هِيَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ))[637] رغم أن الاقتناع تام بالآخرة لكنه كاذب .

ـ إنك مهما حاولت التغافل والهروب عن الحقيقة والمصير القادم ، فإنها أيام قصيرة وغدا اللقاء رضيت أم لم ترضي أعجبك الأمر أم لم يعجبك شعرت بذلك أم لم تشعر ، ومهما كانت الظروف والأوضاع من الفقر أو الغنى ، من الراحة أو التعب من طاعات أو معاصي ، ومهما تبدلت الظروف والأوضاع فذلك لن يغير من حقائق الأمور شيء ، وقد سبقك الكثير إلى هنالك والدور في انتظارك قد أوشك فعلا وتكاد تصل ، وهذا التغافل والتعامي لن يغير من حقائق

(634) الحج : 2
(635) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن النسائي ج : 3 ، ص : 188 ، برقم 1578)
(636) الطور : 7، 8
(637) المؤمنون : 37

الأمر شيء فالملكين من حولك والله ناظر إليك والآخرة أمامك سواء رضيت أم لم ترضى سواء أخذت تبرر لنفسك ما تفعل أم لم تأخذ ، فالحقائق الغيبية التي نعيش فيها والتي هي في انتظارنا رهيبة ولكن أين مَنْ عنده مشاعر يحس بها : ((إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أو أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ))[638] ، فإنك تظن أنك تفر من الموت بأن تتغافل عن أن تشعر به وإن كنت مقتنعا به تماما وأنه ملاقيك ، ففي الحديث : ((أتاني جبريل فقال يا محمد عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزي به واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس))[639] ، وكل الناس سوف يذهبون إلى الآخرة ، فإذا لم يعجبك الأمر فامتنع عن الذهاب إلى الآخرة إن استطعت ! : ((إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (134) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ))[640] ، فيجب عليك أن توقن بالآخرة يقينا حقيقيا ، فالقضية حاسمة وخطيرة ولا تحتمل التراخي ولكننا في غفلة ، وغدا تنتهي الحياة فماذا أنت صانع ؟!

.

ـ تصور لو أن رجلا عاد من الآخرة إلى الناس ماذا يمكن أن يقول لهم ؟ ، إنه سوف يقول للناس : ليس أمامكم إلا ثواني معدودة والعد التنازلي مستمر ، فأنتم مقبلون على خطر هائل جدا من أشد ما يمكن ويوشك أن تلحقوا بالآخرة فأدركوا أنفسكم ، لكنه سوف يجد الناس هادئين تماما ويعتبرون أن هذه الحياة التي يعيشونها سنوات طويلة وعمر مديد وليست ثواني معدودة ، ويعتبرون الذهاب إلى الآخرة مثلما يتسلى الإنسان بلعبة مملة قد مل منها ، إنه سوف يجد الناس يعيشون في هروب وتجاهل للموت وهروب وتجاهل للآخرة وهروب وتجاهل وتغافل عن الله ، رغم أن هذا الهروب وهذا التجاهل والتغافل لن يغير من حقائق الأمور شيء فالخطر قائم وهم مقبلون عليه رضوا أم لم يرضوا والأمر خطير وعظيم : ((قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ))[641] ، فهم يعيشون في غيبوبة مثل السُّكْرَان الذي لا يدري ما الذي ينتظره ، وإذا كان هناك أحد عنده شيء من الشعور بقدر الآخرة فتكون درجة شعوره ودرجة إفاقته لا تتناسب أبدا مع خطورة الحدث ، فينظر إلى الآخرة بفتور شديد ومشاعر باردة ، رغم أن الآخرة هي الحقيقة الكبرى المرعبة : ((يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ))[642] ، وقد سبقنا إليها الكثير والدور علينا .

ـ الشعور بمدي الخطر في الآخرة :

ـ إن كلمة الآخرة تعني المصير المرعب والمخيف الذي أنت مقبل عليه ، وتعني الأهوال العظيمة ، فلماذا لا تشعر بخوف المهابة والقلق من أهوال القيامة ؟ ، فمن أسماء الآخرة (

(638) قّ : 37
(639) تحقيق الألباني : حسن (انظر حديث رقم : 73 في صحيح الجامع)
(640) الأنعام : 134، 135
(641) صّ : 67 ، 68
(642) الحج : 2

يوم الحسرة) و(يوم الزلزلة) و(يوم تشخص فيه الأبصار) ، و(الغاشية) وفي تفسير البحر المحيط : (({ هل أتاك حديث الغاشية } والغاشية : الداهية التي تغشى الناس بشدائدها يوم القيامة))[643] ، وهو ((يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً))[644] ، إن الآخرة هي أخطر شيء في حياة الإنسان ، وأهوال القيامة من أشد ما يمكن ومن أخطر ما يمكن ، وما نشعر به من ذلك الخطر لا يساوي واحد علي مليون من خطورة الآخرة ، فالأمر يقابله البعض ببرود في حين مع أي أمر من أمور الدنيا تجد المشاعر تتفاعل والخوف شديد ، وأنظر إلى شدة خوف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة والتابعين والصالحين من الآخرة ، فلو جاء إلينا إنسان من الآخرة فرأي حالنا لأصابته سكتة قلبية من حال البعض وبرود أعصابهم تجاه هذا الخطر المحدق ، أنظر كيف يعبر القرآن عن هذا الخطر ((يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ))[645] ، فهل رأيت إنسان أصابه السكر من شدة العذاب ، إن الذي يقول أن ما يحدث في الآخرة هو خيال لا يصدق هو أفضل حالا من الغافل عن الآخرة ، وإن الذي يشعر بخطورة الآخرة علي أنها فيلم مرعب يثير الفزع والرعب من أفلام السينما فهو رغم خطأه الفادح أفضل حالا ممَنْ تكون الآخرة في شعوره عادي ! ، فلابد أن تشعر بمدي ما أنت مقبل عليه ، وكيف لا يهتم إنسان بأن يشعر بما هو مقبل عليه .

ـ إن الآخرة التي في مشاعر البعض تختلف عن الآخرة الحقيقية ، فإن الآخرة التي في مشاعر بعض الناس اليوم هي آخرة أليفة ودودة لا مشكلة فيها ولا خطر فيها ، وإن شعورهم بالآخرة مثل شعورهم بأي شيء عادي ! ، إنك لو قارنت بين خطر الآخرة وبين أي أخطار أو مخاوف في الدنيا فسوف تجد أن الآخرة لا تمثل في مشاعرك خطر حقيقي أو أهمية حقيقية مثل أي خطر تواجهه أو تتعرض له في الدنيا فتجد المشاعر متفاعلة به والبال مشغول ، وذلك رغم الفارق العظيم بين كل أخطار ومخاوف الدنيا وبين خطر الآخرة ، إن الذي لا يتأثر بشيء مؤثر جدا فإنه لا يعي ولا يشعر بحقيقة ما في هذا الشيء من خطورة ، فهو لا عقل له ، إن الآخرة أمر مؤثر جدا وخطير جدا ولكن لا يوجد تأثر بها !! .

ـ فكلمة (الآخرة) عند من لم يشعر بخطورتها تختلف عن كلمة (الآخرة) عند من يشعر بخطورتها وأنها أمر فعلي حقيقي وحقيقة ماثلة فعلا ، فالأول يراها أمرا عاديا ومجيئها لا يمثل خطورة والثاني خائف منها : ((يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا **وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا** وَيَعْلَمُونَ أنها الْحَقُّ إلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ))[646] ، والأول سوف يفاجئ المفاجأة الرهيبة بيوم القيامة كأنها مفاجأة لم يكن يعرفها كأنه لم يسمع عن شيء اسمه الآخرة لأنه لم يكن يشعر بخطورة الآخرة ، أما الثاني فكان يعيش

(643) البحر المحيط ـ دار الفكر - بيروت (ج : 10 ، ص : 480)
(644) المزمل : من الآية 17
(645) الحج : 2
(646) الشورى : 18

وعنده تهيئة نفسية فلا يفاجئ بالآخرة وإنما هو منتظر مجيئها ومنتظر تحقيق وعد الله تعالى .

ـ عدم الوعي بالآخرة جعل كلمة (الآخرة) إسما فقط بلا مسمى حيث تم إفراغ الكلمة من المعنى والقيمة ، فأصبح اليقين بالآخرة مجرد شكل فقط تم تفريغه من قيمته وتم حجب جميع اثره حيث حدث إفراغ لكلمة (الآخرة) من محتواها الحقيقي فتصبح كأنها عديمة الأهمية ، فيتعامل مع كلمة (الآخرة) كأنها تتحدث عن بشر غير موجودون على الأرض وأن هؤلاء البشر سوف يذهبون لعالم آخر غير الأرض ، إذن فالقضية لا تخصه هو ولا تعنيه ولا تضره ولا تنفعه فلا يشعر بقيمتها ، ولا مانع من أن يوافق عليها فلا يستشعر خطورتها لأنها لا تخصه ، وعندئذ تكون موافقة كاذبة وليست حقيقية ، فهو يتعامل مع المعلومة كأنها تخاطب بشرا آخرين في كوكب آخر ليسوا على الأرض فلا يخصه الأمر ، كأن الكلام ليس موجها له ، أو كأن هذا الكلام باللغة الإنجليزية وهو لا يعرف غير العربية فبالنسبة له كأنه طلاسم .

ـ وأصبح اليقين بالله والآخرة يقين هزلي غير حقيقي وجاد وفعلي يصدر من إنسان سكران يلعب ويلهو كالأطفال ولذلك يقول تعالى : ((مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ، لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ))[647] ، ((إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ))[648] .

ـ الفرق بين اليقين الكاذب واليقين الحقيقي بالآخرة :

ـ إن الآخرة تعني الأهوال والمصير والمستقبل ، فكيف لإنسان عاقل يصدق بهذا ولا تنشغل همومه ومشاعره بمصيره ومستقبله ، ذلك لأن الآخرة ليس لها وجود حقيقي في همومه ومشاعره ، إن الذي يعرف أن هناك آخرة هي مستقبله ومصيره وأنه مسافر إليها ثم لا يشعر بالغربة لأنه مسافر إلى الآخرة ولا يشعر بالخوف والقلق في حين تتعلق مشاعره بالدنيا مع علمه بفنائها وضآلتها فهذا الإنسان لا يوقن بالآخرة يقينا حقيقيا ، فالذي يقول بأن الدنيا ضئيلة فانية والآخرة هي الحياة والمتع الحقيقية ثم تجد مشاعره منقطعة عن الآخرة ومتجهة إلى الدنيا فهو كذاب ، ولو كان صادقا فيما يقول لتعلقت مشاعره بالآخرة ، لأن الدنيا في مشاعره هي الحياة والمستقبل والمصير ، ومن هنا نستطيع أن نفهم معنى الصدق الحقيقي (صدق المشاعر) ، فإن اقتناعه بأن الدنيا ضئيلة فانية والآخرة هي الباقية هو اقتناع كاذب ، وإنما هو يقول بمشاعره : ((إِنْ هِيَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ))[649] رغم أن الاقتناع تام بالآخرة إلا أنه اقتناع كاذب ، فالآخرة في الاقتناع الكاذب عنده خطيرة ومصيرية لكنها في المشاعر ودودة أليفة لا مشكلة فيها وليس لها تأثير حقيقي علي المشاعر ، وغدا سوف يفاجئ بيوم القيامة كأنها مفاجأة لم يكن يعرفها كأنه لم يكن يسمع عن شيء اسمه الآخرة لأنه لم يكن يشعر بخطورة الآخرة ، لأن الذي يشعر بخطورة الآخرة

(647) الأنبياء : من الآية 2،3
(648) الطارق : 13 ، 14
(649) المؤمنون : 37

يعيش وعنده تهيئة نفسية فلا يفاجئ بالآخرة وإنما هو منتظر مجيئها ومنتظر تحقيق وعد الله تعالى .

ـ خوف المهابة من هول الآخرة :

ـ الإنسان في حياته قد يواجهه مشاكل حياتية كثيرة ، عند كل مشكلة قد يغضب ويثور ويتضايق وينفعل ، أما الآخرة عنده فليست بمشكلة رغم أنها الخطر المرتقب والامتحان العصيب والحياة الأبدية ورغم أن الدنيا أيام قليلة تفنى بمشاكلها ، أما الذي يوقن يقينا حقيقيا بحجم الخطر في مشكلة الآخرة أمام ضآلة مشاكل الدنيا فتهون عليه مشاكل الدنيا وتنفعل مشاعره ويقلق ويغضب ويضطرب أمام مشكلة الآخرة .

ـ إن الطالب إذا دخل الامتحان فمن هول الموقف قد يتلعثم ولا يستطيع الإجابة ، وبعض الناس إذا تعرض لصدمة شديدة فإنه قد يفقد الذاكرة ، فنحن في الدنيا في حالة امتحان عصيب عليه رقيب وعتيد لكننا غافلون عنه .

ـ جاء في تفسير المحرر الوجيز : (({ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا } [المائدة : 109] واختلف الناس في معنى قولهم عليهم السلام { لا علم لنا } فقال الطبري ذهلوا عن الجواب لهول المطلع ، وذكر عن الحسن أنه قال : لا علم لنا من هول ذلك اليوم ، وعن السدي أنه قال : نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول فقالوا لا علم لنا ، ثم نزلوا منزلاً آخر شهدوا على قومهم ، وعن مجاهد أنه قال : يفزعون فيقولون لا علم لنا))[650] .

ـ وفي تفسير النيسابوري : (({ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ } [القصص: 65، 66] ومعنى (عميت عليهم الأنباء) أن أخبار المرسلين والمرسل إليهم صارت كالعمى عليهم جميعاً لا يهتدون إليهم فهم لا يتساءلون كما يسأل بعض الناس بعضاً في المشكلات لأنهم متساوية الأقدام في العجز عن الجواب ، وإذا كانت الأنبياء لهول ذلك اليوم يتلعثمون في الجواب عن مثل هذا السؤال كما قال سبحانه { يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا } فما ظنك بضلال أممهم ؟!))[651] .

ـ وفي الحديث : ((إنكم تحشرون حفاة عراة ، قلت : الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض قال إن الأمر أشد من أن يهمهم ذلك))[652] ، وذلك من شدة الخوف من هول الموقف .

ـ إن الذي يقف أمام القاضي ينتظر حكم المحكمة هل يحكم عليه بالسجن أم بالبراءة فهو قلق جدا لدرجة أنه قد لا يستطيع الوقوف على رجليه فيجلس على ركبتيه من هول الترقب والانتظار وليس من التعب ، ففي أيسر التفاسير : (({ وترى كل أمة جاثية } : أي كل أمة

(650) تفسير المحرر الوجيز ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت (ج : 2 ، ص : 256)
(651) تفسير النيسابوري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت (ج : 5 ، ص : 355)
(652) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن النسائي ج : 4 ، ص : 114 ، برقم : 2084)

ذات دين جاثية على ركبها تنتظر حكم الله فيها))[653] ، وفي تفسير الخازن : (({ وترى كل أمة جاثية } أي باركة على الركب وهي جلسة المخاصم بين يدي الحاكم ينتظر القضاء ، قال سلمان الفارسي : إن في القيامة ساعة هي عشر سنين يخر الناس فيها جثاة على الركب حتى إبراهيم ينادي ربه لا أسألك إلا نفسي))[654] ، وفي تفسير الخازن أيضا : (({ وترى كل أمة جاثية } قلت وصفوا بالجثو على العادة المعهودة في مواقف المقالات والمناقلات ، وذلك لما فيه من القلق مما يدهمهم من شدة الأمور التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيجثون على ركبهم جثواً))[655] .

****

الفصل الرابع والعشرون

المعرفة الحقيقية بالجنة والنار

ـ غياب عنصر الوعي (خوف المهابة) أو عدم تأثر المشاعر (الخوف والرجاء) أو غياب الهدف (الرغبة والشوق وقلق الانتظار) للجنة والنار يدل على غياب المعرفة الحقيقية واليقين الحقيقي بالجنة والنار .

ـ فإذا كنت لا تزال لا تشعر بخوف المهابة من مدى ما في الجنة والنار من عجب وخطر فأنت لا تزال لا تعرف ما هي الجنة وما هي النار ، وإذا كنت لا تزال لا تشعر بالشوق للجنة وحب الحور العين والخوف من النار فأنت لا تزال لا تعرف ما هي الجنة وما هي النار .

ـ وإذا كان هدفك المال وشهوات الدنيا والبعد عن مشاكل الدنيا فأنت لا تزال لا تعرف ما هي الجنة وما هي النار ويقينك بهما هو يقين كاذب .

ـ إن متع الدنيا تجد المشتاقون إليها فأين المشتاقون إلى الجنة ؟ ذلك لأن الجنة غير موجودة في المشاعر ، ومَنْ يدعي أنه يشتاق إلى الجنة وليس عنده نفس الحالة النفسية لشخص يشتاق إلى محبوبه فهو كذاب .

ـ اذا سمع الإنسان عن وجود كنز وتأكد من وجوده في مكان ما ، فانه يسعى ويلهث وراءه ويحلم بان يجد فيه الذهب والياقوت والمرجان ويكون ذلك هدفه ، ولكن اذا سمع عن وجود الجنة التي هي كنز هائل به الذهب والياقوت والمرجان فلا تجده يلهث وراءه ولا يشتاق إليه

(653) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (ج :4 ، ص : 62)
(654) تفسير الخازن ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت (ج 5 ، ص : 402)
(655) تفسير الخازن ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت (ج 4 ، ص : 355)

ولا ينشغل به همه ولا يتخيله ولا يحلم به ، ذلك لأن اليقين بالجنة عنده هو في الحقيقة يقين كاذب (نظري فقط) .

ـ الوعي بخطورة الشهوات والآلام ! :

هذه الحياة التي نعيشها في الدنيا هي حياة كاذبة لأن الحياة الحقيقية في الآخرة وإنما الدنيا عبارة عن طريق يؤدي إلى الآخرة ، فنحن الآن في حالة سفر وليس إقامة .

ـ كلمة (الشهوات) تعني الجنة ، وكلمة (الآلام) تعني النار ، ولكن قد تطلق كلمة (الشهوات) مجازا ويقصد بها شهوات الدنيا لكن في الحقيقة لا وجود للشهوات إلا في الجنة ، وكذلك قد تطلق كلمة (الآلام) وما في معناها كالمتاعب والمشاكل وغيرها مجازا ويقصد بها آلام الدنيا ومتاعبها ومشاكلها وهمومها لكن في الحقيقة لا وجود للآلام والمتاعب والمشاكل والأحزان إلا في النار .

ـ وكذلك كلمة (إقامة) وما في معناها كالسكن والمأوى تعنى الإقامة والسكن والمأوى في الحياة الآخرة وليس في الحياة الدنيا لأن الدنيا ليست دار إقامة وسكن ومأوى ، إنما هي مجرد طريق يمر فيه الإنسان ليصل إلى الآخرة ، ولكن قد تطلق هذه العبارات مجازا ويقصد بها الحياة الدنيا .

ـ فما في الدنيا من طعام وشهوات ليس إلا مجرد اسم فقط : ((وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا))[656] ، وفي الحديث : ((يؤتي يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من الكفار فيقال اغمسوه في النار غمسة فيغمس فيها ثم يقال له أي فلان هل أصابك نعيم قط فيقول لا ما أصابني نعيم قط ويؤتي بأشد المؤمنين ضرا وبلاء فيقال اغمسوه غمسة في الجنة فيغمس فيها غمسة فيقال له أي فلان هل أصابك ضر قط أو بلاء فيقول ما أصابني قط ضر ولا بلاء))[657] .

، إذن فالسبب وراء الوقوع في شهوات الدنيا هو أن تصديق الإنسان الحقيقي بشهوات الجنة ضعيف أو غير موجود ، وسبب عدم رضا الإنسان وانفعاله بآلام الدنيا هو أن تصديقه الحقيقي بآلام النار ضعيف أو غير موجود ، فقد يكون الإنسان موقنا بالجنة والنار لكنه يعيش شهوات الدنيا على أنها هي الجنة ويعيش آلام الدنيا على أنها هي النار بالنسبة له .

ـ كل الناس يحبون الشهوات ويحبون النظر إلى العورات ، فمنهم من يرى ذلك في الدنيا فيحبون شهوات الدنيا ويحبون النظر إلى نساء الطين ، ومنهم من يرى ذلك في الجنة فيحبون

(656) البقرة : 25
(657) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن ابن ماجة ج : 2 ، ص : 1445)

شهوات الجنة ويتصورون في عقولهم الحور العين وجمالهن ويشتاقون لهن ويعدون المهر الذي يصلون به إلى الحور العين بالإيمان والتقوى ، وهؤلاء هم العقلاء .

ـ الإنسان يحب متع النساء والخمور والقصور ويعيش لذلك ، فمن الناس من يرى أن هذه المتع في الدنيا فيعيش لها (شرك الإرادة) ، ومنهم مَن يرى أن هذه المتع في الجنة فيعيش لها وقلبه يشتاق إلى نساء الحور العين وجمالهن ولذة الخمور وفخامة القصور .

ـ فالذي يبحث عن شهوة النساء الفاتنات لا يجب أن يبحث عنها في الدنيا وإنما يبحث عنها في الجنة ، والذي يتطلع إلى مسكن فاره أو قصر مشيد يتطلع إلى ذلك في الجنة ، والذي يتطلع إلى أن يشرب الخمور ويرقص مع النساء يتطلع إلى ذلك في الجنة ، وهكذا .

ـ إذن فمن لا يشعر بأي قدر من حب الجنة والشوق لها والتعجب (خوف المهابة) من مدى ما فيها من ألوان النعيم هو في حقيقته يقول بمشاعره أن الجنة أساطير الأولين وحواديت الشاطر حسن ! ، رغم اليقين الكاذب بالجنة ، فالحور العين بالنسبة له كأنهن نساء خيالية وليست نساء حقيقية فيها لذة أمتع من كل نساء العالم ! ، فلو كان موقنا بهن حقا لعاش من أجل الوصول إليهن وزهد في نساء الطين ! .

ـ شهوات الجنة فوق مستوى الخيال وأعجب من السحر :

ـ كل ما يمكن أن تتخيله من المتع والشهوات من نساء فاتنة ساحرة وخمور وكل ألوان الطعام والشراب وكل ألوان المرح والترفيه فشهوات الجنة أكبر من ذلك ، وكل شيء بمجرد أن تتمناه يتحقق لك كأنه سحر لكنه حقيقة ، وكل هذا موجود الآن في الجنة : ((وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ))[658] ، ((وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ))[659] ، ((وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ))[660] ، ((لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ))[661] ، وفي الحديث القدسي : ((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل { فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون }))[662] .

ـ والساحر يسحر لك أشياء تدعو للدهشة والعجب فيحدث خوف من مهابة الأمر ، أما شهوات الجنة فهي فوق مستوى الخيال وأعجب من السحر فضلا عن أنها حقيقة وليس سحرا ، فلماذا لا يحدث خوف من مهابة الأمر ؟ ، ولماذا يحدث الحب والرجاء لشهوات الدنيا ونساءها في حين لا يحدث ذلك لشهوات الجنة التي هي أعظم بكثير ، ذلك لأن اليقين الحقيقي بالجنة وما بها غير موجود مطلقا .

(658) الزخرف : 71
(659) الأنبياء : 102
(660) فصلت : 31،32
(661) ق : 35
(662) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 5 ، ص : 346 ، برقم : 3197)

ـ الشعور بوجود الجنة :

ـ تصور لو أن هناك كوكب آخر في السماء غير الأرض عليه سكان من البشر يعيشون حياة غاية في التطور والرفاهية ، فمن يعيش على هذا الكوكب يعيش في متع متناهية لا حد لها ، وينال كل ما يشتهي ويتمنى ولا يتعب ولا يعمل ، ولكن تركيبة البشر هناك مختلفة عن تركيبة البشر على الأرض ، فهم في شباب دائم وصحة دائمة وأجسادهم مصممة بحيث أنها غير قابلة للمرض أو الموت وهم يأكلون ويتنعمون كيفما شاءوا وكل ما يريدونه يتحقق فورا وكأنه سحر ، لذلك من أراد الوصول إلى هذا الكوكب من سكان الأرض فلابد أن يتغير جسده ويتكون من جديد حيث يموت أولا ثم يتشكل جسده من جديد ثم يُصعد به إلى هناك بدون مركبة فضائية .

ـ فكذلك الجنة موجودة الآن ، وسكانها الآن هم الحور العين ، ومن يصل إليها هم المؤمنون ، وفي كتاب لوامع الأنوار البهية : ((والحاصل أن الجنة فوق السماء السابعة وسقفها العرش ، وأن النار في الأرض السابعة على الصحيح المعتمد))[663] .

ـ أنت إذا نظرت إلى أعلى فإنك ترى الله وترى الجنة لولا أن عين الإنسان فيها مشكلة تجعلها غير قادرة على رؤية الله ورؤية الجنة ، فالجنة موجودة الآن فوق السماء ، وحجمها ضخم جدا حتى أن عرضها يبلغ السماوات والأرض ، وهناك عالم آخر كامل من المعيشة في حياة الخلود في هذه الجنة ، ففي الجنة الآن الحور العين وهن ينظرن إليك ويرونك الآن لأن أعينهن ليس فيها هذه المشكلة التي تمنع من الرؤية ، ففي الحديث : ((لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا))[664] .

ـ اليقين الحقيقي بمتع وملذات الجنة :

ـ تخيل لو أن رجل أخبرك بأنه على موعد مع فتاة جميلة ولكنها تسكن في مكان ما فوق السحاب ، وأنه لن يصعد إليها بطائرة ، ولكنه سوف يصعد إليها بعد أن يموت ! ، لأنه سوف تحل الروح في جثته ثم يطير فوق السحاب ليلقاها ! ، إنك سوف تقول أن هذا هراء وأساطير وخرافات ، فما بالك أن وجود الحور العين أمر أعجب من ذلك ، فأنت فعلا علي موعد مع فتيات حسناوات جميلات في مكان آخر غير العالم الذي نعيش فيه ، وسوف تلقاهن بعد أن تموت ويتحلل جسدك في التراب ، ثم تحل فيك الروح وتذهب للقائهن إن كنت من أهل الإيمان ، وهذا الأمر قريبا جدا فما العمر في الدنيا إلا لحظات ! ، فإذا لم يشعر الإنسان بخوف المهابة من هذا الأمر العجيب فهذا يعنى أنه لم يدرك ويعقل هذا الأمر فيقينه به كاذبا .

(663) لوامع الأنوار البهية ـ مؤسسة الخافقين ـ دمشق (2 / 239)
(664) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 7192 في صحيح الجامع)

ـ تخيل رجل يحب امرأة جميلة ، ويشتاق إلى لقاءها بماذا يشعر ؟ ، فإن الحور العين أجمل من ذلك بكثير واللقاء بهن حق ، فلماذا لا تشعر بالحب للحور العين ؟ ولماذا لا تشتاق وتحلم بلقائهن ؟ ولماذا لا تسبح بخيالك مع فتاة أحلامك من الحور العين فإن كل محبوب يفكر في محبوبه ؟ أليست الحور العين حقيقة أم أنها مصنوعة من البلاستيك ؟ ، وأليس الوصول إليهن قريبا جدا ؟ ففي الحديث : ((الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إلى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ))[665] ، وإذا كانت حور الطين يلهث وراءها الكثيرون ويعيشون من أجلها فما بالك بحور العين ، إن لكل إنسان مقعده من الجنة ومقعده من النار ، فهل تشعر أن الحور العين الآن تشتاق إليك وتنتظرك إلى أن تلقاها ، إن كلمة (الحور العين) هي كلمة موجودة وراسخة في الاقتناع الكاذب لكن في المشاعر لا يوجد شيء اسمه الحور العين .

ـ تخيل مكانا ما به كل ألوان المتع والملذات من نساء وخمور ورقص وطعام وشراب ، فإن الجنة بها أعجب من كل ذلك ، فلماذا لا تشعر بجب الجنة وتشتاق للوصول إلى متعها ؟ ، أين الرغبة الحقيقية والشوق إلى الجنة ؟ .

ـ تخيل لو علم الناس بوجود كنز كبير يمكن الوصول إليه ، تصور كيف ستكون مشاعرهم متجهة بالشوق للوصول لهذا الكنز ، وسوف يشغل ذلك الكنز بالهم وأكثر همهم ، فالجنة كنز حقيقي هائل لا ينفد فلماذا لا تتجه إليه المشاعر والتطلعات مثلما تتجه لكنز من كنوز الدنيا ؟ ، ذلك لأن ذلك الكنز الحقيقي (الجنة) في مشاعر البعض إنما هو كلاما نظريا فقط كأساطير الأولين !! .

ـ تخيل أن العلم قد توصل إلى طريقة تجعل الإنسان يعود من الشيخوخة إلى الشباب ولا يمرض ولا يموت ، فسوف تجد الناس يتسابقون إلى ذلك ويدفعون في ذلك كل ما يملكون ولكان ذلك كل همهم وكل هدفهم وكل مشاعرهم ، فالإنسان في الجنة يعود من الشيخوخة إلى الشباب ولا يمرض ولا يموت ويعيش في متع أبدية ولا يوجد ما يعكر مزاجه أو يشغل باله ، ورغم ذلك لا تجد أي شعور أو رغبة أو انشغال الهم بهذا الإعجاز الهائل القريب جدا ، ذلك لأن الجنة مجرد يقين كاذب وليست يقينا حقيقيا .

ـ وفي الحديث : ((إن الرجل من أهل الجنة ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والشهوة والجماع ، حاجة أحدهم عرق يفيض من جلده فإذا بطنه قد ضمر))[666] ، وفي حديث آخر : ((يعطى المؤمن في الجنة قوة مائة في النساء))[667] ، فالجماع في الجنة مائة ضعف الجماع في الدنيا وهو في ريعان الشباب (في سن 33 سنة) ويستطيع الإنسان ذلك لأنه يعطى قوة مائة ففي حديث آخر : ((يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع قيل يا رسول الله أويطيق ذلك قال يعطى قوة مائة))[668] ، وفي حديث آخر : ((إذا دخل أهل الجنة

(665) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 3115 في صحيح الجامع)
(666) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 1627 في صحيح الجامع)
(667) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم: 8106 في صحيح الجامع)
(668) قال الشيخ الألباني : حسن صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 677 ، برقم : 2536)

الجنة ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا وذلك قول الله عز وجل : { ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون }))[669] ، وفي حديث آخر : ((... قال فكل من يدخل الجنة على صورة آدم وطوله ستون ذراعا فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن))[670] ، فلماذا لا تشعر بالحب لأن تكون كذلك ؟ ، إن الإنسان الذي يعيش للدنيا هدفه أن يأكل ويشرب ويتمتع بكل ألوان الراحة ، وكذلك الإنسان الذي يعيش للآخرة يريد أن يأكل ويشرب ويتمتع بكل ألوان الراحة ولكن أي طعام وأي متعة ؟ ، إنه يريد المتع الحقيقية التي لا تفني والتي لا يحيطها مخاوف بالمرض أو الشيخوخة أو الموت أو سلب النعمة ، إنه يريد المتع الدائمة والشباب الدائم وحياة لا يموت فيها ولا يمرض ، وحياة بها الفاتنات الحسناوات من الحور العين .

ـ تأمل قوله تعالى : ((لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ))[671] ، فكل ما تتمنى يتحقق فورا وتراه حقيقة وليس سحرا ، فقد ورد أن رجلا من أهل الجنة اشتهى أن يزرع فبذر فنما الزرع سريعا وكان كالجبال ففي الحديث : ((إن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع فقال له ألست فيما شئت قال بلى ولكن أحب أن أزرع فبذر فبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده فكان أمثال الجبال فيقول الله دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء))[672] .

ـ لو أن امرأة من نساء أهل الجنة نظرت من نافذة مثلا وهي في الجنة إلى الأرض فإن نور جمالها سوف يضيء الدنيا ، ورائحة العطر الذي فيها سوف يملأ الدنيا عبقا ، والزينة التي تظهر على رأسها أجمل من كل الجمال الذي في الدنيا ، ففي الحديث : ((ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحا ولأضاءت ما بينهما ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها))[673] ، فأين الذين يبحثون عن الشهوات ؟ ، فهذه هي الشهوات الحقيقية .

ـ تخيل أننا الآن في الجنة ونذكر أيام الدنيا وما كان فيها ، فما قيمتها وما قدرها عندئذ ؟ ، إنها كانت أيام قليلة وحياة ضئيلة انتهت ولا قيمة لها ، أما نحن الآن (في الجنة) فهذه هي حقا الحياة نعيش فلا نموت ولا نمرض ونتمتع كيفما نشاء .

ـ أنظر إلى مدي لذة النظر إلى الله تعالى التي هي أعظم من كل لذات الجنة ، فهل من مشتاق إلى الجنة من أجل أن يستمتع بلذة النظر إلى وجه الله تعالى .

ـ إذا نظر الإنسان إلى منزل جميل واسع أو شقة جميلة واسعة بها كل أدوات الترفيه والراحة أو إذا نظر إلى سيارة فارهة أو قصر مشيد أو .... الخ ، فإن الإنسان قد يحدث عنده شعور

(669) التخريج : صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ج : 3 ـ رقم : 3771)
(670) متفق عليه (مشكاة المصابيح ج : 3، رقم : 4628)
(671) قّ : 35
(672) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 2080 في صحيح الجامع)
(673) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5116 في صحيح الجامع)

بالانبهار والإعجاب والشوق لأن يكون عنده مثل ذلك ، وقد يسعى سنوات طويلة وعنده طول أمل أن يحصل على سيارة فارهة أو شقة واسعة أو ..... الخ ، إذن هذا الإنسان بداخله أمل وشوق وشعور بالإعجاب والانبهار ، فإذا كانت الجنة أفضل من الشقة الواسعة أو السيارة الفارهة أو ...الخ ، فلماذا لا يشعر الإنسان بهذا الإعجاب وهذا الأمل والشوق للوصول إليها ؟ ، ذلك لأن الجنة غير موجودة في المشاعر ، ففي المشاعر هي خيال أو وهم أو شيء مصنوع من البلاستيك لا معنى له ، أو شيء بعيد الاحتمال تماما أو كلاما نظريا فقط كأساطير الأولين ، رغم وجود الاقتناع النظري التام واليقين النظري التام بوجود الجنة ، فذلك اقتناع كاذب ويقين كاذب بوجود الجنة والوصول إليها .

ـ نعيم الدنيا ونعيم الجنة مجرد تشابه في الأسماء ، ففي الحديث : ((ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء))[674] ، أما النعيم الحقيقي فهو في الجنة : ((وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ))[675] ، وفي الحديث : ((إن مطعم ابن آدم قد ضرب مثلا للدنيا وإن قزحه وملحه فانظر إلى ما يصير ، وفي حديث آخر : ((والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم يرجع))[676] .

ـ إن شهوات الدنيا ضئيلة حتى وإذا حاول الإنسان أن يكثر منها فإن اللذة منها تقل عندئذ حتى تنتفي كأن يكثر من الطعام أو الشراب أو الجماع أو ينظر إلى عورات النساء ، بل يتعرض عندئذ للأمراض ، كما أن المتع تقل مع كبر عمر الإنسان خاصة عندما يصل إلى الشيخوخة ويعود إلى الضعف مثلما كان طفل ضعيف ، ولذلك يقول تعالى : ((وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ))[677] ، أما في الجنة فلا يحدث أن تقل اللذة مهما أكثر الإنسان من ألوان المتع : ((لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ))[678] ، إن شهوات الدنيا كما أنها ضئيلة فليست سهلة المنال أيضا ولابد من السعي والتعب ، فالحصول على الدنيا ليس أمرا سهلا ، فإن المتنافسين على الدنيا كثير وطلاب الدنيا كثير ، وهم يتقاتلون ويتشاحنون عليها ، ويتشبثون بها بأيديهم وأسنانهم ، ومن يأتي بينهم ليتنافس على الدنيا لا يرقبون فيه إلا ولا ذمة فيأكلوه ، ورغم أن متاع الدنيا قليل لكن الشيطان يزين للإنسان كل ما هو حرام لكي يجره إلى أن يقع فيه فيصور له أن في ذلك نفع عظيم له أو متعة عظيمة له كما فعل مع آدم عليه السلام : ((فَوَسْوَسَ إليه الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى))[679] ، ومهما فعل الإنسان فالدنيا دار شقاء : ((لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ))[680] ، أما

(674) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5410 في صحيح الجامع)
(675) البقرة : 25
(676) تحقيق الألباني (صحيح) انظر حديث رقم : 7100 في صحيح الجامع
(677) يّس : 68
(678) الواقعة : 19
(679) طـه : 120
(680) البلد : 4

شهوات وطعام وفواكه الجنة ((لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ))[681] ، وفي الحديث : ((قالوا يا رسول الله رأيناك تناولت شيئا في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت قال إني رأيت الجنة أو أريت الجنة فتناولت منها عنقودا ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا))[682] .

ـ فلا يتحقق الإيمان حتى يزول تعظيم قيمة المال وقيمة الشهوات الدنيوية وقيمة الطعام والشراب الدنيوي في نظر الإنسان ، وحتى تكون شهوات الجنة لها قيمة حقيقية في النفوس وقدر وأهمية ، بمعنى أن تكون قيمة شهوات الجنة وما فيها من نعيم دائم أعظم بكثير من قيمة ما في الدنيا من شهوات فانية ، فيؤدي ذلك إلى أن يكون تعلق المشاعر بالله والآخرة أكبر ، فهو بذلك يرى الآخرة أفضل وأدوم فيختار الآخرة : ((وَلَلْآخِرَةُ أكبر دَرَجَاتٍ وَأكبر تَفْضِيلاً))[683] ، ((وَالآخرة خَيْرٌ وَأَبْقَى))[684] .

ـ المعرفة الحقيقية لمعنى الخلود في الآخرة :

ـ قارن بين قصر العمر في الدنيا وطول العمر الأبدي في الآخرة ((أَفَرَأيتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ، ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ، مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ))[685] ، فالعمر ما هو إلا يومان يوم ذهب وباقي يوم ، وفي الحديث : ((الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إلى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ))[686] .

ـ الخلود في الآخرة ليس أمر بسيط يمكن أن نمر عليه مر الكرام ، فالخلود في النار معناه أن يظل الإنسان في العذاب داخل النار ليس لمدة ساعة ـ وإن كان ذلك مروع جدا ـ وليس لمدة يوم كامل ، ولا لمدة شهر ولا سنة ولا مائة سنة ولا مليون سنة ولا مليار سنة ولكن للأبد من غير أن يموت ، فمقارنة ذلك بأيام الدنيا وآلامها تكون الدنيا لحظات ، حتى لو عاش الإنسان في الدنيا مائة عام تكون لحظات تمضي سريعة ، وكذلك الخلود في نعيم الجنة وملذات الجنة ليس لمدة يوم ـ وإن كان ذلك غاية في المتعة ـ وليس لمدة شهر ولا سنة ولا مائة سنة ولا مليون سنة ولا مليار سنة ولكن للأبد من غير أن يموت ، إنها السعادة الأبدية في متعة ولذة بلا حدود وإلى الأبد ومع الجميلات الفاتنات الساحرات من الحور العين ، قارن هذا أمام السنوات الحقيرة المعدودة في الدنيا ، فلا وجه للمقارنة أصلا ، فإنك في الجنة سوف تبقي شباب للأبد بلا مرض ولا ضعف ولا موت مع كل ألوان المتع .

ـ فإذا كانت مشاعر الإنسان تتعلق بسعادة مدتها ثانية ـ هي سعادة الدنيا ـ فهو لا يزال لا يعرف معنى الخلود في الجنة ولا يزال غير موقنا بالخلود في الجنة يقينا حقيقيا ، وهو أحمق لا يعقل .

(681) الواقعة : 33
(682) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن النسائي ج : 3 ، ص : 146 ، برقم : 1493)
(683) الإسراء : من الآية 21
(684) الأعلى : 17
(685) الشعراء : 205 - 207
(686) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 3115 في صحيح الجامع)

ـ إن كل شيء منتهي فهو ضئيل ، وكل شيء خالد فهو عظيم ، فالدنيا زائلة ومنتهية وليس فيها خلود ، والمتع والشهوات التي تنتهي لا قيمة لها ، ولكي يشعر الإنسان بذلك يسال نفسه : وماذا بعد أن يأكل ويشرب وينام ويعمل ويتمتع ويقوم بأمور الدنيا ؟ ، فالإجابة أن كل ذلك إلى زوال وبعد ذلك القيامة .

ـ قال مالك بن دينار : ((لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى فكيف والآخرة من ذهب يبقى والدنيا من خزف يفنى))[687] .

ـ الفرق بين اليقين الكاذب واليقين الحقيقي بالجنة :

ـ كل الناس يوقنون أن جميع متع وملذات الدنيا ليست بشيء أمام متع وملذات الجنة ، لكنه عند البعض يقينا كاذبا لأنهم لا يتصورون مدى لذة هذه المتع ومدى تحققها ، فلا يشعرون بالشوق والحب لمتع الجنة ولا ينشغل بالهم بلقاء الحور العين ، في حين تتعلق مشاعرهم وتتأثر بمتع وملذات الدنيا فقط ، فحقيقة ما في شعورهم أن المتع والملذات إنما هي في الدنيا فقط أما متع الجنة فهي أمر كلامي بعيد المنال ، فحقيقة أمرهم أنهم لا يوقنون بالجنة يقينا حقيقيا .

ـ المعرفة الحقيقية بالجنة :

ـ يتحدد ذلك من خلال عنصر الوعي أو وجود أثر المعرفة الحقيقية كالتالي :

1ـ وجود عنصر الوعي ، ويتمثل ذلك في الشعور بخوف المهابة من مدى ما في الجنة من متع ولذات عجيبة جدا ومذهلة وتفوق كل التصورات والانبهار بها .

2ـ وجود أثر المعرفة الحقيقية ويتمثل في المشاعر والهدف ، أي وجود الشعور بالشوق والحب للجنة والشعور بالأمل والرجاء فيها والشعور بالخوف من فواتها ، والشعور بالصبر والترقب والانتظار للوصول إليها .

ـ فعندما يسمع الإنسان أن هناك شيئا فيه ألوان هائلة من المتع ، فإنه يحب ذلك الشيء ، فالجنة فيها كل ألوان المتع والملذات فإذا لم تشعر بلذة الحب للجنة ، فهذا معناه أن اليقين الحقيقي بوجود الجنة غير موجود .

3 ـ وجود حقيقي للمشاعر وليس التوهم بوجودها ، ويتضح ذلك من خلال وجود الحالة النفسية المميزة للحب والشوق والرغبة في الجنة ، فالحب صورة من صور الشعور باللذة ، فإذا لم يشعر الإنسان باللذة فهو لا يحب ، فالحب عبارة عن متعة ولذة ، فمن لم يجد في محبة الجنة متعة ولذة فهو لا يحب الجنة .

(687) أضواء البيان ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان (ج : 8 ، ص : 504)

ـ وكثيرا من الناس يدعون حب الجنة والشوق إلى الحور العين فهل عندك نفس الحالة النفسية التي عند محب يشتاق إلى محبوبته ؟ ، إذن فالحور العين لا وجود لها في مشاعرك ، إنما هي في الاقتناع الكاذب وليست في الشعور ، كأنها مصنوعة من البلاستيك وليست نساء جميلات .

****

ـ المعرفة الحقيقية بالنار

ـ لا يمكن لعاقل أبدا يوقن بالنار أن ينسى النار ، ذلك المصير المرعب الذي يخشاه كل عاقل ، فالعاقل يكون دائم التفكير في ذلك الخطر الهائل وكيفية تفاديه .

ـ الشعور بوجود النار :

ـ إن الغرض الأصلي من وجود النار في الدنيا هو أنها تذكرة لنار الآخرة : ((نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ))[688] ، ولو كانت نار الآخرة كذلك لكفت ، ففي الحديث : ((ناركم هذه التي توقدون جزء واحد من سبعين جزءا من حر جهنم ، قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله قال فإنها فضلت بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها))[689] .

ـ لو كانت الشمس هي نار الآخرة لكانت كافية ، فيمكن أن نتخيل أن الشمس هي نار الآخرة ، فإذا رأينا مدى حجمها وشدة نارها بحيث أنها يمكن أن تبتلع الأرض ومن عليها ولا يمثل ذلك سوى واحد على مليون من حجمها ، وشدة نارها تصل إلى ملايين الدرجات المئوية ، وحر الصيف الذي نعيشه هو مجرد اقتراب بسيط جدا من الشمس فنحن على مسافة هائلة منها ، فالشمس عبارة عن كتلة هائلة من النار معلقة في الفضاء ونحن على الكرة الأرضية ندور حول هذه الشمس في دورة كل عام ، فإذا ما تصورنا حجم هذه النار ووجودها وأننا ندور حولها وأثرها الواصل إلينا فيمكننا أن نتصور مدى خطورة نار الآخرة الأكثر شدة والتهابا .

ـ وحيث أن وجود هذه الشمس التي هي نار معلقة في الفضاء أمر عجيب وخارق للأسباب حيث أنها لا تقع وحيث أنها بهذه الشدة والالتهاب وحيث أنها ما زالت موقدة ولم تنطفئ على مدى ملايين السنين من قبل خلق البشر أساسا ، فما بالك إذن بنار الآخرة .

ـ وجميع النجوم مثل الشمس عبارة عن نار هائلة معلقة في الفضاء ، ومنها ما هو أضخم من الشمس ملايين المرات ، وهذه النجوم ما هي إلا زينة للسماء فانظر إلى مدى قدرة الله تعالى .

ـ ونار الآخرة موجودة الآن وبالطبع هي أضخم من كل هذه النجوم .

(688) الواقعة : 73
(689) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 709 ، برقم 2589)

ـ الشعور بمدي عذاب وألم النار :

ـ إذا ذهبت إلى قسم الحرائق بأحد المستشفيات ونظرت كيف تفعل النار في الجسم ، بماذا تشعر ؟ ، وهذا بعد أن حدث الحريق فما بالك لو رأيت حادثة ما فيها أحداً يحترق ، وما بالك إذا كنت أنت المصاب في هذه الحادثة ؟ ، إن أهل النار يسمع لجلودهم أزيز من الاحتراق مثلما توضع الدجاجة في النار لتشوي ، فما بالك لو أنك أنت في مكان هذه الدجاجة .

ـ فإذا لم يتحقق عندك الشعور بالخوف من مهابة النار والخوف من الوقوع فيها فإن النار في مشاعرك لا تنفع ولا تضر مثل النار التي وضع فيها سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فإن نار الآخرة في الاقتناع النظري عذابها شديد أما نار الآخرة في مشاعر البعض فإنها نار لا تحرق قد سلبت منها خاصية الإحراق ، فنار الآخرة لا وجود لها في مشاعر البعض .

ـ ومما ورد في عذاب أهل النار ما جاء في تفسير ابن كثير : (((ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ) .. قال ابن عباس : { فاسلكوه } تدخل في إسته ثم تخرج من فيه ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود حين يشوى))[690] ، وفي تفسير القرطبي : ((وقال مقاتل لو أن حلقة منها وضعت على ذروة جبل لذاب كما يذوب الرصاص ، وقال كعب إن حلقة من السلسلة التي قال الله تعالى { ذرعها سبعون ذراعا } أن حلقة منها مثل جميع حديد الدنيا))[691] ، وفي الحديث : ((لو كان في هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون وفيهم رجل من أهل النار فتنفس فأصابهم نفسه لاحترق المسجد ومن فيه))[692] ، وفي الحديث : ((إن في النار حيات أمثال أعناق البخت يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا ، إن فيها لعقارب كالبغال الموكفة يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا))[693] ، وفي الحديث : ((لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن تكون طعامه))[694] .

ـ الشعور بضآلة آلام الدنيا أمام ألم النار :

ـ إن نار الآخرة أمر أبعد من كل تصوراتنا وخطر من أشد ما يمكن ، وإذا وضعت مقارنة بين نار الآخرة وكل مخاوف الدنيا وآلامها فإنها لا تساوي شيئا ، وفي الحديث : ((يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنَ الْكُفَّارِ فَيُقَالُ اغْمِسُوهُ فِي النَّارِ غَمْسَةً ، فَيُغْمَسُ فِيهَا ثُمَّ يُقَالُ لَهُ أي فُلاَن هَلْ أَصَابَكَ نَعِيمٌ قَطُّ ، فَيَقُولُ لاَ مَا أَصَابَنِى نَعِيمٌ قَطُّ ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ الْمُؤْمِنِينَ ضُرًّا وَبَلاَءاً ، فَيُقَالُ اغْمِسُوهُ غَمْسَةً فِي الْجَنَّةِ ، فَيُغْمَسُ فِيهَا غَمْسَةً فَيُقَالُ لَهُ أي فُلاَن هَلْ أَصَابَكَ ضُرٌّ قَطُّ أو بَلاَءٌ فَيَقُولُ مَا أَصَابَنِى قَطُّ ضُرٌّ وَلاَ بَلاَءٌ))[695] .

(690) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 8 ، ص : 216)
(691) تفسير القرطبي [الجامع لأحكام القرآن] ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة (ج : 18 ، ص : 272)
(692) حديث صحيح (صحيح الترغيب والترهيب برقم 3668)
(693) حديث صحيح (السلسلة الصحيحة برقم 3429)
(694) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5250 في صحيح الجامع)
(695) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن ابن ماجه ج :2، ص : 1445 ، برقم : 4321)

ـ فلا ألم في ألم بعده الجنة ولا راحة في راحة بعدها النار ، لذلك فالعاقل يستوي عنده ألم الدنيا مع نعيمها فكلاهما لعب ولهو : ((لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ))[696] ، فقارن بين مخاوف الدنيا الفانية وبين الشقاء إلى الأبد فتعيش في عذاب بلا حدود وإلى الأبد ، فإن كل آلام الدنيا وهمومها وأحزانها ومشاكلها ليست بشيء أمام آلام النار .

ـ ومن لم يشعر بالفارق بين آلام الدنيا وألم النار فقد يبيع إيمانه مخافة آلام الدنيا ويسقط في اختبار الابتلاءات : ((وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ))[697] ، أما من شعر بهذا الفارق لم تهمه آلام الدنيا ، وفي الحديث : ((لو أن رجلا يجر على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرما في مرضاة الله تعالى لحقره يوم القيامة))[698] .

ـ إن كل آلام الدنيا ومشاكلها وهمومها ليست بشيء أمام ألم النار يوم القيامة ، فمن كان يشعر بألم الكراهية والضيق لآلام الدنيا ومشاكلها وهمومها وخطورتها ولا يشعر بألم الكراهية والضيق والاشمئزاز لآلام النار في الآخرة (خوف المهابة من شدة النار وخوف الوقوع فيها) فذلك لأن النار في مشاعره خيال وأساطير الأولين ! .

ـ المعرفة الحقيقية بالنار :

ـ يتحدد ذلك من خلال عنصر الوعي أو وجود أثر المعرفة الحقيقية كالتالي :

1ـ وجود عنصر الوعي ، ويتمثل ذلك في الشعور خوف المهابة لمدى عظم حجم النار وعظم آلامها .

2ـ وجود أثر المعرفة الحقيقية ويتمثل في المشاعر والهدف ، أي وجود الشعور بالكراهية الشديدة للنار والاشمئزاز والضيق والألم والنفور عند تذكرها ، والشعور بخوف العقاب من دخول النار ، والشعور بالأمل والرجاء في النجاة منها ، فمن لم يشعر بهذه المشاعر فهو لا يوقن يقينا حقيقيا بوجود النار .

ـ فأنت إذا ذهبت إلى قسم الحرائق بأحد المستشفيات ونظرت كيف تفعل النار في الجسم ، بماذا تشعر ؟ ، إنك تشعر بالتألم من فظاعة ومن مهابة الأمر ، رغم أن الأمر لم يحدث لك أنت وليس فيه ضرر عليك ، وكذلك إذا سمعت عن حادثة مروعة فيحدث تألم وخوف من رهبة الأمر وفظاعته ، فإذا لم يحدث هذا التأثر فهذا معناه أنك لا تعي ولا تدرك حقيقة ما رأيت أو سمعت كأنك لم تسمعه ولم تعلمه .

(696) الحديد : 23
(697) العنكبوت : من الآية 10
(698) تحقيق الألباني : حسن (انظر حديث رقم : 5249 في صحيح الجامع)

3 ـ وجود حقيقي للمشاعر وليس التوهم بوجودها ، ويتضح ذلك من خلال وجود الحالة النفسية المميزة للخوف والكراهية ، فإذا قارنت بين الحالة النفسية للخوف من أي أمر دنيوي وبين الحالة النفسية للخوف من الآخرة والنار تجد حالة خوف حقيقية هائلة في النفس من الأمر الدنيوي في حين لا تجد أي شعور نفسي حقيقي عند مَنْ يدعي الخوف من النار ، وإذا افترضنا أنه وُجد فلا يساوي واحد علي ألف من أقل شيء مخيف في الدنيا ، إذن فالنار لا وجود لها في مشاعرك ، إنما هي في الاقتناع الكاذب وليست في الشعور ، كأنها حدوتة تستخدم لتخويف الأطفال ! .

****

الفصل الخامس والعشرون

المعرفة الحقيقية بالآيات الكونية

ـ كل الناس يعرفون أن الكون وما به يدل على الخالق ، ولكن هذه المعرفة نظرية فقط عند الكثير .

ـ فمجرد المعرفة النظرية أن وراء الأشياء قوة خفية لا يكفي ، فلابد من الوعي والانتباه إلى غرابة الأمر والتعجب منه والشعور بمهابة الأمر فعندئذ فقط يتحقق اليقين الحقيقي بآيات الله الكونية .

ـ الهدف من التفكر ليس المعرفة النظرية بأن للكون خالق ولكن المعرفة الحقيقية بأن للكون خالقا ، أي أن الهدف من التفكر هو حدوث خوف المهابة وبقاء خوف المهابة في النفس وما ينشأ عن ذلك من الحب لله والشعور بذل النفس .

ـ وظيفة التفكير الطبيعية :

ـ إذا وصل إلى علم الإنسان بأن هناك شيء غامض أو لغز أو مشكلة أو أمر خطير ومهم ، فذلك يجعل الإنسان يفكر ما هو هذا الشيء وماذا أصنع ؟ .

ـ وجود هذا الكون الهائل هو لغز يدعو الإنسان لمعرفة سر وجوده ، والموت لغز يدعو الإنسان لمعرفة ما هو وماذا بعده ، ووجود الإنسان لغز يدعو الإنسان لمعرفة سر وجوده والهدف من وجوده .

ـ فلا يوجد شيء أخطر من أن يعرف الإنسان من الذي صنع كل هذه الأشياء والكائنات معرفة حقيقية .

ـ حتى يتحقق التصور لحقيقة الأشياء من حولنا لابد أن نتعامل مع الأشياء كأننا نراها لأول مرة :

ـ أي ينظر الإنسان إلى ما حوله من الأشياء كأنه يراها لأول مرة ويسأل : ما هذا ؟ وكيف وجد ؟ ومن الذي أوجده ؟ ويتصور مدى قوة وعلم من صنعها ، وفي كل مرة يرى الشيء يكون كأنه يراه لأول مرة ولو رآه ألف مرة وذلك لخطورة ما يرى ومدى غرابته .

ـ وهذا أمر طبيعي فلو أن تمثالا مصنوعا من الطين نُفِخت فيه الروح فأصبح بشرا يتحرك ، ماذا يمكن أن يقول ويفعل ؟ ، إن أول شيء يعمله هو أن يسأل نفسه من أنا ؟ ، ومن أي شيء أتيت ؟ ولماذا ؟ ، وينظر إلى نفسه فيجد نفسه بعد أن كان طينا أصبح يتحرك فيسأل نفسه ما سر هذه الروح ومن أوجدها ولماذا ؟ ، وينظر حوله فيجد أرض وجبال وسماء وأشياء فيسأل ما هذا ؟ ومن الذي أوجده ؟ ولماذا ؟ ، ويتصور الإجابة على هذه الأسئلة وليس فقط يعرفها نظريا .

ـ والأمر الخطير الذي يلفت انتباه الإنسان في النظر إلى الأشياء هو عجز الإنسان عن إيجاد ذلك الشيء وأنه لا يرى الذي أوجده ، والتعجب من مدى قدرة من أوجده .

ـ الإنسان لا يستطيع أن يصنع نفسه ولا أحدا غيره من البشر ، فيدل ذلك على وجود قدرة أكبر من قدرة الإنسان ، ويدل على أن صاحب هذه القدرة هو الذي صنع الإنسان وخلقه ، وكذلك كل هذا الكون لا يستطيع الإنسان إيجاده ، فيدل ذلك على وجود قدرة أكبر من قدرة الإنسان ، ويدل على أن صاحب هذه القدرة هو الذي صنع كل هذا الكون .

ـ التصور السليم للكون والأشياء يكون في خمسة نواحي :

1ـ تصور القدرة :

ـ عجز الإنسان عن إيجاد ذلك الشيء يدل على أن هناك قوة خفية هي التي أوجدت ذلك الشيء :

ـ يسأل الإنسان نفسه : من الذي أوجد ذلك الشيء ؟ ، الإنسان لا يستطيع إيجاده ، وغير الإنسان من المخلوقات لا تستطيع إيجاده ، والشيء نفسه لا يمكن أن يكون هو الذي أوجد نفسه ، إذن هناك قوة خفية هي التي أوجدت ذلك الشيء .

ـ معنى كلمة (معجزة) أي أن ذلك الشيء لا يستطيع البشر أو غيرهم من المخلوقات القيام بذلك الأمر ، إذن فكل شيء حول الإنسان هو معجزة .

ـ والمعجزة أمر خطير جدا يلفت الانتباه ويجعل الإنسان يشعر بخوف المهابة من حدوث ذلك الأمر .

ـ وصاحب القوة الخارقة التي استطاعت إيجاد ذلك الشيء يشعر الإنسان بخوف المهابة من مدى قوته وبحب الإعجاب بمدى قوته والشعور بالضعف والخضوع تجاه هذه القوة .

ـ فمثلا هذا الكون لا يمكن أن يكون هو الذي أنشأ نفسه ، ولا يستطيع الإنسان إيجاده ، فلابد من وجود أحدا لا نراه له قدرة هائلة فوق قدرة الإنسان هو الذي أوجده ، وكذلك الحيوانات ، وكذلك الإنسان نفسه .

ـ والأشجار تعني خروج كائن حي من بذرة ميتة وتعني تحول الطين إلى خشب وثمار ومن غير أن نرى أحدا يقوم بهذه الأمور الهائلة ، وهذه الأمور فوق قدرة الإنسان وفوق قدرة الشجرة نفسها فهي إعجاز خارق للأسباب ، فلابد أن الذي يقوم بهذه الأمور لا نراه ولابد أن له من القدرة الهائلة فوق قدرة الإنسان ، فهو يقدر على أن يحي الموتى ويقدر على تحويل الطين إلى طعام مقصود به الإنسان ، وهذا معناه شعور بالتحير والذهول والانبهار من مدى قدرة الخالق ، وشعور بالضعف والعجز أمام قدرته ، أما الذي ألف النظر إلى الأشجار ولم يشعر بذلك فهو لم يفقه ويفهم ويعقل ماذا تعني كلمة شجرة ، وهكذا .

ـ إنه لا يمكن لسمكة زينة أن يكون في داخلها أنظمة هي التي تختار هذه الألوان بطلاقة وعناية ودقة فائقة ثم كيف يتشابه نفس هذه الأنظمة في جميع الأسماك من نفس النوع ؟ ، إنها ليست مسألة داخل الجسم ولكنها إرادة خارجية من قوة خارقة هي التي صممت هذا الجمال والإبداع .

2ـ تصور العلم :

ـ عجز علم الإنسان أو علم الشيء نفسه عن القيام بوظائف معقدة غاية في الدقة يدل على أن هناك علم هائل هو الذي صمم هذه الوظيفة المعقدة بمنتهى الدقة :

ـ يسأل الإنسان نفسه : من الذي أوجد هذه الوظائف المتداخلة المعقدة ؟ ، الإنسان لا يستطيع ذلك ، والشيء نفسه ليس لديه علم يستطيع به القيام بهذه الوظائف المعقدة في نفسه ، إذن هناك قوة خفية لها علم هائل هي التي صممت هذه الوظائف .

ـ معنى كلمة (معجزة) أي أن ذلك الشيء لا يستطيع البشر أو غيرهم من المخلوقات القيام بذلك الأمر ، وكل شيء فيه وظائف فوق قدرة الإنسان ، إذن فكل شيء حول الإنسان هو معجزة .

ـ والمعجزة أمر خطير جدا يلفت الانتباه ويجعل الإنسان يشعر بخوف المهابة من حدوث ذلك الأمر .

ـ وصاحب القوة الخارقة التي استطاعت تصميم تلك الوظائف يشعر الإنسان بخوف المهابة من مدى قوته وبحب الإعجاب بمدى هذه القوة والشعور بالضعف والخضوع تجاه هذه القوة .

ـ فمثلا الإنسان يحدث داخل جسمه وظائف معقدة جدا غاية في الدقة ، فلا يمكن أن تحدث هذه الوظائف من تلقاء نفسها ولا يمكن لعلم الإنسان أن يقوم بها ، فلابد من وجود أحدا لا نراه له علم هائل فوق علم الإنسان هو الذي صمم هذه الوظائف المعقدة .

ـ الكائنات الحية تعمل أشياء أكبر من مستوى قدراتها وإمكانياتها وعلمها مما يدل على أن هناك قوة خارجية هي التي تعمل ذلك ، فمثلا الجنين فور الولادة يتجه لثدي أمه ويرضع فمن علمه ذلك ؟ ، والحيوانات تقوم بأعمال تحميها من العدو ، وبعض النباتات تتحور بشكل يحافظ عليها ، فتقوم الكائنات بأعمال فطرية هي لا تعقلها رغم أنها أعمال في منتهى العقل والحكمة فلابد أن هناك من علمها ذلك وأن هناك قوة خارجية هي التي تحركها وتعلمها ، والأمثلة على ذلك لا حصر لها ، وذلك مصداقا لقوله تعالى : ((قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى))[699] ، والكرة الأرضية متناسبة في البعد عن الشمس بحيث لا تكون جليدا ولا تكون منصهرة من الحرارة حتى تكون متناسبة لمعيشة الإنسان وهكذا ، فكل ذلك يدل على أن كل هذه الأمور موضوعة بحكمة وبقصد وأن هناك من رتب لها ذلك ، فكل شيء محسوب بحسابات في منتهى الدقة بحيث لو زادت أو قلت ذرة واحدة لاختل الأمر سواء في جسم الإنسان أو في الأجرام السماوية أو في أي شيء ، فهذا يدل على وجود صانع عليم حكيم خبير .

ـ تركيب الأجهزة التناسلية في الرجل والمرأة والتكامل بينهما لم يصنعها الإنسان ، وجسم الرجل لا يعرف تركيب الجهاز التناسلي للمرأة حتى يصنع نفسه بصورة تتكامل مع الجهاز التناسلي للمرأة ، وطريقة حصول الإنسان على اللذة لم يصنعها الإنسان فهي تتم بأمور دقيقة جدا أكبر من قدرة الإنسان ، فلابد من وجود صانع له قدرة هائلة ، لكن الإنسان يعيش في شهواته من غير أن يتصور من أوجد هذه الشهوات وأوجد أجهزتها : ((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))[700] .

3ـ تصور قصد النفع للإنسان :

ـ عندما اكتشف الإنسان المزروعات ورأي وجود الحيوانات لم يكن يعلم ما هذا وما فائدته ؟ ، فمثلا وجد ثمرة البرتقال وجرب أكلها فوجدها حلوة ومفيدة وهكذا ، فكل شيء من معادن ومواد مسخرة للإنسان والإنسان فقط يكتشفها ، فالذي صنع هذه الأشياء جعلها مصممة خصيصا للإنسان .

ـ الشيء نفسه ليس لديه معرفة بالإنسان ومعرفة بما يفيده ، فيدل ذلك على أن هناك من يقصد تسخير ذلك الشيء لإفادة الإنسان تحديدا .

(699) طه :50
(700) الروم : 21

ـ فمثلا أشجار الفاكهة لمن تخرج هذه الفاكهة ؟ ، إنه أمر مقصود ليتناوله الإنسان ، وهل تدري هذه الأشجار بالإنسان ، ولماذا تقصد وتعد له هذه الفاكهة المناسبة لتكون طعاما له ؟ ، وكيف تستطيع أصلا أن تصنع هذه الفاكهة وهي من مادة مختلفة تماما عن مادة البذرة ومادة الأرض التي نبتت منها ؟ ، إن هذه الأشجار لا يمكن أن يكون لها هذا العقل الهائل وهذه القدرة الهائلة ، إذن لابد من وجود قوة خارجية قاصدة مريدة هي التي أرادت لهذه الشجرة أن تُكَوّن هذه الفاكهة وتصنعها للإنسان ، فإن الله أراد ذلك فقال تعالى : ((وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ))[701] .

ـ وأيضا البقرة لمن تخرج هذه الكمية من اللبن الزائدة عن حاجة أولادها ، هل البقرة تعي الإنسان وتريد له ذلك ؟ طبعا لا ، وهل أصلا تستطيع البقرة وتفهم هذه المصانع المعقدة في جسمها والتي تقوم بتصنيع ذلك اللبن ؟ طبعا لا ، إذن لابد من وجود قوة خارجية قاصدة مريدة هي التي أرادت ذلك فقال تعالى : ((نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ))[702] فقال (نسقيكم) أي هو سبحانه الذي قصد ذلك للإنسان وصنع ذلك له ، فذلك يعني حب من صنع لك هذا الغذاء وقصَده لك والمهابة من عظيم قدرته على فعل ذلك ومدى هذا العلم .

4 ـ تصور قصد الابتلاء للإنسان لبيان ضعفه وعدم قدرته على رد البلاء ولبيان مدى قدرة الله تعالى :

ـ عجز الإنسان عن دفع الضرر والابتلاءات عن نفسه يدل على أن هناك قوة أعلى منه تتحكم فيه وتدل على أنه ضعيف لا يستطيع أن يدفع عن نفسه البلاء :

ـ فمثلا الله قدَّر على الإنسان الشيخوخة والموت والإنسان لا يستطيع أن يمنع ذلك عن نفسه ، كما أن الله قد يصيبه بالأمراض ويبتليه بالابتلاءات والإنسان لا يستطيع أن يمنع عن نفسه ذلك .

ـ الحكمة من وجود الزلازل والبراكين وخسوف الشمس وإهلاك الأمم كعاد وثمود ومعجزات الرسل وغير ذلك من عجائب قدرة الله هو أن الله يظهر للناس بعضا يسيرا من قدرته حتى يشعروا بمدى قدرة الله فيخافوا من مهابة قدرة الله سبحانه ، ففي الحديث : ((خسفت الشمس فقام النبي صلى الله عليه وسلم فزعا يخشى أن تكون الساعة فقام حتى أتى المسجد فقام يصلي بأطول قيام وركوع وسجود ما رأيته يفعله في صلاته قط ثم قال إن هذه الآيات التي يرسل الله لا تكون لموت أحد ولا لحياته ولكن الله يرسلها يخوف بها عباده فإذا رأيتم منها شيئا فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره))[703] ، ويقول تعالى : ((وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا

(701) يس : 34 ، 35
(702) النحل : من الآية 66
(703) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن النسائي ج : 3 ، ص : 153 ، برقم : 1503)

تَخْوِيفاً))[704] ، فالله يريد أن يخاف الناس من مهابته بهذه الآيات التي تظهر قدرته ولكن هناك من لا يخاف من مهابته : ((وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إلا طُغْيَاناً كَبِيراً))[705] .

ـ الإنسان ينام رغما عنه ويموت رغما عنه ويُسْلب عندئذ السمع والبصر والحركة فمن الذي أجبره على ذلك ، إذن هناك من هو أقوى منه ، وفي استطاعته سلب صفاته وقدراته ، ولا يستطيع أحد من البشر عمل ذلك ، إذن هناك أحدا لا نراه هو أقوى من الإنسان وله قدرات أكبر : ((اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إلى أَجَلٍ مُسَمًّى إنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))[706] ، ((وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ))[707] .

ـ لكن الإنسان ينام ويتغافل عن قضية النوم ويتغافل عن ما يحدث له ومن يفعل به ذلك وكأنه لا شيء رغم أنه أمر خارق للأسباب .

ـ فالإنسان المغرور بسمعه وبصره وإرادته يحسب أن هذه الأمور ملكا له ، أين هذه الأمور وهو نائم ومن الذي سلبها منه ، فالنوم صفة ضعف لا تكون عند الخالق (لا تأخذه سنة ولا نوم) ، والنوم مثل الموت شيء سيء لأنه فقدان للتمتع بالحواس لذلك يمن الله على أهل الجنة بأن لا يناموا ، ففي الحديث : ((النوم أخو الموت ولا ينام أهل الجنة))[708] .

ـ المرض عبارة عن صورة من صور تذكير الإنسان بأنه ضعيف وبأن الله له أن يفعل ما يشاء في خلقه وليس لهم إلا أن يرضوا ولا يسألوا لماذا ولا كيف ؟ .

ـ الابتلاءات تدل على وجود قوة أعلى من الإنسان استطاعت أن تقهره وتغلبه وتسلب منه نعمة من النعم ، وهو لم يستطع أن يمنع ذلك ولا يستطيع أن يدافع عن نفسه أو أن ينتقم لنفسه ، فيشعر بأنه ضعيف وليس بقوي وأن عليه أن يستسلم لصاحب القوة الذي قدر عليه ، ويشعر بالمهابة من عظمة قوة من فعل ذلك ، ويزول الغرور عن نفسه .

ـ لذلك فبعض الناس اهتدوا بسبب أنهم رأوا أحدا مات مثلا فتأثرت مشاعرهم وأيقنوا بالموت وبأنهم سيموتون وأنهم لا يستطيعون مقاومة الموت ولا الدفاع عن أنفسهم ، والذي يستطيع أن يميتهم يستطيع أن يفعل بهم أي شيء لأن الموت هو أشد الضرر فيخضعوا لمن يستطيع أن يتوفاهم : ((قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ))[709] ، وكذلك بعض الناس اهتدوا بسبب أنهم تعرضوا لمحنة فاكتشفوا فيها ضعف أنفسهم واحتياجهم إلى الله وقدرة الله عليهم ، فمنهم من استمر

(704) الإسراء : من الآية 59
(705) الإسراء : من الآية 60
(706) الزمر : 42
(707) الروم : 23
(708) التخريج : صحيح (السلسلة الصحيحة ج : 3 ، ص : 74 برقم : 1087)
(709) يونس : من الآية 104

شعوره بهذه المحنة التي هي آية تدل على الله فاستمرت هدايته ، ومنهم من نسي هذه الآية فترك الهداية بمجرد أن مرت المحنة .

ـ فالنفس بطبيعتها متكبرة والابتلاءات تجعل النفس تنكسر وتعترف بأنها ضعيفة فتخضع .

5ـ تصور الحكمة :

ـ فمثلا خروج النبات من البذرة هو خروج حي من ميت ليكون درسا عمليا للإنسان على البعث ، وكذلك نوم الإنسان ويقظته كل يوم تذكير له بالموت والبعث كل يوم ، والنار التي تطهي الطعام تذكير له بنار الآخرة وهكذا .

ـ الأشياء عبارة عن معجزات تدل على الخالق والمطلوب من الإنسان خوف المهابة من هذه المعجزات وليس مجرد العلم النظري بها :

ـ كل الأشياء هي في حقيقتها عبارة عن معجزات من حيث عدم مقدرة الإنسان على صناعتها وعجز عقله عن تدبير التفاصيل الدقيقة جدا التي تجعلها تقوم بوظيفتها ، وهي معجزات أيضا لأن ذات الشيء لا يستطيع صناعة نفسه وليس لديه عقل يستطيع القيام بالتفاصيل الدقيقة جدا التي تجعله يقوم بوظائفه .

ـ وبالتالي فالأشياء تدل على وجود قوة قاهرة لديها علم هائل وراء الأشياء ، هي قوة الله وعلمه الهائل .

ـ التعامل مع هذه المعجزات لا يكون عن طريق المعرفة النظرية ولكن عن طريق المعرفة الحقيقية .

ـ إذن فكل شيء هو خارق للأسباب ، والإنسان العاقل ينشغل ذهنه بالأمور الخارقة للأسباب ، ولا يمكن لإنسان أن يتعود النظر على أمر خارق للأسباب من غير أن يتعجب من عظمته وعظمة صانعه ، ولكن الإنسان هو الذي يتغافل عن عظمة ما يراه فينظر إلى الشمس كأنها موجودة من تلقاء نفسها وكأنه لا أحد أوجدها وكأن تصميمها بهذا الشكل وبقاءها ملايين السنين متوهجة أمر عادي وكأن فوائدها للإنسان والمصممة بدقة متناهية لا أحد صممه أو موجود هكذا ، وهكذا في كل شيء من الماء والهواء والتراب والزروع والنجوم وكل شيء .

ـ الشعور بالفارق بين قدرة الإنسان وقدرة الخالق :

ـ لو كانت قدرة الخالق أكبر من قدرة الإنسان مرتين أو ثلاثة مثلا ، فربما ذلك لا يثير الانتباه كثيرا ، وإذا كانت قدرة الخالق أكبر من قدرة الإنسان ألف مرة ، فذلك يجعل العاقل يتصور في ذهنه مدى هذه القدرة الهائلة ويشعر بالتعجب والانبهار والدهشة من هذه القدرة العجيبة ، ويستمر انشغال ذهنه بهذا الأمر العجيب .

ـ ولكن قدرة الخالق أكبر من قدرة الإنسان إلى ما لا نهاية ، فإذا لم يشعر الإنسان بالتحير والتعجب من مدى هذه القدرة وإذا لم ينشغل باله بهذا الأمر العجيب ويستمر هذا الشعور بالتعظيم والتحير من مدى هذه القدرة فهذا معناه أن الإنسان لا يعقل ، وهذا تجاهل وتناسي وإعراض عن آيات الله ونسيان للخالق ، لأنه لا يوجد حدث أخطر من هذا في حياة الإنسان ، فكيف ينشغل الإنسان بأي شيء في أمور حياته من طعام وشراب وشهوات وأعمال ولا ينشغل بأن كل هذه الحياة موضوعة على ظهر الكرة الأرضية المعلقة في الفضاء والتي هي مجرد نقطة تافهة وسط الأجرام الهائلة والكون الهائل ! .

ـ التعامل الخاطئ مع الأشياء :

ـ كل الأشياء هي أدلة على الخالق فهي آيات الله الكونية ، والإنسان يعرف ذلك نظريا فقط فلا يتعامل مع الأشياء تعاملا صحيحا فيعقل حقيقتها ، فلا يتعامل مع الأشياء على أنها آيات الله الدالة عليه ، فهو يعرض عن آيات الله ويتناساها رغم علمه النظري بها .

ـ الآيات الكونية هي الواقع الذي نعيش فيه ، والهروب منها هروب من الواقع ، وكذلك أحوال الناس وهلاك الأمم والابتلاءات ونهاية الظالمين وحصاد الوهم لمن يبحثون عن الدنيا هو واقع نعيش فيه ، والهروب منه هو هروب من الواقع .

ـ كل الناس يعرفون الأدلة على الخالق ، فكل شيء حولهم هو دليل على الخالق ، ولكن بعضهم يتعاملون مع هذه الأدلة بصورة خاطئة ، فيتعاملون مع هذه الأشياء لا باعتبارها دليلا على الخالق ولكن باعتبارها أشياء موجودة ويستفيدون منها ، فالشمس تضيء للإنسان ولا يفكر لماذا تضيء ومن الذي جعلها تضيء ؟ ، والزرع يخرج من الأرض ليفيد الإنسان ولا يفكر لماذا يخرج ومن الذي جعله يفيد الإنسان ؟ ، والبترول في باطن الأرض يفيد الإنسان ولا يسأل من الذي وضعه في باطن الأرض ولماذا ؟ ، والإنسان موجود على الأرض يسعى ويتحرك ولا يفكر من الذي أوجده ولماذا ؟ ، وهكذا ، وإذا فكر في الأمر فيفكر في ظاهر الأمر وليس في حقيقته .

ـ أما إذا عقل الإنسان حقيقة الأمر فإن صورة قدرة الخالق الهائلة وعلمه الهائل لا تكاد تفارق ذهنه .

ـ التعود على مشاهدة المعجزات :

ـ لو جاءك ساحر فسحر لك أشياء مذهلة ، هذا معناه أن الساحر له قدرة أعلى من قدرتك ، ولكنك لا تريد أن تشعر بضعف قوتك أمام قوته ، فتتجاهل ما قام به من السحر كأنه لم يسحر شيئا وكأنها أمور عادية ، وكل يوم يأتيك الساحر فيسحر لك أشياء مذهلة وأنت لا تبالي فقد تعودت على رؤية ما يأتي به ، فتجاهلك لهذا السحر لن يغير من حقيقة الأمر شيء فقوتك ضعيفة .

ـ هذا الأمر إذا كان سحرا فما بالك لو كان حقيقة وليس سحرا ، فأنت حولك أمور هي معجزات وهي أعجب من السحر ، فخروج النبات بألوانه وثماره من تراب أسود هو أعجب من السحر وهو أمر خارق للأسباب ، وكذلك كل الآيات الكونية ، ولكن الإنسان تعود النظر إلى السماء والأشياء من حوله على أنها أمور عادية .

ـ فكل ما لا تستطيعه ويكون فوق قدرتك فهو إعجاز ، فأنت لا تستطيع إيجاد ولو ذبابة ، فما بالك بكل هذا الكون الفسيح الهائل ، فوجود أشياء لا يستطيع الإنسان القيام بها ولا من حوله من المخلوقات دليل على أنه لا أحد من البشر ولا المخلوقات أوجدها ولابد أن أحدا لا نراه له قدرة هائلة فوق قدرة الإنسان هو الذي أوجدها .

ـ فإذا تصور الإنسان ذلك شعر بضعف قوته وشعر بخضوعه لقوة الخالق الذي له كل هذه القدرة ، وبالتالي فالعاقل كلما رأى شيئا تذكر ضعف نفسه وقدرة من أوجد هذا الشيء فشعر بالخضوع لله تعالى وشعر بحب الإعجاب بقوته وخاف من مهابة قوته ، وهذا هو التعامل الصحيح مع الأدلة على الخالق .

ـ الإنسان يعيش هادئا تماما وحوله المعجزات تحيط به ولا تلفت نظره ولا تتأثر بها مشاعره :

ـ لو عقل الإنسان مدى قدرة الخالق لعاش في رعب من هيبة قدرته سبحانه ، وعدم رؤية الله لا يغير من حقيقة الأمر شيء فقدرته فوقنا مهيمنة ومسيطرة ولكن الغافل لا يشعر بشيء ، إن قدرة الخالق فوق مستوى الخيال وأشد رعبا من قدرة أي شيء مرعب يمكن أن تتصوره ، لكن قدرة الله في مشاعر البعض هي شيء عادي جدا لا خطورة منه ولا مشكلة فيه ويعيش كأنه لا يوجد أي شيء يدعو للانزعاج كأنه لا خطر يتعرض له أو يمكن أن يلحق به .

ـ فنحن واقعين تحت خطر عظيم هو قدرة الله ، لكننا في غفلة تامة نعيش بحرية غير مدركين أننا نعيش حياة الخاضع الذليل .

ـ " الإعراض عن آيات الله الكونية " في القرآن :

ـ ((وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ))[710] ، ((وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ))[711] ، وفي تفسير الرازي : (({ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ }[712] فَالْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى مَعَ إِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ لَيْلًا وَنَهَارًا بِالْحِفْظِ وَالْحِرَاسَةِ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمُ الَّذِي هُوَ الدَّلَائِلُ الْعَقْلِيَّةُ وَالنَّقْلِيَّةُ وَلَطَائِفُ الْقُرْآنِ مُعْرِضُونَ فَلَا يَتَأَمَّلُونَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا لِيَعْرِفُوا أَنَّهُ لَا كَالِئَ لَهُمْ سِوَاهُ))[713] .

(710) يوسف : 105
(711) الأنبياء : 32
(712) الأنبياء : 42
(713) تفسير الرازي [مفاتيح الغيب] ـ دار إحياء التراث العربي – بيروت (22 / 147)

ـ خرق الأسباب من الصفات الدالة على الخالق :

ـ هناك أمور لا يستطيع القيام بها أي أحد من البشر أو غير البشر إلا الخالق سبحانه ، منها القدرة على خرق الأسباب ، فمثلا سيدنا موسى جاء ليثبت أن الله هو الإله الحق عن طريق أن يثبت أن الله يستطيع خرق الأسباب التي يعهدها البشر فوضع العصا فإذا هي حية حقيقية ، فكل شيء لا يستطيعه الإنسان أو الكائنات الأخرى يدل على وجود قوة خارجية لها قدرة أعظم من الإنسان تستطيع عمل ذلك ، فذلك يدل على الله سبحانه ، فالإنسان لا يستطيع إيجاد التراب ولا الماء ولا نفسه ، إذن فالذي أوجد التراب والماء والبشر هو إله له قدرة خارقة للأسباب ، فقدرته فوق قدرة البشر ، وكذلك الإنسان يحدث في داخله أمور أكبر من مستوى علمه وأكبر من مستوى قدرته وتتم عن غير إرادته ، وكذلك خلق الكون أكبر من مستوى قدرة الإنسان ، والدقة المتناهية في كل شيء أكبر من مستوى علم الإنسان ، فيشعر بأن هناك قوة خارجية مهيمنة هي التي تسيطر على كل شيء وهي التي تفعل كل هذه الأمور .

ـ مسألة خرق الأسباب أشد من السحر لأن السحر خيال وليس خرق للأسباب ، فإذا كان الإنسان عندما يرى السحر أمام عينه فإنه يشعر بالتحير والانزعاج والدهشة والتعجب والاستغراب والانبهار والذهول والدهشة من روعة ما يرى ، فإن ذلك يكون أشد إذا كان هذا السحر حقيقة .

ـ فالإله هو الذي تشعر له بهذه المشاعر ، أي أن التأله معناه التحير والانزعاج والدهشة والتعجب والانبهار والذهول والاستغراب والدهشة من روعة ما يرى ، وهذه المشاعر هي الحالة النفسية المميزة للشعور بخرق الأسباب فإذا لم تكن هذه المشاعر موجودة فهذا يعني عدم وجود الشعور بوجود الخالق ، فالإنسان إذا رأى أمرا خارقا للأسباب ولم يتحير ويتعجب دل ذلك على أنه لا عقل له وكأنه ليس بإنسان وكأنه ميت لأنه يخالف صفات البشر ، وكل شيء حول الإنسان هو أمر خارق للأسباب لأن وجوده فوق قدرة البشر ، بل إن وجود الإنسان نفسه لا يستطيعه البشر فهو أمر خارق للأسباب ، ومع ذلك يعيش كأنه لا شيء : ((أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ))[714] .

ـ فمعنى كلمة (إله) في اللغة أي الذي تتحير وتندهش وتتعجب وتعجب وتنبهر من مدى عظمة صفاته والتي تتمثل في خرق الأسباب فتحبه إعجابا بمدى قدرته الهائلة وتخاف من هيبته ، ففي النهاية في غريب الأثر : ((أَلِهَ يأْلَهُ إذا تَحَيَّر ، يُريد إذا وقع العبد في عظمة الله تعالى وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية وصرف وهمه إليها أبْغَض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد))[715] ، وفي غريب الحديث لابن قتيبة : ((أَلِهَ يَأْلَه إذا تحيّر كأَنَّ القُلوب تأْلَهُ

(714) الطور : 35 ، 36
(715) النهاية في غريب الأثر ـ المكتبة العلمية ـ بيروت (1 / 62)

عند التفكّر في عَظَمة الله ... إذا وَقَع العَبْد في هذه الدَّرجَة لم يُعْجِبهُ أَحد ولم يُحبّ إلا الله عز وجلَّ))[716] .

ـ أثر تصور الآيات الكونية على المشاعر وعلى حياة الإنسان :

ـ الإنسان يكفيه أن يشعر بالإعجاز في آية واحدة من آيات الله المنظورة وعندئذ تتغير مشاعره وهمومه وتفكيره وتتغير حياته كلها ولن يحتاج أكثر من آية واحدة سواء في السماء أو في الأرض أو في نفسه أو في أحوال الدنيا ومصائر السابقين أو أي شيء .

ـ تصور حقيقة الأشياء يؤدي إلى :

1ـ خوف المهابة من غرابة ما يحدث ومن هول ما يرى .

2ـ خوف المهابة من قدرة من أوجد هذه الأشياء .

3ـ حب الإعجاب بقدرة الخالق والشعور بالخضوع له .

ـ التعامل الصحيح مع الآيات الكونية :

ـ لابد أن نتصور الآيات الكونية من أربعة نواحي هي :

1ـ لابد أن تشعر بالمقارنة بين البشر وبين الكون ، أو بين البشر وبين الكرة الأرضية ، أو بين البشر وبين الشمس مثلا ، وهذه المقارنة من حيث الحجم ومن حيث القدرة ، فمن حيث الحجم يتبين مدى ضآلة حجم الإنسان بالنسبة إلى حجم الكرة الأرضية أو الشمس أو الكون ، ومن حيث القدرة فالشمس تستطيع أن تبتلع الكرة الأرضية بمن عليها من البشر ومثلها مليون مرة ، والزلازل والبراكين والعواصف والفيضانات وغيرها تستطيع أن تنسف آلاف البشر في لحظة واحدة ، والبشر يعيشون في خطر دائم ومن الممكن أن ينسفوا في لحظة ، والبشر جميعا محمولون على كرة تطير بهم في الفضاء وكأن الكرة الأرضية تفعل بهم ما تشاء فهي أعظم في حركتها وسرعتها من قدرة البشر .

ـ فالإنسان ضعيف أمام عظمة الكون : ((لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أكبر مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ))[717] ، فالإنسان لا قيمة له أمام هذا الكون الهائل .

2ـ ثم تشعر بالمقارنة بين عظمة الكون وعظمة الخالق ، فإذا كان الكون عظيما إلى هذه الدرجة فما بالك بعظمة الخالق ، فالكون ما هو إلا مخلوق لا حول له ولا قوة ، ففي الحديث : ((يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السموات بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض))[718] ، وفي حديث آخر : ((ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة بأرض فلاة))[719] .

(716) غريب الحديث لابن قتيبة ـ مطبعة العاني ـ بغداد (3 / 728 ـ 728)
(717) غافر : 57
(718) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 8125 في صحيح الجامع)
(719) التخريج : صحيح (السلسلة الصحيحة ج : 1 ، ص : 223 ، برقم : 109)

3ـ ثم تشعر بالمقارنة بين ضآلة البشر وعظمة الله ، فإذا كانت قيمة البشر ضئيلة أمام عظمة الكون ، فما بالك بقيمة البشر أمام عظمة الله وقدرته وهيمنته عليه .

4ـ فينشأ عن ذلك الشعور بالخوف من مهابة الخالق والخضوع له والحب إعجابا بقوته والخوف من عقابه ورجاءه .

ـ إذن من لم يعرف عظمة الكون بالمقارنة مع قدرات الإنسان وإمكانياته لم يعرف عظمة الخالق وضعف الإنسان .

ـ إن نظرة واحدة متأملة في الكون وحقائق الأشياء قد تضع في النفس من الإيمان ما يغير حياة الإنسان كلها ، مثلا كأن ينظر إلى الكرة الأرضية وهي هباءة بين الأجرام فهنا يعرف الإنسان معرفة حقيقية بضآلة حجمه ، في حين لو تعلم الإنسان كل علوم الدين والدنيا طوال عمره فقد لا يتكون في نفسه شيء من مشاعر الإيمان (خوف المهابة والحب والخضوع وخوف العقاب ورجاء الثواب) .

ـ أمثلة تبين المعرفة الحقيقية للآيات الكونية :

ـ مثال (1) : لو أن رجل يقوم ببناء بيت له وقد أتم بناء الحوائط والسقف ولكن ليس في البيت كهرباء ولا ماء ولا مفروشات ، ودخل بيته ذات مره فوجد البيت فيه كهرباء وماء ورأى منضدة كبيرة في الصالة موضوع عليها طعام وشراب ووجد سرير موضوع في حجرة النوم ووجد كرة موضوعة في البيت ، فإذا به يأكل من الطعام ويلعب الكرة وينام على السرير دون أن يسأل من أحضر كل هذه الأشياء ومن أدخل الكهرباء والماء إلى المنزل ولم يشعر بأي تعجب أو ذهول أو غرابة وكأن كل شيء عادى ، وكل شيء موجود لأنه موجود كما هو ، وظل على ذلك سنوات عمره كل يوم إذا دخل بيته يجد الطعام موضوع فيأكل ويلعب وينام ، فهذا حال الإنسان الذي لا يعقل .

ـ وإذا كان هذا الرجل عاقلا ورأى ذلك فإنه يفاجئ ويندهش ويشعر بالرهبة من غرابة الأمر ويشعر بالحب لمن أحضر هذا .

ـ إن الله ينبت الزروع من الأرض ليأكل الإنسان كأنها منضدة أعدت ليوضع عليها الطعام للإنسان ، والأنهار تحمل المياه العذبة له ، والشمس والقمر والنجوم تضيء له نهارا وليلا ، والإنسان خرج من بطن أمه وكبر وعاش سنوات عمره كأن كل هذه الأشياء أمور عادية هو الذي وضعها لنفسه ، كأنه هو الذي جعل الأرض تنبت وصمم نظام السحاب بحيث يتجمع الماء العذب في الأنهار وجعل نظام إضاءة فصنع الشمس والقمر حتى لا يعيش في الظلام ! ، أو كأن الزرع يخرج من تلقاء نفسه ليفيد الإنسان ، وكأن الماء والهواء هو الذي أوجد نفسه ويفيد الإنسان من تلقاء نفسه ، ففي تفسير روح المعاني : (({ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ } [الطور : 35 ، 36] ، { بَلْ لَا يُوقِنُونَ } أي إذا سئلوا من خلقكم وخلق السماوات والأرض قالوا : الله وهم غير

موقنين بما قالوا إذ لو كانوا موقنين لما أعرضوا عن عبادته تعالى فإن من عرف خالقه وأيقن به امتثل أمره وانقاد له))[720] .

ـ مثال (2) : (تصور الصلة بين الإنسان والكون !) :

ـ هل تصدق أننا نعيش وسط النجوم ؟! ، كان الناس يظنون أن هذه النجوم الكثيرة وهذا الفضاء الواسع هو فوقنا فقط ، لكن اكتشف العلماء أن هذه النجوم وهذا الفضاء حول الأرض من كل اتجاه وليس فوقنا فقط ، فنحن نعيش على أرض معلقة في الفضاء ، وهناك نجوم أسفل الأرض ونجوم أعلاها .

ـ وإذا عرَّفنا كلمة (السماء) على أنها الفضاء وما فيه من النجوم فهذا معناه أننا نعيش في السماء ! ، ولا تتعجب من أن هذه حقيقة تحتاج إلى تصور ذهني وتخيل لمكان الكرة الأرضية بالنسبة للنجوم :

ـ فالكون عبارة عن فضاء تسبح فيه نجوم هائلة العدد ، وكل نجم تدور حوله بعض الكواكب ، ومن بين هذه النجوم والكواكب الهائلة العدد في الكون يوجد نجم اسمه الشمس وكوكب اسمه الأرض ، فكوكب الأرض هو كرة معلقة في الفضاء يحيط بها النجوم من كل اتجاه ، فالنجوم ليست فقط فوق الأرض ولكنها تحيط بالكرة الأرضية من كل اتجاه .

ـ إذن نحن نعيش في الفضاء على ظهر كرة تسبح بنا في الفضاء وحولنا النجوم من كل اتجاه ! .

ـ تخيل لو أن الكرة الأرضية لم تعد معلقة في الفضاء وسقطت فأين تذهب ؟ ، إن تحت الكرة الأرضية فضاء ونجوم ! .

ـ عندما صعدت سفن الفضاء في الفضاء البعيد التقطت صورة للأرض وحولها الشمس والنجوم ، فكانت الأرض عبارة عن نقطة زرقاء باهتة وسط النجوم (والصورة التوضيحية تبين ذلك) .

ـ إن هذه الدنيا التي نعيشها بكل ما فيها ليست إلا حياة ضئيلة جدا موضوعة على نقطة زرقاء باهتة وسط الفضاء والنجوم ، فالأرض ومن عليها من البشر مجرد جزء صغير جدا

(720) روح المعاني ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت (27 / 38)

من منظومة كبيرة جدا هي الكون ، فيتكون شعور بضعف البشر وعجزهم وشعور بمدى عظمة هذا الكون واتساعه فلا يقدر البشر على إيجاد شيئا منه ولا التحكم فيه وبالتالي الشعور بمدى قدرة وعظمة خالق الكون .

ـ أي القضيتين تشغل الذهن أكثر ؟ ، قضية تجمع البشر جميعا في مكان واحد هو الكرة الأرضية فلا يزيد حجم كل هذه البشرية عن نقطة تافهة في فضاء سحيق ! ، أم القضايا والمسائل والمشاغل التي بين البشر بعضهم البعض وهموم الحياة وأعمالها ؟ ، فما قيمة ما يحدث بين البشر وما يتشاغلون به من أعمال وهم جميعا عبارة عن كتلة ضئيلة جدا من النمل تتحرك في نقطة لا تكاد تراها في مشهد الفضاء والنجوم ، طبعا العاقل يشغله القضية الأولى عن أي شيء آخر من مشاغل الحياة وهمومها وشهواتها ومن العلوم والمعارف المختلفة ، ولكن البعض يغفل عن هذا الأمر ويعطل عقله عن النظر فيه ولا يشغل عقله بغير ما يحدث من مشاغل الحياة وهمومها وشهواتها وأعمالها ، وهؤلاء هم غافلون عن هذه الآية من آيات الله ومشغولون بما سوى ذلك .

ـ مثال (3) : (الشمس والكواكب جيران لنا في الفضاء !) :

ـ تصور وضعك مع حركة الأرض حول نفسها ، وحدوث الليل والنهار ، فهذا يؤدي إلى الشعور بأن هناك قوة أعلي من الإنسان تفعل به ما تشاء ، وتؤدي إلى الشعور بضآلة الإنسان ، وبالتالي الشعور بالاستسلام والخضوع للخالق .

ـ تخيل لو أنك كنت بالليل وقمت بعمل ثقب في الكرة الأرضية فسيصل إليك نور الشمس ! .

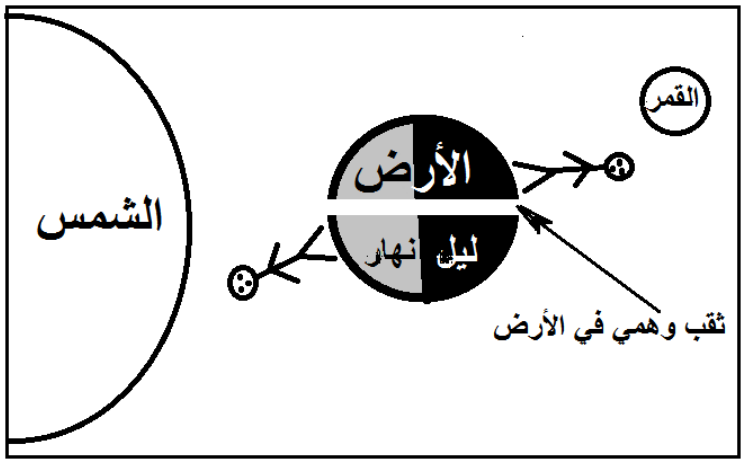

ـ مثال (4) : (نحن ندور حول نار هائلة معلقة في الفضاء !) :

ـ هل تصدق أن هناك نارا هائلة جدا معلقة في الفضاء وأننا ندور حولها مثلما يدور الفراش حول النار المشتعلة ؟! ، إن الشمس عبارة عن كتلة من النار هائلة مشتعلة في الفضاء ونحن الآن ندور حولها على ظهر مركبة فضائية تطير بنا في الفضاء المظلم هي الأرض في رحلة تستغرق عام كامل ، ففي اللحظة التي تقرأون أنتم فيها هذه السطور تدور الأرض في مدارها حول الشمس في رحلة طولها 950 مليون كم نقطعها في سفر سنة ثم تبدأ من جديد

دون توقف ، وحر الصيف وبرد الشتاء يحدث بسبب اقترابنا أو بعدنا عن نار الشمس أثناء هذه الرحلة .

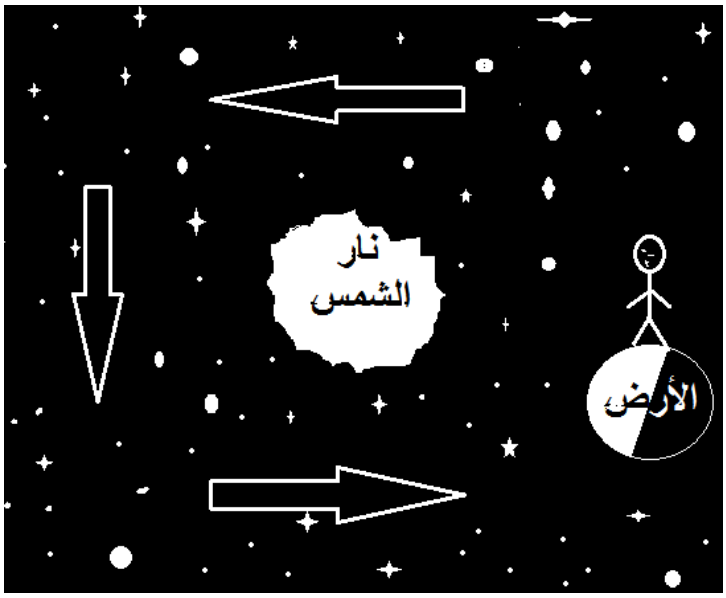

ـ فنحن نسير الآن بسرعة 108 ألف كيلو متر في الساعة (30 كم في الثانية) ، ويمكنكم أن تعرفوا ضخامة هذه السرعة على النحو التالي : إن أقصى سرعة يمكنكم أن تصلوا إليها عند قيادة سيارة عادية هي 200 كيلو متر في الساعة ، يعني أن الأرض تدور حول الشمس بسرعة تبلغ 540 مرة بحجم سرعة السيارة ، ويمكن أن نفهم الأمر بشكل أوضح من خلال هذا المثال أيضا : فسرعة الرصاصة تبلغ 1800 كيلو متر في الساعة ، وسرعة الأرض في دورانها حول الشمس تبلغ 60 مرة حجم سرعة الرصاصة ، فبسرعة الأرض الهائلة هذه تكون قوة جاذبية الشمس غاية في الأهمية ، فلو أنه حصل نقص في قوة جاذبية الشمس فإن الأرض تضيع في الفضاء بسرعة غير عادية ، وذلك يمثل نهايتها ، والعكس أيضا صحيح ، بمعنى أنه لو حدثت زيادة في قوة جاذبية الشمس فإن الأرض تتجه نحو الشمس بسرعة هائلة وتذوب وتتبخر ، وبالتأكيد فنحن أيضا سوف نتبخر معها ، ولو كانت جاذبية الأرض أقل مما هي عليه الآن لطاشَ كلّ شيء ولطشنا نحن أيضا في الفضاء .

ـ فنحن الآن نطير في الفضاء حول هذه النار في دورة كل عام ، وفي هذا شعور بالرهبة والخوف ، والشعور بأن هناك قوة أعلي من الإنسان تفعل به ما تشاء ، والشعور بقدر مدى ضآلة الإنسان ، وبالتالي الشعور بالاستسلام والخضوع للخالق .

ـ هناك حدثان يحدثان في آن واحد هما أنك تتحرك الآن على كرة تطير بك في الفضاء ، والحدث الثاني هو أحداث الحياة وصراعاتها ومشاغلها وهمومها وعلومها وشهواتها وما يدور من حولك من أمور في دنيا الناس والذهاب والإياب والحوارات والمشاغل ، فأي الحدثين يشغل بالك أكثر ؟ ، وهل يمكن أن تنسى هذا الحدث الأكبر أنك تسير الآن في الفضاء ؟ ، طبعا العاقل يشغله الأمر الأول عن الثاني ، ولكن البعض يغفل عن هذا الأمر ويعطل عقله عن النظر فيه ولا يشغل عقله بغير ما يحدث من مشاغل الحياة وهمومها وشهواتها وأعمالها ، وهؤلاء هم غافلون عن هذه الآية من آيات الله ومشغولون بما سوى ذلك .

ـ لا يمكن لإنسان عاقل أبدا أن ينسى أنه يسير الآن على متن مركبة في فضاء سحيق ، ومن يعقل ذلك فإنه يركع ويسجد على متن هذه المركبة لمن يحركه على هذه المركبة في فضاء الكون الهائل .

ـ مثال (5) : (الأرض كرة معلقة في الفضاء !) :

ـ عندما صعد العلماء إلى القمر رأوا الأرض صغيرة وكأنها القمر بالنسبة لهم ، تخيل نفسك هناك علي سطح القمر وتشير إلى الأرض من بعيد : هناك بيتي وأولادي وأهلي في انتظاري حتى أعود ، إن الآخرة مثل ذلك ، وانظر كيف أن الأرض كرة معلقة في الفضاء ! .

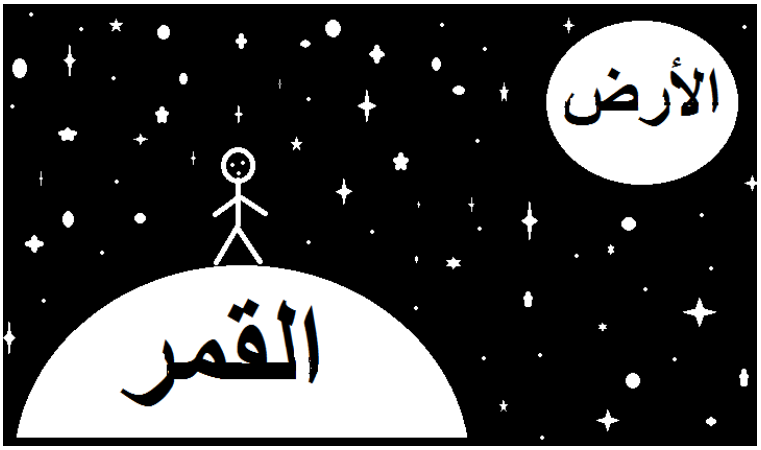

ـ مثال (6) : (اتساع الكون الهائل) :

ـ الضوء يقطع المسافة بيننا وبين أقرب نجم إلينا في مدة أربع سنوات وربع ، ومن النجوم ما يبعد عنا مسافة يقطعها الضوء في مائة سنة ، ومنها ما يسافر منها الضوء إلينا في ألف سنة ، ومنها ما يبقى الضوء مسافراً منها إلينا في مدة مليون سنة ، ومنها ما يبقى الضوء مسافراً منها إلينا في (340) مليون سنة ، ومنها ما يبقى الضوء مسافراً منها إلينا في مدة ملايين السنين !! [سرعة الضوء (300) ألف كيلومتر في الثانية] : ((فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ))[721] .

ـ لا يكفي أن يشعر الإنسان باتساع الأرض واتساع الكون وحجم الأرض وحجم الكواكب والنجوم ، وإنما لابد أن يشعر بعظمة هذه المسافات والأحجام التي تجعل الإنسان العاقل يجن ويخر ساجدا ، فإن أرقام المسافات والأحجام هائلة ومبهرة جدا ولا يمكن تصورها أو تخيلها : ((لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ))[722] .

ـ وأيضا تأمل أن الفضاء كله ظلام ، والنور موجود فقط في قشرة طفيفة على الأرض .

ـ **الفرق بين اليقين الكاذب واليقين الحقيقي بالحقائق العلمية** :

ـ إذا علم الإنسان حقائق علمية مثل اكتشاف أن الأرض كرة معلقة في الفضاء أو دوران الأرض حول نفسها أو دورانها حول الشمس ، وكل هذه أمور عجيبة ومذهلة وأعجب من

(721) الواقعة : 75 ، 76
(722) غافر : 57

السحر ، فإذا لم يشعر الإنسان بالتعجب والتحير ويشعر بضآلة الإنسان أمام عظمة هذا الكون وأنه أشد ضآلة أمام خالق الكون فيشعر بالخضوع والاستسلام لله فإنه بذلك يكذب بمشاعره أن الأرض كرة في الفضاء أو أنها تدور حول الشمس ، وذلك رغم التصديق النظري بكل الحقائق العلمية ، لكنه ليس بتصديق على وجه الحقيقة ، فهو يتغافل عن خطورة هذه الأمور ويتجاهلها .

ـ إذن فالذي يتعامل مع هذه الحقائق العلمية كمعرفة نظرية فقط هو في الحقيقة يُكَذِّبْ بهذه الحقائق غير موقنا بها يقينا حقيقيا ، فهو يتغافل ويتجاهل هذه الآيات من آيات الله الدالة عليه ، فإذا كان تعامله كذلك مع كل ما يعرفه ويراه من آيات الله من أرض وسماء وزرع وجبال وكائنات وكذلك مع إعجاز القرآن والسنة فهو قد نسي الله تعالى .

****

الفصل السادس والعشرون

المعرفة الحقيقية بالخالق (خوف المهابة من الخالق)

ـ فقدان عنصر الوعي (خوف المهابة من الخالق) معناه أن معرفة الإنسان بالله هي معرفة نظرية فقط ، ومعناه أن الإنسان لا يزال لا يعرف من هو الخالق وكأنه لم يسمع عنه .

ـ وكذلك ففقدان أثر المعرفة (مشاعر الإنسان وهدفه) معناه أن معرفة الإنسان بالله هي معرفة نظرية فقط .

ـ فطالما أن مشاعر الإنسان لم تتأثر بالخالق (الحب والذل) وطالما أن المال والدنيا والشهوات ما زالت هدف الإنسان فهو لا يزال لا يعرف من هو الخالق وكأنه لم يسمع عنه .

ـ معنى خوف المهابة من الله تعالى :

ـ جاء في تفسير النيسابوري : ((وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أمر اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21) .... الخشية نوعان : خشية الجلال كالعبد إذا حضر بين يدي السلطان ومن ذلك خشية الملائكة { يخافون ربهم من فوقهم } { النحل : 50] وإلى هذا أشار بقوله : { ويخشون ربهم } ، وخشية أن يقع في العبادة خلل أو نقص يوجب فسادها أو نقصان ثوابها . وإليه الإشارة بقوله : { ويخافون سوء الحساب }))[723] ، وفي تفسير الرازي : ((وقال أصحاب الحقائق : الخوف على قسمين : خوف العقاب ، وخوف العظمة

(723) تفسير النيسابوري [غرائب القرآن ورغائب الفرقان] ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت (ج : 4 ، ص : 153)

والجلال ، أما خوف العقاب فهو للعصاة ، وأما خوف الجلال والعظمة فهو لا يزول عن قلب أحد من المخلوقين ، سواء كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً ، وذلك لأنه تعالى غني لذاته عن كل الموجودات ، وما سواه من الموجودات فمحتاجون إليه ، والمحتاج إذا حضر عند الملك الغني يهابه ويخافه ، وليست تلك الهيبة من العقاب ، بل مجرد علمه بكونه غنياً عنه ، وكونه محتاجاً إليه يوجب تلك المهابة))[724] ، وفي تفسير الرازي أيضا : ((قال العارفون : الخوف خوفان خوف العقاب وخوف الجلال ، والأول نصيب أهل الظاهر ، والثاني نصيب أهل القلب ، والأول يزول ، والثاني لا يزول))[725] ، ((وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ))[726] .

ـ وفي تفسير البغوي : (({ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا } قال ابن عباس ومجاهد : لا ترون لله عظمة ، وقال سعيد بن جبير : ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته ، وقال الكلبي : لا تخافون الله حق عظمته ، و"الرجاء" بمعنى الخوف ، و"الوقار" العظمة اسم من التوقير وهو التعظيم))[727] ، وفي تفسير بحر العلوم : (({ وَهُمْ مّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ } ، يعني : من هيبته خائفون))[728] ، وفي تفسير النيسابوري : ((مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ..... قال أهل الاشتقاق : إن تركيب (خ ش ى) يلزمها الهيبة ومنه للسيد ولكبير السن ، وتركيب الخوف يدل على الضعف ومنه الخفاء ، وكل موضع ذكر فيه الخشية أريد بها معنى عظمة المخشي منه ، وكل موضع ذكر فيه الخوف فإنه أريد ضعف الخائف كقوله { يخافون ربهم من فوقهم } [النحل : 50] أو ضعف المخوف منه كقوله { لا تخف ولا تحزن } [العنكبوت : 33] يريد أنه لا عظمة لهم وقال { إنا نخاف من ربنا يوماً } [الإنسان : 10] لأن عظمة اليوم بالنسبة إلى عظمة الله هينة))[729] ، وفي تفسير ابن كثير : ((وقال الضحاك : { تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ } أي : يتشققن فَرَقًا من عظمة الله))[730] .

ـ ومعنى خوف المهابة يتضح من الحديث : ((أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فكلمه فجعل ترعد فرائصه فقال له هون عليك فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد))[731] .

ـ لماذا يخاف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والعشرة المبشرون بالجنة من الله رغم علمهم من خلال الوحي أنهم من أهل الجنة ؟ :

ـ هذا الخوف هو خوف مهابة وإجلال ، وذلك مثلما كانت الملائكة تخاف الله رغم أنهم معصومون ففي تفسير الرازي : (((يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) .....

(724) تفسير الرازي [مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير] ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (15 / 443)
(725) تفسير الرازي [مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير] ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (ج : 3 ، ص : 482)
(726) إبراهيم : 14
(727) تفسير البغوي [معالم التنزيل في تفسير القرآن] ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (ج : 5 ، ص : 156)
(728) بحر العلوم للسمرقندي (ج : 2 ، ص : 424)
(729) تفسير النيسابوري [غرائب القرآن ورغائب الفرقان] ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت (ج : 6 ، ص : 179)
(730) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 5 ، ص : 266)
(731) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن ابن ماجة ج : 2، ص : 1101 ، برقم : 3312)

ذلك الخوف خوف الإجلال هكذا نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والدليل على صحته قوله تعالى : { إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء } [فاطر : 28] وهذا يدل على أنه كلما كانت معرفة الله تعالى أتم ، كان الخوف منه أعظم ، وهذا الخوف لا يكون إلا خوف الإجلال والكبرياء))[732] .

ـ إن الضعيف يخاف من القوى ويخضع له ، وحتى لو لم يفعل شيئا يغضبه فهو يخاف لمجرد أنه ضعيف والآخر قوي ، ويشعر باستكانة وأنه مغلوب على أمره (شعور بالخضوع) ، فكذلك الحال مع الله تعالى ، الخوف من عظمته ، فالله غالب على أمره ولا يأمن مكره إلا القوم الكافرون لغفلتهم عن قوة الله وضعفهم .

ـ وفي الحديث : ((شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت))[733] .

ـ اليقين الحقيقي بقدرة الله وضعف الإنسان يؤدي إلى الخوف والرهبة :

ـ لو سمعت أن رجلا خارقا يستطيع أن ينقل الجبال أو يستطيع أن يبيد الناس في لحظة أو .....الخ ، بماذا تشعر ؟ ، إنك تشعر بالهيبة والخشية والرهبة ، فإن الله يستطيع ما هو أعظم من ذلك ((وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً))[734] ، ويستطيع أن يبيد كل البشرية في أقل من لحظة ، فلماذا لا تشعر بنفس الشعور السابق ؟ ، وإذا كنت تدعي أنك تشعر بالهيبة والرهبة من الله ففي الحالة الأولى كانت هناك حالة نفسية وانفعالات داخلية مميزة للشعور بالرهبة والهيبة ، فهل عندك هذه الحالة النفسية ؟ ، أم أنه مجرد ادعاء بأن عندك الهيبة والرهبة والتعظيم لله ؟! .

ـ أنت إذا قابلت ملكا من ملوك الدنيا فإنك تشعر بالخوف والرهبة والمهابة ، فإذا لم تشعر بأي شيء من هذا فأنت لا تعرف أن من قابلته هو ملك من الملوك ، فهو بالنسبة لك مثل أي رجل عادي يمر بك في الطريق ، هذا هو الحال مع الله الملك فأنت لا تشعر بماذا يعني أن الله هو الملك ، إن الملك هو الذي بيده كل شيء وكل ما يملكه ملوك الدنيا هو أقل من ذرة من ملكه وهو الجبار المهيمن وأنت بين يديه دائما يراك ولا تغيب عنه فأين هذه المشاعر ؟ ، إذن فصفات الله وأسماءه موجودة في اقتناعك الكاذب وغائبة ولا وجود لها في مشاعرك .

ـ الحالة النفسية للخوف والقلق والتوتر والاضطراب :

ـ أنت إذا رأيت ساحرا ، فإنه يحدث لك خوف مهابة مما يصنع وحب إعجاب بما يصنع : ((قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ))[735] .

(732) تفسير الرازي [مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير] ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج : 20 ، ص : 218)
(733) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 5 ، ص : 402 ، برقم : 3297)
(734) طه : 105
(735) الأعراف : 116

ـ أنظر إلى حال رجل يذهب لمقابلة ملك من ملوك الدنيا ، فإنه يستعد ويتهيأ نفسيا لأنه أمر رهيب ، إنه يكون في قلق واضطراب ، وعندما يقف عند الملك قد يتلعثم من هيبة الموقف ، إن الحالة النفسية التي عنده هي التي تسمي خوف المهابة ، فإذا كنت تدعي خوف المهابة من الله فهل عندك هذه الحالة النفسية ؟! .

ـ الخوف الدائم والمخاوف المؤقتة :

ـ الخوف الدائم هو خوف مسيطر على الإنسان لا ينساه طوال عمره .

ـ الإنسان الذي يسافر إلى مكان مجهول لا يعرفه ، وهناك يتم عرضه على محكمة تحكم عليه إما بالخلود في العذاب أو النعيم ، فهو خائف من هول الأمر الذي هو مقبل عليه لأنه يتوقف عليه مصيره وحياته كلها ، ولكن هناك مخاوف أخرى مؤقتة بسيطة أثناء سفره إلى هذه المحكمة وهي هل يجد استراحات قريبة يستريح فيها أم لا ؟ ، وهل ينفد ما عنده من ماء وهل يجد مكان قريب فيه ماء ؟ ، وهل يوجد شيء يعرضه للأذى أثناء سفره ؟ ، كل هذه مخاوف يحمل لها هما ولكنها ليست بشيء أمام الخوف الأكبر الذي يسيطر عليه وهو ماذا يجد وماذا يكون مصيره عندما يصل إلى ذلك المكان الرهيب ؟! .

ـ فكذلك الدنيا هناك بعض الأمور التي يخاف منها الإنسان والتي قد تعرضه للأذى لكنها مخاوف مؤقتة عابرة وخوفه الأكبر من يوم القيامة والحساب ومن لقاء الله تعالى وهو خوف دائم لا يفارقه .

ـ أنواع الخوف من هيبة الله تعالى :

1ـ خوف المهابة من القرآن وذكر الله تعالى :

ـ اليقين الحقيقي بأن القرآن هو كلام الملك والمسيطر والمهيمن والقهار والجبار والمتكبر يؤدي إلى الخوف من جلال الله ، أي الخوف من مهابة الله والخشية والوجل وليس خوفا من عقابه ، أي يحدث الخوف لمجرد أن ذلك كلام الله القهار المهيمن : ((اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللَّهِ))[736] ، وفي تفسير البحر المديد : (({ الذين إذا ذُكر الله وَجِلَتْ قلوبُهم } ؛ خافت واقشعرت لذكره استعظاماً له وهيبة من جلاله))[737] .

ـ وفي تفسير ابن كثير تفسير ابن كثير : ((ثم قال تعالى منكرا على المشركين في استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهيهم : { تَعْجَبُونَ } من أن يكون صحيحا ، { وَتَضْحَكُونَ } منه استهزاء وسخرية ، { وَلا تَبْكُونَ } أي : كما يفعل الموقنون به ، كما أخبر عنهم : { وَيَخِرُّونَ

(736) الزمر : من الآية 23
(737) تفسير البحر المديد ـ الناشر : الدكتور حسن عباس زكي ـ القاهرة (3 / 4)

لِلأذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا } [الإسراء : 109]))[738] ، فالموقنون بالقرآن يبكون من مهابته ، وفي تفسير القرطبي : ((لما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم (أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون) لم ير ضاحكا إلا مبتسما حتى مات صلى الله عليه وسلم))[739] .

2- خوف المهابة من الله تعالى :

- لقد كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والعشرة المبشرون بالجنة يخافون من الله رغم علمهم بالوحي أنهم من أهل الجنة ، لأنهم يخافون من مهابة الله .

- جاء في أيسر التفاسير : (({ مالكم لا ترجون لله وقارا } : أي لا تخافون لله عظمته وكبرياءه وهو القاهر فوق عباده))[740] ، ((وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أنهم إلى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ))[741] ، ((وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ))[742] .

- والملائكة تخاف من مهابة الله تعالى ، ففي تفسير الرازي : (((يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) ... ذلك الخوف خوف الإجلال هكذا نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والدليل على صحته قوله تعالى : { إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العلماء } [فاطر : 28] وهذا يدل على أنه كلما كانت معرفة الله تعالى أتم ، كان الخوف منه أعظم ، وهذا الخوف لا يكون إلا خوف الإجلال والكبرياء))[743] ، وفي تفسير بحر العلوم : (({ يخافون رَبَّهُمْ مّن فَوْقِهِمْ } » أي : يخافون خوفاً ، معظمين ، مبجلين))[744] ، وفي تفسير البحر المديد : (({ يخافون ربهم من فوقهم } ... أي : يخافون عظمة ربهم من فوقهم ؛ إذ هم محاطون بأفلاك أسرار الجبروت ، مقهورون تحت القدرة والمشيئة))[745] ، وفي تفسير الألوسي : (({ يخافون ربهم من فوقهم } لأنه القاهر المؤثر فيهم { ويفعلون ما يؤمرون } [النحل : 50] طوعاً وانقياداً))[746] ، ((وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ))[747] ، وفي الحديث : ((مررت بجبريل ليلة أسري بي بالملإ الأعلى وهو كالحلس[748] البالي من خشية الله عز وجل))[749] .

- وفي تفسير الوسيط : (({ تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ } .. { يَتَفَطَّرْنَ } أي : يتشققن ، والضمير في قوله تعالى { مِن فَوْقِهِنَّ } يعود إلى السماوات ، باعتبار أن كل سماء تنفطر فوق التي تليها ، وهذا التفطر سببه الخشية من الله تعالى ، الخوف من جلاله وعظمته فيكون

(738) تفسير ابن كثير - دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 7 ، ص : 468)
(739) تفسير القرطبي - دار الكتب المصرية - القاهرة (ج : 17 ، ص : 124)
(740) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (ج 4 ، ص : 314)
(741) المؤمنون : 60
(742) البقرة : من الآية 40
(743) تفسير الرازي (ج 9 ، ص : 400 ، 401)
(744) بحر العلوم للسمرقندي (ج : 2 ، ص : 467)
(745) البحر المديد - الناشر : الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة (ج : 3 ، ص : 269)
(746) تفسير الألوسي (ج : 10 ، ص : 193)
(747) الرعد : من الآية 13
(748) الحلس هو كساء رقيق يوضع على ظهر البعير تحت السرج
(749) السلسلة الصحيحة (2289)

المعنى : تكاد السماوات يتشققن مع عظمهن { مِن فَوْقِهِنَّ } أي : من أعلاهن ، خشية ورهبة من عظمته عز وجل ، كما قال تعالى : { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض مِن دَآبَّةٍ والملائكة وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ }))[750] ، ويقول تعالى : ((لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً **مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**))[751] .

3- خوف المهابة من سماع كلام الله وأوامره :

- جاء في فتح القدير : (({ وهم من خشيته مشفقون } فإذا أذن لهم في الشفاعة فزعوا لما يقترن بتلك الحالة من الأمر الهائل .... وقيل هذا الفزع يكون للملائكة في كل أمر يأمر به الرب))[752] ، وفي تفسير القرطبي : ((" وهم من خشيته مشفقون " [الأنبياء : 28] والمعنى : أنه إذا أذن لهم في الشفاعة وورد عليهم كلام الله فزعوا ، لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل والخوف أن يقع في تنفيذ ما أذن لهم فيه تقصير))[753] ، وفي تفسير الطبري : ((ينزل الأمر من عند رب العزة إلى السماء الدنيا ؛ فيفزَع أهل السماء الدنيا ، حتى يستبين لهم الأمر الذي نزل فيه ، فيقول بعضهم لبعض : ماذا قال ربكم ؟ فيقولون : قال الحق وهو العلي الكبير ، فذلك قوله (حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ...) الآية))[754] .

- المعرفة الحقيقية بمدى عظمة صفات الله تعالى :

- لا يكفي أن يتصور الإنسان صفات الله ، وإنما لابد أن يتصور مدى مقدار وعظمة هذه الصفات ، فأن الله كرمه مبهرا وقدراته وصفاته مبهرة عظيمة ، فالله هو الخالق ولكنه لم يخلق واحدا من البشر أو شيئا واحدا ولكن قدرته على الخلق هائلة فهو خلق كل هذه البشرية التي لا تعد ولا تحصى ، وكل هذا الكون الهائل جدا ، والله هو العليم ولكن علمه ليس لما يحدث مع إنسان واحد أو اثنان ولكن علمه مع كل البشرية وكل الذرات والجزيئات وكل ساكن وكل متحرك وفي نفس الوقت ، والله يرى كل شيء والحواجز لا تمنعه من رؤية أي شيء حتى ما يكون في الظلام ويرى ما يحدث داخل الذرة ، وكذلك يسمع كل من يتكلم وكل ما يصدر عنه صوتا حتى ولو كان دبيب نملة على الأرض وكل ذلك في آن واحد ، والله هو القادر ولكن قدرته هائلة جدا فوق كل التصورات والله يستطيع أن يلغي الزمان والمكان ويلغي قوانين الأسباب ويفعل كل ما يريد في أقل من لحظة ، وهكذا .

- فصفات الله سبحانه ليست مجرد صفات موجودة ولكنها تصل إلى حد الكمال من العظمة بحيث تجعلك تتحير وتندهش وتتعجب وتعجب وتنبهر وتذهل من مدى عظمة الخالق وقدرته سبحانه ، وهذا هو معنى كلمة (إله) في اللغة ، ففي تاج العروس : ((أَلِهَ يَأْلَهُ إذا تَحَيَّرَ

(750) الوسيط لسيد طنطاوي - دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة (ج : 1 ، ص : 3753)
(751) الحشر : من الآية 21
(752) فتح القدير للشوكاني - دار ابن كثير- دمشق (ج : 4 ، ص : 461)
(753) تفسير القرطبي - دار الكتب المصرية - القاهرة (ج : 14 ، ص : 295)
(754) تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة (ج : 20 ، ص : 397)

يُريدُ إذا وَقَعَ العَبْدُ في عَظَمَةِ اللَّهِ وجَلالِهِ وغيرِ ذلِكَ مِن صفَاتِ الرُّبُوبيَّةِ وصَرَفَ توهّمُه إليها ، أَبْغَضَ الناسَ حتى ما يميلَ قلْبُه إلى أَحَدٍ))[755] .

****

الفصل السابع والعشرون

المعرفة الحقيقية بوجود الخالق وقدرته وعلمه وملكه

ـ أين الله ؟ :

ـ قبل خلق الكون والأشياء لم يكن شيء سوى الله سبحانه ، فلا شيء قبله ولا شيء غيره ، فلا كواكب ولا شمس ولا فضاء ولا سماء ولا بشر ولا مخلوقات ولا شيء سوى الله سبحانه .

ـ ثم خلق الله الكون (نقصد بالكون كل المخلوقات كالسماوات والأرض والفضاء والكرسي والعرش والجنة والنار والبشر وكل المخلوقات) .

ـ والكون كله ضئيل وحقير بالنسبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وكل خلقه بالنسبة له كالخردلة في يد الإنسان ، ولله المثل الأعلى .

ـ الكون له حدود ونهاية ، وخارج الكون لا يوجد شيء اسمه (مكان) ، وما بعد نهاية الكون ليس شيئا إلا الله سبحانه ، فالله خارج الكون وليس داخل الكون ، والله لا يحيطه مكان ، والله فوق الكون .

ـ فبعد أن خلق الله الخلق أصبح هناك موجودان فقط هما الله والكون ولا يوجد شيء آخر غير الله والكون ، فليسَ وراءَ هذا الكونِ شيءٌ موجودٌ غير الله تعالى لا المسافةُ ولا غيرهَا .

ـ قول الرسول صلى الله عليه وسلم للجارية : ((أين الله ؟ : قالت في السماء)) يعني: على السماء، أو : في العلو [756] .

ـ من صفات الذات وصفات الأفعال :

ـ الله سبحانه له وجه وعين وساق ويد وأصابع وقَدَم ، لكن أصابعه ليست مثل أصابع الإنسان وهكذا في كل صفاته : ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ))[757] .

ـ والله سبحانه يسمع ويرى ويتكلم ويغضب ويفرح ويضحك ويرضى وينزل ويجيء ، ونزوله ليس مثل نزول الإنسان وضحكه ليس مثل ضحك الإنسان وهكذا في كل صفاته .

ـ الفرق بين اليقين النظري واليقين الحقيقي بوجود الخالق :

ـ لو قالوا لك أن هناك أحدا في السماء ليس من البشر وقوته فوق كل قوى البشر وعلمه

(755) تاج العروس من جواهر القاموس ـ دار الهداية (36 / 322)
(756) شرح العقيدة الواسطية للعثيمين (2/ 43)
(757) الشورى : 11

فوق كل العلوم البشرية هل تنبهر وتندهش وتتعجب وتذهل ؟

ـ لو أخبرت الذين يبحثون عن وجود مخلوقات فضائية أرقى من الإنسان في كوكب ما في السماء فقلت لهم إن هناك أحدا في السماء له قدرة أعظم من كل ما تتوقعونه من قدرة جميع المخلوقات وهو الذي خلق جميع المخلوقات فهل يحدث لهم انبهار وتعجب ودهشة من مدى خطورة الأمر ؟ ، فأيهما أهم أن يعرف الإنسان بوجود مخلوقات فضائية أم بوجود الخالق ؟ .

ـ إذا حدث انبهار وتعجب ودهشة من مدى خطورة الأمر وخوف المهابة فعندئذ قد عرف الإنسان الله معرفة حقيقية وعندئذ قد تحقق اليقين الحقيقي بوجود الخالق .

ـ لكي تتحقق المعرفة الحقيقية بالخالق يحتاج الإنسان أن يعتبر نفسه أنه لأول مرة يسمع كلمة (خالق) لأن التعود على سماعها جعلها كلمة مفرغة من المعنى .

ـ فعندئذ أول سؤال يتبادر للذهن هو أين هو وأريد أن أراه وأذهب إليه وأسمع كلامه وأحدثه وأسجد أمام عرشه ، فعندما يعلم أن لقاءه يكون في الآخرة فيشتاق إلى لقاءه في الآخرة .

ـ وعندما يعلم بأن الله سبحانه في السماء فهذا معناه أنه إذا رفع رأسه إلى السماء فإنه يرى الخالق لولا وجود حجاب يمنعه من الرؤية ، فيؤدي ذلك إلى أن يتعلق بصرك بالسماء وينشغل همك بالخالق الذي في السماء ، فلا يوجد في حياة الإنسان العاقل شيء أهم وأعظم من معرفة خالقه ، فهذا أعظم ما ينشغل به باله ، ويؤدي ذلك إلى خوف المهابة من الذي في السماء .

ـ وفي الحديث : ((حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه))[758] .

ـ المعرفة الحقيقية بحجم الكرسي والعرش :

ـ الله سبحانه وتعالى فوق العرش والعرش فوق الكرسي .

ـ الكرسي يسع الكون كله : ((وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ))[759] ، وفي الحديث : ((ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة))[760] .

ـ وفي الحديث عن عبد الله بن عمر قال : ((سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول : يأخذ الجبار سماواته وأرضيه بيده ، وقبض يده فجعل يقبضها ويبسطها ، ثم يقول : أنا الجبار أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ، قال ويتمايل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمينه وعن شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى

(758) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 1860 في صحيح الجامع)
(759) البقرة : 255
(760) التخريج : صحيح (السلسلة الصحيحة ج : 1 ، ص : 223 ، برقم : 109)

إني لأقول أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم))[761] ، فكان من شدة تأثر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يتمايل فيتحرك المنبر حتى كاد يسقط .

ـ المعرفة الحقيقية بصفة القدرة :

ـ لو سمعت أن رجلا خارقا يستطيع أن ينقل الجبال أو يستطيع أن يبيد الناس في لحظة أو .....الخ ، بماذا تشعر ؟ ، إنك تشعر بالهيبة والرهبة ، فإن الله يستطيع ما هو أعظم من ذلك : ((وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً))[762] ، ويستطيع أن يبيد كل البشرية في أقل من لحظة ، فلماذا لا تشعر بنفس الشعور السابق وقدرة الله معك في كل لحظة تحيط بك ؟ ، إن الشعور بمدى قدرة الله يعني الشعور بالخوف من مهابته ، والشعور بالخوف من عقابه ، والشعور بالخضوع لله تعالى والتسليم بقدرته والشعور بحب الاعجاب بمدى قدرته تعالى .

ـ ورغم أن الله في السماء ، فهو يقدر أن يفعل بك ما يشاء كأنه معك : ((وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ))[763] ، ويستطع أن يبيد الأرض ومن عليها .

ـ القدرة على خلق السماوات بما فيها من مجرات لا حصر لها هي قدرة خارقة وهائلة جدا يقف الإنسان أمامها عاجزا متحيرا : ((فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ))[764] .

ـ فإذا حدث انبهار وتعجب ودهشة من مدى خطورة الأمر وخوف المهابة فعندئذ قد عرف الإنسان قدرة الله معرفة حقيقية وعندئذ قد تحقق اليقين الحقيقي بأن الله قادر على كل شيء .

ـ الساحر يستطيع أن يصنع أي شيء ولكن في الخيال وليس في الحقيقة ، فهو يسحر أعين الناس ، أما الخالق فيستطيع أن يصنع أي شيء في الحقيقة وليس في الخيال ، فقدرة الله أعظم من السحر ، فيصنع أي شيء بدون أسباب أو يحول شيء إلى شيء آخر مختلف تماما بدون أي أسباب وبمجرد قوله كن فيكون ، فهذه قدرة هائلة لا يستطيعها أي بشر .

ـ فالساحر يستطيع أن يخرج لك ناقة من الحائط ولكن غير حقيقية ، والله أخرج ناقة صالح من الحائط وهي حقيقية حتى أنهم كانوا يشربون لبنها وذبحوها بأيديهم وأكلوها .

ـ وسحرة فرعون صنعوا ثعابين من الحبال ولكنها خيالية والله صنع ثعبان من الحبل ولكنه حقيقي .

(761) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن ابن ماجه ج : 2 ، ص : 1429 ، برقم 4275)
(762) طـه : 105
(763) الحديد: 4
(764) الملك : 3، 4

ـ فإذا كان السحر أمرا عجيبا ويورث في النفس الدهشة والانبهار والإعجاب فالقدرة الحقيقية أعجب من السحر فلماذا لا يحدث في النفس الدهشة والإعجاب بقدرة الله تعالى ، ذلك لأن اليقين بقدرة الله هي مسألة نظرية فقط .

****

ـ المعرفة الحقيقية بصفات العلم والسمع والرؤية :

ـ هل يستطيع العلم الحديث أن يرصد تحركات أحد الناس من خلال كاميرا تسير معه في ليله ونهاره طوال أيام عمره كلها ؟ ، وهل يستطيع عمل ذلك مع كل البشرية منذ خلق آدم وإلى قيام الساعة ؟ ، وهل يستطيع أن يصنع ذاكرة بحيث يستطيع أن يحدد في اللحظة المعينة منذ ستين عاما ماذا عمل فلان وأين سقطت ورقة الشجرة التي كانت في مكان ما ؟ ، الله يستطيع ما هو أعظم من ذلك ، فالله يعلم ما يفكر فيه الإنسان في هذه اللحظة وما يدور في أذهان البشرية منذ خلق آدم وإلى قيام الساعة ، والله يستطيع أن يعلم ماذا سيحدث في المستقبل ولا تسأل كيف ؟ فهي قدرة الله سبحانه .

ـ وكذلك فالإنسان لا يستطيع أن يسمع أحدا على مسافة بعيدة ، ولكن الله من فوق سبع سماوات يستطيع أن يراك بوضوح تام مهما كان مكانك على الأرض كأنه معك حتى لو كنت داخل الحجرات وفي الظلام ويسمعك بوضوح تام حتى لو تكلمت في سرك كأنه معك .

فلا تستطيع أن تهرب من علمه بك : ((وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ))[765] ، والله يستطيع أن يسمع ويرى ويعلم كل ما يحدث وكل ما يعمله ملايين الخلائق والأشياء في آن واحد ، ويعلم دَبِيب النملة السَّوْدَاء على الصَّخْرَة الصماء فِي اللَّيْلَة الظلماء ، فهذه قدرة هائلة جدا : ((وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ))[766] .

ـ والأكثر من ذلك أن الله يسجل كل ما حدث وسيحدث وبمنتهى الدقة : ((هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ))[767] .

ـ لو قالوا أن أحدا له قوة خارقة فيستطيع أن يرى ألف شخص في أكثر من بلدة في وقت واحد ، ويستطيع أن يتذكر جميع أعمالهم خلال سنة كاملة فيقول فلان فعل كذا في الساعة كذا في يوم كذا ، ويستطيع أن يعرف ما الذي سيفعله هؤلاء غدا قبل أن يفعلوه ، إن هذا سوف يشغل الهم ويكون حديث الناس .

(765) الحديد: 4
(766) الأنعام : 59
(767) الجاثية: 29

ـ فعلم الخالق أعظم من ذلك بكثير ، ورغم أنه في السماء ، فهو يراك ويسمعك بوضوح تام كأنه معك : ((وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ))[768] ، فهو السميع العليم الرقيب .

ـ علم الخالق بكل ما يحدث في الأرض والسماء ورؤيته وسمعه لكل شيء هي قدرة خارقة وهائلة يقف الإنسان أمامها عاجزا متحيرا ، فإذا لم ينتبه الإنسان لذلك ويشعر بخوف المهابة فيقينه بأن الله هو السميع العليم الرقيب كاذب .

****

ـ المعرفة الحقيقية بقدرة الله على الإنسان ومراقبته له في كل لحظة :

ـ لو أن أحدا يراقبك ليلا ونهارا ويعد عليك أنفاسك ويحاسبك على كل كلمة وكل حركة تتحركها هل يمكن أن تنساه فلا ينشغل بالك به ؟ ، لا يمكن أبدا ، الله يراك من فوق سبع سماوات مهما كان مكانك على الأرض ، ذلك أمر مرعب وخطير فالعاقل لا يكاد يفارق ذلك الأمر ذهنه أبدا ، فقدرة الله عليك وعلمه بك يسيران معك في كل مكان .

ـ تخيل أن هناك كاميرات سرية موضوعة لك في كل مكان وأنت يتم رصدك وتسجيل كل تصرفاتك وحركاتك وسكناتك بل وما تفكر فيه ، ألا تشعر بالخوف والقلق ، فإن الله يسمعك ويراك ويراقبك ، إذن لابد أن تشعر أن أحدا ما يراقبك ليلا ونهارا ويري كل ما تفعله وهذا معناه أن تظل هذه المراقبة علي بالك وفي همك دائما ، فإذا لم تشعر بأنك مراقب فهذا يعني أن شعورك بأن الله سميع وبصير غير موجود ، وإن كنت علي اقتناع نظري بأن الله سميع وبصير .

ـ والشعور بالمراقبة يقوى ويضعف حسب الشعور بقوة الرقيب ، فلو افترضنا أن الإنسان يراقبه طفل من الأطفال ، فلن يعبأ بأوامره وبكلامه ولن يوقره ويحترمه لأنه طفل قوته ضعيفة ، رغم أنه يعلم أن الطفل يسير معه ويرقب كل ما يفعله ، أما إذا افترضنا أن الإنسان يسير معه قوة مسلحة من الجيش بالدبابات من حوله والطائرات الحربية من فوقه والألغام والمتفجرات موضوعه في كل مكان يذهب فيه ، فلا يمكن أن ينشغل ذهنه عن هذه الرقابة الهائلة ، فقوة الله سبحانه أعظم من كل الجيوش في العالم مجتمعة وهي معك في كل لحظة .

ـ إن قدرة الله فوق مستوى الخيال وأشد رعبا من قدرة أي شيء مرعب يمكن أن تتصوره ، لكن قدرة الله في مشاعر البعض هي شيء عادي جدا لا خطورة منه ولا مشكلة فيه ، فمثلا الإنسان إذا علم أن المخابرات الأمريكية تهتم بأمره وترسل له قوة مسلحة تتخفى وترصده في كل مكان فإنه قد لا ينام عدة أيام أو قد لا ينام مطلقا ، فما بالك بقدرة الله عليك التي ترصدك في كل مكان وتعد عليك أنفاسك ، فالعاقل يكون في حياته قلقا متوترا خائفا منزعجا

(768) الحديد: 4

وصورة قدرة الله لا تفارق عينه ولا يستطيع أن ينساها ، فقدرة الله أشد في خطورتها من قدرة أي شيء مخيف يمكن أن تتصوره .

ـ من الناس مَنْ ليس عنده أي هم بقدرة الله رغم أنها تحيط به لدرجة أنك قد تجد المرء يستغرب ولماذا الهم بمدى قدرة الله ومراقبته ؟! ، وكأنه لا يوجد أي شيء يدعو للانزعاج ! ، فنسيان الله ليس معناه نسيان وجوده ولكن معناه نسيان قدرته وعظمته : ((نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ))[769] ، والعاقل هو الذي لا ينخدع بعدم رؤية الخالق وهدوء الدنيا كأنه لا خطر يتعرض له أو يوشك أن يلحق به .

ـ مجرد العلم بأن لنا إلها فهذه ليست معلومة سهلة لأن معناها أننا نعيش حياتنا خاضعين خائفين من مهابته وخائفين من عقابه ، ولكن لا يزال البعض يعيش في غيبوبة أو في حالة سكر لم يفق بعد إلى حجم الخطر الذي يتمثل في قدرة الله التي تحيط به ومراقبة الله الذي يعلم ما بداخلك وما تفكر فيه : ((وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ))[770] ، ((يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ))[771] .

ـ قد يسأل سائل : هل صفات الخالق تدعو للخوف والإعجاب وانشغال البال والتحير ؟ ، والجواب : وهل هناك شيء بعد الله يدعو للخوف والإعجاب وانشغال الهم والتحير ؟ .

ـ وفي أيسر التفاسير : (({ وهو معكم أينما كنتم } أي بعلمه بكم وقدرته عليكم أينما كنتم))[772] ، وفي تفسير مراح لبيد : (({ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } أي ونحن أقرب إلى الإنسان من العرق الذي يجري فيه الدم ، ويصل إلى كل جزء من أجزاء البدن بعلمنا بحاله ، وبنفوذ قدرتنا فيه يجري فيه أمرنا كما يجري الدم في عروقه))[773] ، وفي تفسير القرطبي : (({ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ } أَيْ بِالْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ وَالرُّؤْيَةِ ، قَالَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ الْقَيْسِ : مَا نَظَرتَ إلى شيء إِلَّا رَأَيْتُ اللَّهَ تَعَالَى أَقْرَبَ إِلَيَّ مِنْهُ))[774] .

ـ إن الإنسان عندما يشعر بقدرة الله المحيطة به فإن حساباته في الحياة سوف تختلف تماما ، وإنه سوف يسقط أمور الدنيا والناس من حساباته ، لأنه يشعر أن الدنيا ضئيلة .

ـ المعرفة الحقيقية بأن الله هو الملك :

ـ كل إنسان له قدر وقيمة ، فمثلا المدير في العمل له قدر أكبر من الزميل في العمل من حيث شعورك بالهيبة والتعظيم له ، ووكيل الوزارة له قدر أكبر وهيبة أكبر ، ورئيس الوزارة له هيبة أكبر ، ورئيس الدولة له قدر أكبر ، وأنت تشعر عنده بالهيبة لمكانته ، وتشعر بالخوف

(769) التوبة : من الآية 67
(770) البقرة : 235
(771) آل عمران : 30
(772) أيسر التفاسير للجزائري ـ مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (5/ 259)
(773) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت (2/ 446)
(774) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة (17/ 231)

منه لأن له قدرة على أن يؤذيك ، وتريد أن يرضى عنك لأن له قدرة على أن يعطيك فترجوا ما عنده ، فتحدث هذه المشاعر من الهيبة والخوف والرجاء خاصة إذا كنت عند ذلك الشخص وهو أمامك وينظر إليك ، أنت في هذه الدنيا عند الله تقف على أرضه وتحت سماءه في ملكه وهو أمامك ينظر إليك ، وهو يرأس كل هؤلاء الوزراء والملوك وذوي السلطات والسلطان ، وهم جميعا تحت أمره وسلطانه ، فهل تشعر بنفس هذا الشعور من الهيبة والخوف والرجاء مع هؤلاء ، أي هل تجد نفس هذه الحالة النفسية التي تشعر بها مع هؤلاء ؟ .

ـ وكذلك الأشياء لها قيمة ، فالألف جنيه له قيمة ، والمليون له قيمة أكبر ، وكذلك السيارات والشركات والمصانع والفيلات ...الخ ، كل شيء له قيمة ، وبالتالي له قدر من الحب والرجاء في الحصول عليه والخوف من ضياعه ، وكل هذه الأشياء هي جزء ضئيل من ممتلكات الله ، فالله له قدر أكبر من قيمة وقدر كل هذه الأموال والأشياء لأنه مالكها ، فما أخذته من شيء لم تأخذه إلا عندما أذن لك صاحبه ، فلا تستطيع أن تتنفس نفسا إلا إذا أذن لك الله بذلك ، فإذا كانت هذه الأشياء لها قيمة وقدر من الحب والخوف والرجاء فهل تشعر بالحب والخوف والرجاء من صاحبها ؟ .

ـ المحافظ يقوم بإدارة شئون محافظته ، ورئيس الدولة يقوم بإدارة شئون الدولة ، ولكن هل هناك من يقوم بإدارة شئون الكرة الأرضية جميعها ؟ ، الله وحده هو الذي يقوم بإدارة شئون جميع الناس على الأرض وإدارة شئون جميع الحيوانات والنباتات ، ويتكفل بتوزيع الأرزاق عليهم وإمدادهم بما يحتاجونه ، وكل الناس يعملون عند الله ، وهذا العمل يشمل كل شيء وليس فقط العمل لكسب المال ، فالإنسان يعيش حياته كلها كموظف وظيفته أنه عبد لله ، ورؤساء الدول والمحافظين ومديري الشركات والمؤسسات وكل إنسان مسئول هو في حقيقته موظف عند الله وظيفته المطلوبة منه هو أنه عبد لله ، فلا يجب أن يكون للإنسان هدف آخر غير أنه عبد لله : ((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ))[775] ، فالعمل لكسب الرزق ليس هدفه وإنما هدفه هو عبادة مطلوب منه القيام بها ، فليس يعمل حبا في المال ولجلب المال ولكن تنفيذ لأمر من أوامر الله .

ـ ولكن هناك من يعي ذلك وهناك من ينسى ذلك ويظن أنه يعمل تحت سلطة البشر الذين يديرون الشركات والهيئات والبلاد ، فوجود قيادات من البشر هو وجود مجازي فقط ، فكما أن الله هو المالك وحده فهو وحده المدبر المتصرف في الأمور الذي يدير أمور الكون كله ، وليس أحد بيده شيء والأمر كله بيد الله تعالى هو الذي يعطي ويمنع ، إذن فالعاقل يعيش وهو يعلم أنه يعيش في أرض الله تحت سلطة الله وليس لأحد سلطة فوقه غير الله سبحانه ،

(775) الذاريات : 56 - 58

لذلك عندما يحتاج الإنسان أمرا يطلبه من المدبر الحقيقي لأمر كل الشركات والبلاد ، وهذا لا يمنع من الأخذ بالأسباب .

ـ فالقيادة لها صور مختلفة فقد يكون الإنسان رئيسا أو زعيما أو ملكا من ملوك الدنيا أو مديرا لشركة مثلا أو حتى مسئولا عن أسرته وأولاده ، وفي الحقيقة فإن كل صور القيادة بين الناس هي مجازية فقط ، وجميع صور القيادة على وجه الحقيقة هي لله ، فالله وحده الذي يعطي هذا ويمنع هذا ، وهو وحده الذي يتكفل بأمر كل شيء ، وهو وحده الذي يأمر وينهى (وإنما طاعة الرسول وأولى الأمر تابعة لطاعة الله) ، وكما أن القيادة يكون لصاحبها شرف وعزة ومكانة ، فلا أحد له شرف أو عزة أو مكانة أو كبرياء ، فالعزة كلها والكبرياء كله لله ، وجميع الناس أذلاء فقراء مقهورين ضعفاء .

ـ فإذا تصورنا أن الكرة الأرضية عبارة عن دولة واحدة لها ملك واحد ، وهذا الملك له كل الصلاحيات وكل السلطات وجميع المناصب وهو الذي يدير كل شيء ويدبر كل شيء في مملكته ، فهذا التصور يليق بالبشر فقط أما الله فليس ملكا على الأرض فحسب ولكن على الكون كله وبيده الأمر كله ، وهو أيضا المالك الحقيقي لكل شيء في الأرض من مال أو مساكن أو متاجر أو شركات أو جبال !! .

ـ كل صور القيادة والسيطرة والسلطة والقوة والملكية هي مجازية فقط للتعامل فيما بيننا ، لكن على وجه الحقيقة فالله وحده هو الذي له ملكية كل شيء وهو وحده القوي وهو وحده المسيطر المتحكم في كل شيء المهيمن المتصرف في كل الأمور بما يشاء وكيف يشاء وجميع الناس ضعفاء لا يملكون شيئا ومقهورون تماما تحت سلطانه ، فالإنسان الذي له سلطة على غيره من الناس هي نعمة من الله يؤتيها له على سبيل الأمانة ثم يستردها منه وقتما يشاء وسلطته ومشيئته خاضعة لسلطان الله ومشيئته : ((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ))[776] ، وفي الحديث : ((يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السموات بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض))[777].

ـ ومن هنا تفهم أيضا أن توحيد الربوبية يعني سلب كل صفة حميدة من الإنسان وإثبات كل الصفات الحميدة والكمال فيها لله ، وما عند الإنسان من صفات حميدة إنما هو مما أعطاه الله له ، فالإنسان لا قدرة له ولا علم له ولا إرادة له ولا شيء له إلا مما أعطاه الله إياه ، وما أعطاه الله للإنسان لا يساوى قطرة من محيط مما عند الله ، كما أنه لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بأمر الله تعالى ، فلا يستطيع أحد أو شيء أن يعتمد على نفسه في حركته أو سكونه فيحتاج إلى الله ليتحرك ويحتاج إلى الله ليسكن ، والنفس الذي تتنفسه هو من عند الله والماء الذي تشربه هو من عند الله تعالى .

(776) البقرة: 258
(777) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 8125 في صحيح الجامع)

ـ فالذي يوقن يقينا حقيقيا بأن الله هو الملك لكل العالم ولكل شيء فإنه يشعر بالخضوع له والخضوع لأمره والتوكل عليه ويشعر بالخوف من مهابته والخوف من عقابه والرجاء في عطاءه والحب لما أعطاه وحب الانتساب إليه والعزة به.

ـ فمعنى أنك توقن أن لك ملكا له السيادة الكاملة عليك ، فهذا معناه أن له وحده حق الأمر والنهي ، وهذا معناه أنك تعيش خاضعا لأمره تبعا لما يريده هو ، ولست تعيش تبعا لما تريده أنت وترغبه ، وليس تبعا لما يريده أي أحد آخر ويرغبه ، وحيث أنه يرعاك ويحميك ويعطيك وأوامره فيها النفع لك في الدنيا والآخرة وهو سبحانه لا يستفيد لنفسه شيء من هذه الأوامر فهو الغني عن الناس وكل شيء فأنت تحبه وتحب أوامره ، فغياب الشعور بأن الله هو الملك المسيطر المهيمن تؤدي إلى عدم المبالاة بأوامر الدين وعدم أخذها بجدية والتفريط فيها .

****

الفصل الثامن والعشرون

المعرفة الحقيقية بصفات الملكية والإنعام للخالق

ـ المعرفة الحقيقية بأن الله هو المالك :

ـ المعرفة الحقيقية بأن الله هو المالك بالنظر إلى ملكية الله لكل شيء هي الانتباه وخوف المهابة من مدى ملكه سبحانه ، وبالنظر إلى عدم ملكية الإنسان لأي شيء هي الانتباه لذلك والشعور بالذل والفقر والاحتياج للخالق ، فإذا تحقق ذلك فقد تحقق اليقين الحقيقي بأن الله هو المالك وتحقق اليقين الحقيقي بأن الإنسان لا يملك شيئا .

ـ لو أن إنسانا وجد مالا في الطريق فأخذه واعتبر أن هذا المال ليس له صاحب واعتبره ملكا له ، فهذا ما يحدث مع الغافل ، فالله وضع في الأرض بترول ومعادن وزروع وبهائم تأكل من الزروع بقصد أنها نعم للإنسان ، والإنسان وجد هذه الأشياء وتجاهل أن هذه الأشياء لها صاحب يملكها فأخذها واعتبرها ملكا له فاغتر بنفسه .

ـ أما العاقل فانتبه إلى أن الله هو مالكها وأنها مهداة إليه من الخالق وهذا معناه أن ملكيتها لا تزال لله رغم أنه يستفيد منها .

ـ فالمالك للشيء هو الذي صنعه وقدر على إيجاده لنفسه بقدرته أما الذي وجد شيئا في الطريق فهو ليس بمالك ، والسعي على الرزق هو مجرد أنه يأخذ ما وضع له من رزق وليس معناه أنه هو الذي أوجده لنفسه من كده وتعبه .

ـ فالإنسان لم يصنع الزروع ولم يصنع البهائم ولم يصنع المعادن في باطن الأرض وانما هو وجدها واكتشفها ، وهي موضوعة بقصد أن تكون مفيدة للإنسان أي مسخرة له .

ـ إن هذا الكون الهائل لابد له من خالق ، والذي يخلق شيئا فإنه يملكه ، إذن فهو المالك لكل شيء .

ـ وملكية الإنسان للأشياء هي مسألة مجازية فقط ، فالإنسان ليس له بيت يأويه وإنما يسكن في ملك الله ويأكل من رزق الله .

ـ فكل شيء ملك لله ، وهذا معناه أن عقود التمليك التي عندنا في الدنيا مجازية للتعامل بيننا في الدنيا فقط وليست عقود حقيقية ، لأنه في الحقيقة لا أحد يملك شيئا فالله هو المالك لكل شيء وإنما هي أمانة وعارية ملك لله ويستردها الله منا وقتما يشاء ، لذلك فمَنْ اعتقد أنه يملك شيئا ملكا حقيقيا فقد أشرك : ((وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ))[778] ، ((ألا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ))[779] ، ((وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ))[780] ، ((قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأمر فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ))[781] .

ـ إن كل ما عندك وكل ما معك من مال ومسكن وزوجة وأولاد وكل النعم وكل شيء ملكا لله تعالى بل أنت نفسك ملكا لله ، لأن الذي خلق شيئا فهو يملكه ، ولكن الإنسان يظن أن ما به من يد وعين وأنف ....إلخ ملكا له .

ـ فالمال ملك لله وليس من كدك وتعبك : ((وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ))[782] ، ((وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ))[783] .

ـ كل ما يعمله الإنسان من عمارات وسيارات وغير ذلك فكل ذلك مصدره مادة الأرض أو من النبات أو من الحيوان ، وكل ذلك ملك لله تعالى ، ففي تفسير الطبري : ((عن قتادة : { والله خلقكم وما تعملون }[784] بأيديكم))[785] .

ـ والمخترعات تنشأ من تطويع مواد الأرض وقابلية تحويل المواد من مادة إلى مادة أخرى هي من خواص أودعها الله فيها فقد سخرها الله للإنسان لتقبل التحويل إلى مادة أخرى : ((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ))[786] ، ((وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))[787] .

---

(778) الفتح : من الآية 14
(779) يونس : 66
(780) النمل : 91
(781) يونس : 31
(782) الحديد : من الآية 7
(783) النور : من الآية 33
(784) الصافات : 96
(785) تفسير الطبري [جامع البيان في تأويل القرآن] ـ مؤسسة الرسالة (ج : 21 ، ص : 70)
(786) الحج : من الآية 65
(787) الجاثية : 13

ـ كما يحسب الإنسان أن التقدم العلمي والتكنولوجي هو الذي صنع الطائرات والمباني الهائلة ووسائل المواصلات ووسائل الراحة والترفيه والحياة الحديثة وينسى أن كل ذلك مجرد اكتشاف لما وضعه الله في الأشياء من خواص ومن تسخير الأشياء لخدمة الإنسان وبالتالي فكل شيء نعم من الله على الإنسان وليس للإنسان فضل في شيء .

ـ أعضاء الإنسان من أنف وعين وكلية .. الخ هي ملك لله ، لذلك أفتى بعض العلماء بعدم جواز بيعها ، ففي كتاب بحوث لبعض النوازل الفقهية المعاصرة : ((القول الثاني : لا يجوز بيع الأعضاء وهو ما أفتى به المجمع الفقهي ، الأدلة على التحريم أن أعضاء الإنسان ليست ملكاً له ، ولم يؤذن له ببيعها شرعاً فيكون بيعها داخلاً في بيع الإنسان ما لا يملك))[788] : ((قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأمر فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ))[789] .

ـ والطعام الذي تأكله ليس ملكا لك ولم تحضره من كدك وتعبك إنما هو ملك لله وهو الذي أنعم به عليك ، وكذلك الملابس التي تلبسها هي ملكا لله وليست ملكا لك وقد أنعم الله بها عليك ، لذلك ففي الحديث : ((من أكل طعاما ثم قال الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن لبس ثوبا فقال الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر))[790] ، وفي الحديث القدسي : ((يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم))[791] .

ـ الشعور بعدم الملكية هو شعور بالخضوع (انظر الفصل الخامس عشر) .

ـ الإنسان ليس صاحب النعمة ولا الذي أنعم بها علي نفسه ، فالإنسان قد يظن أنه هو الذي أوجد النعمة لنفسه من عقله وكده وتعبه كما قال قارون : ((إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي))[792] كالمال والمسكن والعمل والجاه والسلطان فيظن أنها ملكا له وأنه مستحق لها ، لذلك عند الموت لا يريد أن يترك النعم كالمال والمسكن والزوجة والأولاد والجاه والسلطان أو نعم كالعين والأنف والصحة ...الخ ، ولأنه يظن أنها ملكا له ولا يحق لأحد أن يأخذها منه وإلا كان ظالما فعند الموت تخرج روحه بصعوبة لتعلقها بهذه النعم ، ويكره مَنْ يقبض روحه لأنه لا يشعر بأنها أمانة أو عارية يستردها صاحبها (وهو الله سبحانه) ، ولا يشعر أنه هو نفسه ملك لله تعالى ، ولذلك علمنا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نقول إذا توفي أحد : ((لله ما أخذ وما أعطى وكل شيء عنده إلى أجل))[793] .

(788) بحوث لبعض النوازل الفقهية المعاصرة (ج : 13 ، ص : 2)
(789) يونس : 31
(790) تحقيق الألباني : حسن (انظر حديث رقم : 6086 في صحيح الجامع)
(791) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 4345 في صحيح الجامع)
(792) القصص : من الآية 78
(793) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن أبو داود ج : 3 ، ص : 193 ، برقم 3125)

ـ فيجب أن يشعر الإنسان بقيمة شربة الماء التي يشربها فهي محض نعمة عظيمة من الله على العبد ولكننا لا نشعر بعظمة النعم واحتياجنا إليها وأنها محض تكرم من الله وأنها ليست ملكا لنا ولا حقا لنا ، ففي الحديث : ((لما نزلت { ثم لتسألن يومئذ عن النعيم } قال الزبير وأي نعيم نسأل عنه وإنما هو الأسودان التمر والماء قال أما إنه سيكون))[794] أي سيكون من النعيم أن تسأل عن هذا التمر والماء .

ـ من أهم المشاعر الناشئة عن اليقين الحقيقي بأن الله هو المالك هو عدم الخوف من أي ابتلاء ولو فقد كل شيء دفعة واحدة لأن الإنسان إذا فقد شيئا لا يخصه ولا يملكه لم يبكي عليه ، فما عنده من أمانة يأخذها صاحبها لأنها تكون تحت تصرف صاحبها سواء بقيت معك أو أخذها منك .

ـ اليقين الحقيقي بأن الله هو المالك يؤدي إلى طاعة الله لأنه المالك ولو لم يكن هناك جنة ولا نار ، لأن مالك الشيء له الحق أن يفعل بما يملك ما يشاء .

****

ـ المعرفة الحقيقية بصفات الإنعام

ـ مفهوم النعم :

ـ أنت لا تستطيع أن تصنع البروتين أو الزروع أو البترول وما تدفعه من ثمن لهذه الأشياء كان عليك أن تدفعه لمن صنع لك هذه الأشياء ، ولكنه صنع ذلك لك مجانا فلا يمنعك من أخذ هذه الأشياء ، وما تدفعه إنما هو لمن أعد لك هذه الأشياء ونقلها لك .

ـ فالمال الذي تدفعه عندما تشتري فاكهة مثلا ليس هو ثمن الفاكهة ، فلا يستطيع أحد أن يدفع ثمن الفاكهة ، إنما هذا المال سبب وهذه الفاكهة هي مجانية لمن يريد الله إعطاءها له ، فالبائع ليس صاحبها ولا الزارع وإنما صاحبها الذي صنعها هو الله سبحانه وتعالى ، فلا يستطيع أحد أن يدفع ثمن نعمة العين أو الأنف أو الماء أو غيرها .

ـ وثمن البيضة يأخذها من صنعها وليس من أعدها أو جمعها ، ومن صنعها ليست الدجاجة فهي ليس لها عقل يستطيع صناعتها وانما صنعها الله تعالى ، وهكذا ، وإنما أنت أحضرت القمح والحبوب للدجاجة ، ونفس الشيء أنت لم تصنع الحبوب ولا تعرف كيفية صناعتها ولا ما بداخلها فأنت فقط تسقي الماء ، فالنعم مجانية ومقصودة للإنسان .

(794) قال الشيخ الألباني : حسن (سنن ابن ماجة ، ج : 2 ، ص : 1392 ، برقم 4158)

ـ كل الأشياء مسخرة ومفيدة للإنسان ، فكل شيء نعم للإنسان ، فالإرادة نعمة والعقل نعمة والروح التي يحيا بها نعمة ، والعين نعمة واللسان نعمة والماء نعمة والهواء نعمة والمال والزوجة والأولاد نعمة والبترول في باطن الأرض نعمة وكل شيء هو نعم من الله سبحانه .

ـ الذي يعيش لله يتعامل مع النعم على أنها ملك لله وأنها رزق للإنسان مقدر لا دخل للإنسان فيه ولا يزيد أو ينقص بسعيه أو عدم سعيه ، والذي يعيش لنفسه يتعامل مع النعم على أنه مالكها وهو الذي أتى بها بكده وسعيه ، أو أنها موجودة من تلقاء نفسها ، أو أن غيره من البشر هو الذي أوجدها وأعطاها له ، أو أن الزمان أو الدنيا أو الأسباب هي التي أوجدتها ، ويتعامل مع النعم على أنها تزيد وتنقص حسب سعي الإنسان ـ في نظره ـ رغم وجود اليقين الكاذب بأن النعم ملك لله وأن الله هو الذي يعطي النعم ويسلبها بما يشاء ، وأنه النافع الضار وغيره لا ينفع ولا يضر ، وأن الرزق مضمون ومقدر .

ـ فالمؤمن يفرح بالنعمة ، وكذلك الكافر والمنافق يفرح بالنعمة ، ولكن المؤمن يفرح بالنعمة على أنها هدية عظيمة أهديت له فيفرح بها فرحا عظيما ويحب من أعطاها له ، والكافر والمنافق يفرح بالنعمة على أن له قدرة على إيجاد هذه النعمة ـ فهو يرى أنه هو الذي أوجدها وهي ملكه ، فهو يفرح بالنعمة ويغتر بنفسه وبالتالي لا يخضع لله تعالى .

ـ فإحساس المؤمن عندما يأكل لقمة أو يحصل على شيء هو إحساس من أهديت له هدية عظيمة ، ورغم أنه لا يرى من أعطاها له لكنها دليل عليه ، أما الكافر والمنافق فيغتر بنفسه بما عنده من النعم .

ـ التغافل عن مفهوم النعم :

ـ كل الناس يعترفون بأن كل شيء هو نعم من الله تعالى عليهم ، ولكنهم يتعاملون مع النعم على عكس ذلك تماما كأنهم هم الذين أوجدوها لأنفسهم ولم تأتهم من الله وكأنها ملكا لهم وليست ملكا لله تعالى ، والملكية قوة ، فيحسبون أنهم أقوياء فلا يخضعون لغير أنفسهم .

ـ فليس معنى وجود النعم مع الإنسان وأنه يتمتع بها أنها ملكا له وأنه هو الذي أوجدها ، ولكن المغرور بالنعم عندما يعلم أنها ليست ملكه لا يريد أن يتركها من قلبه ليقر بمالكها الحقيقي وهو الله سبحانه فيعطل عقله حتى لا يشعر بالخضوع .

ـ وبدلا من أن تكون النعم سببا لمعرفة قدرة الله وقوته وإنعامه اغتر بها الإنسان كأنها ملكا له وكأنه أوجدها لنفسه واعتبرها قوة له ، لذلك لا يريد أن يستسلم .

ـ حب الله لإنعامه والذل للاحتياج لنعماءه :

ـ الأصل أن الإنسان محروم من كل النعم ثم أعطاه الله هذه النعم ، وإذا حرم الإنسان من كل النعم فهو ميت أو عدم لأن كل شيء هو نعم للإنسان ، فالأصل أنك أعمى ثم أبصرت ، فانظر كيف يشعر إنسان أعمى إذا أبصر ، إنه عندئذ فقط يشعر بنعمة البصر ، ويشعر بحب عميق

جدا لمن أنعم عليه بأن جعله يبصر ، وهكذا في كل النعم : ((كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ))[795] .

ـ إذا لم تكن تملك شيئا على الإطلاق من طعام أو شراب وأتاك أحد بشربة ماء فأنت حينئذ تكون ممتنا شاكرا ، وهذا الماء بالنسبة لك هو نعيم ونعمة كبيرة لأنه جاءك ولم تكن تستحقه وهو ذو قيمة كبيرة واحتياج كبير لك ، فلابد أن تشعر بأنك تعيش في نعيم مهما كان حالك من الفقر والمرض .

ـ فالنعم أمانة أو عارية يستردها صاحبها وهو الله سبحانه في أي وقت شاء ، لذلك فأنت تشكر الله لما أعطاك ولا تكرهه لما سلب منك لأنه أعطاك أمانة تمتعت بها فترة من الزمن بغير استحقاق منك ، فأنت تشكره لما استفدت به من هذه النعمة خلال هذه الفترة ، وكذلك لا يحزن العاقل إذا فقد نعمة لأنه لا يملك شيئا أصلا فهذا هو الأمر الطبيعي بالنسبة له .

ـ فيتحقق الشعور بأن الله هو المالك وأن له صفات الإنعام بأن يشعر الإنسان بعظمة نعم الله عليه ، وبمدى احتياجه إلى هذه النعم وأنه لا تقوم حياته بغيرها وأنه غير مستحق لأي منها ، وأنه لم يحصل عليها لا من كسب ولا كد ولا تعب فهذه مجرد أسباب وإنما هذه النعم هي محض تكرم وإنعام من الله العظيم إلى العبد الفقير المعدوم الذي لا يملك حتى نفسه .

ـ أنت إذا طُلِب منك أن تبيع عينك مقابل مائة ألف جنيه فهل توافق ؟ طبعا لا ، وإذا طلب منك أن تبيع سمعك مقابل مائة ألف جنيه فهل توافق ؟ طبعا لا ، وهكذا ، إذن أنت تملك مئات الآلاف من الجنيهات ، ولا يعرف قيمة النعمة إلا من فقدها .

ـ إذا سلبت النعم من الإنسان فأصبح بغير عين ولا أنف ولا مال ولا سلطان فعندئذ يشعر بالضعف والعجز والنقص والخضوع ، وإذا لم تسلب هذه النعم من الإنسان فينبغي أن يشعر بنفس هذه المشاعر (أي بالضعف والعجز والنقص والخضوع) لأنها ليست ملكا له ، فحقيقته أنه معدوم مسلوب النعم لا يملك شيئا ، وينبغي عليه أن يشعر بالانهزام والاستسلام والتذلل لمن يعطي هذه النعم له ، وينبغي أن يشعر أن الذي يعطيه هذه النعم قوي متكبر ومتعالي بما يمتلك من هذه النعم التي يعطيها لهذا الفقير المحتاج المسكين الذليل ، كما ينبغي أن يشعر بالحب لمن يمن عليه ويتكرم عليه ويتفضل عليه بهذا الإحسان بغير أن يكون مستحقا لهذا العطاء ، كما ينبغي أن يشعر أنه لا يستطيع هو بنفسه مهما سعى وعمل أن يحصل على هذه النعم ويجلبها لنفسه فيشعر بالتوكل والاعتماد على من يعطيها له .

ـ فإذا لم يشعر الإنسان بهذه المشاعر تجاه الخالق ، فهذا معناه أنه يشعر بأنه مالك لهذه النعم وأنه حصل عليها بكده وتعبه ، أو أنها موجودة من تلقاء نفسها ، أي أن الإنسان يقول عندئذ بمشاعره أن الله ليس هو الرزاق الكريم المنعم الوهاب ، وإنما هذه النعم ملكا للإنسان .

(795) البقرة : 28

ـ لو أن رجلا أعطاك مالا وبيتا ومرتبا شهريا وزوجك وتكفل برعايتك وتودد إليك فلماذا لا تحبه ؟ ، فيجب عليك أولا أن تشعر بالتجرد والاحتياج إلى النعم وأنك لم تأتي بالنعم من كدك أو تعبك وأنها ليست ملكا لك وأنك في أمس الحاجة إليها ، ثم تتصور أن أحدا يعطيك هذه اللقمة التي تأكلها عن جوع واحتياج وبدون ثمن ولا مقابل فتحبه ، وكذلك تصور أن أحدا يعطيك ما تلبس وما تملك من عنده وبلا مقابل ، إنك عندئذ تشعر بالحب له ، أما إذا كنت تتصور أن ما عندك إنما هو من كدك وتعبك وأنه ملك لك أو أن أحدا أعطاك حقا لك وواجبا عليه وهو ملك لك فلن تشعر بالحب لله .

ـ وتصور أنك تقابلت مع شخص هو الذي كان قد أنفق عليك ورعاك طوال سنوات عمرك منذ أن كنت رضيعا وأعطاك السكن الذي تسكن فيه وكل شيء فبماذا تشعر ؟ ، ولماذا لا تجد مثل هذا الشعور والله هو المالك لكل شيء المنعم عليك وأنت بين يديه ولا تغيب عنه طول وقتك .

ـ وتصور لو أنك ذهبت إلى مكان ما وقيل لك أن مصاريف الإقامة والطعام والشراب والملبس علي حساب فلان ، تصور فعلا أن إقامتك في هذه الدنيا مدفوعة الحساب (فأنت لا تملك أن تدفع حساب شربة ماء واحدة) إذا لماذا لا تحب الله ؟ ولماذا تتوكل علي غير الله كأن تعتمد علي نفسك ؟ ، ولماذا يكون كل همك في إحضار الرزق ؟ .

ـ إذا شعرت فعلا بأن النعم من الله فإنك إذا أكلت أكلة أو شربت شربة فإنك تستشعر أن هذه الأكلة أو هذه الشربة هي ملك لله ليس لك فيها حق ، ولم تستطع أن تأكل اللقمة أو تشرب الشربة إلا بعد أن أذن الله لك بذلك ، وكذلك تستشعر أن السكن الذي تسكن فيه ليس خاص بك وملكا لك وإنما هو ملك لله ومحض تكرم من الله عليك ، بل إن يدك وجسمك ليس ملكا لك وإنما هو ملك لله تعالى وكونه معك فهو محض تكرم من الله عليك .

ـ الشعور بعظمة النعم يؤدي إلى الشعور بعظمة صفات الإنعام :

ـ الإنسان لا يجد لذة إلا عن جوع خاصة لو لم ينتظر أو يتوقع طعاما ورضي بأنه يموت جوعا لأنه لا يملك طعاما وليس له حق في طعام ثم تأتيه لقمة يأكلها من عند الله فعندئذ يعرف لذة حب الله تعالى لأنه علم عمليا عظمة صفة الإنعام ، فإذا لم يشعر الإنسان بأنه لا يملك شيئا لن يشعر بلذة حب الله تعالى لصفات إنعامه .

ـ فالحكمة من أن الله أعطانا النعم كالسمع والبصر هو للاختبار هل نعرف بها الخالق فنخضع له ونكون شاكرين آم نشعر أنها ملكا لنا أصلا فنستكبر بها عن الخضوع : ((إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ، إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً))[796] .

(796) الإنسان : 3

ـ فإذا شعر الإنسان بعظمة النعم ولكن باعتبارها ملكا له وليست نعم من الله فهذا يؤدي إلى الغرور بالنفس وعبادة الهوى .

****

الفصل التاسع والعشرون

المعرفة الحقيقية بصفة الكلام وكلام الله للبشر

ـ صفة الكلام :

ـ التكلم من أوصاف الكمال ، وضده من أوصاف النقص ، وكلنا نعلم أن معبود قوم موسى الذي اتخذوه من حليهم مما عيب عليه عدم الكلام ، بل يستدل بذلك على أنه ليس بإله إذ يقول الله تعالى : ((وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ))[797] .

ـ كلامه لا يشبه كلام المخلوقين ، ويعجز المخلوقين عن الإتيان بمثل كلامه .

ـ وهو يتكلم بصوت مسموع لا يماثل صوت المخلوقين كما أن سائر صفاته لا تماثل صفات المخلوقين .

ـ والله سبحانه كلم آدم وكلم موسى وكلم محمداً صلى الله عليه وسلم في المعراج، وتكلم بالقرآن، ويتكلم يوم القيامة وينادي العباد بصوت يسمعه من قرب كما يسمعه من بعد ، ففي الحديث : يحشر الله العباد يوم القيامة ... ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الديان أنا الملك))[798] .

ـ وفي الحديث : ((ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة ولو بكلمة طيبة))[799] ، وفي كتاب الصفات الإلهية : ((أهل السنة والجماعة فيؤمنون بأن الله يتجلى لعباده في الموقف وفي الجنة من فوقهم ويخاطبهم ويسلم عليهم ويرونه بأبصارهم كما يرون الشمس ليس دونها سحاب))[800] .

ـ بماذا يشغل الإنسان همه ؟ :

ـ يجب أولا أن نعرف على أي أساس يشغل الإنسان همه ؟ :

(797) الأعراف : 148
(798) التخريج : حسن (صحيح الترغيب والترهيب ج 3 ، ص : 230 ، برقم : 3608)
(799) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5798 في صحيح الجامع)
(800) الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه (9/ 36)

ـ وظيفة الهم الطبيعية مصممة بحيث ينشغل الهم بالشيء الهام الخطير ولا ينشغل بالأمر التافه ، وينشغل أكثر بأخطر شيء ثم الأقل في الخطورة والأهمية وهكذا .

ـ إذن ما هو أخطر شيء في حياة الإنسان على الإطلاق ؟ : هما أمران على الترتيب :

1ـ نزول كلام الخالق إلى الناس :

ـ أخطر شيء على وجه البشرية هو أن بعض البشر سمعوا كلاما من خالق البشر وكلفهم الخالق بتوصيل هذه الرسالة إلى البشر جميعا ، وهؤلاء هم الرسل اختارهم الله لتوصيل كلامه إلى البشر .

ـ وعدم شغل الهم بهذا الأمر وعدم الالتفات إلى مدى خطورته يطلق عليه الغفلة عن آيات الله وعن ذكر الله ، ويقصد به الغفلة عن خطورة كونه كلام الله .

2ـ الآيات الكونية (معرفة الخالق من خلال الآيات الكونية) :

ـ ثاني أهم شيء في حياة الإنسان هو آيات الله الكونية :

ـ أهم شيء يلفت نظر انتباه الإنسان حينما يجد نفسه على هذه الأرض هو وجوده نفسه ، من أوجده ولماذا أوجده ؟ ومن أوجد هذه الأشياء من حوله ؟ ومن الذي جعل هذه الكائنات تتحرك وتحيا ؟ وما هي حقيقة الشهوات وحقيقة الإنسان وحقيقة الموت .

ـ وهذا هو معرفة الخالق من خلال الآيات الكونية .

ـ تصحيح وظيفة الهم :

ـ إذا لم يشغل الإنسان همه بهذان الأمران : نزول كلام الله تعالى (وما تضمنه من معرفة الخالق والآخرة والملائكة) ومعرفة الخالق من خلال آيات الكون ، فهذا معناه وجود خلل أو مرض في وظيفة الهم .

ـ المرض هو أن الإنسان كل همه منشغل بالمال والشهوات وأمور الدنيا ومسئولياتها ومشاكلها ، والخطأ في ذلك أنه يوجه همه في جانب واحد من الأمر دون أن يوجه همه إلى حقيقة الأمر ، فالحل أن يشغل همه بحقيقة المال وماذا بعد الحصول عليه وحقيقة الشهوات سواء في ذاتها أو في مقارنتها بشهوات الجنة أو في مقارنتها بألم العقاب عليها ، وينظر في حقيقة أمور الدنيا ومشاغلها من حيث فناء الدنيا بمشاغلها ومشاكلها ومتعها فيكون كل ذلك أمر تافه لا يستحق أن يشغل الهم .

ـ تصور معنى كلام الخالق :

ـ لكي يتصور الإنسان معنى كلام الخالق لابد أن يتصور الأمر كأنه يسمع عنه لأول مرة .

ـ الطبيعي أن الإنسان يسمع كلاما من غيره من البشر ، لكن كونه يسمع كلاما من أحد غير البشر فذلك يدعو إلى خوف المهابة .

ـ أخطر شيء على مر البشرية هو نزول كلام من الخالق إلى البشر ومن ذلك نشأت قضية الدين ، فالذي لا يشعر بخطورة هذا الأمر الهائل ويتناساه هو في حقيقته يتجاهل قضية الدين ، وهذا إعراض عن ذكر الله (تجاهل خطورة نزول كلامه) ، أما الذي يشعر بخطورة هذا الأمر فإنه يعيش حياته معيشة الهارب الذي يبحث عن مخرج للنجاة .

ـ وصول كلام إلى البشر من الخالق هو أعظم دليل على الخالق ، وذلك يوجب على الإنسان الخضوع ، لذلك يتناسى الإنسان أن للخالق كلاما .

ـ المعرفة الحقيقية بوجود كلام من الله للبشر :

ـ الطبيعي أن الخالق لن يخلق الخلق ويتركهم من غير أن يتكلم إليهم ليعرفوا ربهم ويعرفوا الهدف من خلقهم وماذا يريد الخالق منهم .

ـ تجاهل نزول كلام الخالق معناه أن الإنسان يعيش كأن الله خلق الخلق وتركهم يفعلون ما شاءوا ولم يخبرهم بمراده منهم : ((أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ))[801] ، وذلك رغم اليقين النظري التام بنزول كلام الله للناس ولكنه يقين كاذب ، فحقيقة مشاعره تقول : ((مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ))[802] .

ـ الطبيعي أن الإنسان إذا علم أن الخالق تكلم بكلام للبشر فإنه يشتاق إلى أن يعرف ما الذي قاله الخالق للبشر فيشعر بخوف المهابة من هذا الأمر ويحب كلام الله لكونه كلام الخالق نفسه سبحانه .

ـ لماذا لم يكلم الله الناس بصورة مباشرة ؟ :

ـ الناس أجيال فإذا كلم الله جيلا من الناس فلابد أن يبلغ كل جيل الجيل الذي يليه ، والذي يبلغ لابد أن يختاره الله بحيث يكون مؤتمنا على تبليغ كلامه ولابد أن يكون مؤمنا وتقيا حتى يثق فيه الناس ، لذلك كان لابد من وجود الرسل ، كما أن الرسول يعتبر نموذج عملي ليقتدي به الناس .

ـ وطالما أن الإنسان يمنع نفسه من تصور خطورة كلام الله فلن يهتدي حتى لو أنزل الله كلامه في كتاب يراه الناس هابطا من السماء وينزل لكل واحد باسمه مكتوب فيه (من رب العالمين إلى فلان ابن فلان) لقالوا إنه سحر حتى لو أمسكوا بالكتاب بأيديهم وتبينوا أنه ليس سحرا ، ففي تفسير البحر المحيط : (({ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً } [المدثر: 52]: أَيْ مَنْشُورَةٌ غَيْرُ مَطْوِيَّةٍ تُقْرَأُ كَالْكُتُبِ الَّتِي يُتَكَاتَبُ بِهَا، أَوْ كُتِبَتْ فِي السَّمَاءِ نَزَلَتْ بِهَا

(801) المؤمنون : 115
(802) الأنعام : 91

الْمَلَائِكَةُ سَاعَةَ كُتِبَتْ رَطْبَةً لَمْ تُطْوَ بَعْدُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَنْ نَتَّبِعَكَ حَتَّى يُؤْتَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِكِتَابٍ مِنَ السَّمَاءِ عُنْوَانُهُ: مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَى فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ، يُؤْمَرُ فِيهَا بِاتِّبَاعِكَ، وَنَحْوُهُ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتاباً نَقْرَؤُهُ))[803] ، وفي تفسير البحر المديد : (({ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (8) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ } يقول الحق جلّ جلاله : وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ يا محمد كِتاباً مكتوبًا فِي قِرْطاسٍ أي: رَقٍّ، فرأوه بأعينهم، ولمسوه بأيديهم، حتى لا يبقى فيه تزوير، لعاندوا، ولَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا منهم بعد ذلك : إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ تعنتًا وعنادًا ، وتخصيص اللمس لأن التزوير لا يقع فيه ، فلا يمكنهم أن يقولوا : إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا ، وتقييده بالأيدي لدفع التجوز ، فإنه قد يُتَجوز فيه فيطلق على الفحص كقوله : وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ ، ثم اقترحوا معجزة أخرى، وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ يكلمنا أنه نبي، فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أو شهيدًا له بالرسالة))[804] .

ـ فنزول كلام الخالق إلينا نقرأه في كتاب هو معجزة ، فعندما تقرأ القرآن فأنت تسمع كلاما للخالق يصل إليك من فوق سبع سماوات ، وهذا أمر رهيب لمن يتصور هذه الحقيقة الرهيبة، فلابد من الشعور بأن القرآن هو كلام الله إليك أنت شخصيا ، ولابد أن تشعر كأنك تسمعه من الله بغير واسطة وحي أو رسل وبغير أن تقرأه في مصحف لأن كل ذلك لا يغير من حقيقة الأمر شيء فهو خطاب الله إليك أنت شخصيا وكل البشر ، فمن شعر بذلك شعر بالوجل والرهبة ولم يكن شيء في حياته أخطر من ذلك ، لكن التعود على القرآن من غير تصور لخطورة أنه كلام الله والتعامل معه مثل التعامل مع الكلام البشري هو غفلة عن ذكر الله تعالى .

ـ نزول القرآن هو أصل الدين :

ـ أصل قضية الدين هو أن رجلا جاء إلى الناس وقال لهم لقد سمعت كلام الخالق وأنا مكلف بتبليغه إليكم ، وهذا الكلام هو القرآن ، ومعرفة الإنسان بالغيبيات وأوامر الدين جاءت منه ، وبدون القرآن لا يعرف الإنسان شيئا وهو معذور بجهله غير محاسب ، ومن بلغه نزول كلام من الخالق إلى البشر ولم يمنعه شيء من معرفة كلام الخالق فقد قامت عليه الحجة ، لذلك فالتغافل عن خطورة نزول القرآن هو تغافل عن الدين .

ـ تصور خطورة وصول كلام من الخالق :

ـ تصور أننا نعيش الآن ولم يصلنا شيئا من كلام الخالق ولا نعرف هل يرسل الخالق لنا كلاما أم لا ؟ ، الطبيعي أنك تتوقع أن الخالق لن يتركنا تائهين لا نعرف لماذا خلقنا وما حقيقة ما

(803) بحر المحيط في التفسير ـ دار الفكر ـ بيروت (10/ 340)
(804) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ـ الناشر : الدكتور حسن عباس زكي ـ القاهرة (2/ 99)

حولنا وماذا يريد منا ؟ ، وتصور كيف يصلنا كلام الخالق وهل يصلنا بلغة البشر حتى نفهمه ؟ ، وهل يكلمنا الله بصورة مباشرة من فوق سبع سماوات فيصل إلى سمع كل البشر ؟ أم يرسل ملك إلى الأرض ليبلغ كلام الله إلى الناس ؟ وكيف يطيق الناس رؤية الملك ذلك الكائن الهائل الخلقة جدا الذي هو أعظم بكثير من عفاريت الجن فربما يموتوا من الرعب والخوف من مهابته ، وهل يرسل الملك في غير صورته الحقيقية إلى واحد يختاره الله من الناس ليبلغه كلام الله ويكلفه تبليغ كلامه إلى الناس ؟ .

ـ فتصور أننا لا نعرف الطريقة التي يصل بها كلام الله إلينا ولم يصلنا شيئا من كلامه ثم فجأة سمعنا أن أحد الناس قال أنه نزل إليه ملك مرسل من عند الله وأبلغه بكلام الله وكلفه تبليغ كلامه ماذا يكون موقفك ورد فعلك ؟ ، إنك سوف تندهش وتنبهر من هول المفاجئة وخطورة الحدث وستشتاق إلى معرفة ماذا يقوله ربنا وماذا يريده منا وستعيش حياتك كلها بناءا على هذا الحدث ، فهذا ما كنت تنتظره وتتوقعه .

ـ تخيل حال الناس بغير أن تنزل الكتب السماوية أو يأتي الرسل إنهم سوف يتمنون أن يرسل الخالق إليهم رسالة يعرفهم بمراده ويقسموا أنهم سيكونون في قمة الخضوع والشكر لذلك .

ـ لو قال أحد رواد الفضاء أنه وصلته رسالة من كائنات فضائية علي كوكب آخر في السماء فلابد أن يحدث العجب والانبهار ، وسوف يكون ذلك حديث الناس ، إن نزول الوحي من السماء من عالم الغيب إلى البشر في عالم الشهادة أمر أعجب من ذلك لأنها رسالة من الخالق العظيم نفسه من فوق سبع سماوات إلى سكان الكرة الأرضية (تلك الهباءة المعلقة في الفضاء) ، فإذا لم يشعر الإنسان بخوف المهابة وينتبه لخطورة الأمر فهذا معناه أنه لا يوقن يقينا حقيقيا بأن لله كلاما يخاطب فيه البشر .

ـ إن القرآن هو رسالة من عالم الغيب إلى عالم الشهادة فهو بين أيدينا الآن نقرأه في عالم الشهادة ، لو كان القرآن الذي بين أيدينا الآن هو كلام لرجل في عالم الآخرة ينصحنا فيه ويعرفنا بما يكون من أمر الآخرة لكان له شأنا عظيما ، فما بالك وهو كلام الخالق وهو يخبرنا بما يكون من أمر المستقبل في الآخرة .

ـ تصور رسالة نزلت إلينا من السماء مكتوب فيها : " من الله تعالى إلى الناس ....." مثلا فكيف تشعر بكلام الله وكيف تتعامل مع كلام الله من العظمة ؟ ، فإن إنزال القرآن من عند الله ليس أمر عادي وإنما يدعو إلى الشعور بالانبهار والوجل والتعظيم .

ـ إنك إذا نظرت إلى ساحر مثلا فيأخذك العجب وتتفاعل مشاعرك بما يصنع ، فماذا لو كان سحره هذا حقيقة ؟ ، فما بالك والقرآن أعظم معجزة فهو أعظم من معجزات كل الأنبياء ، فهل تنظر إلى القرآن بين يديك علي أن نزوله معجزة وما فيه إعجاز فتتفاعل مشاعرك به ؟ .

ـ إذن فالشعور بوصول كلام من الخالق يعني الشعور بخوف المهابة والحب لأن الإنسان يحب الشيء العظيم القيمة الهام .

ـ ولكنك تجد أن القرآن نزل علي الإنسان فلم يتأثر به في حين لو نزل القرآن علي جبل لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ : ((لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ))[805] ، وما أكثر ما ورد عن الصحابة والتابعين عن تأثرهم بالقرآن لمجرد أنهم شعروا أنه كلام الخالق العظيم سبحانه إلى العبيد من البشر .

ـ إن الذي يحمل مصحفا ولا يدري مدى خطورة ما يحمل وقيمته وما يعنيه من الأهمية وبالتالي لا يعمل بما فيه هو كالحمار : ففي تفسير ابن كثير : ((يقول تعالى ذاما لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ثم لم يعملوا بها مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارا أي كمثل الحمار إذا حمل كتبا لا يدري ما فيها فهو يحملها حملا حسيا لا يدري ما عليه وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه حفظوه لفظا ولم يتفهموه ولا عملوا بمقتضاه بل أولوه وحرفوه وبدلوه فهم أسوأ حالا من الحمير لأن الحمار لا فهم له وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها ، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى : ((أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون))[806] .

ـ تخيل لو أن هناك كنز عظيم جدا يطمح إليه كل الناس لكن لا أحد يعرف مكانه بالضبط وكيفية الوصول إليه ، فإذا وجدت خريطة مكتوب فيها مكان الكنز وكيفية الوصول إليه كيف يكون فرحك وحبك لمدى أهمية وخطورة هذه الخريطة ، إن هذا الكنز حقيقي فعلا وأعظم من كل الكنوز التي يتخيلها الإنسان وهو الجنة وهذه الخريطة هي القرآن ، أو تخيل لو أن هناك كارثة متوقعة سوف تهلك الناس ولا أحد يعرف كيفية الخلاص فإذا وجدت خريطة مكتوب فيها كيفية الخلاص من هذه الكارثة فكيف يكون فرحك وحبك لهذه الخريطة ، إن هذه الكارثة حقيقية فعلا وهي النار ، وهذه الخريطة هي القرآن ، أو تخيل أننا نعيش من غير رسل فلا أحد يدرى ما سر الحياة وما سر الأشياء ولماذا خلقنا ثم عثرت على مخطوطة قديمة تكشف لنا هذه الأسرار فكيف يكون فرحك بها وحبك لها ، إن هذه المخطوطة هي القرآن ، فلابد أن تشعر بالرهبة من عظمة كلام الملك والشوق لسماع كلامه .

ـ إذا ألقى أحد الرؤساء أو الزعماء أو القادة خطبة فإنك تجد اهتمام الناس والإعلام بكلام وتصريحات الرؤساء والزعماء وتحليل أقوالهم ، وذلك لأنه طالما أن الكلام صادر عن مسئول كبير أو عن عظيم فكلامه مهم وعظيم يهتم به الناس ، وإذا أهمل الناس وتجاهلوا كلام زعيم من الزعماء فهذا يعني أن ذلك الزعيم ليس ذو أهمية في نظرهم ، إذن عظمة الكلام تأتي من عظمة قائلها ، فالقرآن هو خطاب الله إلى البشر ، ودعوة الرسل هي إخبار الناس بوصول هذا الخطاب إليهم ، فإذا كنت لا تشعر بقدر وعظمة القرآن ، فإن القرآن في

(805) الحشر : من الآية 21
(806) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 8 ، ص : 117)

مشاعرك هو كلام عادي مثل كلام أي شخص عادي ، وإن كان في الاقتناع الكاذب هو كلام الله العظيم وهو القرآن العظيم .

ـ إذا جاء إليك طفل من أولادك وتحدث إليك في موضوع ما ، فأنت تشعر أن الطفل وكلامه ليس له قيمة ، ولكن إذا جاء إليك مديرك في العمل وتحدث إليك في أمر ينبني عليه ترقيتك إن أديته أو فصلك من العمل إن فشلت فيه ، فأنت تشعر بقدر المتكلم وخطورة الكلام ، فإذا لم تشعر بقدر المتكلم وخطورة الكلام فكأنك مجنون كأنك لا تعرف أن المتكلم هو مديرك في العمل وكأنك لم تسمع كلامه ، فلا قيمة للسماع عندئذ ، فمعرفتك بأن هذا الرجل هو مديرك في العمل وبأن هذا الموضوع خطير هي معرفة كاذبة .

ـ فالله يدعو الناس إلى دار السلام ، فإذا لم يشعر الإنسان بقدر الكلام ولا بقدر المتكلم فأصبح سماع الكلام لا قيمة له في شعوره فكأنه لا يعرف الله وكأنه لم يسمع كلامه .

ـ تصور عظمة الكلام في حد ذاته :

ـ إذا تخيل الإنسان أنه لا يعرف أن القرآن هو كلام الله تعالى وتصور أنه لأول مرة يقرأ هذا الكلام فسيجد أنه كلاما مختلفا تماما عن كلام الناس وسيشعر بالانبهار من مدى عظمته لما فيه من البلاغة والإعجاز : ((قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا))[807] .

ـ عظمة كلام الله يؤدي إلى خوف المهابة والخضوع :

ـ ((اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللَّهِ))[808] ، ((إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ))[809] ،((الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ إلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ))[810] ، ((لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ))[811] .

ـ آيات تبين الغفلة عن كلام الخالق للبشر :

ـ معناه عدم الوعي بخطورة أن الخالق يكلم البشر (غياب خوف المهابة) :

(807) الجن : 1
(808) الزمر : من الآية 23
(809) الأنفال : من الآية 2
(810) الرعد : 28
(811) الحشر: 21

ـ ((وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ))[812] ، ((ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ))[813] ، ((وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا))[814] ، ((بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا))[815] ومعنى (غمرة) أي غفلة .

ـ آيات تبين اغلاق العقل عن المعرفة الحقيقية بكلام الخالق للبشر :

1ـ التعامي كما في قوله تعالى : ((أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى))[816] ، ((وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ))[817] .

2 ـ الإعراض والصدف[818] : كما في قوله : ((وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ))[819] ، ((وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ))[820] ، ((وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي))[821] ، ((بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ))[822] ، ((وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (99) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا))[823] ، ((فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا))[824] .

3 ـ التولي : كما في قوله تعالى : ((فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا))[825] ، ((وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا))[826] .

4 ـ قسوة القلب : كما في قوله : ((أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ))[827] .

5 ـ عدم التدبر : كما في قوله : ((أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا))[828] ، ((أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ))[829] .

6 ـ عدم التعقل : ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ))[830] ، ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ))[831] ، ((الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ

(812) يونس : 92
(813) الأعراف : 146
(814) الكهف : 28
(815) المؤمنون : 63
(816) الرعد : 19
(817) الزخرف : 36
(818) الصدف معناه الإعراض
(819) الجن : 17
(820) الشعراء : 5
(821) طه : 124
(822) الأنبياء : 42
(823) طه : 99 ، 100
(824) الأنعام : 157
(825) النجم : 29
(826) لقمان : 7
(827) الزمر: 22
(828) محمد : 24
(829) المؤمنون : 68
(830) الأنعام : 25
(831) محمد: 16

ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا))[832] ، وقال الكفار لشعيب : ((مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ))[833] مع أن شعيبًا خطيب الأنبياء ، ((مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا))[834] .

ـ فهم يسمعون القرآن أو يقرأونه ويفهمون معاني كلماته لكن لا يعقلونه (غياب التصور والشعور بالقيمة وعدم شغل البال بالأمر) .

ـ آيات تبين غياب المعرفة الحقيقية بكلام الخالق للبشر :

ـ ((يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ))[835] ، ((فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي))[836] ، ((كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا))[837] ، ((وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ))[838]، ((اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ))[839] .

ـ وفي تفسير ابن كثير : (({ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } أي : لما أعرضت عن آيات الله ، وعامَلْتها معاملة من لم يذكرها ، بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها ، كذلك نعاملك اليوم معاملة من ينساك { فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا } [الأعراف : 51] فإن الجزاء من جنس العمل))[840] .

****

ـ الشعور بقدر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحبه :

ـ الرسول يأخذ قدره من قدر من أرسله ، ويأخذ حبه من حب مَنْ أرسله ، فإذا جاءك من حبيب فأنت تحبه وتكرمه وتحتفي به ، وإذا جاءك من عدو فأنت تكرهه ، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءك من عند مَنْ تحب ، فهو ليس رسولا يأتيك برسالة من أي شخص في الدنيا ولو كان ملكا ، إنه يأتيك برسالة من عند ملك الملوك ، ولابد أن تعرف قدر الله سبحانه وعظمته وقدرته أولا فتشعر بعظمة الرسول ليس لذاته ولكن لكونه رسولا للعظيم سبحانه .

ـ الذي يدلك على طريق الكنز أو ينبهك من خطر يهلكك ويدلك على طريق النجاة منه فكأنما هو يعطيك هذا الكنز أو كأنما هو ينجيك من هذا الخطر لأنه إذا لم يدلك على طريق الكنز لم تحصل عليه وإذا لم ينبهك للخطر ويدلك على طريق الهرب والمفر منه وقعت في هذا الخطر ، فأنت تحب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الله لأنه يدلك على طريق الجنة والنجاة من النار ولأنه أفضل الناس إيمانا ، فأنت تحبه حتى يكون أحب إليك من نفسك ومالك ففي الحديث

(832) الكهف : 101
(833) هود : 91
(834) الجمعة : 5
(835) الأعراف : 53
(836) المؤمنون : 110
(837) طه : 126
(838) الفرقان : 18
(839) المجادلة: 19
(840) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة (5 / 324)

: ((لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إليه مِنْ مَالِهِ وَأَهْلِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ))[841]، والذي يشعر بقدر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشعر بالاشتياق للقائه قريبا على الحوض وفي الجنة إن شاء الله تعالى .

****

الفصل الثلاثون

المعرفة الحقيقية بوجود الملائكة والجن معنا

ـ فقدان عنصر الوعي (خوف المهابة من وجود الملائكة والجن) معناه أن معرفة الإنسان بالملائكة والجن هي معرفة نظرية فقط ، ومعناه أن الإنسان لا يزال لا يعرف معنى الملائكة والجن وكأنه لم يسمع عنهم .

ـ لو قيل لك أن هناك اثنين من الكائنات الفضائية العملاقة يسيران معك في كل لحظة وهما في حالة اختفاء فلا تستطيع رؤيتهما ويحملان كاميرات مراقبة خفية ويسجلان عليك كل حركة وسكنه وكل كلمة حيث تحاسب على كل شيء ، إنك عندئذ تشعر بخطورة الأمر ، فأنت تعيش وصورة هذه الكاميرات وهي ترصدك لا تكاد تفارق ذهنك في كل أعمالك ، أما لو قيل أن هناك ملكين يسجلان عليك كل شيء فقد تنظر إلى ذلك كما تنظر إلى أمر لا قيمة له أو كأنه أمر لا يخصك فلا تشعر بأي قيمة أو خطورة لهذا الأمر فهذا يدل على أن اليقين بوجود الملكين هو يقين كاذب .

ـ الملائكة والجن كائنات هائلة مرعبة لو رآها الإنسان قد يموت من الرعب ، والأشد رعبا أنها موجودة حولنا وتسير معنا ولا نراها .

ـ الملائكة لها قدرات هائلة جدا وهي تستطيع أن تدمر البشرية جميعا في لحظة لكنها ممنوعة من القيام بأي شيء إلا بإذن الله ، فإذا كانت قوة الملائكة مرعبة فما بالك بقوة الخالق ، فإذا لم يشعر الإنسان بقدرة الملائكة على الإنسان وضعف الإنسان أمامها لم يشعر بقدرة الله التي هي أعظم والتي تحيط به في كل مكان .

ـ فهناك عالم آخر هائل من الملائكة التي تعيش معنا على الأرض ، وهم يروننا ونحن لا نراهم ، والناس يعيشون هادئين تماما لأنهم معزولون عن رؤية الملائكة ، والملائكة ممنوعة من أن تتعرض للناس فتفتك بهم وتهلكهم إلا إذا أمر الله ، ولو رأى الناس الملائكة وهي حولهم وتعيش معهم لصعقوا جميعا من هول المنظر وضخامة أجسامهم وقوتهم الهائلة ، فالذي يعيش هادئا وحوله كل هذا الخطر هو لا يعقل ، أما العاقل فيشعر بخوف المهابة من

(841) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن النسائي ج : 8 ، ص : 115 ، برقم : 5014)

عظمة الملائكة ، ويشعر بخوف أشد وأعظم من مهابة الذي له القدرة والقوة على إيجاد هذه المخلوقات الهائلة .

ـ ربما تسمع أساطير عن إنسان رأى عفاريت وأشباح أو أن مكانا معينا مسكونا بالعفاريت ، هذه أمور مرعبة ، فالملائكة من حولنا الآن أشد رعبا من هذه العفاريت فضلا عن أنها حقيقة ، فأي عاقل يوقن يقينا حقيقيا بأنه يعيش وحوله كائنات أكثر رعبا من العفاريت ثم لا يشعر بالقلق والخوف من مهابتها ، وأي عاقل يوقن يقينا حقيقيا بأنه سوف يرى هذه الملائكة ويرى الأهوال يوم القيامة ثم لا يشعر بالقلق والخوف من مهابة الأمر .

ـ قوة الملائكة هائلة جدا وأعظم من قوة البشر أجمعين ، وأعظم من قوة الجن بكثير ، ولهذا لما قال عفريت من الجن لسليمان : ((أَنَا آتِيكَ بِهِ))[842] أي : بعرش بلقيس { قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } ، بعد ذلك رآه مستقراً عنده ، قال العلماء : لأن هذا الرجل دعا الله فحَمَلَتْه الملائكة، فجاءت به إلى سليمان في الشام من اليمن ، وهذا أمر لا يمكن أن يتصوره إنسان .

ـ وفي الحديث : ((إنما ذلك جبريل ما رأيته في الصورة التي خلق فيها غير هاتين المرتين رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض))[843] .

ـ اليقين الحقيقي بالملائكة يعني الشعور بمدى قوتها وبالتالي الشعور بمدى قوة الخالق التي هي أعظم ، وبالتالي الخضوع للخالق ، والإنسان يتناسى حقيقة اليقين بالملائكة حتى يهرب من الخضوع .

ـ الفرق بين اليقين الكاذب واليقين الحقيقي بوجود الملائكة والجن معنا :

ـ إذا نظر الإنسان حوله فإنه يتصور وجود ملكين ملازمان له في كل وقت ويتصور وجود الشياطين والملائكة من حوله ، وإذا نظر إلى أعلى أيضا يتصور وجود ملائكة تصعد وتهبط من السماء ووجود ملائكة تملأ السماء فما من موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك ، فلو رأى الناس الملائكة عيانا لتكدرت حياتهم ولتركوا متع النساء ولخرجوا إلى الصعدات يجأرون إلى الله ففي الحديث : ((إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا ملك واضع جبهته ساجدا لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله ، والله لوددت أني شجرة تعضد))[844] وذلك لأنه منظر مخيف جدا ومرعب أن ترى ملائكة

(842) النمل :39
(843) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 2362 في صحيح الجامع)
(844) التخريج : حسن (صحيح الترغيب والترهيب ج : 3 ، برقم : 3380)

حولك وفوقك تملأ السماء ، فلابد أن تشعر بخوف المهابة من وجود الملائكة والجن حولك .

ـ فلابد أن يشعر الإنسان بأن وجود الجن والملائكة حقيقة واقعة حوله الآن في هذه اللحظة وفي كل وقت ، ولا يمكن لإنسان عاقل أن تغيب صورة هذه الملائكة والشياطين وهي تعيش معه وتلازمه عن ذهنه أبدا .

ـ إن كل إنسان على اقتناع نظري تام بأن هناك رقيب وعتيد يسيران معه في كل لحظة لا يفارقانه ، فهل عنده شعور بأنه مراقب وأن ما قاله وفعله منذ قليل تم تسجيله ، وهل يشعر بما سيكتبوه في صحيفته الآن وبعد قليل ، فإذا لم يشعر بشيء من ذلك في حياته فهذا يعني أن الرقيب والعتيد غير موجودان في مشاعره ، فالإنسان عندما يتصور أنه مراقب في كل لحظة وأن هناك من يعدون عليه كلماته وكل حركاته يأخذه خوف المهابة ، كما أنه عندما يتصور أن اثنين يسيران معه ليسوا من البشر بل أقوى بكثير وفوق ذلك أنهما لهما القدرة على إخفاء نفسهما بحيث لا يراهما أحد ، ولهما قدرة هائلة أعظم من كل قدرات البشر ، فهذا يؤدي إلى خوف المهابة من الملكين الرقيب والعتيد بسبب مدى قدرتهما وبسبب خطورة أمر تسجيلهما لكل شيء .

ـ تصور لو أن هناك كاميرات مراقبة موضوعة لك في كل مكان في بيتك وفي الشارع تسجل كل شيء عنك ، فهذا يؤدي إلى الخوف الشديد من مهابة الأمر وخطورته ، فوجود الملكين الرقيب والعتيد أخطر من ذلك .

ـ وكيف تكون حياة الناس لو أن الله جعل الناس يرون الرقيب والعتيد وهما يسيران مع كل واحد في كل لحظة ؟! ، وهل رؤية الناس لهم تغير من حقيقة وجودهم معنا شيء ؟ ، ولكن المشاعر تكذب بوجود شيء اسمه الملائكة رغم وجود الاقتناع النظري التام بوجودها ، وماذا أيضا لو أن الله كشف الحجب فرأي الناس الله وهم في الدنيا ، وهل هذا يغير من حقيقة وجود الله معنا بقدرته وعلمه في كل لحظة ويري ما يخطر في بالنا شيء ؟ ولكن المشاعر تكذب بوجود الله رغم وجود الاقتناع النظري التام بوجوده .

ـ تصور لو أن الناس ترى الملائكة حولها وفي الطرقات لصعق الناس جميعا وماتوا من هول ما يشاهدونه ، ففي تفسير الخازن : (({ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً } يعني ولو أرسلنا إليهم ملكاً لجعلناه في صورة رجل وذلك أن البشر لا يستطيعون أن ينظروا إلى الملائكة في صورهم التي خلقوا عليها ، ولو نظر إلى الملك ناظر لصعق عند رؤيته ، ولذلك كانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة الأنس كما جاء جبريل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) في صورة دحية الكلبي وكما جاء الملكان إلى داود عليه السلام في صورة رجلين ، وكذلك أتى الملائكة إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام ، ولما رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) جبريل في صورته

التي خلق عليها صعق لذلك وغشي عليه))[845] ، وفي تفسير القرطبي : (({ ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر } قال ابن عباس : لو رأوا الملك على صورته لماتوا إذ لا يطيقون رؤيته))[846] ، وفي تفسير الثعالبي : ((لماتوا من هول رؤية الملك في صورته))[847] ، وفي تفسير روح المعاني : (({ ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر } أي أمر هلاكهم لعدم قدرتهم على تحمل مشاهدته))[848] ، أي يموت الإنسان من شدة الرعب والفزع من رؤية هذه المخلوقات المرعبة جدا الهائلة في ضخامة خلقتها .

ـ لو قيل لرجل إن الشقة التي يسكنها هي شقة مسكونة ، تسكنها الأشباح والأرواح ، بماذا يشعر ؟ ، إنه يشعر بالخوف والرعب ، وإذا كان مضطرا للبقاء في هذه الشقة فكيف يعيش حياته وهو مقتنع ومصدق بأن هذه الأشباح والأرواح تعيش معه في شقته ؟ ، إن وجود الملائكة أعظم وأعجب وأغرب من ذلك وهي تعيش معك الآن ، فإذا كنت تدعي أنك تشعر بوجود الملائكة فلماذا لا تشعر بنفس هذا الشعور لهذا الرجل ؟ ، إن البشر ليسوا هم فقط سكان هذه الأرض ، ولكن تعيش معهم كائنات هائلة لا نراها هي الملائكة .

ـ يدور في خيال بعض الناس أن هناك كائنات فضائية علي كوكب آخر وصلت لتكنولوجيا هائلة وتأتينا إلى الأرض ، ماذا لو كان هذا حقيقة ؟ ، وماذا لو تصورنا أن هناك كائنات فضائية غير مرئية نزلت على الأرض وهي تسير بيننا ومعنا ونحن لا نراها ؟ ، ألا نشعر أن هناك كائنات حقيقية أعظم وأعجب من هذا وهي حولك الآن من الملائكة والجن فلماذا لا تشعر بالخوف من مهابتها ؟ ، إنك أنت الآن يتم تسجيل ما تقرأه في هذا الكتاب ، ألا يدعو ذلك لحدوث مشاعر ، لو أن إنسان يسير ومعه اثنان ملازمان له في كل لحظة من حياته مهمتهما مراقبته وتسجيل كل شيء عنه وهما في حالة اختفاء فلا تراهما ، فهل يمكن أن ينساهما أو لا يؤثر ذلك في مشاعره شيئا ؟ ، إن معك رقيب وعتيد ليسوا من البشر ولكن من خلق آخر هائل الخلقة لا تراهما ، ألا يدعوا ذلك إلى أي شيء من الإحساس أو الشعور بالقلق ، ولو أراد الله أن تزول الموانع من رؤية الملائكة لرأي الناس كلهم الملائكة وهي تسير حولنا ومعنا في الطرقات الآن ، وعلي المرء أن يتصور ويشعر بأن هذه الموانع غير موجودة فيشعر كأنه يري الملائكة .

ـ أيهما أصعب الشعور بوجود الملائكة وهي حولك ، أم الشعور بوجود الله ؟ ، طبعا الشعور بوجود الله أصعب ، فإننا لو رأينا الملائكة لصعقنا من خوف المهابة ، ولو رأينا الله لصعقنا من خوف المهابة ، ولكن خوف المهابة من الله أعظم بكثير لأنه هو الذي خلق الملائكة ، فإذا لم تكن تشعر بوجود الملائكة وهي حولك ، فهذا يعني أنك لا تشعر بوجود الله ، كما أن

(845) تفسير الخازن ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت (2 / 120)
(846) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة (6 / 393)
(847) تفسير الثعالبي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (ج : 21 ، ص : 447)
(848) تفسير روح المعاني ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت (ج : 7 ، ص : 107)

الشعور بمراقبة الملكين لك أسهل من الشعور بمراقبة الله لك ، فإذا لم تكن تشعر بمراقبة الملكين لك ، فهذا يعني أنك لا تشعر بمراقبة الله لك .

ـ إنك مهما حاولت التغافل والهروب عن هذه الحقيقة فأنت مراقب شعرت بذلك أم لم تشعر ، فيجب عليك أن توقن بذلك يقينا حقيقيا ، فالقضية خطيرة ولكننا في غفلة .

ـ لماذا تخاف الملائكة من الله ؟ ، إنها تخاف من هيبة الله تعالى : ((وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ))[849] ، وهذا الخوف يؤدي بهم إلى عمل دائم هو أنهم يسبحون الله تعالي ، وفي الحديث : ((مررت ليلة أسري بي بالملأ الأعلى وجبريل كالحلس[850] البالي من خشية الله))[851] ، إن الملائكة عرفت عظمة الله وعظمة قدره وعظمة قدرته معرفة حقيقية أدت إلى خوف المهابة والحب لله ، وأنت أيضا إذا كنت تعرف قدرة الله معرفة حقيقية فلابد أن ينشأ عن ذلك خوف المهابة والحب لله تعالى .

****

الفصل الأخير

المعاصي تنشأ من ضعف أو غياب الإيمان القلبي

ـ المعاصي تنشأ من حالتين هما :

1ـ إذا كان الإيمان ضعيفا فذلك يؤدي إلى المعاصي .

2ـ إذا كان في القلب شرك فذلك يؤدي إلى المعاصي .

ـ ونظرا لأننا لا نستطيع أن نحدد هل هذه المعاصي ناشئة من ضعف الإيمان أم من غياب الإيمان فكل من يقول بالشهادتين نشهد له بالإيمان مهما عمل من المعاصي لأننا لا نعلم ما في القلب ، أي لا نعلم السبب الذي جعله يقوم بهذه المعاصي .

ـ وكذلك سلوك الإنسان وتصرفاته وكلامه وانشغال همه يدل على ضعف إيمانه أو وجود نوع معين من الشرك القلبي ، ونظرا لأننا لا نستطيع أن نحدد هل هذا السلوك ناشئ من ضعف الإيمان أم من وجود نوع معين من الشرك القلبي فكل من يقول بالشهادتين نشهد له بالإيمان مهما كان سلوكه وتصرفاته وكلامه لأننا لا نعلم ما في القلب ، أي لا نعلم السبب الذي جعله يقوم بهذا السلوك .

(849) الرعد : من الآية 13
(850) الحلس هو كساء رقيق يوضع على ظهر البعير تحت السرج
(851) تحقيق الألباني : حسن (انظر حديث رقم : 5864 في صحيح الجامع)

ـ فلا يمكن لإنسان أن يعرف ما في قلب إنسان آخر ، لكن سلوكه وعمله يعطي مجرد احتمال أنه قد يكون في قلبه شرك أو ضعف إيمان ، وهذا الاحتمال لا ينبني عليه حكم على أحد ولا يجوز لإنسان أن يتهم غيره بأمر قلبي لا يعلم وجوده ، ونؤكد مرة أخرى أن كل من يقول لا إله إلا الله فاشهد له بالإيمان .

ـ الهدف من معرفة أثر ما في القلب على السلوك هو أن يخاف الإنسان على نفسه من الوقوع في أي نوع من الشرك القلبي وهو لا يدري .

ـ وبتعبير آخر فإن ضعف اليقين الحقيقي يؤدي إلى المعاصي ، وغياب اليقين الحقيقي يؤدي إلى المعاصي ، ولكننا لا نعرف هل المعاصي نشأت من ضعف أم من غياب اليقين الحقيقي ، ولكن ذلك يفيد في أمر واحد هو أن يخاف الإنسان على نفسه من غياب اليقين الحقيقي .

ـ المعاصي والشهوات تدل على ضعف أو غياب المعرفة الحقيقية :

ـ الإنسان يقع في الشهوات والمعاصي عندما تغيب عنه صورة الآخرة وصورة قدرة الله وعلمه ورؤيته له وصورة حقيقة الشهوات ولا يكون في ذهنه غير صورة ظاهر الشهوات الخادعة التي توحي بمتاع هائل وهي كاذبة .

ـ إذا أخبرت إنسان أن نارا هائلة خلفه توشك أن تلحق به ، فإنه بالضرورة سوف يجرى ويهرب ، فإذا لم يجرى ويهرب فهذا يدل على أنه لم يتصور خطورة الأمر (يتغافل عن الأمر رغم علمه به) أو تصوره لخطورة الأمر ضعيف ، والذي يقول بأنه جائع وأمامه طعام شهي ولا يأكل فهو كذاب أو جوعه قليل ، فإذا كان الإنسان يوقن يقينا حقيقيا بالله والآخرة وبنفع الطاعات وضرر المعاصي فإنه سوف يسارع في الطاعات ويبتعد عن المعاصي .

ـ فمثلا لو قيل لإنسان أنه إذا وقع في شهوة من الشهوات فإنه سوف يوضع في داخل الفرن الذي ينضج فيه الخبز بأحد الأفران مثلا حتى يشوى جلده ولحمه ، فإنه لن يقع في شهوة أبدا ، وكلما عرضت له شهوة تذكر " فرن الخبز " ! ، وكذلك إذا تصور الثواب الهائل للطاعات لسارع إليها ولم يضيع هذه الكنوز الهائلة .

ـ أمثلة للسلوك الذي يعطي مؤشر احتمالي على ما في القلب :

1ـ الإعراض عن التذكير يعطي مؤشر احتمالي على وقوع الإنسان في كفر الإعراض عن المعرفة التامة وأيضا يعطي مؤشر احتمالي على وجود الشك الخفي (أنظر الفصل الثالث) :

ـ فلا يحب أن يذكره أحد بالله والآخرة والموت والآيات الكونية والحلال والحرام ولا يرد على المتحدث إذا تكلم في ذلك ، ويهرب من سماع ذلك ، ولا يتكلم في الأمر مع أي أحد ، كأن الأمر غير مطروح أصلا كأنه أمر تافه ، ولا يُذَكِّر نفسه بذلك ولا يفكر في ذلك ولا يتحدث بذلك مع الناس ويبتعد عن كل ما يذكره بالله والآخرة كالأذكار والقرآن وغير ذلك .

ـ فالقضايا التي تشغل همه وتفكيره وكلامه ونقاشاته وطموحاته كلها أمور الدنيا ومشاغلها وليس فيها الآخرة ويتجاهل أي شيء فيه تذكير بالله والآخرة كأنه لم يسمع (أنظر الفصل الثامن عشر) .

2ـ التعامل مع أمور الدين بإهمال يعطي مؤشر احتمالي على وجود كفر الإعراض عن المعرفة التامة وأيضا يعطي مؤشر احتمالي على وجود الشك الخفي :

ـ فهو يتعامل مع أمور الدين وفرائضه بإهمال كأنها لعب ولهو فلا يشعر بأهميتها وخطورتها ولا يحبها ولا يكرهها ويهرب منها لأنه يعتبرها أمور لا فائدة منها ، ولا يهمه أن يسمع كلمة (حرام) أو (النار) لأنه يتعامل معها كأنها كلمات تافهة لا تؤثر فيه كأنها لعب ولهو : ((وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا))[852] ، ((الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا))[853] .

3ـ الإنسان الذي يبدو من سلوكه حرصه الشديد على المال وكل همه وحزنه وفرحه على المال وكل عمله للمال وكل كلامه عن المال والحسد والحقد على من يملك المال فذلك يعطي مؤشر احتمالي على وقوع الإنسان في عبادة المال .

4ـ اللا مبالاة بالحلال والحرام واللا مبالاة بالتذكير بالعقاب الأخروي مع الاستمرار في المعاصي يعطي مؤشر احتمالي على أن الآخرة ليست في هم الإنسان ولا على باله ولا في حساباته ولا في مشاعره وليست هدفه .

5ـ قد يبدو من الظاهر أن الإنسان دنيوي مادي كل تفكيره في أمور الدنيا وكل عمله للدنيا ، وقد يبدو على إنسان آخر أنه رجل رباني روحاني متمسك بالسنة متعلق بالله فذلك يعطي مؤشر احتمالي على أن قلب الأول ومشاعره وهدفه للدنيا وقلب الثاني ومشاعره وهدفه الله والآخرة .

6ـ إذا كان الإنسان يقوم ببعض أعمال الدين فهذا ليس معناه أنه يعرف الله والآخرة فقد يكون عمله ناشئا لحسابات أخرى دنيوية كالتعود وحياءا من الناس وخوفا منهم وغير ذلك (انظر مفهوم النية الكاذبة بالفصل الرابع عشر) .

7 ـ إذا كان عمل الإنسان مثل عمل الغريب أو عابر السبيل المسافر المستعد للرحيل فهذا يعطي مؤشر احتمالي على أنه يعيش من أجل الآخرة (أنظر الفصل الثاني عشر) .

ـ أثر المعرفة الحقيقية على حل مشاكل المجتمع :

ـ إذا أردنا أن نحل مشاكل المجتمع فالحل هو تصحيح طريقة التفكير عندهم فينظرون إلى حقيقة المال والدنيا والشهوات وحقيقة مشاكل الدنيا بالمقارنة بمشكلة الآخرة ، وعندئذ لن

(852) الأنعام : 70
(853) الأعراف : 51

تكون هناك سرقات ومشاكل ..... الخ ، بل إن مفهوم المشكلة سوف يتغير فلن تكون مشاكل الحياة هي المشاكل التي يعاني منها الناس وإنما سوف تكون مشكلة الناس الوحيدة هي النجاة من النار ودخول الجنة ، ولن تمثل مشاكل الحياة شيء لأنها في نظرهم عابرة وهم عابري سبيل ، فالمشكلة الحقيقية ليست اقتصادية ولا اجتماعية ولا سياسية ولا غير ذلك وإنما المشكلة هي في عقول وقلوب الناس وهي أن يعيش الإنسان لله بهمومه ومشاعره وأهدافه ، أما مشاكل الدنيا فهينة وزائلة بزوال الدنيا ، وما الدنيا إلا أيام قليلة نعيشها كيفما اتفق ، فلن تزول مشاكل المجتمع إلا إذا تغيرت العقول والقلوب : ((إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ))[854] ، فحب الدنيا وتعلق المشاعر والهموم بها إذا خرج من العقول والقلوب فسوف يختفي التنافس على الدنيا وبالتالي تختفي المشاكل لأن كل المشاكل تأتي من التنافس على الدنيا ، كما يكون عند الناس عندئذ الرضا والقناعة لأنهم علموا أن أقل شيء عندهم هو نعمة عظيمة من الله عليهم فيحمدوا الله تعالى ، كما أن مفهوم السعادة سوف يتغير فلا تكون السعادة عندهم في المال والدنيا وإنما تكون السعادة عندهم في رضا الله ودخول الجنة ، أما إذا لم تكن الآخرة لها وجود حقيقي في هم الإنسان ومشاعره فإنه لن يسامح أحدا لأنه لا يشعر بأن هناك جزاءا على ما يفعل ، وسيعيش حياته يحصل أكبر ما يستطيع من المتع والمال ولو من غيره من الناس ، ويكون حريصا على عمره لأن ما في حقيقة مشاعره أنه إذا مات فلن يجد شيئا وأن الحياة هنا فقط ولا حياة أخرى فيجتهد أن يحصل كل ما يستطيع قبل أن ينتهي كل شيء فتكون السرقات وكل أنواع الظلم ويعيش الناس كالوحوش في الغابة القوى يأكل الضعيف ، والناس عندئذ هم في الحقيقة يتعبون أنفسهم بأنفسهم وهم في الحقيقة يسرقون أموال بعضهم بعضا ويرتشي بعضهم من بعض ويصنعون المتاعب لأنفسهم ويستمدون السعادة من أمور يخترعونها ويصنعون تعقيدات للحياة بدون داعي وهكذا ، ويتكون مجتمع من المنافقين يتحدثون فيما بينهم بمعسول الكلام وقلوبهم حاقدة بعضهم على بعض ، والقضية أنه لن ينصلح حال المجتمع إلا إذا انصلحت ضمائر الناس فيكون الوازع الداخلي الذي يجعلهم يتركون الشر والفساد هو من خشية الله ، فإذا لم يتحقق ذلك فمهما صنعت من القوانين فلن يجدي ، ومهما وضعت من الأجهزة الرقابية فستأخذ الرشاوى وستحتاج إلى أجهزة أخرى تراقب عليها وهي بدورها ستحتاج إلى من يراقبها وهكذا ، فلابد أن يكون الأصل أن الناس تترك الشر والفساد خوفا من الله وليس خوفا من القانون وهذا هو الذي ينفعهم في الدنيا والآخرة .

ـ والإنسان إذا كان مغرورا بالدنيا فهو لا يريد أن يفرط فيها لأنها كبيرة عنده فيريد أن يأخذ ما عند الناس ويظلمهم ويأخذ حقوقهم ويكره الخير لهم ، أما عندما يعقل الإنسان حقيقة الدنيا وضآلتها فإنه لا يبالي بها فيعطي مما عنده من الدنيا والمال للفقراء لأنهم مثله ضعفاء فقراء أمام الله وما يعطيهم من مال ليس ماله وإنما يعطيهم من مال الله .

(854) الرعد : من الآية 11

ـ فلابد أن يتغير مفهوم المشكلة ، فالسعادة ليست في حل المشاكل الدنيوية ولكن السعادة هي في الجنة ، فلو أن جميع مشاكل المجتمع الدنيوية تم حلها فلن يصل الناس إلى تحقيق السعادة لأن الدنيا ليست مؤهلة لتكون دارا للسعادة ، فالله حكم أنها دار شقاء وتعب وليست دار سعادة : ((لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ))[855] ، ولكن هناك من لا يزال يتسابق في جمع الدنيا من الأموال والأولاد والمناصب والشهوات ، فهو كمن يخبط رأسه في الحائط لأنه لن يجني شيء ، كما أنه كلما تم حل مشاكل تستجد مشاكل أخرى وكلما حقق الإنسان طموحا يستجد طموحا آخر ويموت الإنسان وعنده طول أمل ولم يحقق السعادة !! .

ـ فعدم الشعور بالغيبيات عند أفراد المجتمع أو أكثرهم يؤدي إلى توجه المجتمع تجاه الدنيا والمادة والشهوات ، وتصبح القضايا العامة التي تهم الناس هي كيف يعيشوا حياتهم الدنيوية ويتمتعوا بها من التنافس على المال والنظر إلى عورات النساء والمظاهر والتلهي بهموم الحياة والطعام والشراب .. الخ ، وتصبح المشاكل والهموم التي تشغل الناس كلها أمور دنيوية وكأن الآخرة ليست مشكلة ولا يحمل أحد لها هم ، وكأن الموت ليس بمشكلة ، وكأنه ليس أحدا مهيبا في السماء يهيمن على كل شيء ، وكأن الغيبيات لا تمثل أي مشكلة ، وعندئذ يكون رأي الإنسان ومزاجه وهواه وما يشتهيه هو المقياس الذي تقوم عليه الحياة .

****

الخاتمة

ـ إن البعض قد يظن بأنه قد ضمن الجنة لمجرد أنه مسلم في البطاقة ، ولو استطاع أن يكشف عما في قلبه لما وجد فيه غير الدنيا ، أما الله والآخرة فلا وجود لذلك في مشاعره وأهدافه وهمومه .

ـ هناك أمور قد تبدو بسيطة جدا إلى أبعد ما يمكن مثل معرفة الإنسان أن له خالقا ومعرفة وجود النار والجنة ، فهي أمور تناسب سن الأطفال ليعرفوها ، لكن العجيب جدا أن يكتشف الإنسان بعد أن يبلغ من الكبر عتيا وبعد أن امتلأ عقله من بحار العلم في أمور الدنيا والدين يكتشف أنه في حاجة إلى هذه المعرفة البسيطة وأنها لم تكن عنده سوى معرفة نظرية كاذبة وأنه يحتاج ليرجع إلى الوراء عشرات السنين ليعرف أن له ربا وأن هناك آخرة بها جنة ونار معرفة حقيقية .

ـ إن مجرد العلم بأن لنا خالقا فهذه ليست معلومة سهلة لأن معناها أننا نعيش حياتنا خاضعين للخالق ، وكذلك مجرد العلم بأن هناك آخرة فهذه ليست معلومة سهلة لأن معناها أننا نعيش حياتنا مترقبين ليوم المعاد ، ولكن لا يزال البعض يعيش في غيبوبة أو في غفلة وسكر لم

(855) البلد : 4

يفق بعد إلى حجم الخطر الذي ينتظره ولا يدري بما هو صائر إليه بعد لحظات من الخطر العظيم ، إن اليقين بالله والآخرة مع الغفلة عن الله والآخرة هو يقين نظري فقط ، واليقين بالله مع غياب الشعور بالخضوع والحب لله تعالى والخوف منه ورجاءه هو يقين نظري فقط .

ـ نحن نعيش في هروب وتجاهل للموت وهروب وتجاهل للآخرة وهروب وتجاهل وتغافل عن الله ، وهذا الهروب وهذا التجاهل والتغافل لن يغير من حقائق الأمور شيء فالخطر قائم ونحن مقبلون عليه رضينا أم أبينا والأمر خطير وعظيم : ((قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ))[856] ، إنك مهما حاولت التغافل والهروب عن الحقيقة والمصير القادم ، فإنها أيام قصيرة وغدا اللقاء رضيت أم لم ترضي شعرت بذلك أم لم تشعر وقد سبقك الكثير إلى هناك ، فالقضية حاسمة وخطيرة ولا تحتمل التراخي ولكننا في غفلة ، وغدا تنتهي الحياة فماذا أنت صانع ؟! : ((فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ))[857] .

ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

المحتويات

1) الأنواع الثلاثة من الكفر الخفي 3

ـ شرح معنى الأنواع الثلاثة من الكفر الخفي والأدلة عليهم : 4

ـ كيف يكتشف الإنسان وجود الأنواع الثلاثة من الكفر الخفي في نفسه ؟ : 5

2) الجهل نوعين 6

ـ الجهل له حالتين هما : 6

1ـ مفهوم المعرفة الحقيقية من خلال عناصرها : 7

2ـ مفهوم المعرفة الحقيقية من خلال أثرها : 8

ـ عدم تأثر المشاعر بأمر خطير دليل على عدم المعرفة به : 9

ـ المعرفة النظرية واليقين النظري لا ينشأ عنه أي أثر : 9

ـ مفهوم معرفة الله : 10

(856) صّ : 67 ، 68
(857) غافر : من الآية 44

3) اليقين الحقيقي واليقين النظري والشك الخفي 12

- مفهوم اليقين الحقيقي (اليقين التام) : 12
- مفهوم اليقين الكاذب : 12
- اليقين النظري يصح به الاعتقاد لكن لا يكفي : 13
- اليقين الذي يطالبنا به القرآن هو اليقين الحقيقي : 13
- احذر من الشك الخفي !! : 14
- الأدلة على الشك الخفي !! : 14

4) مفهوم الغفلة (فقدان الوعي - الغيبوبة - السكر) 17

- الاعتقاد عند الغافل والمجنون : 18
- معاني الغفلة في القرآن والسنة : 22
- أثر الغفلة على المعرفة واليقين : 24

5) مفهوم كفر الإعراض عن المعرفة التامة 25

- مفهوم كفر الإعراض عن المعرفة التامة : 26
- مفهوم كفر الإعراض عن المعرفة : 26
- مثال يوضح كفر الإعراض عن المعرفة التامة : 27
- الفرق بين التكذيب بالآخرة والإعراض عن الآخرة : 27

6) الأدلة على كفر الإعراض عن المعرفة التامة 28

- الإجابة على أسئلة القبر بحسب اليقين التام : 32

7) الوعي الحقيقي والوعي الكاذب 33

- هل الدنيا عظيمة أم حقيرة ؟ : 33
- الوعي بخطورة الغيبيات : 34
- الوعي الكاذب بخطورة الدنيا ! : 34
- الوعي بضآلة الدنيا : 35
- الفرق بين الوعي بضآلة الدنيا والعمل بأمور الدنيا : 35

8) عبادة الدنيا 35

ـ لماذا يرى الإنسان الدنيا عظيمة القيمة ؟ : 36
ـ المفهوم العام لعبادة الدنيا : 36
ـ الاصطلاح الشرعي لمعنى عبادة الدنيا : 37
ـ لماذا يعبد الإنسان الدنيا ؟ : 37
ـ كيف يجعل الإنسان الدنيا إلاها ؟ : 38
ـ كيف يعبد الإنسان الدنيا ؟ : 39
ـ عبادة الدنيا جهد ضائع وعمر ضائع : 39
ـ الأدلة على عبادة الدنيا (عبادة الهوى) : 40
ـ من صور عبادة الدنيا : 42

9) المفهوم الخاطئ لمعنى لا اله إلا الله 50

ـ توحيد الألوهية عبارة عن عمل (بالقلب والجوارح) وليس مسألة اقتناع : ... 52
ـ المفهوم الخاطئ لمعنى الشرك : 52

10) شرك الإرادة 53

ـ الأدلة على شرك الإرادة : 55
ـ لماذا يختار الإنسان أن يعيش للدنيا ويرفض العيش للآخرة ؟ : 56
ـ لماذا يختار الإنسان أن يعيش لله ويرفض العيش للدنيا ؟ : 58
ـ أمثلة لشرك الإرادة : 58

11) الهدف الكاذب 59

ـ ادعاء الهدف وادعاء اليقين بأنه يعيش للآخرة : 59
ـ المعرفة أولا أم الهدف ؟ : 60
ـ لماذا يتجاهل الإنسان الآخرة ؟ : 61

12) الهدف الحقيقي 62

ـ اليقين الحقيقي بأن الدنيا دار سفر : 62

13) كيف تتأثر المشاعر بالله والآخرة ؟ 74

ـ وظيفة المشاعر في الإسلام (عمل القلب) : 74
ـ لماذا لا تتأثر مشاعر الإنسان بالله والآخرة ؟ : 74

14) أثر المعرفة الحقيقية بالله والآخرة على المشاعر 81

ـ المشاعر نوعين : 82

ـ حب الله تعالى 82
ـ الحالة النفسية للحب : 83

ـ المشاعر المتعلقة بالثواب والعقاب (الخوف من العقاب والرجاء في الثواب)
83.....
ـ الحالة النفسية للخوف وللرجاء : 86

ـ ادعاء وجود المشاعر المتعلقة بالله والآخرة 87
ـ كيف تعرف هل المشاعر المتعلقة بالله والآخرة موجودة عندك أم لا ؟ : 88
ـ الفرق بين تحقيق مشاعر الإيمان والاقتناع بالعمل على تحقيقها : 90
ـ احذر من النية الكاذبة : 90
ـ النية تنشأ من سببين هما : 90

15) أثر المعرفة الحقيقية بالنفس على المشاعر 92

ـ تعلق المشاعر بالدنيا دليل على غياب المعرفة بالله والآخرة : 92
ـ تصور معنى (النافع الضار) : 93
ـ الحالة النفسية المميزة لابتعاد المشاعر عن ما سوى الله وما يتصل به (الشعور بالراحة والسعادة النفسية ـ حلاوة الإيمان) : 95

ـ صور ابتعاد المشاعر عن النفس : 96
ـ أولا : الشعور بالخضوع (ما يشعر به العبد عند سيده ـ الشعور بالضعف ـ إلغاء الإرادة) 96
ـ الحالة النفسية للخضوع والاستسلام : 98
ـ ثانيا : الرضا بالقضاء والقدر 100
ـ الفرق بين الاقتناع الكاذب والرضا بالقضاء والقدر : 101

ـ الحالة النفسية للشعور بالرضا : 103
ـ ثالثا : التوكل (الاستعانة) 103
ـ الحالة النفسية للتوكل : 103
ـ رابعا : الشعور بالحياء 105

16) الأدلة على أن عمل القلب شرط في الإيمان 106

17) التذكير لإيجاد الوعي 108

ـ الهدف من خلق أدوات المعرفة والتذكير هو معرفة الله تعالى : 111
ـ إعادة ضبط أدوات المعرفة والتذكير : 112
ـ لكي يؤدي التفكير إلى إيقاظ الوعي لابد من الآتي : 114
ـ كيف تتحقق معرفة الله والآخرة ؟ : 121

18) الإعراض عن التذكير لتغييب الوعي 122

ـ كلمة (القلب) في القرآن تشمل العقل والمشاعر !! : 123
ـ هل أنت حي أم ميت ؟ : 124
ـ تعبيرات القرآن عن إغلاق أدوات المعرفة والتذكير : 125
ـ مفهوم الإعراض عن التذكير (التجاهل ـ الهروب من المعرفة) : 126
ـ لماذا يغلق الإنسان عقله وسمعه وبصره ؟ : 126
ـ كيف يمنع الإنسان نفسه من المعرفة الحقيقية بعدما سمع واقتنع فيكون كالذي لم يسمع عن الأمر ؟ : 127

19) الأدلة على التجاهل (إغلاق أدوات المعرفة والتذكير) 127

20) الأدلة على الإعراض عن التذكير بغير الدنيا 150

21) المعرفة الحقيقية بأن الدنيا دار امتحان 154

ـ المعرفة الحقيقية بأن الدنيا دار استعداد للموت وما بعده : 156

22) المعرفة الحقيقية بالغيبيات 156

- الحياة عند لحظات وقوع الخطر : 160

(23 المعرفة الحقيقية بالآخرة 164

- اليقين الحقيقي بقدرة الله على البعث : 166
- لماذا يعرض الإنسان عن معرفة الآخرة ؟ : 167
- الغفلة التامة عن الخطر العظيم (الآخرة) !! : 171
- الفرق بين اليقين الكاذب واليقين الحقيقي بالآخرة : 176
- خوف المهابة من هول الآخرة : 177

(24 المعرفة الحقيقية بالجنة والنار 178

- اليقين الحقيقي بمتع وملذات الجنة : 181
- الفرق بين اليقين الكاذب واليقين الحقيقي بالجنة : 186
- المعرفة الحقيقية بالنار 187

(25 المعرفة الحقيقية بالآيات الكونية 190

- التصور السليم للكون والأشياء يكون في خمسة نواحي : 191
- التعامل الخاطئ مع الأشياء : 197
- " الإعراض عن آيات الله الكونية " في القرآن : 198
- التعامل الصحيح مع الآيات الكونية : 200
- أمثلة تبين المعرفة الحقيقية للآيات الكونية : 201
- الفرق بين اليقين الكاذب واليقين الحقيقي بالحقائق العلمية : 205

(26 المعرفة الحقيقية بالخالق (خوف المهابة من الخالق) 206

- الحالة النفسية للخوف والقلق والتوتر والاضطراب : 208
- الخوف الدائم والمخاوف المؤقتة : 209
- أنواع الخوف من هيبة الله تعالى : 209

(27 المعرفة الحقيقية بوجود الخالق وقدرته وعلمه وملكه 212

- أين الله ؟ : 212

ـ الفرق بين اليقين النظري واليقين الحقيقي بوجود الخالق : 212

28) المعرفة الحقيقية بصفات الملكية والإنعام للخالق 220

ـ المعرفة الحقيقية بصفات الإنعام 223

29) المعرفة الحقيقية بصفة الكلام وكلام الله للبشر 227

30) المعرفة الحقيقية بوجود الملائكة والجن معنا 236

ـ الفرق بين اليقين الكاذب واليقين الحقيقي بوجود الملائكة والجن معنا : 237

31) المعاصي تنشأ من ضعف أو غياب الإيمان القلبي 240

ـ أثر المعرفة الحقيقية على حل مشاكل المجتمع : 242

****